



العتبة العباسية لمقاييسها

قسم الشورون الفكريّة والثقافية

العملية الاستكبارية
وبناء الشخصية العبادوية
عند الأهل الباقر

وصية الإمام الباقي عليه السلام لجابر الجعفي انوذجاً

دراسة تربوية - إرشادية لوصيته لجابر بن زيد الجعفي

تأليف

الأستاذ يوسف مدن

الكتاب الفائز في مسابقة أفضل مؤلف بحق الإمام الباقي

لعام ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

شعبة الدراسات والنشر



العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

شعبة الدراسات والتثقيف
كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٢٣)

هاتف: ١٦٣-٣٢٢٠٠، داخلي: ١٧٥

www.alkafeel.net

info@alkafeel.net

مدن، يوسف، ١٩٥٤ -

العملية الارشادية وبناء الشخصية العبادية عند الامام الباقر : وصية الامام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي انموذجاً : دراسة تربوية-ارشادية لوصيته لجابر بن يزيد الجعفي / الاستاذ يوسف مدن ؛ مراجعة شعبة الدراسات والنشرات. -طبعة الاولى-. كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية ، ١٤٣٨ هـ. = 2017.

صفحة : جداول ؛ 24 س

.المصادر : صفحة 393-395

كتاب الفائز في مسابقة أفضل مؤلف بحق الإمام الباقر عليه السلام، 2016.

1. الباقر، محمد بن علي زين العابدين (عليه السلام)، الامام، ١١٤-٥٧ هجري-وصايا.
 2. الجعفي، جابر بن يزيد بن حارث، توفي ١٢٨ هجري. 3. الوعظ والإرشاد (شيعة الف. العتبة العباسية المقدسة. قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والنشرات.
- ب. العنوان .

BP193.15.A2 M3 2017

مركز الفهرسة ونظم المعلومات

الكتاب: العملية الارشادية وبناء الشخصية العبادية عند الإمام الباقر عليه السلام.

الكاتب: الاستاذ يوسف مدن.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

مراجعة: شعبة الدراسات والنشرات.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود، عمار كريم الإسلامي.

الاخرج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الأسدی، محمد قاسم النصراوي.

رقم التسجيل في دار الكتب والوثائق في بغداد: ٢٣٦٨ لعام ٢٠١٧.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ١٠٠٠ .

شعبان ١٤٣٨ هـ- أيار ٢٠١٧ م

مقدمة الناشر

دأبت العتبة العباسية المقدسة على الاهتمام الشديد بالشخصيات الإسلامية والرموز الدينية لاسيما أعمدة الدين الإسلامي من آل البيت النبوي الطاهر عليه السلام، لما في تاريخهم وشخصياتهم بشكل عام أثر كبير في توجيه المجتمع الإسلامي نحو الحق والكمال، فان سيرتهم الطاهرة تخبرك انهم رجال افروا حياتهم في اعلاء كلمة الحق وكلمة لا اله الا الله، من جانب آخر فانهم يمثلون الوجه الإنساني والحضاري للإسلام، ولا يوجد رجال لدى المسلمين أعز وانبيل وأفضل منهم، من هنا جاء الاهتمام في رفد الواقع الفكري والمعرفي بدراسات جديدة تتناول فكر وسيرة أئمة أهل البيت عليه السلام، فقامت العتبة العباسية المقدسة بعقد مؤتمرات وندوات تهتم بهذا الجانب واجراء المسابقات المعرفية ذات المردود الثقافي الوعي وقد لاقت تلك الفعاليات رواجاً ونجاحاً واضحاً، كانت من ضمن تلك الفعاليات مسابقة (أفضل مؤلف بحق الإمام الباقر عليه السلام) تخلیداً للإمام محمد بن علي عليه السلام في نفوس أحبائه وأولئاته ومعرفة بمنهجه وعلمه وفكرة؛ لتسنير الأمة به ولتتقى على محنها ومصائبها، وبفضل الجهود المبذولة من قبل الكوادر المجتهدة نجحت المسابقة السنوية بعد مرور ابحاثها بمراحل مختلفة من المتابعة والفحص فانتسبت الكتب الثلاثة الاولى منها للطباعة والنشر رفداً للمكتبة الإسلامية وحفظاً لتلك الجهود المبذولة من قبل باحثيها وكتابها، وبذلك يواصل قسم الشؤون الفكرية والثقافية نجاحاته المتتالية في المضمار المعرفي والثقافي ليرسم اصالحة مشروعه المهم في تأصيل المعرفة الدينية والهوية الایمانية لدى اتباع مدرسة أهل البيت عليه السلام.

العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمات خالدة

«ادفع عن نفسك حاضر الشر

بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم

بحالص العمل، وتحمّز في حالص العمل من

عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي

الرين بحاضر الحياة

وتُوَقِّع مجازفة الهوى بدلاله العقل،

وقِفْ عند غلبة الهوى باسترشاد

العلم، واستبق حالص الأعمال

«ليوم الجزاء»

الإمام الバقر عليه السلام

الإهداء

نُهَدِيُّ هَذَا الْمَجْهُودَ الْمَعْرِفِيَّ لِإِمَامَنَا وَسَيِّدِنَا
ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ بَاقِرِ الْعِلْمِ إِمَامَ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ،
وَصَاحِبِهِ جَابِرَ بْنَ يَزِيدَ الْجَعْفِيَّ،
وَكُلِّ مُؤْمِنٍ ارْتَبَطَ عَبَادِيًّا بِطَاعَةِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ،
وَحقِّ الولاءِ لِأَئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ
عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

مقدمة الكتاب

ليست هذه الدراسة مجرد محاولة كتابية قد أعدّها الباحث لتفسير كلمات وألفاظ وجمل ومفردات إحدى الوصايا الأخلاقية والتربوية التي نقلها جابر بن يزيد الجعفي رض عن سيده ومولاه الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وقد نقلها بعض العلماء في مصادرهم، فهذه الدراسة التي بين يديك هي محاولة علمية لا تستهدف تحليل المادة المعرفية لهذه الوصية الكريمة، وصياغة رؤية متصلة مع بعضها (في موضوعات تربوية ذات طبيعة إرشادية) سواء بطريقة تجريبية أو بدراسة موضوعية أو باستخدام منهج آخر.

فليس غرضنا من إعداد موضوعات هذا الكتاب القيام بعملية دراسة موّسعة ومستفيضة لنص الوصية المذكورة، وإنما يتحرك البحث في هذا النص على موضوع واحد، وأساسياً يمكن التركيز على مرتكزاته في المحتوى اللفظي لهذه الوصية، ودراسته، وتكونين وجهة نظر تربوية للإمام الباقر عليه السلام في مجال إنساني، كمجال الإرشاد، وهو مجال كان الإسلام وسائل الأديان قد اهتم به، وكشف عن قيمته العلمية والعملية في واقع الآدميين وحياتهم.

فكان اهتماناً التركيز على أحد موضوعاتها، أو عدد منها ودراستها، وجمعها في شبكة فكرية واحدة شكلت هذا الكتاب، وفسحت المجال لهم وتعريفة إطار متكامل يُمكّنا من وضع قواعد رؤية معرفية ومرتكزاتها حول موضوع موحد يدور حول العملية الإرشادية في خطاب الإمام الباقر عليه السلام، وقد اخذنا من إحدى وصاياته الكريمة



مادة رئيسية لدراسة أحد موضوعاتها، وصياغة خطوط أولية لنظرية تربوية - إرشادية ومعرفية في أحد مصادر الخطاب التربوي والإرشادي عند أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.

إننا نعتقد بأنَّ وصية الإمام الباقر عليه السلام لصاحبها جابر تنطوي على شبكة من الموضوعات الفكرية والإنسانية، وتستحق دراستها جمعاً وبناء وحدة معرفية، ويمكن للباحثين باختلاف تخصصاتهم بذل جهودهم العلمية لاستثمار الشمولية الفكرية الغزيرة فيتراث أهل البيت عليهم السلام لدراسة تراثهم في موضوعات كثيرة، ومن ذلك وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي.

إنَّ هذه الوصية يمكن دراستها كوحدة معرفية بالطريقة التجزئية، وبفهم معانيها جملة بعد أخرى، والسير بتفسيرها من الجملة الأولى إلى الثانية، ثم تفسير جملها وعباراتها بتتابع لفظي دون التركيز على موضوع موحد النظرة المعرفية ومناقشته في إطار بحث متشارب القواعد والأجزاء والمرتكزات، ومتكملاً الرؤى بنحو يظهر للقارئ أنه يقرأ موضوعاً بحثه الإمام الباقر عليه السلام مع صاحبه، وفي الوقت ذاته ثمة فرص متعددة للباحثين لدراسة الوصية من خلال دراسة موضوعات عديدة، كل موضوع على حدة، وفي مجالات معرفية أخرى، فيدرس اللغوي مفردات هذه الوصية وكلماتها من حيث خصائصها اللغوية ودلائلها الفنية، ويهتم باحث تاريجي بموضوع ثان يتم بالجانب التاريجي للنص، ويصرف علماء الأخلاق اهتمامهم بدراسة القيم الإنسانية في وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر وصياغة وجهة نظر في هذه المسألة، وكذلك يمكن لعالم الدين وأصحاب الخبرات الروحية دراسة الجانب الروحي في الوصية دراسة مستقلة ومنفردة ومستفيضة.

أمَّا نحن فدرسنا أحد موضوعات الوصية المباركة من زاوية نفسية وتربيوية



وأخلاقية، وهي دراسة قائمة على دراسة موضوع مبني على وحدته المعرفية يعالج قضايا الإرشاد التربوي والتفسيي وعلاقتها بعملية بناء نمط سوي وأساسي للشخصية العبادية، وقد انصبت كل جمل وعبارات ومفردات التركيبة اللغوية لهذه الوصية على الاهتمام به - كما نعتقد - وحفّزنا على ذلك تماسك النص في تكوين نظرة معرفية موحدة حول هذا الموضوع الذي نأمل أن يحظى باهتمامات الباحثين.

ومع تركيزنا على وحدة معرفية في معالجة موضوع محمد أشرنا إليه آنفًا، فإننا لا نزعم أننا قد قدمنا بهذه الدراسة تفسيرًا لنص هذه الوصية جملة بعد أخرى، فشلة مفردات لأسباب متعددة لم تدخل في عملية التفسير الموضوعي، ويحتمل في ذلك أننا لم ندرك بعد أهمية هذه الجملة أو تلك الكلمة من نص الوصية في تفسير بعض عناصر الموضوع الموحد الذي ندرسه، أو أننا أهملنا - لقصور في قدرتنا - لاسيما إذا كانت الألفاظ تتمثل في معانيها وإن كان غالب الجمل المكونة للتركيبة اللغوية قد استفادنا منها في صياغة نظرة تربوية وإرشادية تساهمن في تكوين وبناء نسق للشخصية العبادية المراد إعدادها في المحتوى اللغطي والمعرفي للوصية المباركة التي ندرسها ببحث أحد موابيعها.

ولا نستبعد أنَّ دراستنا الموضوعية لم تجد في بعض الأحيان حاجة إلى استئثار بعض الجمل والعبارات لعدم صلتها بموضوع البحث باجتهدانا الشخصي القاصر عن مقاصد الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في صياغة نصه التربوي والإرشادي بهذه الوصية الكريمة التي نعدها وثيقة إنسانية في مجال تربية الإنسان وإعداده العلمي وتهذيبه الروحي والأخلاقي.

ومن هنا فيما تزال الوصية - وكما نعتقد بجزم - هي في نظرنا فرصة علمية لدراسة محتواها المعرفي كمشروع تربوي وفكري، واتخاذه مادة معرفية للدراسة والبحث المتجدد، ولا تحتاج إلَّا لجهود مستمرة من أهل العلم والبصيرة، وإلى مزيد من القراءة



المتأنية، والتأمل الذهني في بعض مفرداتها اللغوية وجملها، وأن يتاح لهذه الوصية أن تأخذ من جهود الباحثين والعلماء مجالاتها الممكنة، والمساحات المأمولة من الاهتمام العلمي، وتجد الكتابات التربوية، وغير التربوية بتنوعها المعرفي طريقها إليها ومنها.

وما لا شك فيه أن الخيوط الأولى التي نسجنا منها جوانب أساسية من النظرية الإرشادية في الوصية الباقرية كانت مستمدّة من نصوصها، ومع ذلك لم نستطع الاستغناء تماماً عن تعزيز الأفكار الإرشادية للوصية بنصوص من الإمام الباقر عليه السلام نفسه، ومن خارج هذه الوصية، وبالرغم من أن حجم هذا التعزيز كان محدوداً، بيد أنه ساعد في النهاية على إثراء الأفكار الإرشادية المأخوذة من نصوصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وهذا - كما نعتقد - يساعد على تقوية الخيوط الأساسية للنظرية الإرشادية في وصية الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام التي ندرسها، وإن مساحة هذا الفكر الإرشادي جوانب عديدة من حياتنا الإنسانية، والأدبية مثل جوانب إشباع الحاجات، وضبط السلوك الانفعالي، والسيطرة على ردود الأفعال الناتجة عن أفعال ذات طابع غير سوي، ومضادة لأهداف النشاط العبادي الإسلامي كالمعاصي والذنوب.

وبالإضافة إلى ذلك هناك تجارب فشل ممكنته، وواقعية في الجانب الروحي من حياة الإنسان المؤمن كفشلته في التوبة، وتعرضه لبعض العثرات والانتكاسات، وظهور صراعات مرتبطة بتجربته في مواجهة النفس وأنشطته لتعديل السلوك، وظهور مشكلات سلوكية بطابع مرضي في بعض الأحيان، وقد ذكرتها الوصية بإشاراتها المتفرقة.

ونعتقد بأنَّ وصية الإمام الباقر عليه السلام - وهي تتحدث بلغتها الإرشادية - قد كشفت عن خيوط نظرية إرشادية مهمة كإشاراتها إلى مبادئ إنماطية وواقعية وعلاجية، كما استبطنت أساليب للعلاج الإرشادي، هي اليوم تقدمية، وبكل تأكيد فإن ذلك قد وفرَ



بعض الأوضاع الإيجابية التي هيأت الأفراد للسيطرة الصحيحة على السلوك ويواعثه غير المنضبطة، ومنح الشخصية المؤمنة إمكانية ضبط سلوكها الانفعالي، وفرصة الإشباع السوي المقبول لل حاجات بطرق عبادية صحيحة، بأفكار إرشادية سليمة مثل الفضائل والقيم الأخلاقية الإيجابية، والعقل وقدراته، وخبراته العلمية، وطرائق التفكير المتولدة عن عقولنا، والاستعانة بها كمصادر فاعلة في إنجاح التجارب الجهادية النفسية، ومساعدة الفرد المؤمن في مرحلتي (الوقاية وتعديل السلوك).

وما ذكرناه يمثل - كما نرى - جوانب مهمة من النظرية الإرشادية في خطاب الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، ونقصد هنا (وصيته التربوية - الإرشادية) لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي رحمه الله، وهي وصية أرست مع نصوص أخرى منسوبة للإمام الباقر عليه السلام مبنيّة هذه النظرية التربوية - الإرشادية، وكثيراً من قواعدها ومرتكزاتها الأساسية.

وعلى كل حال فالحدود الأصلية لهذه النظرية في تراث الإمام الباقر وخطابه التربوي أوسع من حدودها المرسومة في هذه الوصية، فما تزال مرتکزات وقواعد هذه النظرية مبثوثة في نصوص منسوبة للإمام الباقر عليه السلام بمصادر معتبرة عند الشيعة الإمامية، وعند غيرهم، لكننا اكتفينا بدراسة الوصية كنص لسوغات سنذكرها لاحقاً في طي هذا الكتاب، وقد وضعنا أيدينا بحمد الله سبحانه، وباجتهادنا الذاتي على مقومات مهمة وبناءة، وثمة فرص لتطويرها عبر تجارب زمنية للإنسان، والوصول بها إلى مستوى أفضل، وأعمق، وأقوى، وأكثر تأصيلاً.

وتكونت دراستنا التي بين يديك من عدة فصول نعتقد أنها متراقبة الكيان، وموحدة في موضوعاتها بنحو يجعلها مادة متباقة للدراسة والبحث، وبموضوع مؤثر في تشكيل النظرية الإرشادية التي استنبطنا مادتها من التركيبة اللفظية لنص الوصية



الباقرية، ومحتها المعرفى، وأتاحت لنا بعد قراءتها بناء نسق، وصياغة مادة معرفية أولى عن (نظرية إرشادية مؤثرة في بناء النموذج العبادى للشخصية الإيمانية)، وهو نموذج مرغوب فيه من منظور المشرع التربوي الإسلامي، و مجال تطبيقى لأفكاره التربوية والإرشادية والأخلاقية.

وأهم عناوين هذه الفصول ما يأتي:

١. الإمام أبو جعفر الباقر، شخصيته، حياته، ومكانته العلمية.
٢. مقدمات أولية في دراسة الوصية كوثيقة تربوية - إرشادية.
٣. العملية الإرشادية في محتوى نص الوصية الباقرية.
٤. السلوك الإنساني، مفهومه ومكوناته وعناصره، وخصائصه.
٥. الانفعالات النفسية، مفهومها وشروط حدوثها، وأنواعها.
٦. العوامل المؤثرة في السلوك الانفعالي.
٧. الحاجات والقيم الإرشادية في الوصية ودورها في تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي.
٨. مبادئ العملية الإرشادية وعلاقتها بتنظيم السلوك العبادي.
٩. المشكلات السلوكية والحالات المرضية في الوصية.
١٠. الأساليب الإرشادية - العلاجية في وصية الإمام الباقر

الحلقة الأولى

(الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام، شخصيته، حياته، ومكانته العلمية)

عُرِفَ أهلُ الْبَيْتِ عليهم السلام بِنَأْلِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَعِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَالْبَاحِثِينَ وَالْمُحَقِّقِينَ وَأَهْلِ الْعِلْمِ بَيْتُ الطَّهْرِ وَالْعَفَّةِ، وَالْقِيمِ الْكَرِيمَةِ، وَيُنَظَّرُ لَهُمْ كَـ«نُخبَة»ـ لِيُنَسِّبُ لَهُمْ مِثْلُ فِي التَّارِيخِ، وَهُمْ أَهْلُ بَيْتٍ تَأَلَّقُوا بِمُعَايِيرِ التَّهَايِزِ وَالْقُدْرَاتِ الْمُتَعَدِّدةِ، وَهُمْ أَهْلُ بَيْتٍ اقْتَرَنُوا فِي تَارِيَخِهِمْ، وَكَـ«عُتْرَة»ـ نَبُوَّةً وَمُطْهَرَةً بِالثَّقْلِ الْأَكْبَرِ كِتَابُ الله عَزَّ وَجَلَّ، الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الَّذِي يُعَتَّبُ الْمَصْدِرُ الْأَوَّلُ لِلتَّشْرِيعِ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْذَ عَهْدِ النَّبُوَّةِ وَالرَّسُولَةِ حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ أَرْضَهُ وَمَنْ عَلَيْهَا.

وَظَلَّ أَئِمَّةُ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْكَرِيمِ عليهم السلام يَعْدِلُونَ الثَّقْلَ الْأَوَّلَ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَارِيَخِهِمْ وَفَقَ رَوَايَةُ حَدِيثِ جَدِّهِمْ الْمُصْطَفَى نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَرَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَشَارَتِهِ الْمَبَارَكَةِ، وَهُوَ حَدِيثُ مَتْوَاتِرٍ، وَمَشْهُورٍ، وَشَائِعٍ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَصَادِرِهِمْ، وَتَرَاثِهِمُ الرَّوَايَيِّ وَالرُّوحَيِّ وَالْفَكْرِيِّ، فَالنَّبِيُّ الْعَرَبِيُّ الْمَكْرُمُ سَيِّدُنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَوْصَى جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ بِتَشْقِيلِ الْأَئِمَّةِ وَعَمْوَدِهِمُ الْأَسَاسِيَّنِ (الْقُرْآنُ وَالْعُتْرَةُ)، وَبِحَفْظِهِمَا، وَاحْتِرَامِهِمَا، وَالْعَمَلُ بِمَا وَرَدَ عَنْهُمَا مِنْ تَشْرِيعَاتٍ تَظِيمَةٍ لِحَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ.

تَنَوَّعَتِ الْمُجَاهَاتُ الْكَتَابِيَّةُ الرَّوَايَيَّةُ وَالتَّارِيَخِيَّةُ عَنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام الْأَثَنِيِّ عَشَرَ بِحَسْبِ اهْتِمَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُؤْرِخِينَ وَالرَّوَاةِ بِحَسْبِ قَدْرَاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ وَتَنَوُّعِهَا، وَبِحَسْبِ نَظَرَاتِهِمْ إِلَى هَذَا الْإِمَامُ أَوْ ذَلِكَ مِنْ زَوَاياِ رَوَايَةِ أَوْ تَارِيَخِيَّةِ أَوْ مَعْرِفَيَّةِ أَوْ أَخْلَاقَيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا، وَتَعْوِدُنَا هَذِهِ الْمُنْوَعَةُ فِي حَيَاةِ الْأَئِمَّةِ الْأَثَنِيِّ عَشَرَ وَتَوْثِيقُ تَارِيَخِهِمْ، وَإِسْهَامَهُمُ الْمُتَعَدِّدَ بِأَدَوَاتٍ وَمَنَاهِجٍ فَكَرِيَّةٍ وَرَوَايَيَّةٍ، وَبِمَصْنُوفَاتٍ مُخْتَلِفةٍ تَؤْرِخُ لِمَوَالِيِّهِمْ أَوْ وَفَيَّهُمْ أَوْ نَتَاجَاتِهِمُ الْقَ ثَقَافِيَّةٍ، وَأَدَوَارِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ وَالْسِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، فَبَعْضُ هُؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ رَحْمَهُمُ اللهُ كَتَبَ مِنْ قَرْوَنَ بَعِيدَةً عَنْ «مَوَالِيِّ الْأَئِمَّةِ» الشَّرِيفَةِ كَاحْدَى مَنَاحِي حَيَاةِهِمُ الشَّرِيفَةِ، وَوَضَعُوا عَنْاوِينَ دَرَاسَاتِهِمْ فِي تَعْزِيزِ هَذَا الْاتِّجَاهِ الْبَحْثِيِّ، لِيَتَمَّ اعْتِبَادُهُ كَأَحَدِ مَصَادِرِ مَعْرِفَةِ النَّاسِ بِهِمْ.



وكتب آخرون دراساتهم عن (وفياتهم)، واقتضت هذه الكتابات تحديد تواريخ ولادات الأئمة، واهتم آخرون من العلماء والرواة بإعداد أبحاث ودراسات عن الأئمة الثاني عشر من عترة النبي محمد بن عبد الله عليه السلام، وحضرت بعض هذه الدراسات اهتماماً بتدوين وكتابة وتوثيق جوانب مضيئة من تراجمهم الروائي والمعرفي، ونقصد التراث الروائي والمعرفي لأئمة أهل البيت عليهم السلام كمجموعة، ونجد ذلك - على سبيل المثال - في كتاب «تحف العقول عن آل الرسول» للعالم الجليل أبي محمد الحسن بن علي ابن الحسين بن شعبة الحراني عليه رضوان الله عزّ وجل، وجعل هذا الكتاب ومادته الثقافية أحد المصادر المهمة لهذا التراث القيّم.

وكان ابن شعبة الحراني كعالم جليل، وهو من أعلام القرن الرابع الهجري، قد وزّع بعض ما جمعه في كتابه «تحف العقول» من روایات، وخطب، وجمل طوال، وحكم قصار، وأدعية، ومقاطع شعر قصيرة، وموافق سلوكية، بترتيب وسلسل زمني لتاريخ الأئمة أنفسهم، وببدأ هذا العالم في حصر بعض جوانب هذا التراث الفكري، ومواده المعرفية، وترتيبه بدءاً من بعض ما تركه المصطفى النبي محمد بن عبد الله من تراث ثقافي وديني وإنساني، ومن أقواله المباركة عليه السلام، ثم قام الثقة الجليل أبو محمد الحسن ابن علي بن الحسين بن شعبة الحراني رحمة الله عزّ وجل في تسلسل متتابع بحصر وتجمیع وتدوین تراث الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد ذلك تابع ابن شعبة في كتابه المذكور حصر روایات هذا البيت وتجمیعها لسائر الأئمة العشرة باستثناء أقوال الإمام المهدي آخر سلسلة أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ويحتمل أن هذه الأقوال لم تتوافر لديه من مصادر معتبرة؛ وذلك لقرب زمانه من زمان الغيبة الكبرى للإمام المهدي، وصعوبة توافر بعض أقواله في تلك الفترة الحرجة.

ويكاد هذا النظام في حصر وعرض بعض الجوانب المضيئة من التراث الروائي

والمعرفي لأئمة آل البيت ينطبق على الكتابة الروائية والمعرفية لتراث الإمام محمد بن علي الباقر سلام الله والمؤمنين عليه، حيث رصد العالم الجليل ابن شعبة لتراث الإمام الباقر عليه السلام - كإمام خامس من أهل البيت - خمس عشرة صفحة، وجمع فيها بعض خطب أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر، ووصاياه، وإرشاداته الأخلاقية والمعرفية لأصحابه، وكذلك بعض كلامه كالمواعظ، والنصائح الفردية، وبعض مقاطع الشعر، والحكم والجمل القصار في مختلف المعاني والاتجاهات المعرفية، وتعادل في نسبتها الكمية حوالي (٤٪) من صفحات كتابه «تحف العقول»، وما جمع فيه من تراث روائي ومعرفي متنوع للنبي محمد وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم جمياً.

وما لا شك فيه أن تجربة العالم الجليل ابن شعبة عليه رحمة الله سبحانه وتعالى في عملية حصر وجمع وتدوين جوانب من تراث أهل البيت ^(١) أفادت الباحثين والعلماء في فهم ومعرفة تراث النبي محمد والأئمة من أهل البيت النبوى الكرام على مدار قرون متتالية من الزمان، وهناك دراسات متعددة في مصادر مختلفة حظي فيها الإمام الباقر بنصيبيك «مسند الإمام الباقر عليه السلام» للشيخ عزيز الله العطاردي، ودراسات روائية وتحليلية متعددة عن حياته وشخصيته وتراثه العلمي كتبها علماء ومحققون وباحثون.

وما لحظناه بالتأكيد أن دراسات العلماء والمحققين ومصنفاتهم سواء في كتب «المواليد»، أم في كتب «وفيات أهل البيت عليه السلام» أم في «كتب الحديث والرواية» أم في إطار دراسات وكتب جمعت تراثهم الروائي والمعرفي أنها جمياً أسهمت كمصادر معرفية هامة وأساسية في تكوين ثقافة الناس عن أهل البيت عليه السلام عبر قرون طويلة ومتعاقة، وخاصة تكوين رؤى العلماء والمحققين والباحثين في سيرة أئمة هذا البيت الراهن.

إنَّ هذه الكتب التي صنفها بعض العلماء عبر قرون متعاقة من الزمان عن مواليد

(١) ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ص ٢٠٦ - ٢٢٠.



الأئمة الائني عشر من أهل البيت ﷺ أو عن «وفياتهم» أو بتناول جانب من سيرتهم الذاتية هي في كتب الرجال والترجم، وفي كتب الرواية، وهي -بكل تأكيد- مصادر ذات أهمية كبيرة في الكتابات المعاصرة عن كل الأئمة بما فيهم أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ، وحال قيمتها العلمية كحال الأهمية التاريخية والمعرفية التي كانت عليه الدراسات القديمة، حيث تركت بصماتها في تكوين ثقافتنا عن تاريخنا، ومعرفتنا بأهل البيت ﷺ في اتجاهات معرفية وتاريخية متعددة، وقد أَسَّسْنَا هذه الدراسة المتواضعة كما سيرى القارئ الكريم عن أئمتنا الأطهار من دعامتها هذا التراث الروائي، وركائز خزانته التاريخية الطويلة وجدلياتها التفاعلية والتشابكة.

وبالتأكيد لم تبتعد هذه الدراسة الاجتهادية التي نكتبها عن سيدنا حفيد الرسول الأكرم، وباقر العلم، وهو الإمام الخامس الذي زهرت بنوره سماء الولاية في عالم المسلمين، واستخدمنا تراثه من روایات، ونصوص متفرقة، وجمل طوال، وحكم ومعاني قصار، وبعض ما جمعناه في هذه الدراسة من مقاطع شعر قصيرة هي في نهاية الأمر مأخوذة من مخزون هذا التراث الروائي والمعرفي الهائل والثمين، إذ لم يَسْتَغْنِ عن الرواية، والنص، وخطب الإمام الباقر ﷺ، والجمل بأشكالها الطويلة والقصيرة في عملية بناء نسيج دراستنا التي بين يديك -عزيزي القارئ- فكل فصوّلها وحلقاتها موصول بها حفظه الله لنا، والعلماء والرواة المتقدمون على زماننا من تاريخ روائي ومعرفي وأدبي.

وبالرغم من ذلك فما يزال غالب الكتابات الروائية من زمن بعيد حتى أيامنا الحاضرة هي السائدة عن حياة الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ وغيره من الأئمة، وأقل منها بكثير كما هو ملحوظ كتابات تحليلية في هذا الموضوع أو في غيره، وهي بنحو عام لم تعط الإمام الباقر، ولا غيره من آبائه أو أحفاده من الأئمة حقه الذي هو جدير به وألْيَق.

ولادته المباركة

ثمة شبه إجماع، واتفاق بين المؤرخين والرواة والعلماء، وفي دراساتهم القديمة والمعاصرة، وروایاتهم على تحديد يوم ولادته المباركة في العقد السادس من النصف الثاني للقرن الأول الهجري، وبزوغ إمامته في سماء الولاية وإن كانت آراؤهم لم تخلُ من اختلاف في تحديد تاريخ سنة وفاة أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام، وقد وجدها في سياق تراث جمع من هؤلاء المؤرخين وروایاتهم تعددًا نسبيًّا في آرائهم حول تواريخ ولادة الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وكذلك تعددت آراؤهم حول وفاته كما سيأتي بيانه.

لقد شهدت المدينة المنورة في يوم الجمعة (غرة شهر رجب الأصب) عام (٥٥٧هـ) هذه الولادة الميمونة للإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام خامس أئمَّة الإمامية، والولاية الهاشمية على المسلمين، إذ انعقد اتفاق جمع من المؤرخين وعلماء الرواية على هذا اليوم كتاريخ لولده الشريف عليه السلام من أبوين علويين وفاطميين، وهاشميين كما يقول الشيخ علي بن محمد بن أحمد بن الصباغ المالكي^(١) مصنف كتاب «الفصول المهمة».

فالإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام كان أول مولود هاشمي، وقد اجتمع فيه نسل الحسين (الإمامين الحسن والحسين) ابني أمير المؤمنين عليه السلام أو أنه «أول علوي توَّلد من نسل الحسين عليه السلام»^(٢)، ومنهما انحدر نسل الأئمة الثانية من الإمام الخامس

(١) ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، ص ٢٠٠.

(٢) البحرياني، حسين بن محمد بن أحمد بن إبراهيم آل عصفور، مجموعة وفيات الأئمة، وفاة الإمام



الباقر حتى الإمام الثاني عشر المتظر، وهو محمد بن الحسن العسكري عليه السلام، وكانت ولادتهم المباركة واقعة ما بين منتصف القرن الهجري الأول والنصف الثاني من القرن الهجري الثالث وبالتحديد الزمني ما بين أعوام (٥٧ - ٢٥٥) من التاريخ الهجري.

وقد أكدت بعض الدراسات التاريخية والرواية سواء كانت قديمة أم معاصرة اتفاقها على أنَّ أبي جعفر الإمام محمد بن علي عليه السلام ولد في السنة المذكورة من أبوين هاشميين، وانحدر سلالياً من أم عبد الله وهي العلوية السيدة فاطمة بنت الإمام الحسن ابن علي بن أبي طالب، ومن أب هاشمي وهو الإمام السجاد زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

وتعرفنا على أكثر من رأي في هذا الصدد، وستتوقف الآن عند نماذج متفرقة تحدد تاريخ الولادة المباركة للإمام أبي جعفر. محمد بن علي عليه السلام، وأهمُّها سيأتي بيانه روایتان موثقتان في مصادر مختلفة، وهي كما يأتي.

الرواية الأولى: اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ).

لم يقل اليعقوبي في تاريخه بتاريخ محدد لولادة الإمام الباقر مباشرة، ولكنه ذكر وفاة أبي جعفر محمد بن علي بقوله: «وتوفي أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأمهُّ أم عبد الله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١١٧ هـ»، ثم قال كذلك: «وسمَّ ثمان وخمسون سنة»، وأردف اليعقوبي بروايته عن الإمام الباقر قائلاً: «قال أبو جعفر، ويقصد الإمام الباقر عليه السلام: قُتِلَ جدي الحسين مليأً أربع سنين، وإنني لأذكر مقتله، وما نالنا في ذلك الوقت ^(١)».

الباقر، ص ١٨٣.

(١) اليعقوبي، أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٤.

وإذا ما أسقطنا بصورة تقريبية «السنوات الأربع» من تاريخ استشهاد الإمام السبط الحسين بن علي (عليه السلام) في فاجعة كربلاء الاستشهادية سنة (٦١ هـ) يكون تاريخ مولده سنة (٥٧ هـ)، فالإمام الباقر - بحسب رواية اليعقوبي - كان موجوداً ضمن أبناء الحسين والبيت الهاشمي في كربلاء، وله من العمر كما نقل اليعقوبي سنوات أربع، وهي فترة تقديرية لا تعادل أيام هذه السنوات الأربع بدقة تامة وفقاً للرواية المذكورة، وأنه (عليه السلام) شهد هذه الواقعة الدامية بنص شهادة الإمام الباقر - كما نقل اليعقوبي - في تاريخه حينما قال ما لفظه: «قتل جدي الحسين ولِي أربع سنين، وإني لأذكر مقتله، وما نالنا في ذلك الوقت» من محن الجيش الأموي وماسيه، ومظالم جنوده القساة التي امتلأت بها صفحات مصادر تاريخية كثيرة.

الرواية الثانية: رواية الطبرى في دلائل الإمامة.

وهو من أعلام القرن الرابع الهجري

حيث قال الطبرى في «دلائل الإمامة» نقاًلاً عن قول لأبى محمد الحسن بن علي الثانى ما لفظه: «ولد أبو جعفر محمد الباقر بالمدينة يوم الجمعة غرة رجب سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل الحسين (عليه السلام) بثلاث سنين فأقام مع جده الحسين ثلاث سنين، ومع أبيه أربعاً وثلاثين سنة، وعشرة أشهر، وعاش بعد أبيه أيام إمامته بقية ملك الوليد، وملك سليمان بن عبد الملك وملك عمر بن عبد العزيز، وملك يزيد بن عبد الملك، وملك هشام بن عبد الملك، وملك الوليد بن يزيد، وملك إبراهيم بن الوليد»^(١)، وأمه «فاطمة بنت الحسن، ويروى بنت علي، ويروى بنت الحسن بن الحسن، وقيل أم عبد الله، وهي أول علوية ولدت علوياً»^(٢).

(١) الطبرى، محمد بن جرير بن رستم، دلائل الإمامة ص ٩٤.

(٢) الطبرى، مصدر سابق، ص ٩٥.

الرواية الثالثة: قول أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٢ هـ).

العلامة المحقق أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي^(١)، عالم فاضل، ومحدث، وهو من أعلام القرن السابع الهجري، حيث قال في ذكر ولادة الإمام الخامس أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر^{عليه السلام} بما لفظه: «فَأَمَّا وَلَادَتِهِ فِي الْمَدِينَةِ فِي ثَالِثِ صَفَرِ سَنَةِ سِبْعَ وَخُمْسِينَ لِلْهِجَرَةِ قَبْلَ قَتْلِ جَدِّهِ الْحَسِينِ بِثَلَاثِ سَنِينَ»^(٢)، ثم قال: «وَقَيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ»^(٣) دون تفصيل، فهذا العالم خرج عن قول كثير من المؤرخين القائلين بتاريخ الولادة في غرة رجب عام ٥٧ هـ، وحدد تاريخاً آخر هو يوم (الثالث من شهر صفر) من السنة ذاتها، لكنه قال: «وَقَيلَ غَيْرُ ذَلِكَ» في إشارة إلى تعدد الأقوال في تحديد سنة الولادة الميمونة لأبي جعفر محمد بن علي زين العابدين^{عليه السلام}، وبعد ذلك وزع الشيخ الأربلي في عبارات أخرى متفرقة عمر الإمام الباقر وسنوات حياته على النحو التالي:

١. ثلاط سنوات من عمره الشريف عاشها^{عليه السلام} في أيام جده الإمام الحسين شهيد كربلاء لقوله: «فَأَمَّا وَلَادَتِهِ فِي الْمَدِينَةِ فِي ثَالِثِ صَفَرِ سَنَةِ سِبْعَ وَخُمْسِينَ لِلْهِجَرَةِ قَبْلَ قَتْلِ جَدِّهِ الْحَسِينِ بِثَلَاثِ سَنِينَ».

٢. ولم يحدد بدقة مقدار السنوات التي عاشها مع أبيه زين العابدين، واستخدم لفظ «بعض» للإشارة إلى سنوات تتراوح بين سبع وعشرين، وعبر عن هذا التحديد في عبارته التالية عن عمر الإمام أبي جعفر الباقر: «أقام مع أبيه زين العابدين^{عليه السلام} بضعًا^(٤) وثلاثين سنة من عمره، وقبره بالمدينة.. بالبقاء، بالقبر الذي فيه أبوه، وعم

(١) أربيل، أو (أربيل) مدينة قديمة في شمال العراق.

(٢) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٣) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، مصدر سابق، ص ٣٢٩.

(٤) لا تختلف لفظة (بعض) عن سائر الألفاظ العربية، حيث تتعدد معانيها في معاجم اللغة، ولكن أحد معانيها (بكسر حرف الباء) يدخل في حكم العدد المفرد، مثل قولنا بضعة رجال، بضم سين،



أبيه الحسن بالقبة التي فيها العباس رضي الله عنه^(١)، وهذه القبة التّارِيخية التي ذكرها الأربلي في نصه، وهو يعيش سنوات القرن السابع المجري ليست موجودة الآن بعد هدم قبور أئمة البقيع عليهم السلام^(٢) الأربعة بعد أن كانت مبنية لعدة قرون.

٣. وسكت الأربلي عليه رحمة الله عن عدد سنوات إمامته في عبارته السابقة بعد ممات أبيه زين العابدين عليه السلام، ولكنها فترة تراوحت بوجه عام بين تسعة عشرة^(٣) أو عشرين سنة بعد وفاة أبيه زين العابدين عليه السلام.

ثم نقل أبو الحسن الشيخ علي بن عيسى الأربلي بعد ذلك عبارته التي تقول: «وأمّا نسبه أباً وأمّا فأبواه زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأمه فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب وتدعى أم الحسن، وقيل أم عبد الله، وأمّا اسمه فمحمد، وكنيته أبو جعفر لا غير، وله ثلاثة ألقاب (باقر العلم، الشاكر والهادي)، وأشهرها الباقر، وسمى بذلك لتبرّه العلم، وهو توسيعه فيه»^(٤).

وتراوح ما بين الثلاث والتسع في العدد، فإذا تجاوز العدد العشرة ذهب البعض، انظر معجم (مختر الصالحة)، وغيره، والأغلب أن هذا البعض هو (أربع وثلاثون سنة أو خمس وثلاثون) عاش مع إمامه أبيه زين العابدين عليه السلام.

(١) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، مصدر سابق، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٢) تعددت الأقوال في تحديد تاريخ هدم هذه القبور، فمن قائل إنها في الثامن من شهر شوال عام ١٤٣٤هـ، وقائل أن ذلك الهدم وقع عام ١٣٤٤هـ، وذكر غيرهم سنة ١٣٤٥هـ، ويقال أن هذه القبور هدمت مرتين، كان في المرة الأولى عام ١٢٢٠هـ، والمرة الثانية في سنوات (١٣٤٣هـ) أو السنوات القريبة منها باختلاف تواريخ القائلين.

(٣) ابن الصباغ، علي بن محمد، مصدر سابق، ص ٢٠٩.

(٤) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، مصدر سابق، ص ٢٠٠.



الرواية الرابعة : قول ابن الصباغ المالكي (ت ٨٥٥ هـ).

أما ابن الصباغ رحمة الله عليه فأيدَ رأي المحقق العلامة الأربلي، وحدد في نصه التاريخي نفس التاريخ السابق لولادة الإمام الباقر عليه السلام، وهو يوم الثالث من شهر صفر عام (٥٧هـ)، وعبارة واضحة في هذا التحديد الزمني.

يقول الشيخ علي بن محمد بن أحمد بن الصباغ المالكي في «فصوله المهمة»:

«ولد أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه بالمدينة»، وحدد تاريخ الولادة بقوله: «في ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل جده الحسين عليه السلام بثلاث سنين»^(١) «من الهجرة النبوية الشريفة»^(٢)، و«أما نسبه أباً وأاماً فأبواه زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو هاشمي من هاشميين، علوي من علوين، وأاماً كننيته فأبوا جعفر لا غير، وله ثلاثة ألقاب (الباقر والشاكر والهادي، أشهرها الباقر)، ولقب بذلك لـ«بُقْرِه العلم وهو تفجره وتوسيعه»^(٣) في العلم والمعرفة.

والرواية الخامسة : مع ابن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣ هـ).

هو العالم والمؤرخ الجليل، وهو من علماء القرن العاشر الهجري، وربما أدرك القرن

(١) إذا ما حسِبنا تاريخ حياة الإمام الباقر من تاريخ ولادته بحسب ما نقله ابن الصباغ وهو الثالث من شهر صفر عام ٥٧ هـ فإنّنا نجد عمره عليه السلام هو بالفعل أربع سنوات إلّا شهراً واحداً، وأما إذا أخذنا برأي الأغلبية من المؤرخين القائلين بتاريخ مولده في غرة شهر رجب سنة ٥٧ هـ فيكون عمره ثلاث سنوات ونصف لحظة وقوع موقعة كربلاء التاريخية في العاشر من شهر محرم بالعام الحادي والستين الهجري.

(٢) يلحظ أن ابن الصباغ قد حسب الفارق بين عامي (٥٧) و (٦٠)، وأهمل أيام وأشهر سنة ٥٧، فهذا العالم لم يحسب الأشهر العشرة من العام السابع والخمسين، والعشرة أيام الأولى من شهر محرم سنة ٦١ هـ، واقتصر على بعده سنوات (٥٨ - ٥٩ - ٦٠) فقط.

(٣) ابن الصباغ المالكي، علي بن محمد بن أحمد، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

التاسع الهجري، وكتب عن تاريخ الأئمة الاثني عشر عليهم السلام كتاباً، ويعرف هذا المصنف باسم «الشذرات الذهبية»، ونشر هذا العالم كتابه بعنوان «الأئمة الاثنا عشر»، وتحدث فيه ابن طولون رحمة الله عن الأئمة بإيجاز، وبمساحة متفاوتة من الحديث عن سيرتهم، وذكر ابن طولون فيه خامسهم الإمام محمد بن علي عليه السلام بلغة مباشرة.

قال في مدخل كلامه عن أبي جعفر محمد بن علي الإمام عليه السلام:

«وَخَامِسُهُمْ أَبْنَهُ مُحَمَّدٌ، وَهُوَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ بْنِ الْحَسِينِ أَبْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الْمُلْقَبُ بِالْبَاقِرِ، وَهُوَ وَالدُّ جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا».

ثم قال عنه: «وَكَانَ الْبَاقِرُ عَالِمًا سِيدًا كَبِيرًا، وَإِنَّمَا قِيلَ لِهِ الْبَاقِرُ لَأَنَّهُ تَبَقَّرَ فِي الْعِلْمِ، أَيْ تَوَسَّعَ، وَتَبَقَّرَ التَّوْسُعُ، وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

يَا بَاقِرَ الْعِلْمِ لِأَهْلِ التَّقْوَىٰ وَخَيْرُ مَنْ سَمِعَ عَلَى الْأَجْبُلِ^(١)

وذكر ابن طولون الدمشقي مولد الإمام عليه السلام فقال ما لفظه:

«وَمَوْلَدُهُ يَوْمُ الْثَّلَاثَاءِ سَنَةُ سَبْعٍ وَّخَمْسِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَكَانَ عُمْرُهُ يَوْمُ قُتْلَهُ جُدُّهُ الْحَسِينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثَلَاثَ سَنِينَ»^(٢)، وذكر أمّه الطاهرة بقوله: «وَأَمُّهُ أَمْ عَبْدِ اللَّهِ بَنْتُ الْحَسِينِ بْنِ الْحَسِينِ بْنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»^(٣).

(١) ابن طولون، محمد، الأئمة الاثنا عشر (أو الشذرات الذهبية)، ص ٨١.

(٢) ابن طولون، محمد، مصدر سابق، ص ٨١.

(٣) ابن طولون، محمد، مصدر سابق، ص ٨١.



الرواية السادسة: الشيخ حسين العلامة البحرياني (ت ١٢١٦هـ).

المشهور أن الشيخ حسين بن محمد بن آدم بن عاصفور الدراري البحرياني مرجع ديني، وهو المسماً في البحرين وإقليم البحرين شرق الجزيرة العربية بـ«العلامة»، واشتهر عليه رحمة ربه بكتابة مصنفات عن مواليد، وـ«وفيات الأئمة وأهل البيت» وتواريخ حياتهم، ومنها ما كتبه عن وفاة الإمام محمد الباقر عليه السلام، حيث قال «الشيخ حسين العلامة» في الصفحات الأولى من هذا الكتاب عن ولادته الطاهرة بما لفظه: «ولد يوم الجمعة غرة رجب سنة سبع وخمسين كما في كتاب مصباح الشيخ رحمه الله برواية جابر الجعفي، وروي أنه اليوم الثالث من شهر ذي الحجة، وعليه الأكثر وأسمه محمد، وكنيته أبو جعفر عليه السلام، ولقبه «باقر العلم»، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي عليها السلام، وهو أول علوى تولّد من الحسينين عليهما السلام»^(١).

ثم نقل العلامة البحرياني عن كتاب المناقب قوله: «أن الباقر عليه السلام هاشمي من هاشميين، وعلوي من علوين، فاطمي من فاطميين؛ لأنه أول من اجتمعت له ولادة الحسن والحسين عليهما السلام، وكانت أمه أصدق الناس لهجة، وأحسنهم بهجة، وأبدلهم مهجة»^(٢)، فالعلامة البحرياني حدد بوضوح تام «غرة شهر رجب الأصب من سنة ٧٥٧هـ» تاريخ ولادة الإمام الباقر عليه السلام، وهي رواية شائعة ومتشرة في مصادر الإمامية وأدبائهم، ونقل كذلك في رواية ثانية يوم الثالث من شهر ذي الحجة من السنة ذاتها تاريخاً لهذه الولادة المباركة.

(١) كتاب الوفيات، وفاة الإمام الباقر، ج ٢، جمع من العلماء، ص ١٨٣.

(٢) كتاب الوفيات، وفاة الإمام الباقر (مصدر سابق)، ص ١٨٣.

تسميته المشهورة بابا باقر

وكان ﷺ: «يسَمَّى أبا جعفر الباذر لِأَنَّهُ بَقَرَ الْعِلْمَ»^(١).

واشتهر بهذا اللقب العلمي، وهي تسمية نبوية كريمة وشائعة في مصادر روائية وتاريخية عديدة، وغالبها تشير إلى رواية نبوية شائعة في المصادر التاريخية، وقد نقلها الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري عليه الرضوان، كما أسننت بعض المعاجم اللغوية ما استبطنته هذه الرواية النبوية الكريمة، وقد أشار سبط بن الجوزي معنى البقر لغوياً واصطلاحاً.

البَّقْرُ بِمَعْنَاهُ الْلُّغُوِيِّ.

كما سنلاحظ أن بعض الروايات الشريفة فسرت معنى (تبقر العلم والتبحر فيه والتوسيع) كما في كلام ابن الجوزي، والعلامة الشيخ حسين بن محمد البحرياني صاحب السداد، وكذلك في بعض المصادر الروائية - التاريخية الأخرى، ولكن هذا لا يمنعنا من الاستفادة من بعض معاجم اللغة العربية لتعزيز معناه، ويمكنا الآن الوقوف - على سبيل المثال لا الحصر - عند معنى «بَقْرُ الْعِلْمِ» في هذه المعاجم كمصادر لغوية، وهم جميعاً يفسرون معنى «التبقر» بمعنى التوسيع في العلم والتبحر به بذكر الإمام الباذر مباشرة، وتلك في اعتقادنا شهادات منهم على الاعتراف بمكانته اللافقة.

ولحظنا أن بعض المؤرخين قد استعنوا بالتفسير اللغوي مثل سبط بن الجوزي

(١) اليعقوبي، أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٤.



الذي ركز كذلك على توضيح الدلالة اللغوية لهذا الاسم أو «لقب الباقر» بالاستعانة بكلام اللغوي الجوهري صاحب «معجم الصحاح» فقال ابن الجوزي رحمه الله: «التبقر، التوسع في العلم، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام الباقر.. لتقره في العلم، ويسمى الشاكر والهادي»^(١)، ومن أقوالهم كما ذكرنا ما قال ابن طولون في معنى التبقر بمعنى التوسع في العلم: «وكان الباقر عالماً سيداً كبيراً، وإنما فيل له الباقر لأنَّه تَبَقَّرَ في العالم، أي توسيع، والتقر التوسع»^(٢) وقول ابن الصباغ: «ولقب بذلك.. أي الإمام الباقر.. ليقره العلم وهو تفجره وتوسيعه»^(٣).

وهكذا تشابكت تفسيرات علماء المسلمين لمفردة «التبقر» بمطابقة معنيها اللغوي والاصطلاحي، وتطبق الأقوال والأوصاف وحقائق الأمور، وقد اخترنا لشرح معنى هذا اللفظ نماذج من الشروحات القصيرة بنحو لا تتجاوز أربعة معاجم لغوية غالباً قديمة نسبياً.

١. قال اللغوي المعروف محمد بن أبي بكر بن عبد القادر في مختار الصحاح: «التبقر، التوسع في العلم، ومنه محمد (الباقر) لتقره في العلم»^(٤).

٢. وقيل في المعجم اللغوي (المعجم الوسيط): «بقر البطن بقرأً (انشق)، وقال: انقر: تششق، وفي الكلام توسع فيه وأفاض، وفي العلم والمال، توسع وأكثر، والباقر: المتواضع في العلم، وبه سمى أبو جعفر محمد بن علي زين العابدين بن الحسين الباقر»^(٥).

(١) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٢.

(٢) ابن طولون، محمد، الآئمة الاشنا عشر (أو الشذرات الذهبية)، ص ٨١.

(٣) ابن الصباغ المالكي، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

(٤) الرازمي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، باب حرف الباء، مفردة (بقر) ص ٢٤.

(٥) المعجم الوسيط، باب حرف الباء، مفردة بقر، ص ٦٥.



٣. وفي لسان العرب للغوبي المشهور ابن منظور حدد معنى (التقر) بـ «التوسيع في العلم والمال»، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي.. الباقر «رضوان الله عليهم لأنَّه بقرُ العلم، وعرفُ أصلِه، واستنبط فرعه، وتقرَّ في العلم، وأصل البقر: الشق والفتح، والتتوسيع، بقرت الشيء بقرًا، فتحته، ووسعته»^(١).

٤. أمَّا معجم «الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية» فيحدد التقر بالمعنى اللغوي والاصطلاحي ذاته، يقول الجوهرى أبو نصر إسماعيل بن حماد: «بقرت الشيء بقرًا، فتحته ووسعته، ومنه قوله: أبقرها عن جينيها، أي شقَّ بطئها عن ولدها، ثم قال الجوهرى: «والبقر: التوسيع في العلم والمال، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الباقر)، لتقره في العلم»^(٢).

البقر بمعناه الاصطلاحي.

ويراد به معناه المتداول في نصوص الحديث النبوى ورواياته، فكما جاء في رواية الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصارى رضوان الله عليه في مصادر عديدة، أنه نقل جمع من الرواة والمؤرخين كاليعقوبى، وسبط بن الجوزى والأربلي، وابن الصباغ، وابن خياط، وغيرهم هذه الرواية النبوية المتواترة التي تسمى بهدا اللقب على لسان جده المصطفى رسول الله محمد بن عبد الله عليه السلام قبل أن يولد الإمام الباقر عليه السلام في الحياة الدنيا بأكثر من أربعة عقود ونصف من سنين النصف الأول في القرن الهجري الأول.

لقد ذكر العلامة سبط بن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ) معنين متداخلين لهذه التسمية،

(١) ابن منظور، لسان العرب، حرف الباء، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٢) الجوهرى، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة، وصحاح العربية، باب حرف الباء، ص ١٠٥.



وحدد معناه اللغوي وما اصطلح عليه في أدبيات العلماء، فقال عليه الرحمة في وصف أبي جعفر الإمام محمد بن علي عليه السلام، ووصف تَبَّقْرَه: «هو أبو جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن حسن بن علي عليه السلام، وإنما سمي الباقر من كثرة سجوده، بَقَرَ السجود جبهته، أي فتحها ووسعها، وقيل لغزارة علمه»^(١).

وتابع سبط بن الجوزي توضيح الدلالة اللغوية لهذا الاسم أو «لقب الباقر» بالاستعانة بكلام اللغوي الجوهري صاحب «معجم الصحاح» فقال ابن الجوزي رحمه الله: «التبقر، التوسع في العلم، قال: وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام الباقر.. لتقره في العلم، ويسمى الشاكر والهادى»^(٢).

وقد لاحظنا في نص اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ) السابق انه يذكر ذلك في تاريخه، وأنه، ويقصد سيدنا الإمام أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام، يسمى «الباقر» كصفة بارزة في شخصيته العبادية والعلمية، وقد جاء في تاريخه - كما تقدم القول - ما يوحى بذلك باللفظ الصريح، حيث قال: «وكان يسمى أبو جعفر الباقر لأنَّه بَقَرَ العلم»^(٣).

ونقلت مصادر تاريخية الرواية التالية عن لسان الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري بقوله:

«قال لي رسول الله: إنك تستقبلي حتى ترى رجلاً من ولدي أشبه الناس بي اسمه على اسمي، إذا رأيته لم يُخُلِّ عليك، فاقرئه السلام»، فلماً كبرت سن جابر، وخف الموت، جعل يقول: يا باقر! يا باقر! أين أنت؟ حتى رآه فوقع عليه يقبل يديه، ورجليه، ويقول:

(١) ابن الجوزي، سبط، تذكرة الخواص، ص ٣٠٢.

(٢) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٢.

(٣) اليعقوبي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٢٤.



«بأبي وأمي شبيه رسول الله! إنَّ أباك يقرئك السلام»^(١).

ونقل ابن الجوزي الحفيد عن المدائني قوله رحمة الله^(٢):

«عن جابر بن عبد الله أنه أتى أبي جعفر محمد بن علي إلى الكتاب وهو صغير، فقال له: رسول الله يسلِّمُ عليك، فقيل لجابر، وكيف هذا؟ فقال كنت جالساً عند رسول الله والحسين في حجره، وهو يداعبه، فقال يا جابر يولد مولود اسمه علي إذا كان يوم القيمة نادى مناد ليقم سيد العابدين، فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد، فإنْ أدركته يا جابر فاقرئه مني السلام»^(٣).

وتناول الإمام الشيخ علي بن محمد بن أحمد المالكي المعروف بابن الصباغ في كتابه «الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة» تاريجاً موجزاً من سيرة الإمام أبي جعفر محمد ابن علي بن الحسين فقال عنه هو «الإمام الخامس» انسجاماً مع الترتيب والتسلسل الزمني في ذكر أسماء الأئمة الاثني عشر من أهل بيت النبي الطاهرين عليهم السلام.

ونقل ابن الصباغ كلام العلماء بما لفظه:

«قال بعض أهل العلم: محمد بن علي بن الحسين الباقر، وهو باقر العلم وجامعه وشاهره، ورافعه ومتفوّق درره وراصعه، صفا قلبه، وزكا عمله، وطهرت نفسه وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة الله تعالى، ورسخ في مقام التقوى قدمه وميثاقه».

(١) اليعقوبي، أحمد بن واضح، مصدر سابق، ج ٢، باب وفاة الباقر، ص ٢٢٤.

(٢) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٣.

(٣) أشار لهذه الرواية وأمثالها في المضمون مصادر عديدة مثل كتاب «مطالب المسؤول» عن طريق الزبير ص ٨١، وكذلك ابن الأثير في المختار من مناقب الأخبار ص ٣٠، مصورة عن مخطوطه الظاهيرية، وراجع لسان الميزان، ج ٥، ص ١٩٨، وكتاب «كيفية الطالب» ص ٢٩٩، والصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٩٩، ومشارق الأنوار ص ٢١، والفصل المهمة ص ١٩٧، وينابيع المودة ص ٣٣٣، والكوناك الدرية للمناوي، مجلد ١، ص ١٦٤، ونور الأنصار للشبلنجي ص ١٩٢.



وهذه العبارة دوّنها ابن الصباغ عن عبارة المحقق الأربلي في «كشف الغمة في معرفة الأئمة»^(١) وغيره باختلاف يسير.

وعزّ ابن الصبّاغ قوله بيت من الشعر عن القرطبي بقوله:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبى على الأجل^(٢)
وقال ابن الصبّاغ المالكي رحمة الله: «أَمَّا كُنْتِي فَأَبُو جعفر لَا غَيْرُ، وَلَهُ ثَلَاثَةُ أَلْقَابٍ
(الْبَاقِرُ وَالشَّاكِرُ وَالْمَادِيُّ، وَالْأَشْهَرُ الْبَاقِرُ)، وَلَقَبٌ بِذَلِكِ لِبَرَهُ الْعِلْمُ وَهُوَ تَفْجِرُهُ
وَتَوْسِعُهُ»^(٣).

ونلحظ أن ابن الصباغ عزّ معنى «بَقْرُ الْعِلْمِ» بالتفجر والتتوسيع من جهة، وأن ذلك سبب تسميته بهذه الكنية أو اشتهر بهذا اللقب».

وروى بعد ذلك رواية جابر بن عبد الله الأنصاري بالنص التالي فقال:

«قال رسول الله ﷺ: يا جابر يوشك أن تلتحق بولدي من ولد الحسين ، اسمه كاسمي، يبقر العلم بقرأً (أي يفجره تفجيرًا)، فإذا رأيته فاقرأه عني السلام، قال جابر رضي الله عنه فآخر الله تعالى مُدَّي (أي حياته) حتى رأيت الباقر ، فأقرأه السلام من جده رسول الله ﷺ»^(٤).

وهكذا نجد بعد تتبع معنى «بقر العلم» في معناه اللغوي، ومعناه الاصطلاحي الوارد في الروايات المذكورة في المصادر التاريخية، تطابق المعنين، والتقاءهما في التعبير

(١) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، مصدر سابق، ص ٣٢٩.

(٢) ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، الفصل الخامس، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) ابن الصبّاغ المالكي، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

(٤) ابن الصبّاغ المالكي، مصدر سابق، ص ٢٠٠.



الموحد عن تفجّر علم الإمام الباقر وتوسيعه وتفتح قدراته العلمية بين الناس.

وروى جابر بن يزيد الجعفي رحمه الله - كما في العلل - لـ سأله عمر بن شمر: لمَ سمي الباقر باقراً؟ فقال: لأنَّه بقر العلم بقرًا، أي شَقَّه وأظهره إظهاراً.

ولقد حدثني جابر بن عبد الله الأنصاري (رضوان الله عليه) أنه سمع رسول

الله عليه السلام يقول:

«يا جابر إنك ستبقى حتى تلقى ولدي محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام المعروف بالباقر، فإذا لقيته فاقرئه مني السلام، فلقيه جابر بن عبد الله الأنصاري في بعض سكك المدينة، فقال: يا غلام من أنت؟ فقال: أنا محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له جابر: يابني أقبل، فاقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال (رضوان الله عليه): شمائل رسول الله عليه السلام ورب الكعبة، ثم قال: يابني إنَّ رسول الله عليه السلام يقرئك السلام، فقال عليه السلام: على رسول الله عليه السلام السلام، فقال له جابر: يا باقر، يا باقر، أنت الباقر، أنت الذي تقرر العلم»^(١).

ثم كان يأتي إليه فيجلس بين يديه فيعلميه، وربما غلط جابر فيما يحدث به عن رسول الله عليه السلام فيرد عليه الباقر عليه السلام، ويذكره فيقبل ذلك منه، ويرجع إلى قوله، وكان يقول: «يا باقر، يا باقر،أشهد أنك أتيت الحكم صحيحاً»^(٢).

تلك روایة واحدة تمثل مع عدد كبير من الروایات التي تشير إلى موضوع «التقر في العلم»، وبلغ الصاحب الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري وامتداد عمره المبارك إلى زمن ولادة محمد بن علي عليه السلام بعد نصف قرن تقريباً، وإبلاغ جابر للباقر عليه السلام

(١) آل عصفور البحرياني، حسين بن محمد بن أحمد، مجموعة وفيات الأئمة، وفاة الإمام الباقر، ص ١٨٤.

(٢) آل عصفور، حسين بن محمد بن أحمد، مصدر سابق، ص ١٨٤.



بأن جده محمد المصطفى يُقرئه السلام، وتعززت علاقة جابر بالإمام الباقر فيما بعد عن طريق حضور مجالس العلم بين يديه، وأخذ الصحابي الحليل جابر بن عبد الله الأنصاري «يتعلّم منه»^(١).

(١) آل عصفور، حسين بن محمد بن أحمد، مصدر سابق، ص ١٨٥.

منزلته ومكانته العلمية بين المسلمين

تبأ أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباذر عليه السلام مكانته الاجتماعية والتربوية، ومنزلته العلمية المتميزة في زمن حكم فيه الأمويون مجتمع المسلمين بقسوة شديدة وانحراف بعيداً عن قيم الإسلام وتعاليمه، ووضعت هذه المكانة حضوراً فاعلاً للإمام الباذر في تاريخ هذه الأمة منذ عصر النبوة والرسالة، وقد ارتكزت مكانته على ثلاثة جوانب أساسية جعلت شخصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباذر عليه السلام تتباين هذه المكانة، وهي كما يأتي:

١. البشارة النبوية لجابر الانصاري والمسلمين بولادة حفيده «باذر العلوم»، وتحديد مكانته اللاحقة.
٢. نمو القدرات الذاتية للإمام محمد بن علي الباذر في بيئه توجيهه رشيد من أبيه وارتكازها على العبادة والتبحر في العلم والتوسيع فيه، والسمو الروحي، ونشر العلوم الإسلامية، ومقاومة الانحراف المعادي للإسلام.
٣. وصف علماء المسلمين من مذاهب شتى وتصريحاً لهم الصادقة بمكانته الإمام الباذر محمد بن علي بن الحسين، وعظمته شخصيته العلمية.

أولاً: البشارة النبوية بولادة الباذر ومستقبل مكانته.

أشارت مجموعة مصادر روائية وتاريخية إلى البشارة النبوية بشأن الوجود المستقبلي



لولادة الإمام محمد بن علي الباqr، وببروز شخصيته وتألقها في مجتمع المسلمين، وغدت جذور هذه المكانة في جذورها التاريخية الأولى لبشرة مؤكدة ذكرتها روايات باختلاف يسير عن جابر بن عبد الله الأنصاري توصيه بنقل سلام رسول الله عليه السلام إلى حفيده محمد الباqr متى التقى به بعد حوالي نصف قرن من الزمان، فهذه البشرة تضمنت تأكيداً نبوياً لصاحبـه جابر الانصاري بامتداد عمره بعده لأكثر من خمسين سنة، وكذلك بولادة حفيده أبي جعفر الإمام الباqr، واللقاء بينهما في أرض المدينة، وإبلاغ جابر للإمام الباqr على لسان النبي بأنه يقر العلم بقرأً، وكما ذكرت بشرة النبي محمد عليه السلام، وهي تعني تبحره في العلم والمعرفة، وأنه يقرئه السلام.

وتفيد المصادر الروائية والتاريخية بتحقق هذه البشرة في حركة الزمان، وبعد مضي حوالي خمسين عاماً من وفاة النبي عليه السلام، فالرسول العربي الكريم محمد بن عبد الله عليه السلام أخبر صاحبه المحب جابر بن عبد الله الأنصاري بأنه سيعيش مدة من الزمن يتلقى فيها في المدينة مع حفيده له يولد بعد حوالي (٤٦) سنة واسمـه محمد ويعرف بـ(باقر العلوم).. أي: أبو جعفر محمد بن علي الباqr الخامس أئمة أهل البيت عليهما السلام.

وطلب منه حينـها يتلقـي مع حفيـده الـباqr، ويراه وجـهاً لوجهـه بأن يـقرئـه السلام، وـيـبلغـه بـميـزة تـبـحرـه فيـ الـعـلـم وـتـبـقـره وـتوـسـعـه فيـ الـمـعـرـفـة وـعـلـومـ الـإـسـلـام وـنـشـرـهـ، وـقـد تـحـقـقـ هـذـا الـلـقـاء بـعـد الـولـادـةـ، وـبـعـد مـرـورـ أـكـثـرـ مـنـ خـمـسـينـ سـنـةـ مـنـ عـمـرـ هـذـهـ الـبـشـارـةـ الـنـبـوـيـةـ، وـتـحـدـثـتـ الـمـصـادـرـ عـنـ اـهـتـامـ شـدـيدـ وـمـلـفـتـ مـنـ النـبـيـ عليهـ السـلـامـ، وـوـصـفـهـ بـ(ـبـاقـرـ الـعـلـمـ)، وـتـكـلـيفـ صـاحـبـهـ جـابـرـ بـالـسـلـامـ عـلـىـ حـفـيـدـهـ الـبـاqrـ وـتـأـكـيدـ مـيـزةـ فيـ شـخـصـيـتهـ، وـهـيـ مـيـزةـ تـبـحرـهـ فيـ الـعـلـمـ التـيـ اـرـتـكـزـتـ عـلـيـهـ مـكـانـتـهـ.

وقد بدأت خيوط هذه المكانة في التشكـلـ والتـكـوـنـ لـدىـ الـعـلـمـاءـ وـالـمـحـقـقـينـ وـالـبـاحـثـينـ منـ صـدـورـ هـذـهـ الـبـشـارـةـ الـنـبـوـيـةـ الصـادـقـةـ وـالـمـؤـكـدـةـ، وـمـنـ الـاـهـتـامـ الـنـبـويـ الـمـبـكـرـ بـولـادـةـ

الباقر (عليه السلام)، وتعاظم شأن شخصيته وسموها العلمي والروحي في طي الزمان وحركته المتابعة، وتقرره في العلم وتبصره، وتفسحه في معارف الإسلام وعلومه.

لم يكن تكليف جابر رضوان الله عليه بإقراء أبي جعفر الباقر سلام جده المصطفى (عليه السلام) مجرد عاطفة خاصة بين جد وحفيد، بل هو في منظور العارفين بحقائق الزمان عملية استشراف لمستقبل زاهر الدين الله، ولمستقبل زاهر يحتل فيه أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) مكانته اللاحقة بين المسلمين، وبين سائر أتباع المذاهب والعقائد الدينية الأخرى، وهو أمر مرتبط بالإبلاغ النبوي الدقيق، ومطابقة البشرة النبوية مع حقائق المستقبل من تاريخ مبكر متصل بما قبل وفاة النبي محمد بن عبد الله (عليه السلام)، وفي فترة وجوده المبارك.

وتمثل ذلك فيما يأتي:

١. امتداد عمر جابر بن عبد الله الأنصاري أكثر من (٥٠) سنة حتى تمكن فيها الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري من رؤية حفيد النبي كما وعده عليه الصلاة والسلام، وأدّى أمانته من تبلغ الباقر السلام نيابة عن جده المصطفى (عليه السلام).
٢. عبرت البشرة النبوية عن دقتها في التأكيد على «ولادة باقر العلم» وتبصره وشهرته، ويزوغر مكانته اللاحقة بين الناس منذ طفولته المبكرة، واكتشاف جابر ذلك، وأثرها في استشارة تفكير واهتمام السامعين، وما صحبه من حوار قصير بين الإمام الباقر، وهو صغير، وبين جابر بن عبد الله الأنصاري وأحد السامعين لهما.
٣. وضعت هذه البشرة النبوية الجذور التاريخية لبروز المكانة اللاحقة التي حظي بها الإمام الباقر (عليه السلام)، ووضوحها التدربيجي منذ لحظة التقاء جابر بـ«الإمام الباقر» حتى وفاة هذا الصحابي عليه الرحمة والرضوان، ونقصد تاريخ نمو قدراته الذاتية التي مكتنته



من تبوئ منزلته العلمية اللافقة، وهي جذور بدأت أرضيتها من كلمات رسول الله ونبي الرحمة ﷺ، ثم تناقل المسلمون هذه البشارة النبوية بعد أن حفظ الصحابي الجليل جابر هذه البشارة وأدى أمانته، وأبلغها حفيد النبي أبا جعفر الإمام محمد بن علي الباقر .

٤. ارتبطت مكانته ﷺ اللافقة، وما تبواه شخصيته من منزلة عظيمة من سجايا الشخصية الإيجابية، وقدراته الذاتية وبخاصة ما عُرف عنه من عبادة وسمو روحي، وتبصر في العلم ونشره الواسع لمعارف الإسلام.

ثانياً: نمودراته الذاتية التي حددت مكانته.

بالرغم من اهتمامنا المحدود في هذه المقدمة لكتابنا هذا بالنص الروائي، فقد وجدنا في باطن بعض الروايات القليلة إشارة بارزة لبعض القدرات الهامة في شخصية الإمام الباقر ، والتي تمنع بها وعرف بها، وفي صدارتها (التبصر، وبصر العلم والتبحر فيه) ووصف ذاته الكريمة بها.

وإذا ما توسعنا في استخدام النصوص الروائية والتاريخية وإضافة بعضها، وهي كثيرة في مصادر المسلمين نكتشف مزيداً من الخصائص الإيجابية والسلوكية التي أسهمت في تكوين النمط الأساسي المتميز لشخصية الإمام محمد بن علي الباقر ، وقد برزت تجلياتها في بروز قدرات أساسية في كيانه الذاتي، وهي أنه ﷺ لتبوئ منزلته العلمية ومكانته الروحية والأخلاقية والاجتماعية بين الناس وبخاصة بين مجتمع عصره.

فهذه المكانة العالية للإمام الباقر لم تهبط عليه من فوق أو عليه بلا جهد، ولا اجتهاد، وبلا عمل عبادي مقتدر تبنّاه آباءه الكرام من أئمة أهل البيت ﷺ في برنامج



تربيوي كفاء، ورشيد، وهذا مكّنهم جميعاً من مهامهم التربوية على أنفسهم، وإعداد شخصيات الأئمة (عليهم السلام) بقدرات ذاتية عالية كالعبادة والسمو الأخلاقي، والتبحر في العلم، وحقيقة التمييز الذاتي في نشر معارفه، وعلوم الإسلام، وقد فسحت هذه الظروف التربوية الضابطة العالية للإمام الباقر، وسائر أئمة أهل البيت (عليهم السلام) تبوأ مكانته الائقة.

وسوف يتضح في تضاعيف دراستنا جانب مهم من التميّز العلمي، ونبوغ فكر الإمام الباقر في أداء مهامه العبادية والأخلاقية والإرشادية، ويسمح لنا بدراسة اجتهادية لعنصر الجانب الإرشادي في فكر الإمام الباقر، وفعاليته، وعلاقته الإيجابية المؤثرة بتحقيق الصحة النفسية ومظاهرها للأفراد في مجتمع عصره، وفي المجتمعات اللاحقة.

وليس ذلك في اعتقادنا إلا شاهداً على كفاءة البرنامج التربوي الناجع الذي أعده الإمام الباقر (عليه السلام) في المجال الإرشادي والأخلاقي واقتداره، ومكّنه باقتدار وكفاءة معرفياً وتطبيقياً، فنجح في تربية كوادر أمدّت الوجود الإسلامي بعناصر قوة مستمرة ومتتجدة بخاصة أصحابه «وتلاميذه من كان لهم دور كبير في نشر معارف أهل البيت (عليهم السلام)، وفي طليعتهم أبان بن تغلب، وزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم الثقفي»^(١)، وجابر بن يزيد الجعفي، وأبو حمزة الشمالي، وغيرهم.

ثالثاً: تصريحات علماء المسلمين بمكانة الإمام الباقر (عليه السلام).

وذلك هذه التصريحات على المكانة الائقة التي حظيت بها شخصية أبي جعفر الإمام الباقر محمد بن علي زين العابدين (عليه السلام)، وهي في نظرنا بمثابة قرينة مادية وتاريخية

(١) السيد كمال، درر البحار في سيرة النبي وآلـهـ الأطهـارـ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧. (بتصرف)



مؤثرة على تقدير علماء المسلمين من مذاهب شتى، ومن غير أتباع أهل البيت عليه السلام لأبي جعفر محمد بن علي الباقر، وتقدمت أقوال بعض اللغويين، وهم أتباع هذه المذاهب في تفسير مفردة التبقر بمعنى التوسع في العلم بالإشارة دائمًا إلى تبحر أبي جعفر محمد بن علي الباقر في العلم، ونضيف اليهم آراء وتصريحات مؤرخين وعلماء رواية.

وقد دونت مصادر روائية وتاريخية ولغوية - كما تقدمت - أقوالاً وتصريحات إيجابية من بعض اللغويين العرب، ونفر من علماء المسلمين في تقدير شخصية الإمام الباقر محمد بن علي زين العابدين واحترامها، والشهادة على نبوغها العلمي وتميزها الروحي والجاهادي.

ويمكننا الاكتفاء بنماذج من هذه التصريحات فحسب لبيان مدى تألق شخصية الإمام الباقر واقتدارها في مجالات عديدة، وهي مدونة، وموثقة في عدد من المصادر الروائية والتاريخية المختلفة، ونقططع بعض هذه النصوص من مصادرها الأصلية أو عن طريق مصادر غير مباشرة نقلتها إلينا كما في بعض الدراسات، ومن هذه النصوص التي تعتبر بمثابة شهادات تقدير وإعزاز ما يأتي.

١. نص ابن الصبان.

أما الشيخ محمد الصبان فذكر الباقر في نص قال فيه: «وأما محمد الباقر رضي الله عنه فهو صاحب المعرف وأخوه الدقائق واللطائف ظهرت كراماته، وكثرت في السلوك إشاراته، ولقب بالباقر لأنه بقر العلم، أي شَقَّهْ فعرف أصله وخفيه»^(١).

(١) الصبان، محمد، إسعاف الراغبين، فضائل أهل البيت، ص ٨٨.



٢. شهادة ابن طولون الدمشقي.

ومن ذلك قول ابن طولون الدمشقي رحمه الله في حق الإمام الباقر (عليه السلام) وبالذات في التركيز على تبقره وتبخره العلمي الواسع، كما تلاحظ من النص التالي: «وكان الباقر عالماً سيداً كبيراً، وإنما قيل له الباقر لأنَّه تَبَقَّرَ في العالم، أي توسيع، والتبرر التوسيع، وفيه يقول الشاعر:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من سما على الأَجْبُل^(١)

وفاة أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام).

وفي هذا المجال تعددت كذلك آراء المؤرخين والرواة وأقواهم، ومنهم سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ) الحفيد، وهو (يوسف بن فرغلي بن عبد الله البغدادي سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنفي^(٢)، حيث نقل لنا ثلاثة أقوال في تحديد سنة وفاة الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام)، وعددها بقوله:

- «أحدها، أنه توفي سنة سبع عشرة ومائة، ذكره الواقدي».

- «الثاني سنة أربع عشرة ومائة، قاله الفضل بن دكين».

- «الثالث سنة ثمانى عشرة ومائة»^(٣).

وترتب عن هذا الاختلاف في أقوال المؤرخين، اختلاف في تحديد سنة^(٤)، وعرضها ابن الجوزي السبط في ثلاثة أقوال، أحدها: ثمان وخمسون، والثاني سبع

(١) ابن طولون، محمد، الآئمة الائثناء عشر (أو الشذرات الذهبية)، ص ٨١.

(٢) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣.

(٣) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٦.



وخمسون، والثالث ثلات وسبعون، ثم قال ابن الجوزي: «والاول أشهر»^(١).

وبالتأمل في ترجيحه الرأي الأول، فإنَّ ابن الجوزي قد حدد سنة (٥٩٥ هـ) كتاريخ لسنة ولادة الإمام الباقر، وهذا ما خالف أقوال مؤرخين آخرين قبله وبعده لاسيما الرواية الإمامية التي تحدد سنة (٥٧٦ هـ) لولادته، وسنة (١١٤ هـ) لوفاته.

أما الشيخ علي بن عيسى أبو الحسن الأربلي عليه الرحمة فتجاوز العُمر السابق، وقد نَفَّ على الستين على حد تعبيره، فقال عن سنوات عمره، ووفاته عليه الرحمة: «وأمّا عمره فإنه مات في سنة سبع عشرة ومائة، وقيل غير ذلك»^(٢)، ولم يدخل الشيخ الأربلي عليه شَابِيب رحمة ربِّه في تفصيل توضيحي لكلماته الأخيرة من الجملة السابقة، بيد أنها في معناه الإجمالي تقييد بـتعدد الأقوال في تحديد تاريخ وفاة الإمام أبي جعفر محمد ابن علي الباقر^{عليه السلام}، وهذا ما عنده الشيخ أبو الحسن الأربلي وبعض المؤرخين من قوله: «وَقَيلَ غَيْرُ ذَلِكَ» بعد أن حدد سنة (١١٧ هـ) كتاريخ لوفاة الإمام الباقر، وهذا لا يتفق مع آراء غالبية علماء الشيعة الإمامية.

فاليعقوبي^{رحمه الله} ذكر في تاريخه أن تاريخ وفاته كان سنة (١١٧ هـ)، وهذا ما ذهب إليه ابن الصباغ كذلك، حتى وإنْ عَدَّ في كتابه بعض الأقوال^(٣)، أما خليفة بن خياط فقال: «وفي سنة ثانية عشرة ومائة مات أبو جعفر محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب بالمدينة»^(٤)، ولقد مر علينا قبل قليل كلام العلامة ابن الجوزي السبط يوسف بن فرغلي ابن عبد الله البغدادي في تعدد آراء تواريخ وفاته عند عدد من العلماء والمحققين.

(١) ابن الجوزي، سبط، مصدر سابق، ص ٣٠٦.

(٢) الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى، مصدر سابق، ص ٣٣١.

(٣) ابن الصباغ، علي بن محمد بن أحمد، مصدر سابق ص ٢٠٩.

(٤) انظر تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٢٦ نقلاً عن تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٤.



أما الخصيبي أبو عبد الله الحسين بن حمدان فأشار للإمام الباقر، ولقبه (الباقر، والهادي، والأمين) ورواية لقاء جابر بالإمام الباقر، وذكر تاريخ وفاته وعمره «سبعين وخمسون سنة مثل عمر أبيه وجده عليهما السلام» عام مائة وأربعة عشر من الهجرة في شهر ربيع الآخر»^(١).

وذكر الطبرى في دلائل الإمامة: «وقبض في أول ملك إبراهيم في شهر ربيع الأول سنة مائة وأربع عشرة وشهرين، وصار إلى كرامة الله سبحانه، وقد كمل عمره سبعة وخمسين عاماً»^(٢).

وتحت عنوان «العشرة الثانية من المائة الثانية» قال ابن قنفذ (٨١٠ هـ): «توفي محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين سنة أربع عشرة ومائة»^(٣).

أما المؤرخ الدمشقى محمد بن طولون أحد علماء القرن العاشر الهجري فقد قال عليه الرحمة - كما ذكرنا - في شأن وفاة خامس أئمة المسلمين من أهل البيت الإمام الباقر: «وتوفي - يقصد الإمام الباقر (عليه السلام) - في ربيع الآخر سنة ثلث عشرة ومائة، وقيل سبع عشرة بـ «الحميّة»، ونقل إلى المدينة، ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه أبوه، وعم أبيه الحسن بن علي رضي الله عنهم في القبة التي فيها العباس رضي الله عنه»^(٤).

أما الحميّة التي توفي فيها الباقر ونقل منها إلى المدينة كي يدفن فيها فقد قال عنها أنها تلفظ: «بضم الحاء المهملة وفتح الميم وسكون الياء المثلثة من تحتها، وفتح الميم الثانية»،

(١) الخصيبي، الحسين بن حمدان، المداية الكبرى، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) الطبرى، محمد بن جرير بن رستم، دلائل الإمامة، ص ٩٤.

(٣) ابن قنفذ القدسى، أبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب، كتاب الوفيات، ص ٩.

(٤) ابن طولون، محمد، مصدر سابق، ص ٨١.

وبعدها هاء ساكنة: اسم لقرية كانت لعلي بن العباس وأولاده في أيامبني أمية^(١).

وذكر الشيخ محمد الصبان في باب فضائل أهل البيت من كتابه (إسعاف الراغبين): أن الإمام الباقر «مات مسموماً رضي الله عنه سنة سبع عشرة ومائة عن نحو ثلاثة وسبعين سنة، وأوصى أن يكفن في قميصه الذي كان يصلّي فيه^(٢)».

وقال جمع من علماء ومؤرخي الشيعة الإمامية بأنَّ الإمام الباقر توفي عام (١١٤هـ) عن عمر ناهز (٥٧) سنة، وهذا التعدد يفسر كلام الأربلي وغيره من المؤرخين بقولهم: «وقيل غير ذلك» بشأن الاختلاف في تاريخ وفاة الإمام الباقر عليه الصلاة والسلام.

ومضى على هذا القول العلامة الشيخ حسين بن محمد بن أحمد آل عصفور الدراري البحرياني، وهو من علماء القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين في جزر البحرين فقال رضي الله عنه في هذا الصدد: «واختلفت الأخبار في يوم وفاته^(٣)، وكذلك المؤرخون، فالمشهور بين علمائنا (ويقصد علماء الإمامية^(٤)) أنها في السابع من ذي الحجة سنة ست عشرة ومائة من الهجرة، وفي رواية أنها في سابع ربيع الأول، وفي رواية أنها في سابع ربيع الثاني^(٤)».

والسيد محمد بن حسين الطالقاني كتب في دراسته التاريخية عن الإمام الباقر^(٥)، ذكر أمر وفاته بقوله: «توفي أبو جعفر بن علي بن الحسين^(٦) بالمدينة يوم الاثنين سابع

(١) ابن طولون، محمد، مصدر سابق، ص ٨١.

(٢) الصبان، محمد، إسعاف الراغبين، ص ٨٨.

(٣) جملة زائدة عن نص العلامة الشيخ حسين العصفور البحرياني، أي أضفنا على النص للتوضيح.

(٤) البحرياني، حسين بن محمد بن أحمد آل عصفور الدراري، كتاب الوفيات (وفاة الإمام الباقر)

ص ٢٢٠.



ذى الحجة سنة أربع عشرة ومائة، وله سبع وخمسون سنة، وقبره في البقيع مع والده وعمه الحسن (عليهما السلام) في القبة التي فيها العباس^(٥)، وذكر أحد علماء الشيعة الإمامية من المعاصرين عن تاريخ وفاته أن أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه أفضل الصلاة والسلام قد «استشهد في (٧) ذى الحجة سنة ١١٤ هـ بعد أن عاش (٥٧) سنة قضها في التقوى والصلاح وخدمة الإسلام والمسلمين، ونشر علوم أهل البيت (عليهم السلام)»^(٦).

وفي دراسة معاصرة للجنة التأليف بـ(دار التوحيد الكويتية) أعدّت عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م جاء في آخرها وخاتمتها كلامات النص التالي:

«إذ لم تتحقق المضايقة الأموية غاياتها الدينية في صد الإمام الباقر (عليه السلام) عن النهوض بمهامه الرسالية العظمى، فقد رأت السياسة المنحرفة أنه ليس عن اغتياله بدليل، وهكذا دُسَّ إليه السم في عام ١١٤ هـ، فرحل إلى ربه الأعلى سبحانه صابراً محتسباً»^(٧).

ويحدد هذا النص سنة (١١٤ هـ) كتاريخ لوفاة أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام)، وطريقة استشهاده، واغتياله المعتمد من قبل الدولة الأموية بالسم، بعد استنفاد أساليبها في مضايقاتها، وصد الإمام الباقر عن جهاده السياسي والعقائدي، وإضعاف مقاومتها انحرافاتها العقائدية والسياسية والأخلاقية، فكان قتله قرارها النهائي، وبهذه الطريقة القاسية والظالمية، وبآخر خطوات عدوتها على أهل البيت (عليهم السلام).

للتخلص منه .

(٥) الطالقاني، السيد محمد حسين، كتاب «نور الأبصار في مواليد الأئمة الأطهار»، ولادة الإمام الباقر، ص ٢٥٤.

(٦) السيد، كمال، درر البحار في سيرة النبي وآلله الأطهار، ص ٢٧٧.

(٧) الإمام الباقر، دراسة صادرة عن دار التوحيد الكويتية، ص ٤٧، نقلًا عن أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين، ج ٤، ق ٢، ص ٤.

الحلقة الثانية

(مقدمات أولية في دراسة الوصية كوثيقة إرشادية)

مدخل الحلقة

منْ قرأ شيئاً من تراث الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي المعروف بـ «الباقر» ﷺ في مصادر الشيعة الإمامية، أو في مصادر غيرهم من كتب ودراسات علماء المسلمين الآخرين سيجد نفسه أمام تراث ثقافي، وروحي مدون، وموثق بالآيات متنوعة، وأدوات ثقافية متعددة، وكان ذلك النظام الثقافي سائداً في الأزمنة المتقدمة من تاريخنا الهجري، وما يزال منهجاً قائماً ومعتبراً في التوثيق والتدوين حتى وإن أصبحت هاتان العمليتان شائعتين بأساليب متطرفة حسب حركة الزمان وتقادمه، وهو مؤسس في المقام الأول على حفظ المرويات، ونقلها الشفهي، وساعتها، حتى كتبت في فترة متأخرة عنها نسبياً.

ومن فوائد هاتين العمليتين أنه قد جعل هذا التنوع في أساليب النقل والحفظ ذاكرتنا المعرفية موصولة بجوانب متعددة من التراث الثقافي والعقلي والروائي والأخلاقي والتربوي الذي تركه الإمام محمد بن علي الباقر لنا بعد استشهاده ﷺ، وحفظته على امتداد زمان طويل، ومنذ القرن الثاني الهجري، فكل ما نعرفه عن الإمام وآبائه أو أبنائه وصلنا عن طريق حفظ تراثهم في مصادر المسلمين على مختلف أطيافهم ومذاهبهم الدينية.

وممّا لا شك فيه أن تراثه المعرفي والروائي الذي حفظه العلماء - وهو الآن بين أيدينا - قد عَبرَت عنه اهتمامات الإمام الباقر في روایات وأسئلة وأجوبة ونماذج من وسائل التعبير الثقافي، وتجسد في قضايا دينية، وأفكار في الإرشاد الديني، والتوجيه



الأخلاقي، ودائرة أمراض السلوك البشري، وقواعد السلوك العبادي المرغوب فيه، وفي نواهٍ عن محرمات شرعية، وأفعال غير شرعية، وهي موثقة في مصادر تراثه بآليات وأدوات ثقافية شائعة في عصر الإمام محمد الباقر عليه السلام.

وما تزال هذه المصادر - لحسن الحظ - حتى يومنا الحاضر معتبرة الشأن، وذات أهمية علمية ومعرفية وروحية، وهي متداولة في المصادر القديمة التي حفظت النصوص، ونشرت بعض معارفه، وكذلك في الدراسات والمصادر المستحدثة التي استمرت في كتابة جوانب من هذا التراث إلى زماننا، فأضافت إلى سابق التجارب تجرب جديدة عن حياة الإمام محمد بن علي عليه السلام بدراسات معاصرة، وإنَّه باستخدام هذه الأدوات المتعددة بحدود ظروف قرون متعددة من تاريخنا، نكون قد تعرفنا على جوانب من تراث وفكر أبي جعفر الإمام محمد بن علي عليه السلام، وتعاليمه وإرشاداته في موضوعات شتى، وقضايا عديدة تتصل بالعقيدة والأخلاق وشؤون الدين وقضايا حياتية، وأنَّه لولا وجود نماذج مثبتة من أدوات الخطاب الباقري وأالياته في مصادر تراثه عند الشيعة الإمامية وغيرهم لصعب علينا، وعلى منْ عاش في أزمنة سابقة ولاحقة (تكوين معرفي) عن حياة الإمام محمد الباقر، وشخصيته وتراثه العلمي عليه السلام، وفضائله الروحية والأخلاقية، ولخفيت علينا معرفتنا بتاريخ حياته أو بكثير من تفاصيلها بخاصة أنَّ أعداء الحق يمسكون بخيوط منع التدوين فضائل أهل البيت عليه السلام، وكبت ومصادرة حرثيات العلماء، والناس بوجه عام.

ويمكنا بعد هذا، تحديد مصادر وأاليات وأدوات العلاقة الثقافية بين الناس، والإمام محمد بن علي عليه السلام، ونذكر منها ما يأتي:

١. مجموعة وصايا أخلاقية وإرشادية في مجال التربية العبادية التي يتبعيها المشرع الإسلامي، ومثال ذلك - على هذه الآلية - وصيته لصاحبه الكريم جابر بن يزيد



الجعفي عليه شأبب رحمة ربها، وهي في مجلتها المصدر الرئيسي لدراستنا في فهم العلاقة بين العملية الإرشادية، وبين الاتزان الانفعالي، والنفسى.

٢. الموعظ والنصائح الفردية.

٣. الخطب، على قلة عرض نماذج منها.

٤. الروايات الشريفة.

٥. الأدعية.

٦. نظم الشعر ومقاطعه.

٧. النصوص والجمل، والحكم القصار.

٨. التفسيرات، والشروحات الكلامية.

٩. مناظراته ومحاججاته مع الآخرين.

نص الوصية

النص الإرشادي للإمام الباقر عليه السلام

عنوان هذا النص التربوي - الأخلاقي، وبطبيعة مادته الإرشادية كان مدوناً في عدد من المصادر، وأوّلها كتاب (تحف العقول عن آل الرسول) للشيخ الثقة الجليل الأقدم أبي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني رحمه الله، وهو من علماء القرن الرابع الهجري، ثم في مصادر متأخرة عن هذا القرن، ونشر هذا العنوان لهذه الوصية في أول نص ذكره ابن شعبة عن الإمام محمد الباقر بن علي زين العابدين عليه السلام.

وكان مدخل هذا العنوان بهذه الكلمات التالية:



«في طوال هذه المعاني»^(١)

«وصيته ﷺ بجابر بن يزيد الجعفي»^(٢).

روي عنه ﷺ أنه قال بجابر :

«يا جابر اغتنم من أهل زمانك خمساً، إن حضرت لم تُعرف، وإن غبت لم تُفتقن، وإن شهدت لم تشاور، وإن قلت لم يُقبل قولك، وإن خطبتك لم تُزوج، وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مُدحت فلا تفرح، وإن ذُمت فلا تجزع، وفكري فيها قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسوقطك من عين الله جل جلاله وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك.

وأعلم بأنك لا تكون لنا ولينا حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك، وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيلاً زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فأثبت وأبشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فماذا الذي

(١) انظر كتاب تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ٢٠٦ - ٢٠٧، وبحار الأنوار للمجلسي، ج ٧٥، ص ١٦٢ - ١٦٥.

(٢) الجعفي رحمه الله تعالى صاحب الإمام الباقر، وهو على زنة الكرسي، ومن جعف، ونُسِّبَ إليها فقيل (الجعفي) بحار الأنوار، ج ٧٥، باب وصايا الباقر، ص ١٦٢، وكما ذكر كذلك في كتاب تحف العقول فهو «جابر بن يزيد بن الحرت بن عبد يغوث الجعفي، من أصحاب الباقر والصادق ﷺ، وخدم الإمام أبو جعفر عليهما السلام متواتراً، مات رحمه الله في أيام الصادق عليهما السلام سنة ثمان وعشرين ومائة» من المиграة النبوية بحوالي عشرين عاماً قبل وفاة الإمام الصادق عليهما السلام، انظر تحف العقول لابن شعبة، الفصل الخاص بمعارف الباقر، ص ٢٠٦، هامش رقم ١ من الصفحة نفسها.



یغرك من نفسك.

إن المؤمن معنى بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في حبة الله، ومرة تصر عه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فيتعش ويقيل الله عشرته فييتذكر ويفزع إلى التوبية، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: «إِنَّ الَّذِينَ آتَقْوَا إِذَا مَسَّهُمْ طَأْفُ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا إِنَّمَا هُمْ مُبْصِرُونَ»^(٢).

يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعريضاً للغافر، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقّ مجاذفة الهوى بدلاله العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة.

واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويف، واطلب راحة البدن بإجام القلب، وتخلص على إجام القلب بقلة الخطأ، وتعرض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيّن الله عز وجل بالصدق في الأفعال، وتحبّب إليه بتعجّيل الانتقال، وإيّاك والتسويف فإنه بحر يغرق فيه

(١) الأود: محرّكة (العوج)، وقد تأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٣.

الأخوات: ٢٠١(٢)



الملكي، وإياك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإياك والتواني فيها لا عذر لك فيه، فإليه يلجم النادمون، واسترجع سالف الذنب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرض للرحمه وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظللم.

وتحلّص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، والتتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعزم اليأس، واستجلب عز اليأس بعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغيضة عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحة الأبدان، وإياك والثقة بغير المؤمن، فإن للشر ضراوة كضراوة الغذاء^(١).

وأعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامه كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء مُعين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغرك الدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ولا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف وبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالملاسة في الدرجات، ولا عدل كالإنصاف، ولا تعدي كالجحور، ولا جور كموافقة الهوى، ولا طاعة كأداء الفرائض، ولا خوف كالحزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد خوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضيتك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذل الطمع،

(١) الضراوة: مصدر ضري بالشيء، أي لمح به، وفي بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٤ الضراوة هي (الاعتياد، ومصدره ضرى بالشيء، أي اعتاده، ويقصد بهذا الكلام في نهاية الأمر (تأثير الشر هو بقوة تأثير العادة السلوكية وشدة إلحاحها على الفرد بوجه عام، مثل تأثير الغذاء وإلحاحه الشديد على الإنسان حينما يجوع أو يحتاج للشراب، فالشر كالغذاء لها تأثير شديد الإلحاح علينا).



وإياك والتفرط عن إمكان الفرصة، فإنه ميدان يجري لأهله الخسران»^(١).

وصف عام ومجمل للنص وفرصة دراسته

قد يكون من الصعوبة بمكان - بخاصة عند غير المتخصصين في فن الأدب العربي أو علمي الحديث والأخلاق - وصف هذه الوثيقة التربوية والأخلاقية، وطبيعتها الإرشادية وصفاً دقيقاً يعبر عن مستواها العلمي والأخلاقي، فهي تحتاج إلى قدرات علمية وأدبية وتربوية لدى الباحث قد لا تكون متوفرة بقوة في إمكانياته الذاتية، ولكن مع ذلك لا يترك هذا النص الأدبي بلا محاولة تفهم معانيه، ومن هنا نعتقد أنه بالقدر وصفه على نحو مجمل، وتحديد هويته كنص أدبي وأخلاقي وتربوي انطوى على وصفات إرشادية لبناء الذات البشرية بخاصة المؤمن، فهذا النص استهدف بادئه اللغوية والإرشادية عملية إرشاد الإنسان المؤمن في أزمنة متعددة، وهدایته الإيمانية والشخصية بخطوات متقنة، ومحكمة، ونظام بناء سليم وقوى للنمط الأساسي للشخصية المرغوبة لدى المؤمن وفق محددات إيمانية ارتضتها المشرع التربوي الإسلامي، وتتوافق مع معايير هذه الوصيّة وشروطها.

وتوزع النص الباقي إلى أربع فقرات متفاوتة في حجمها لفظياً، وكل واحد منها مكون من عدة جمل وعبارات تطرح جميعها أفكاراً تربوية رائعة في معانيها، ويمكن النظر لكل واحدة منها على حدة، ولكنها مترابطة المعاني، وفي كل جزء يتم التأسيس على ألفاظه لخدمة هدف من عمليات بناء النمط الرئيسي من السلوك العبادي الذي يحقق الأهداف الإيمانية لنص الوصيّة، واجتمعت فيه - كما لحظنا ذلك - قيم وانفعالات،

(١) ابن شعبة، الحسن بن علي بن الحسين، تحف العقول، ص ١٧٩ - ١٨١، وبحار الأنوار الجامحة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ٧٥، ص ١٦٢ - ١٦٥.



وشبكة إرشادات، وإشارات لدفاع إنسانية، وقواعد أخلاقية، وأساليب بنائية من أجل تنمية الذات البشرية وتطوير مستواها.

وكانت هذه القواعد والأساليب متوزعة في محتوى النص الإرشادي، ونقصد الوصيّة بين أنماط وقائية وإنمائية وعلاجيّة تنتظم جميعها في بناء النمط المرغوب من الشخصية العبادية التي ركّزت وصيّة الإمام الباقر على تأسيس مبناتها بقواعد إرشادية رائعة، كما تضمّن نص هذه الوصيّة - وهي مفتاح تعلم جديد يستهدف الوصول إلى نمط الشخصية المراد تكوينها - مجموعة أهداف عبادية، ومحظى أخلاقياً ونفسياً، ولغوياً، وأدبياً متكاملاً، واحتوى في طي تركيبته اللغوية على أسس، وأدوات، وأساليب تأمل ونظر في مجالات متعددة من سلوكنا الإنساني المتشابك.

ويلاحظ منه تكونُ هذا النص بمجموعه، وترابطه في وحدة معرفية متعددة الأبعاد والجوانب، موحدة الأهداف والغايات، ويهتم النص بأكمله، وكوحدة مترابطة بشخصية الإنسان وتربيته إمّا بطرائق البناء التربوي الوقائي الذي يستبق أي خلل وانحرافات فكرية وعاطفية وسلوكية، أو بطرائق إنمائية معززة للبناء الوقائي، وذلك قبل أن يضطر المربى إلى اتخاذ خطوات علاجيّة لإعادة بناء نمط الشخصية من جديد وفق محدداتها الإيمانية.

وتتنوع المادة الإرشادية للنص بجمال لغته الأدبية بنحو يسمح للباحثين من اتجاهات تخصصية معاصرة ومتعددة بدراسته، كل من الزاوية التي يجد نفسه متمنكاً منها، فيتم - بمجهود فردي أو جماعي - استخراج معانٍ إنسانية، ودلائله الأدبية والأخلاقية والسيكولوجية، وييتّظر منهم أن يحيطى هذا النص بانتباهم العلمي، وبرغبتهم في تفهم معانٍ، ومعرفة كنوزه الفكرية والأخلاقية، ظاهرة في النص أو متخفية في باطن بعض ألفاظه وجمله وعباراته.

فاللغوي، والأديب يمكنه دراسة الوصيّة كنص أدبي، ويتم استخراج خصائصه اللغوية والأدبية، والسيكولوجي كذلك يستطيع دراسة ظواهره السلوكية، ويتفهم دلالاتها النفسية، ومعرفة نتائجها التربوية، ولعلم الأخلاق فرصة أخرى في القيام بعملية تفسير أخلاقي، وتحليل مضامينه الأخلاقية بخبرته التربوية والإرشادية بنحو يحقق للمؤمن الأهداف العبادية والإيمانية التي يسعى إلى الوصول إليها، وهكذا فالنص الإرشادي الكريم مجال علمي وفكري، ويستبطن في تركيبته اللفظية، وباطنه الداخلي (إثارة علمية) حيّة من وجوه شتى لهذا الباحث وذاك.

تاريخ النص

كان من الممكن أن تكون هذه الدراسة تاريخية في بعض جوانبها، ولا بد أن تكون بسبب وجودُ بعد تاريخي لنص الوصية الباقي، ولكننا في المعهد العام لا نرى أن المادة التاريخية التي قدمها أئمة أهل البيت ﷺ سواء بهذه الوصية أو غيرها هي مادة تاريخية محضة حتى وإنْ كان زمن صدورها منذ تاريخ بعيد يتصل بالنصف الأول من القرن الثاني الهجري، وربما في القرن الأول، فأهل البيت دائمًا هم مصدر رئيسي لثقافة المؤمنين وتوجيه حياتهم، ولا نتعامل مع أدوارهم الثقافية والروحية كشيء من التاريخ، وقع في الزمان، ولم نعد نستلهمه أو لا نتفاعل معه، بل هو في نظرنا مادة فكر حي موجه لنا ولجميع الناس عبر أزمنة متعاقبة، ومتتجدة، ولا تتوقف عند حدود زمنية أو بقاع جغرافية ومكانية.

ومع ذلك فيمكن إخضاع نصوصية الإمام الباقي ﷺ لصاحبه الكريم، والوفي جابر بن يزيد الجعفي لدراسة تعالج بمنهج تاريخي، ونقصد أنه يمكن للعلماء والمحققين والباحثين تتبع تاريخ صدور هذا النص في فترة زمنية متقدمة جداً من تاريخنا الهجري،



قد تكون في نهاية القرن الهجري الأول أو في السنوات الأربع عشرة الهجرية الأولى من القرن الهجري الثاني، ثم تعقب وضع نصوص الوصية في المصادر التي نقلته منذ تلك الفترة إلى يومنا الحاضر في مصادر العلماء والمحققين ودراساتهم، وبتتابع زمن متصل كتعقب اهتمام العلماء ونقلهم لهذا النص في مصادر مختلفة عند المسلمين، وبذلك يتاح لباحث معاصر التعرف على هذه المصادر التي ذكرت النص في باطنها.

وربماً كنَّا قد تمكنَّا بالاجتهاد التقريري من تحديد الفترة التاريخية التي صدر فيها نص الوصية، ولكننا نجد بالتأكيد صعوبة في التحديد لصدور النص بدقة تامة، فالإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام، وهو صاحب النص عاش بين (٥٧ - ١١٤ هـ)، وربما سنوات أكثر لا تزيد عن ثلاثة، وعاش صاحبه جابر الجعفي حتى عام (١٢٨ هـ) في عصر الإمام الصادق عليه السلام، وعليه لا نجد صعوبة في القول بأن تاريخ صدور هذا النص الكريم كان ما بين أعوام (١١٤ هـ) وأعوام سابقتها عليه، مع إقرارنا بصعوبة التحديد الزمني بدقة تامة، لأن نقول بأن تاريخ الزمان كان في يوم معين، من شهر هجري محدد، وفي سنة مذكورة بعينها.

وبذلك يصبح تاريخ نص الوصية مماثلاً لتاريخ صدور نصوص كثُر في الفترة الممتدة من ولادة الإمام عام (٥٧ هـ) إلى سنة وفاته (١١٤ - ١١٧ هـ) بحسب أقوال بعض المؤرخين، وهذا التحديد هو مهمة بعض الدارسين لتراثه الفكري بمنهج تاريخي قادر على فحص ظواهر الحياة الروحية والثقافية في تاريخ الإمام الباقر عليه السلام، ويحدد تواريخ ممكنة لصدور بعض نصوصه في المجالين المذكورين (الروحي والثقافي).



الإشارات الذهنية الرئيسية في نص الوصيّة أو موضوعاتها الأساسية

ونريد أبرز محتويات النص ومواضيعه المجملة، وهي ثلاثة تمثل فيما يأتي:

١. تحديد نص الوصيّة مشكلة سلوكيّة كبرى ذات طابع غير توافقي، وهي بالمنظور العبادي مشكلة تتدخل فيها المشاعر المضطربة بالأفكار غير السوية، فتنعكس على سلوكيّات حذّرت من استمرارها وصيّة الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي.
٢. والجزء الآخر من محتوى النص مجموعة إرشادات الإمام الباقر لجابر الجعفي، وما ارتبط بها من تنبيه بوجود المشكلة، وأهمية وضع برنامج وقائي، وإنمائي، وعلاجي لتربيّة الذات وضبط سلوكها في مسارات تعبدية سليمة.
٣. أما الجزء الثالث من المحتوى اللغوي والمعجمي للنص فنراه في توجيه قدرة الفرد المؤمن على الملاعنة بين الطبيعة البشرية بما فيها من استعدادات للخير والشر، وبين منهج العمل الضابط لحركة الذات، ونرى تداخل طرائق علاجية وإرشادية لوقاية الشخصية العبادية أو إعادة تعلم الفكر والسلوك العبادي السليم، واستبدال المشاعر السلبية بالايجابية تلتقي مع النظرة التربوية والمعرفية الإسلامية.

ونلحظ برأيتنا المستمدّة من مفردات هذا النص أنَّ هذه المشكلة السلوكيّة ثلاثة أوجه متعددة، وينبغي للفرد المؤمن فهم دلالاتها في تشخيص مشكلته السلوكية هذه، والتركيز عليها لتخلص نفسه منها، وفك رهانه من مخاطرها، وهي كما يأتي:

- أ- جانب من المشكلة هو وضع الذات من نظرة الإنسان الآخر، وما يشيره لها من مشكلات وتحديات، أي تمثل المشكلة بهذا الوجه في قدرة الإنسان الآخر على إثارة مشكلات سلوكيّة تعرقل نمو الذات المؤمنة، وسيرها في الاتجاه النّمائي والسيكولوجي من جهة، وحركتها الصحيحة في الاتجاه العبادي القوي من جهة ثانية.



بـ- وللمشكلة السلوكية في نص الوصيَّة وجه كبير آخر يتمثل في سقوط الفرد المؤمن في دنياه، وآخره ما لم يتدارك نفسه من عين الله، ومن أعين الناس كذلك، فيجتمع على نفسية الإنسان وعقله نوعان من السقوط الصعب أحدهما في الدنيا بسقوط اعتباره، وتقديره من أعين الناس في دنياه، وقد يكون السقوط أصعب في الآخرة من عين الله سبحانه ما لم يتدارك أمره بتوبة خالصة، وبالتفكير فيما قيل فيه بطرائق إيجابية تُحسِّن من وضعية ذاته عبادياً، وهو في ميدان الحياة والعمل، وقبل فوات الأوان، وتسترشد لما فيه من الخير وتقوى الله سبحانه.

جـ- أمّا الوجه الثالث لمشكلة الفرد في محتوى الوصيَّة فلا ينفصل عن حالي «السقوط» من عين الله، ومن أعين الناس، وما يزال الفرد المؤمن بعد في عالم دنياه، عالمه الأول، وثمة فرصة لتغيير الحال، والتأكد من أوضاعه العبادية.

وتحدد المشكلة السلوكية - بهذا الوجه المهم والخطير - في نطاق تأثيرها على مصير الحياة الفردية للشخص المؤمن نفسه بما أسماه نص الوصيَّة الباقرية بـ«غلبة الهوى» على إرادته كبعد مؤمن ضعيف، وخانع لشهوته وضغوطاتها الجاثمة على نفسه، وفشله المستمر أو في غالب الأحيان في تَوْقِي (مجازفة الهوى)، ودفع مخاطره لا باسترشاد العلم، ولا بدلالة العقل، ولا بشدة تيقظه الذهني، ولا بصدق خوفه من الله تعالى، ولا بدفع حاضر الشر عن أنفسنا بحاضر العلم، ولا بتحرز الفرد في خالص عمله من عظيم الغفلة، ولا بمبادرة منه نحو الخير وانتهاز فرص الحصول على مطالبه الطيبة برضاء الله، واغتنامها والنهوض بها بالتزود من الدنيا بقصر الأمل، ولا بتأصيل وترسيخ قيم التربية العبادية السوية التي شددت عليها الوصيَّة في كل عباراتها مثل (أداء الفرائض، استصغر الدنيا، معرفة النفس، السيطرة على سراديبها المظلمة بقيم النور الإلهي)، ولا بالمنافسة في الدرجات العلي، ولا برشده في مخالفة الهوى ومجahدتها بالدين والعقل.



والفطرة السوية، ولا برغبته المخلصة في تحرير داخل نفسه من أصفاد الشيطان ونوازعه الماجنة، ومن معصية حب البقاء في غير طاعة الله سبحانه وتعالى، وحتى من باب التفلسف، والادعاء بالعلم والتحضر، وقد نسي هذا العبد أن «العلم في غير طاعة الله مادة للذنوب» كما قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب ﷺ.

مسوغات وضع نص الوصية في مدخل الدراسة

موضوع هذه الدراسة التي بين يديك هو ما أوصى به الإمام محمد الباقر عليه السلام صاحبه جابر بن يزيد الجعفي رحمه الله في نص أخلاقي، تربوي، وإرشادي كريم، وكان غرضه توجيه الأفراد المؤمنين نحو الحق، وبناء أنفسهم على تكاليف المشرع التربوي الإسلامي وأحكامه، وقد اخترناه كموضوع للدراسة لكونه أشبه ببرنامج تربوي لبناء الشخصية العبادية في مراحل مختلفة، إماً بالاستفادة منه في مرحلة البناء الوقائي، أو مرحلة لاحقة قد وقع فيها الفرد بأخطاء وذنوب تستوجب تعديل السلوك بإزالة الرذائل، واستبدالها بفضائل السلوك العبادي، وإحداث حالة تغيير تتفق ونظرة المشرع الإسلامي، وكما أراد الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين.

واستوجبنا دراستنا لهذه الوصية وضع (نصها بالكامل) في مدخل الفصل الثاني بعد انتهاءنا من الفصل الأول من هذا الكتاب والخاص بسيرة الإمام الباقر عليه السلام، وكان لوضع النص في نظرتنا المتواضعة (مسوغات) هي كما يأتي:

١. إنَّ وضع النص في مدخل الدراسة لهذا الكتاب يتبع للقارئ قراءته كاملاً، ويستجمع في ذهنه فكرة عامة، ومجملة لمعاني النص وسياقاتها اللغوية والمعرفية، وقد يتجاوز بعض من يتابع له الاطلاع على هذه الوصية التقدم في فهم معانيها التفصيلية،



ويبدأ بقراءة هذا الكتاب لفهم المزيد من تفاصيله.

٢. يأقِي وضع (نص وصيَّة الإمام الباقر) بأكمله كخطوة مسبقة، ومهمة يحتاجها الباحث نفسه، ومنهم معد هذه الدراسة في أثناء عملية الموضوعات الفرعية لدراسة، ومراجعة النص بشكل مستمر كُلما احتاج، وثبتت ما يريد من نصوص فرعية في الموضع الذي يحتاجه بعد انتقالها من جديد لتناسب سياقات الكلام الذي يبحث فيه، أو لمعرفة مدى التلاؤم بين المادة المدرولة، والموضوع الفرعي الذي كان يناقش أفكاره الجزئية، وبين التفسير والتحليل الذي كتبه الباحث، أي تلاؤم بين نص الكلام، وفهم الباحث.

٣. يسمح وجود النص (كاملاً) بعمليَّات ذهنية يستفيد منها الباحث، والقارئ معاً، كمراجعة النصوص الفرعية الداخلية في موضوعات متفرقة من الدراسة ومقارنتها بمثيلاتها في متن النص الكامل للوصيَّة، وكتاب تفسير الباحث مع ما يراه من المضمن المعرفي للنص، والحكم عليه بوجهة نظره.. مؤيدة لوجهة نظر الباحث أو معارضة.

النظرة العلمية للنص

ما تطلَّب منَّ إثارة وطرح هذا العنوان الجانبي في مقدمة دراستنا التي بين يديك الآن هو ما أثير في مصادر متفرقة حول شخصية جابر رحمه الله، والطعن فيه بتكييفه، والتشهير به إلى حد السخرية منه، وهذا ما استدعي النظر للنص كموضوع علمي محض، ومادة إرشاديه بناء، ومعزولة عن طعون بعض المرجفين وتشكيكاتهم في هذا الناقل لرواية الإمام الباقر عليه السلام، والانتهاء الديني الذي يؤمن به في حياته الروحية والفكريَّة.

إن جابر بن يزيد الجعفي عليه الرحمة هو من نقل رواية النص، وهو نص دراستنا، ويتوافق هذا النص مع المعاني الإنسانية للمشروع التربوي الإسلامي من جهة، ومتلائمة مع وصايا المنهج العلاجي والإرشادي في العلوم النفسية الجديدة والمعاصرة، ومحدداتها العلمية المضمنة، فالنص الذي ندرسه هو في حقيقته نص إرشادي، وكما نراه بنظرتنا المتواضعة، وهو في الوقت ذاته ذو قيمة علمية تصلح للبحث، والدراسة وتحليل مفرداته، وعباراته، وصياغة مادة إرشادية، وبلغة معاصرة ما أمكننا، بغض النظر عن جملة التشكيكات والطعون في شخصية جابر، وهي في نظرنا لا تخلي من حساسيات مذهبية لا تتوافق مع القواعد العلمية، والأسس الموضوعية للبحث العلمي.

إنَّ وظيفتنا - كباحثين - متعددة الجوانب، وبطبيعة الحال التفكير، والتأمل في الطبيعة المعرفية للنصوص، ومادتها التي نبحثها، وندرسها، وأن نعزل ما أمكننا، وبموضوعية تامة كل الظروف والمؤثرات التي من شأنها تقليل القيمة العلمية لمادة النص، ومنها مزاعم الناس وافتراضاتهم، فيما يهمنا، ونحن نبحث في المادة الإرشادية لنص (وصية الإمام الباقر) هو «النظر فيما قيل فيه».. أي في مادة القول، لا النظر في من قال «أي لا ننظر في شكل الأشخاص وصفاتهم» كما قال الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام)، وتأسيساً على قوله الكريم: «لا تنظر إلى مَنْ قال، وانظر إلى مَا قال»^(١)، وفي نص آخر «وانظر إلى ما قيل».

ولعل نصيحة الإمام الباقر (عليه السلام) لجابر في مدخل وصيته الإرشادية أن يطلب منه أن لا يشغل نفسه بمواقف الأشخاص وتصرفاتهم الاستفزازية، وإنما يهتم فقط بـ «ما قيل فيه» لتطهير نفسه والبحث عن وضع ذاته من حيث (الاستقامة أو الانحراف) بالمعايير العبادي، ولتجنب السقوط من عين الله وأعين الناس معاً، ويعني هذا أنه يدعوه للتفكير

(١) التميمي، عبد الواحد الأمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٢، رقم الحديث (٤٠)، ص ٣٢٠.



الموضوعي فيما قيل كمادة بحث ودراسة تتم معالجتها بطريقة علمية لا الانجرار وراء دوافع شخصية.

ولهذا، فدراستنا هذه، تهتم بموضوع، ومادة إرشادية تشغل تفكيرنا، لا انشغالنا بمشكلة (ناقل الوصيّة) كرواية ذات موضوع معتبر، أي ما يهمنا هو طبيعة (المادة الإرشادية) للنص، وليس موضوع بحثنا، ما يشيره البعض من تشكيكات وطعون في شخصية جابر الجعفي رحمه الله، فهذا أمر متروك للعلماء والمحققين الذين ذهب كثير منهم، وبالأخص من علماء الإمامية إلى اعتبار جابر عليه الرحمة رجل ثقة، والنظر إليه كـ(عالم جليل، وثقة معتبر)، ويكتفيه أن عالمين كبيرين كابن شعبة الحراني في القرن الرابع الهجري، والعلامة المحدث الشيخ محمد باقر المجلسي رحمه الله في القرنين الحادي عشر والثاني عشر قد وثقاه، ونقلوا عنه، ولم يطعنوا في روايته.

مفهوم الوصيّة الإرشادية

لاحظنا في مدخل هذا النص الإرشادي، وفي السطر الأول منه استخدام ابن شعبة الحراني عليه رحمة الله ورضوانه - وهو مؤلف كتاب (تحف العقول عن آل الرسول)، وجامع رواياته، وخطبه، وجمله، وحكمه القصار - لصطلاح (وصيته)، وهو أول لفظة، وكلمة في عنوان هذه الرواية بهذا المصدر، وكتب ابن شعبة عنوان هذه الوصيّة هكذا : (في طوال هذه المعاني .. وصيته^(١) جابر بن يزيد الجعفي)، وكان ضمير (الهاء) يشير إلى (وصيّة الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر^{عليه السلام}) لاصحابه المذكور.

والوصيّة في مجمل معناها الكلي بالقواميس والمعاجم اللغوية العربية مرتبطة عند

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص ٢٠٦.

العرب، وعلماء اللغة بمعناها الأصلي وهو ما يتصل بأمر الميت، فهي (ما يوصي به^(١))، فالوصية ما يُوصى به^(٢) أو (ما أوصيت به^(٣))، ومضت تفاسير المعاجم على هذا المنوال، ولم تذكر شيئاً عن وصايا غير مالية كالوصايا الإرشادية، ومع ذلك شاع ذكر (الوصية) كلفظ، ومنظومة وصايا إرشادية في بعض مصادرنا استخدام ألفاظ وكلمات مثل (وصيّة، وصايا، وصاياه) خارج سياق المعنى المالي والمادي، فلفظ (وصيّة) المذكور في أول الرواية التي رواها جابر الجعفي عن إمامه الバقر هو لفظ شائع في ثقافتنا العربية، ويستفاد منه في الاتجاه المناسب، وهو مجرد مثال تطبيقي.

فالوصية (اسم)، وجمعها وصايا أو وصيّات، وتتعدد معانيه في معاجم اللغة العربية، ولها معنى فقهى، ومعانٍ متعددة في اللغة والقانون، وعادة ما يشترك في نسيجها أطراف متفاعلون ك(الوصي، والوصى له، والوصى به)، غالباً ما يتبارد لأذهان الناس إلى الوصيّة المالية التي بمقتضها يتم توزيع المال وثروة الشخص والممتلكات بعد وفاته كالأب، أو غيره.

وقد تكون الوصيّة وثيقة أو مستندًا خطياً يُخبر فيها الرجل عن رغبته في كيفية توزيع أمواله وممتلكاته بعد موته، ولكنَّ مفهوم الوصيّة كما في مثال وردنا في نص الإمام الـباقر أعلاه (معناه المالي والمادي)، وامتد ليدخل مفهوم الوصيّة في سياق معنى ثقافي، أخلاقي، وتنظيمي للسلوك، كأن تكون الوصيّة نسقاً لجموعة من القواعد السلوكية التي يوصي بها الأب أبناءه، أو أحد العلماء تلاميذه، أو هي وصايا الله عزَّ وجلَّ يعمل بها كقواعد توجيه للعمل، وتوجيهه كما جاء في وصايا النبي محمد ﷺ، والإمام علي،

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (وصي) باب حرف الواو، ص ٤٨٥٤.

(٢) ابن منظور، مصدر سابق، ص ٤٨٥٤.

(٣) المعجم الوسيط، ص ١٠٣٨، وختار الصحاح للرازي، ص ٣٠٢.



والسيدة فاطمة الزهراء وبقى الأئمة الأطهار عليهم جميـعاً السلام.

وقد قيل قبل ذلك بما يـعرف بالوصايا العـشر، ويقصدون الشرائع والـحكم، والـقواعد الثقافية والـ الأخلاقية والـسلوكـية التي تحـفظ لـتنظيم حـيـاة الفـرد، وـعـلـاقـات جـمـاعـات النـاس مع بعضـهم من غـواـئـل الانـحرـاف، وبـالتـالـي يـفـهـمـ من الوـصـيـةـ الثـقـافـيـةـ التي نـحنـ بـشـأنـهاـ (كـلـ شـرـيعـةـ مـلـزـمـةـ أوـ كـلـ منـظـومـةـ قـوـاـعـدـ سـلـوكـيـةـ يـرـادـ العـمـلـ بـهـاـ أوـ يـحـبـ الـلتـزـامـ بـهـاـ، وـتـطـبـيقـهـاـ، وـتـنـفـيـذـ ماـ جـاءـ فيـ بـنـوـهـاـ)، فـوـصـيـةـ الإـلـمـامـ مـحـمـدـ بـنـ عـلـيـ الـبـاقـرـ لـصـاحـبـهـ الـكـرـيمـ جـابـرـ بـنـ يـزـيدـ الـجـعـفـيـ رـحـمـهـ اللهـ تـعـالـيـ هـيـ فـعـلاـ (وـثـيقـةـ إـرـشـادـيـةـ وـثـقـافـيـةـ وـتـرـبـوـيـةـ)ـ كـانـتـ مـسـمـوـعـةـ لـحظـةـ صـدـورـهـاـ الـأـوـلـ، ثـمـ أـصـبـحـتـ مـرـوـيـةـ عنـ طـرـيقـ التـنـاقـلـ الشـفـهيـ حـتـىـ كـتـبـتـ فـيـ وـقـتـ لـاحـقـ بـمـصـادـرـ الـعـلـمـاءـ الثـقـاتـ، وـالـمـوـالـينـ لـأـهـلـ الـبـيـتـ، وـدـوـنـتـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ بـعـضـ الـمـصـادـرـ الـرـوـاـيـةـ وـالـتـارـيـخـيـةـ عـنـ الشـيـعـةـ الـإـلـمـامـيـةـ وـغـيرـهـمـ مـنـ أـئـمـةـ الـإـلـمـامـ وـعـلـمـائـهـ، فـأـصـبـحـتـ هـذـهـ الـوـصـيـةـ بـمـثـابـةـ (وـثـيقـةـ مـخـطـوـطـةـ وـمـكـتـوـبـةـ)ـ صـدـحـتـ بـهـاـ أـفـواـهـ وـكـتـبـ، وـمـاـ يـزالـ تـرـاثـ أـهـلـ الـبـيـتـ يـفـخـرـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـوـصـيـةـ كـسـائـرـ مـاـ جـاءـ فـيـ الـأـئـمـةـ الـأـطـهـارـ مـنـ وـصـایـاـ وـحـکـمـ.

مصادر وصيـةـ الإـلـمـامـ الـبـاقـرـ لـجـابـرـ الـجـعـفـيـ

قلـبـتـ عـدـداـ مـنـ مـصـادـرـ الـإـلـمـامـيـةـ باـحـثـاـ عـنـ ذـكـرـ هـذـهـ الـرـوـاـيـةـ التـيـ يـمـكـنـ أـنـهـاـ نـقـلتـ لـنـاـ (وـصـيـةـ الإـلـمـامـ الـبـاقـرـ)ـ فـيـ الإـعـدـادـ التـرـبـويـ، وـالتـوـجـيـهـ الإـرـشـادـيـ، لـكـنـ لـسـوءـ الـحـظـ، وـتـقـصـيرـنـاـ فـيـ الـبـحـثـ، وـرـغـبـتـنـاـ فـيـ اـسـتـهـمـارـ الـوقـتـ الـذـيـ بـاتـ يـضـيقـ عـلـيـنـاـ، لـمـ نـتـمـكـنـ مـنـ الـعـثـورـ عـلـىـ مـصـادـرـ كـثـيرـةـ هـذـاـ النـصـ الـحـيـويـ وـالـمـهـمـ، وـهـذـاـ اـكـتـفـيـنـاـ بـهـاـ تـحـصـلـنـاـ عـلـيـهـ مـنـ مـصـادـرـ نـعـتـقـدـ أـنـهـاـ تـكـفـيـ لـاعـتـمـادـهـاـ كـنـصـ إـرـشـادـيـ مـعـتـبـرـ الـقـيـمـةـ، مـنـ حـيـثـ تـنـاسـبـ مـوـضـوـعـهـاـ الـإـرـشـادـيـ لـلـنـصـوـصـ الـدـينـيـةـ وـالـأـخـلـاقـيـةـ، وـمـعـ تـقـصـيرـنـاـ فـيـ الـبـحـثـ عـنـ

مصادر لنص وصية الإمام الباقر لصاحبته جابر بدرجة كافية، إلا أن المعروف من هذه المصادر حتى الآن أنها تعد في نظر علماء الإمامية رضوان الله عليهم (معتبرة، وأساسية، وموضع ثقتهم).

أهداف دراسة وصية الإمام الباصرة.

نرى بنظرتنا الاجتهادية المتواضعة أن أهداف هذه الوصية كنص إرشادي كريم قد توزعت على مستويات ثلاثة:

أولاً: أهداف الموجه المرشد.

ثمة أهداف أراد الإمام الباقر تحقيقها، ولنلخصها فيما يأتي:

- تحقيق الإمام محمد الباقر رضا رب الكريمين (الله سبحانه وتعالى)، وجعل هذا النص في خدمة عباده الصالحين من أهل الإيمان، وإرشادهم بالطرائق والأساليب التي تبيئ لهم شعوراً إيجابياً بحياة آمنة في عالم الآخرة.

- سعي الإمام الباصرة إلى توظيف خبرته الروحية والمعرفية في صياغة مادة إرشادية في نص مطوى يستفاد منها بين أجيال المؤمنين على مدار قرون متتالية من الزمان في بناء النمط العبادي من أوجه متعددة.

- ترسيخ الموجه المرشد بتعاليمه وقيمه، ونعني به هنا (إمام الحق محمد الباصرة) لروابط الولاء والفكر الإيماني والعبادي بينه وبين أصحابه آنذاك، وتنمية علاقاته الواسعة مع جميع المؤمنين على امتداد الدهر، وخير مثال لذلك تواصل هذه الجموع معه بآليات ووسائل اتصال كثيرة لم تقطع طوال هذا التاريخ.



ثانياً: على مستوى الوصيّة كنص موضوعي:

ويرتبط بنص هذه الوصيّة رغبة الإمام الباقر عليه السلام بتحقيق بعض الأهداف من شيوخ نصه كأحد مصادر التوجيه والتربيّة الإرشاديّة، ومنها - كما نراها - ما يأتي:

١. تربية الإمام محمد الباقر عليه السلام لأصحابه المقربين، والموالين له في عصور متالية من الزمان على اكتساب قدر مناسب من الحصيلة اللغوية التي تصب خيرها نهاية الأمر لصالحهم، وتشري قدراتهم اللغوية واللفظية^(١) كآليات في تحصيل وتحقيق أهداف حياتهم العبادية على المدى البعيد، فالقدرات العقلية - سواء أكانت لفظية أم غيرها - هي في نظر المربi المسلم مجرد وسائل وآليات، وليس غايّات بالمنظور العبادي.

٢. توجيه الأفراد الموالين - وكل بحسب إمكانياته الذاتية - نحو توظيف الثروة اللفظية التي اكتسبوها من نص الوصيّة واستثمارها في عمليات بناء شخصياتهم.

٣. تمكين النص بمفرداته اللفظية، ومادته الإرشادية والمعرفية من التأثير على شخصيات الأفراد المؤمنين بتوجه ذاتي أو الاستعانة بمربيٍّ.

ثالثاً: على مستوى المتلقى للنص.

١. تعزيز الروابط بين المتلقى، وبين أهل البيت جمِيعاً، ومنهم موجه هذا النص ومرشدده.

٢. نقل المادة الإرشادية للنص ما أمكن إلى مستوى التفاعل الأوسع بين الموجه، والمتلقى.

(١) هي في دنيانا، وبالنسبة للفلسفات والثقافات غير العبادية تعتبر أهدافاً يمكن بذل الجهد لتحقيقها، وهي في نظر المشرع وسائل لبلوغ أهداف المؤمنين في آخرتهم، والتقارب بها - كنعمة إلهية - إلى الله عز وجل.



٣. إثبات قدرة المتلقّي لهذه المادة الإرشادية، وبجهده الذاتي على استئثار هذه الوصيّة، وما تقدمه من عون وخدمة إرشادية في تربية شخصيته الخاصة.
٤. تحقيق الفرد لرضاه النفسي عن ربه عز وجل، وبلغ حالات معقوله من التوافق، والرضا عن الذات، والصحة النفسية.
٥. أن يكتشف الفرد ذاته من خلال وسائل متعددة، ويعرف خصائصها الصحيحة وغير الصحيحة وفق معايير المشرع الإسلامي.
٦. تسخير عملية التأمل الذهني، والتفكير فيما يقوله الناس عن الفرد بغضّن تمييز أنماط السلوك السوي، والعصبي في شخصيته.

مصادر توجيه الإنسان وضبط حركته في النص

عنيت بعض الدراسات الإسلامية قديمةً ومعاصرةً - وهي في جملها دراسات أخلاقية وسociولوجية وروحانية - بمصادر حركة الإنسان وتوجيهه تفكيره، وعواطفه، وحياته الوجدانية، ومسار نشاطه اليومي، وقد عدّتها، واعتبرتها (منابع أساسية) في إدارة عمل الذات البشرية ونشاطها، وقد حصرها الشيخ محمد مهدي الآصفى طيب الله ثراه في دراسته عن (الموى) بستة مصادر أو منابع أساسية، وهي «الفطرة، العقل، الإرادة، الضمير، والقلب أو الفؤاد، وأخرهم ما يعرف بالموى»^(١).

وقال العالم الجليل الشيخ الآصفى - رحمة الله تعالى - بشأنها، وفي بيان أدوارها، وأهميتها في حركة الإنسان وتوجيه حياته ما لفظه:

١. الفطرة: وفيها أودع الله تعالى الميل والتزوع والانجذاب إلى الله تعالى ومعرفته،

(١) الآصفى، محمد مهدي، الموى في حديث أهل البيت، ص ١٦ - ١٧.



وإلى الفضائل والقيم الأخلاقية كالوفاء، والعفة، والرحمة، والكرم...

٢. العقل: وهو مركز التمييز والتشخيص في تكوين الإنسان.

٣. الإرادة: وهي مركز القرار، وتؤمن للإنسان حرية القرار واستقلاليته.

٤. الضمير: وهو محكمة قائمة في داخل النفس مهمته محاكمة الإنسان، وتوبيخه، وممارسة الضغط عليه لتعديل سلوكه.

٥. القلب أو الفؤاد أو الصدر: وهو نافذة أخرى للوعي والمعرفة، كما نفهم من خلال آيات كتاب الله تعالى، يتلقى الإشراق والوعي من لدن الله تعالى.

٦. الهوى: وهو مجموعة الغرائز والشهوات المودعة في نفس الإنسان، والتي تتطلب الإشباع بقوّة، وتكتسب الإنسان لذة عند الإشباع.

ثم قال في خاتمة إشارته لهذه المصادر: «وهذه المنابع الستة التي ذكرتها للحركة والوعي في نفس الإنسان، هي من أهم المصادر التي أودعها الله تعالى لدى الإنسان»^(١) لتسهيل وإدارة حياته بتوجيهه من هذه القوى الأساسية وفعلها الإيجابي والسلبي.

وما ذكره شيخنا المرحوم الأصفي قد أشارت إلى بعضه وصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر كنص تربوي وأخلاقي وإرشادي بلفاظها المباشرة وبأسئلها المعروفة في المصادر الإسلامية ك (الهوى، والعقل، والقلب أو الفؤاد)، وأشارت إليه ضmineاً، وبنحو غير مباشر كالمصادر الثلاثة الأخرى، وهي (الفطرة، والإرادة، والضمير) في عدد من جملها، وعباراتها، وسيدرك القارئ في طي كلامنا في هذه الدراسة ما كان مذكوراً بمصطلحات مباشرة، وما كان مشاراً إليه ضmineاً في طي النص ومفرداته اللغوية بنحو غير مباشر يوجه الفهم إليه.

(١) الأصفي، محمد مهدي، مصدر سابق، ص ١٦.



ونحسب أن بعض المصادر المكتسبة من خارج الذات الإنسانية لم يذكرها الشيخ الآصفى رحمه الله عز وجل، وذكرتها وصية الإمام الباقر عليه السلام في نصها مباشرة أو بنحو غير مباشر، مثل العلم والاسترشاد به كما في نص الوصية وعدد من مصادر الإسلام، وكذلك (الدين أو الوحي الأمين) في تكاليفه الشرعية، وأوامره ونواهيه، وفرايشه، وأحكامه المتعددة، إلّا إذا كان الشيخ الآصفى رحمه الله قد أدخل (الدين، والوحي) كجزء من الفطرة الإنسانية كما هو شائع في المصادر الدينية، وأدرج (الاسترشاد بالعلم) ضمن (قوى العقل)، وكأحد مصادر التوجيه الإنساني في حركة الحياة، ونعتقد أنه رغم اتصالها (العلم والوحي أو الدين) بالفطرة، وتركيبة العقل وقواه إلّا أنها قوتان أساسيتان في عملية التوجيه الفكري والوجداني والسلوكي للإنسان الآدمي.

مسوغات دراسة وصية الإمام الباقر لجابر بن يزيد الجعفي.

وجدنا في بعض المسougات ما يستثير رغبتنا في دراسة نص وصية الإمام الباقر عليه السلام لصاحبها جابر بن يزيد الجعفي، ويمكننا تحديد بعض هذه المسougات التي اقتضت دراسة الوصية كنص مليء بتوجيهات وإرشادات خاصة ب التربية الشخصية المؤمنة، وجعلتها في اعتقادنا المتواضع جديرة بالبحث والدراسة وتحليل مادتها اللغوية والمعرفية، ومنها ما يأتي:

١. الطبيعة الإرشادية لنص هذه الوصية، وخصوصية مخزونها المعرفي الخاص بهذا الموضوع التربوي، وثروته الأخلاقية الفاعلة في تكوين نظرة إرشادية تعين المربى على بناء النمط العبادي لشخصية الإنسان المسلم المعاصر.
٢. حاجة الأفراد المؤمنين لمجموعة التعليم والتوجيهات والإرشادات التي



تضمنتها هذه الوصية، وبكيفية مباشرة في عمليات الإعداد التربوي للشخصية المؤمنة في مراحل مختلفة من تاريخنا.

٣. الطول النسبي لنص الوصيّة قياساً لنصوص أخرى من تراث الإمام الباقر، فهذه الوصيّة هي من أكثر نصوصه التي عثرنا عليها طولاً.

٤. تناسب حجم هذه الوصيّة في طولها، وفي وفرة مفرداتها اللفظية وغزارتها معانيها، مع إمكانية استخدام جزئي للمنهج الموضوعي، والإفادة منه في عملية تفسير موضوع حيوي، واستمداد رؤيته المعرفية من باطن هذه الوصيّة.

٥. وضوح لغة النص، ومعنى الوصيّة، وتناسب مستوى اللفظي مع ثقافة كثير من الناس سواء كانوا من الباحثين أم من القراء.

٦. توثيق نص هذه الوصيّة في مصادر إمامية قديمة ومعتبرة، ومدونة في كتب وموسوعات علماء ثقات، والاطمئنان إلى مستويات كفاءتهم.

٧. نقص الدراسات بوجه عام المستخلصة من تراث الإمام الباقر، ودراسة هذه الوصيّة فرصة لقراءة بعض تراثه العلمي والروائي.

كيفية دراسة الوصيّة

يحتاج كل باحث ي يريد دراسة هذا النص ومعرفة مضامينه الداخلية لانتقاء منهج مناسب يساعد على نجاح مهمته في التعامل مع هذا النص وتفكيك محتواه وتحليل بنائه المعرفية، وهذه الخطوة تمثل ضرورة علمية، وهناك أكثر من منهج يمكن استخدامه في دراسة نص هذه الوصيّة، فاختيار المنهج المناسب من مهمة الباحث نفسه، ومعرفته بقدراته على استخدامه في تفسير مفردات هذا النص، وإدراك معانيه، واستثمارها في



تحديد مقاصده البنائية، وأهدافه التربوية بنحو خاص، وكل باحث هو في نهاية الأمر حر العمل، وفي اختيار المنهج بما يخدم أهدافه، ويصل به إلى النتائج المراد تحقّقها. ويبدو أمامنا منهاجان رئيسيان هما: (المنهج التجزيئي، والمنهج الموضوعي).

أ- المنهج التجزيئي.

وتاريخياً ساد في أواسط كتابات العلماء الأقدمين، وكثير من المعاصرین اتجاه ومنهج تفسيري يقوم في عملية (تفسير النصوص) المراد دراستها إلى جمل وعبارات ومقاطع صغيرة ما أمكن، حيث يتحرك المفسر هنا – وبهذه العملية – من جملة سابقة ومتقدمة، إلى تفسير جملة لاحقة، ومتاخرة تتلوها، وتنصل بها حتى يصل المفسر شيئاً فشيئاً إلى آخر جملة، أو نهاية النص الذي يفسره بطريقة تجزيئية، ومفككة الأجزاء إلى نهايتها.

وتتدخل في هذه المهمة أشكال محدودة من المعارف، وينتقل فيها ما هو أدبي، ولغوي، وفلسفي وأخلاقي بمعارف جزئية ومحدودة أخرى، وغير مترابطة أحياناً، ولا يمكن الفرد من تكوين نظرة معرفية موحدة إزاء قضية أو موضوع معين، ونعتقد أنه يمكن استخدام هذا المنهج التفسيري في دراسة نص هذه الوصيّة، وتفسير معانيها بهذا المنهج التجزيئي، ويعطي بعض الفوائد، ولكن لا يخدم العملية الإرشادية التي يتبعها نص وصيّة الإمام الباقر كوحدة معرفية متكاملة.

ب- المنهج الموضوعي.

وثمة اتجاه تفسيري هو الآخر قديم، ومعروف نسبياً في بعض الكتابات و المجالاتها المعرفية، ولكن لم يجد هذا المنهج الموضوعي انتشاراً في مجالات المعرفة الإسلامية سوى في مجال علم الحديث وتدوين الروايات في أبواب، وفصول مقسمة، ويسهل الوصول

إليها، فكل مجموعة منها قائمة بذاتها، وعلى حدة بحسب نوع موضوعها، وسار على منواله علماء معاصرون في رواية الحديث كما في موسوعة (ميزان الحكمة) بمجلداته العشرة.

بيد أنَّ عَلَّامتنا الكبير، والمفكر الإسلامي الشهيد السيد محمد باقر الصدر طَيْبُ الله ثراه قد خطَا بالمنهج الموضوعي خطوات تقدُّميةً أوسع، وقدَّم تجربة علمية انموذجية قائمة على تحليل نصوص قرآنية وآياته الكريمة في موضوع موحد معرفياً، ومتكملاً في جوانبه الفكرية أسماه بـ(السنن التاريخية في القرآن الكريم)، وطبع كتابه - بدء الأمر - بعنوان (الاتجاه الموضوعي، والتجزيئي في تفسير القرآن الكريم)، وقد عالج فيه الموضوع ذاته برؤية جديدة غير مسبوقة.

الدراسات السابقة

هناك مصادر - بحدود خبرتنا المتواضعة - نشرت نص هذه الوصيَّة وتناولتها عبر أجيال متعددة من الزمان، فهذا النص موثق في كتاب (تحف العقول عن آل الرسول)، وهو من مصادر الإمامية في القرن الرابع الهجري، وعرفنا كذلك أنَّ العَلَّامة المحدث محمد باقر المجلسي، وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري قد نقل هذه الوصيَّة، وأثبتتها كنص في موسوعة (بحار الأنوار^(١))، وفي بعض النسخ من الكتب، وهذه إفاده تتعدد مصادر نقل هذه الوصيَّة كرواية عن جابر الجعفي ينقلها عن أبي جعفر الإمام محمد الباقر.

وممَّا لا شك فيه أن المقدم السابق هو الأصل، والآخر ناقل عنه، بيد أن هذين

(١) انظر موسوعة البحار للمجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٦٢ - ١٦٥.



المصادر، وربما في غيرها اكتفي بنقله من مصدر إلى آخر، ويعني ذلك مجرد استنساخه من مصدر سابق ليستقر في مصدر لاحق، وبالتأكيد وجدنا في بعض المصادر كما في تحف العقول، وفي (موسوعة البحار للمجلسي) عليه الرحمة والرضوان استخدام تفسير تجزيئي لبعض كلماته فقط، ووضع معانيها في هوما ش نص الوصيَّة بأسفل الصفحة في هذين المصادرين، وتعتبر هذه الخطوة بمثابة (تعليق) على بعض الكلمات، وتفسير غواصتها بحسب ما يراه المحقق، وما قد يعتقده الباحث من وجهة نظر، ولكن هذا لا يعني أنَّ دراسة تحليلية سابقة لنص هذه الوصيَّة سواء كانت بطريقة تجزيئية أم بمنهج آخر.

ونعتقد - وربما كنا مخطئين - أن هذه الوصيَّة على أهميتها التربوية والإرشادية في توجيه الفرد المؤمن لم تجد اهتماماً مناسباً يجعلها مادة بحث ودراسة وتحليل واستقراء، ولم تحظ بدراسة مستقلة ومنفردة ومستفيضة سواء بطريقة تحليلية أو بغيرها، وتعذر علينا معرفة وجود دراسة لهذا النص حتى لحظة دراستنا بعض محتوياتها المعرفية باعتماد جزئي للمنهج الموضوعي، ولا يسعنا سوى القول إنَّ الحقيقة عند الله عز وجل.

عواائق الدراسة

كما تعودنا في إعداد الدراسات مطولة أو قصيرة، فإنها لا تخلو عادة من مشكلات وعواائق، وقد واجهتنا في تحضير مادة هذا الكتاب عائق محدودة - كسائر ما عهدناه من عائق في إعداد دراستنا السابقة - ويَسِّر الله المضي في جمع مادة هذه الدراسة، وتنظيمها منهجياً حتى وصلت إلى وضعها الآن، ونحن لا علم بمدى رضا القارئ عنها أو اعتراضه عليها، ويمكنا القول إنَّ هناك أكثر من عائق سنشير إليه بإيجاز، ولكنه لم يمنع من إعداد دراستنا لأحد الموضوعات التي تضمنتها هذه الوصيَّة، ومن ذلك تم

إعداد هذا الكتاب.

١. ويقوم العائق الأول على أننا لم نجد في المصادر التي نشرت هذه الوصية شروحات وتفسيرات كافية، باستثناء وضع هوامش أسفل بعض صفحات الوصية، وهي أشبه بتعليقات على معاني بعض الكلمات في هذه الوصية، وبعدد قليل، وعلى نطاق ضيق، ولعل علماء الشيعة الإمامية بالأمس، وفي مراحل تاريخية سابقة، وبعيدة، ربما كانوا لا يتحسّسون حاجتنا إلى وجود هذه الشروحات والتعليقات الموسعة التي نتحسّس قيمتها، ونحتاجها اليوم بعد أن فقدنا كثيراً من المفردات اللغوية باللغة العربية، وذلك - كما نعتقد - أنهم بسبب تكثفهم من اللغة العربية وعلومها، وضوابطها، وفهمهم في الوقت نفسه معاني دينية تسهل عليهم فهم مفردات الوصية ومعانيها، وإدراك مقاصدها فقد تجاوزوا عن شروحات المفردات لفظية كثيرة، ويعني ذلك أنّهم آنذاك كانوا (قريين من لغتنا العربية)، ومهاراتهم - كما نظن من فهم هذا النص - كانت من خبراتهم اللغوية للعربية التي ألوها، فلم يعد في نظرهم اهتمام كبير بشرح مفردات ومعاني كلمات عربية.

٢. بالرغم من جديتنا في البحث عن مصادر لنص رواية هذه الوصيّة، وتناقلها بين أيدي الناس، وعبر أجيال متعاقبة برواية صاحبه جابر الجعفي عن إمامه الباقر عليه السلام، إلا أنّ ما تم بذلك من جهد بحثي في هذا الشأن لم يساعدنا حتى الآن على تحصيل معرفة موسعة بمصادر هذه الرواية في كتابة العلماء الأقدمين، وأنه حتى لحظة الانتهاء من إعداد هذه الدراسة لم نوفق سوى في معرفة عدد قليل من المصادر، ومع اعتقادنا بأن نص الوصيّة كرواية عن الإمام محمد عليه السلام، وبسان صاحبه الكريم (جابر الجعفي) هي في واقع الحال وصيّة ذات قيمة علمية وأخلاقية، ومبثوثة كمادة إرشادية في عدد من

المصادر الروائية لعلماء الإمامية، وبنسخ أخرى^(١) كما جاء في موسوعة (كتاب بحار الأنوار).. للمحدث الكبير الشيخ محمد باقر المجلسي رحمة الله عزّ وجلّ، وكما نقل محقق كتابه في طبعته الثانية التي وصفها بـ «الحقيقة».

(١) استخدم محقق موسوعة (بحار الأنوار) الصادر عن مؤسسة الوفاء في طبعتها الثانية المحققة لعام (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) جملة (وفي بعض النسخ) على تعليقاته في شرح بعض معاني كلمات هذه الوصية، وتكرر الاستعمال للجملة المذكورة في موضوع ((وصيَّة الإمام الباير لخابر الجعفي)), انظر هوامش ص (١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٧٥ ، وصفحات عديدة)

الحلقة الثالثة

مدخل للعملية الإرشادية في وصية الإمام الباهر عليه السلام لجابر الجعفي

مقدمة

ونقصد موضوع هذه الحلقة الرئيسية من كتابنا، وهو حديثنا عن وجود نزعة إرشادية بارزة في نص وصية الإمام الباقر عليه السلام بألفاظ مباشرة وصرحية أو بالألفاظ وجمل تعبيرية تنتهي دلالتها ومعانيها إلى تأكيد وجود هذه النزعة أو اتجاه إرشادي يجيد ما يسميه البعض من العلماء والباحثين بـ(المنهج الإرشادي)، وهو منهج إنساني يتبعه في المرشد والمربي المسلم، وبثقافته التربوية الإسلامية بتقديم خدمة إرشادية ذات مضمون عبادي تعين الأفراد على مساعدة أنفسهم، وتخطي صعاب الحياة وعقباتها وألامها والتغلب على ظروف سوء التكيف فيها، والوصول إلى أهداف مأمولة يرتضيها المشرع التربوي الإسلامي.

إنَّ (الإرشاد) بمعانيه السيكولوجية والأخلاقية والثقافية لا تقتصر على وجود نزعة إرشادية يؤكِّد عليها نص الوصية الباصرية في ألفاظها، وعباراتها، وتركيبتها اللغوية، بل يلحظ من سياق المحتوى اللفظي والمعرفي تجاوز النص للمعنى العام للإرشاد كنزعه فطرية في تركيبتنا الآدمية إلى مستوى تنظيم هذه النزعة وتفعيلها كخبرة إنسانية تؤدي أغراض المنهج الإرشادي الذي يتبنّاه المشرع التربوي الإسلامي سواء في نص الوصيَّة الباصرية أم في مئات الروايات والأحاديث والنصوص بمختلف تصنيفاتها المعرفية والروحية، وهي خبرة إرشادية تنظيمية للسلوك البشري وتوجيهه في مسارات العمل العبادي المقبول في حياة الإنسان، وبمحدداته الإيمانية.

كما أنَّ النزعة الإرشادية في هذا النص الكريم لوصية الإمام الباقر عليه السلام تجاوزت



-كما فهمناه- الطابع الفردي من توجيهه وإرشاد لشخص واحد من الناس اسمه جابر بن يزيد الجعفي، وهو صاحبه المخلص رضوان الله عليه إلى طابع جماعي بتوجيهه الأفراد المؤمنين، وبخدمة إرشادية منظمة إلى طريق الهدى والاستقامة وطاعة المعبود، وطلب رضاه سبحانه بمجموعة من التوجيهات والإرشادات انطوت على أوامر حيناً، ونواهٍ حيناً آخر، وكان غرض الإمام الباقر عليه السلام توحيدها في قوة تنظيمية ضابطة للسلوك الإنساني بخطوات وقائية إذا كان الموقف التربوي يتطلب العمل الاستباقي أو بخطوات علاجية حين تغرق الذات في بعض أمراضها السلوكية الشهوية، فيكون قدر المربى والمعالج والمرشد استخدام الأوامر والنواهي الإرشادية التي تتطلبها ظروف الشخصية في مواقف علاجية.

وما نعنيه بانتقال فهم النص إلى عمل جماعي هو بتقبل جماعات المؤمنين وأفرادهم الروح الجماعية للنص، فالواضح أن حديث الإمام الباقر عليه السلام كان موجهاً كما أشرنا لصاحبه جابر الجعفي، وهذا قد يراه البعض مناً فردياً، ونعتقد أن هذا الفهم خاطئ وغير منطقي، إذ لو كان الأمر كذلك لما نشره جابر بين الناس ليتعلموا مضامين دعوته الإرشادية ووصاياته المعرفية والأخلاقية، ولكن نص الوصية في تراث جابر وحده، ولكنه رحمه الله آثر نشره ليستفيد منه المؤمنون وعامة الناس، ويتعلموا منه أفراداً وجماعات، وهكذا فهمنا أنه نص للجميع لا لواحد دون غيره من الناس.

المفهوم اللغوي للإرشاد

تعددت اتجهادات اللغويين في تحديد معاني لفظة (رشد) وما تفرع عنها، ورد في بعض هذه المعاجم: عن (مفردة رشداً) ما لفظه: «رشد الرّشاد ضد الغي، تقول (رشد) يُرشد مثل قعد يقعد، (رشداً) بضم الراء، وأرشده الله، والطريق (لأرشد)

مثل الأقصد، ونقول هو (الرشدة) ضد قوله لهم لزينة^(١)، وتوسع ابن منظور رحمه الله في تحديد معاني لفظة (رشد) ومشتقاتها اللغوية، ونأخذ منها ما توافق مع مفهومه العام والسائد في الثقافة اللغوية العربية.

قال ابن منظور في معجمه: «راشد، من أسماء الله تعالى الرشيد، وهو الذي أرشد الخلق إلى مصالحهم، ودفعهم عليها، أي دفعهم تدبير الله على سبيل السداد من غير إشارة مشير ولا تسديد مسدّد، والرُّشدُ، والرُّشْدُ، والرَّشاد: نقىض البغي، رَشَدُ الإنسان (بالفتح) يرشد رُشداً بالضم، ورشد بالكسر، يرشد رَشَداً ورشاداً، فهو راشد ورشيد، وهو نقىض الضلال إذا أصاب وجه الأمر والطريق... والراشد: اسم فاعل مِنْ رَشَدَ رِشْدُ رُشداً»^(٢).

وقال ابن منظور: «وأرشده الله وأرشدَه إلى الأمر، ورشدَه: هداه، واسترشده: طلب منه الرَّشادَ، ويقال استرشد فلان فلاناً لأمره إذا اهتدى له، وأرشدته فلم يسترشد، وفي الحديث: وإرشاد الضال، أي هدايته الطريق، وإذا أرشدكَ إنسان الطريق فقل: لا يَعْمَ عليك الرُّشدُ، قال أبو منصور: ومنهم من جعل رَشَدَ يُرْشَدُ، ورَشِدَ يُرْشَدُ بمعنى واحد في الغي والضلال، ثم قال: والإرشاد المداية والدلالة^(٣)، وذكر ابن منظور رحمه الله قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَ اتَّبَعُونِ أَهْدِيْكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ أي أهديكم سبيلاً القصد^(٤)، سبيلاً الله عز وجل، وأخر جكم من سبيل فرعون.

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، باب حرف الراء، ص ١٠٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، باب حرف الراء، ص ١٦٤٩.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، باب حرف الراء، مفردة رَشَدَ، ص ١٦٤٩.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، باب حرف الراء، مفردة رَشَدَ، ص ١٦٥٠.



وفي القاموس المحيط والمعجم الوسيط تنوّع استعمالات اللفظ (رَشَدٌ) ومشتقاته، ونتقي منها، وبتصرف، ما حدد معناها اللغوي العام لكلمة الإرشاد^(١)، وبمعنى الهدایة والطريق الأصوب، والاستقامة على طريق الحق، وجاء في السياق نفسه بعض المعاني القريبة منه، حيث نقل اللغويون في هذا المعجم والقاموس اللغوي معاني فعل (رَشِدَ) وانتقينا منها ما يناسب حديثنا، فقالوا في هذا القاموس: رَشِدَ: رُشْداً، اهتدى فهو راشد، (رَشِدَ - رُشْداً، ورَشَادًا): رَشِدَ فهو رشيد، ويقال رَشِدَ أمره: رَشِدَ فيه وُفُقّ له، و(أَرْشَدَه): هداه ودلّه، يقال أَرْشَدَه الله، وأَرْشَدَه على الأمر، و(رَشَدَه): أَرْشَدَه وهداه، والقاضي الصّبّي: قضى برشده، و(استرَشَدَ) له: اهتدى له، وفلان طلب منه أن يُرْشِدَه، والترشيد: حكم القاضي ببلوغ الشاب الرُّشد، و(الراشد): (المستقيم على طريق الحق)^(٢)، وتتابع بعض هؤلاء اللغويين تحديد معناه في مسارات متعددة فقالوا:

أ- (الراشد): (عند الفقهاء): أن يبلغ الفرد الصّبّي حد التكليف صالحًا في دينه مُصلِحًا لماله.

ب- وفي القانون: السن الذي إذا بلغها المرء استقل بتصرفاته.

ج- والرشيد: من أسماء الله الحسنى، وحسن التقدير.

د- والمُرْشِدُ، هو الواعظ، ومن بلغ سن الرشد فهو «رشيد»^(٣).

وذكر الراغب الأصفهاني معاني واضحة للرّشد ومشتقاته، وعزّزها بآيات

(١) انظر القاموس المحيط، والمعجم الوسيط، باب حرف الراء، ص ٣٤٦.

(٢) القاموس المحيط، والمعجم الوسيط، باب حرف الراء، مفردة رشد، ص ٣٤٦.

(٣) القاموس المحيط والمعجم الوسيط، مصدر سابق، ص ٣٤٦ (بتصرف).

ونصوص قرآنية، ففي مادة (رشد) من باب حرف الراء قال: «رشد: الرُّشدُ، والرُّشدُ خلاف الغيُّ يستعمل استعمال الهدایة، يقال: رَشَدَ يَرْشِدُ، وَرَشِيدَ يَرْشَدُ قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(١)، وقال: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾^(٣)، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(٤)، وبين الرُّشدَينِ، أعني الرُّشدَ المؤنسِ من اليتيم الرُّشدَ الذي أُوتِيَ إِبْرَاهِيمُ^ص بَوْنُ بعيدٍ، وقال: (هَلْ أَتَبْعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلَّمَنِ مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا)^(٥)، وقال: (لَا قَرَبَ مِنْ هَذَا رُشْدًا)^(٦)، وقال بعضهم: الرُّشدُ أَحَصُّ من الرُّشدِ، فإنَّ الرُّشدَ يقال في الأمور الدنيوية والأخروية، والرَّشَدُ يقال في الأمور الأخروية لا غير، والرَّاشدُ والرَّشيدُ يقال فيهما جميعاً، قال تعالى: (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)^(٧)، و﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾^(٨)^(٩).

وحَدَّدَ اللغوي المعاصر (جبران مسعود) في معجمه الطليبي بعض المعاني الواضحة للرشد كمعنى (الهدایة والاستقامة على الحق)، وهو المعنى المراد في نص وصيَّة الإمام الباقر، قال جبران في رائد الطلَّاب: «رَشَدَ، يَرْشِدُ: رُشْدًا، وَرَشَادًا، اهتدى، عرف طريق الرَّشاد والاستقامة»، رَشَدَ يَرْشُدُ، رَشَدًا، وَرَشَادًا، وعدَّ جبران مسعود بعض

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) النساء: ٦.

(٤) الأنبياء: ٥١.

(٥) الكهف: ٦٦.

(٦) الكهف: ٢٤.

(٧) الحجرات: ٧.

(٨) هود: ٩٧.

(٩) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، باب حرف الراء، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.



معاني (رشد) فقال: وهو يعدد بعض معاني هذه اللفظة: «الرُّشْدُ» هو:

- أ- مصَّ، رَشَدٌ.
- ب- الاستقامة على طريق الحق.
- ج- الْهُدَى، الصَّوَابُ.
- د- بلوغ الأولاد مبلغ الرجال أو النساء^(١).

المفهوم الاصطلاحي للارشاد

وهو ما يشار إليه في علوم إنسانية متداخلة في مادتها.. كالأخلاق، والتصوف وعلم النفس، وعلم الإرشاد النفسي مع اختلاف في صياغة مفهومه، وتحديد معناه بحسب مفردات العلم الذي يستغلون به، ومع ذلك لا نريد هنا تحديد مفهوم الإرشاد كما هو شائع عند الأكاديميين، ولا التوسع في مجالاته المتعددة كالإرشاد النفسي، والمدرسي، والاجتماعي، والديني، والعلاجي، وفي مؤسسات العمل ومجالاته المتعددة، وغيرها، فالإرشاد بالمساحة التي تحدث بها علماء الإرشاد النفسي هي واسعة، وتصل لمجالات عديدة من نواحي حياتنا، وهذا شغل المهتمين بالدراسات الأكاديمية، وهم بالتأكيد قد حددوا معناه بطائفة من التعريفات التي تهم الأكاديميين والمهنيين، ولا نجد شغلاً لنا بها.

ومن هذه التعريفات ما ذكره معجم المصطلحات التربوية والنفسية بأنَّ الإرشاد هو (محاولة فرد مساعدة آخر على فهم مشكلات تكيفه وحلّها، ومنه الإرشاد التربوي،

(١) جبران مسعود، رائد الطالب، ٤٦٠ - ٤٦١.

والإرشاد المهني، والإرشاد الاجتماعي^(١)، ومن أنواعه كذلك «الإرشاد العلاجي، وهو تخفيف وطأة المشكلات السلوكية بالإرشاد، والمهن المساعدة بالإرشاد في حل مشكلات اختيار المهنة أو التمييز لها»^(٢).

والإرشاد كمصطلح شائع في أدبيات علماء النفس يؤسسون مفهومه على اختلاف ألفاظهم في تعريفه بأنه علاقة فريدة لمساعدة مسترشد وصاحب مشكلة بجهد مرشد، مربٌ يملك مهارات العمل الإرشادي، وتقوم هذه العلاقة على سرية وتفاعل ومقابلة بينهما واتصال عقلي وعاطفي بين شخص يملك مهارات العملية الإرشادية كما ذكرنا، وقد يكون نشاطاً بين مرشد وجموعة أشخاص مواجهة مشكلة معينة مع مساعد يمتلك نفس المهارات الإرشادية، ويعملون على توفير الأوضاع التي تسهم في حل المشكلة وتغيير السلوك بها يتفق وأهداف وقيم المسترشد، كما يرى آخرون منهم أن الإرشاد عملية مساندة ومساعدة بين مرشد ومسترشد، ويتاح فيها للمتعلم، والمسترشد، وصاحب المشكلة فرصة التعلم والتفكير والاختيار والتجربة وتغيير الأفكار والمشاعر والسلوك بطرائق مقبولة ومرغوبة، وبطوعانية لا قهر فيها، وتساعد على فهم نفسه وحل مشكلاته الخاصة.

وتضيىء تعريفات علماء الإرشاد على اختلاف لغتها اللفظية في هذا المنحى، ويمكن للقارئ، أو الباحث اللجوء لمصادر هذا العلم ليجد جملة من التعريفات شبه متقاربة في معانها، وتوصيفاتها مع تفاوت قل أو كثر في لغتها اللفظية، وفي تحديد بعض خصائصه^(٣)، أو جمعها مع أنها تؤدي خدمة إرشادية إنسانية، إلا أنها لا توجه أهدافها

(١) حسن شحاته، وزينب النجار، معجم المصطلحات التربوية والنفسية، ص ٣٣ - ٣٤.

(٢) حسن شحاته، وزينب النجار مصدر سابق، ص ٣٣.

(٣) انظر مثلاً كتاب الإرشاد التربوي والتفسيري في المؤسسات التعليمية للدكتورة رافدة الحريري، والدكتورة سميرة الإمامي، ص ٢١ - ٢٣.



خدمة الأهداف العبادية، لكنها بالتأكيد تلتقي معها في بعض ما تذكر من خصائص ومهام وأهداف.

إنَّ مفهوم الإرشاد في دراستنا محدود ومرتبط بالمحظى المعرفي لوصية الإمام الباقر، وهو ذو صبغة دينية، وعبادية، وإنسانية، وتم بواسطة نص هذه الوصية تقديم خدمات إرشادية للفرد المؤمن كي يفهم نفسه، ويدرك جوانب القوة ومكامن الضعف في شخصيته، ويستبصر أساليبه في وقاية نفسه من مخاطر قواها الداخلية، والمثيرات المحيطة، ويساعد نفسه على اعتماد أساليب علاجية في نواحٍ معرفية وروحية وسيكولوجية وأخلاقية، وفهم علاقات الذات بنفسها، ومع الإنسان الآخر، ومع الله عزَّ وجلَّ، وبعلم الأشياء، والاهتداء لطرق التربية والإصلاح وتقويم الذات بآليات المشرع التربوي الإسلامي المحددة في نص الوصية، وفي نصوص أخرى للإمام الباقر.

وتتوقف مهمة المنهج الإرشادي لدى المشرع الإسلامي في جوانبه الثلاثة (الإنمائي والوقائي والعلاجي) على تنمية روح المسؤولية لدى الفرد المؤمن، وعلى أخلاقية السلوك وإذكاء الصيغة الإيمانية، وعلى أداء الوظيفة العبادية: «للكائن الآدمي على هذه الأرض، وبدون هذا التفسير لا يمكن أن يتم أي نجاح في تعديل السلوك، ويتم ذلك من خلال الالتزام بمبادئ السلوك الإسلامي في مستويات النشاط، وبدون هذا الالتزام لا يمكن أيضاً أن يتم أي نجاح في تعديل السلوك»^(١).

وصاغ العلامة البيسطاني مبادئ السلوك الإسلامي في التصور التالي، فقال:

«تنطلق الشخصية الإسلامية من تصوُّر خاص لدلالة وجودها في هذه الحياة

(١) البيسطاني، محمود، دراسات في علم النفس الإسلامي، ج ١، ص ١٦٧ - ١٦٨ .



المحددة:

١. هذا التصور يقضي بـأنَّ وجودها (هادف)، وبـأنَّه يرتبط بالقيام بمهمة خاصة هي: (الخلافة على الأرض).
٢. المهمَّة الخلافية أو العبادية المذكورة تحددها السُّماء، متمثلة في الالتزام بجملة من المبادئ (فعل ما هو واجب، مندوب)، وترك ما هو (محَمَّم ومكرور)، والختار بين سلوك لا يَتَسَم بأمر او نهي (المباح).
٣. ويتميز (الوجود الدنيوي) بـأنَّه (مؤقت) أولاًً، وبـأنَّه (وسيلة) وليس (غاية) ثانياً.
- أ- أمَّا كونه (مؤقتاً) فـلأنَّه قبال حياة أبدية هي (الدار الآخرة).
- ب- أمَّا كونه (وسيلة) فـلأنَّه من أجل تحقيق (الحياة الأخرى).
٤. إِنَّه مجرد (اختبار) يشبه الاختبار المدرسي تماماً لـتسلُّم (درجة) النجاح أو الرسوب في اجتياز الشخصية للدار الآخرة.
٥. يترَّب على (الاختبار) أن تواجه الشخصية (شدائد) أو (إحباطات) للـلَّه، أي صراعاً بين (الشهوة والعقل)، بين (الذات والموضوع).
٦. ولكي يمضي (الاختبار) بنجاح يتعيَّن على الشخصية أن تمارس نمطاً من اللَّه هي (الـلَّه الموضوعية)، و(تأجيل) اللَّه الذاتية (بغية تحقيقها في الدار الآخرة... بعد التخرج).^(١).

(١) البستاني، محمود، مصدر سابق، ج ١، ص ١٦٨.



وقد عرّفنا باجتهاد علمي منّا مفهوم العملية الإرشادية في دراسة تربوية سابقة ورأينا بأنّها: «العملية القائمة على تبصير الإنسان بذاته، وتقديم العون له، ومساعدته على تعديل سلوكه بقيم، وأساليب عبادية وإرشادية سواء اتّسمت بصيغة وقائية أو إنمائية أو علاجية»، فالعملية الارشادية جهد بشري هادف ومنظم وموجه نحو تعامل صحيح مع الخصائص الإيجابية في الذات الإنسانية، بحيث تستجيب للأهداف العبادية^(١) التي توختها مختلف النصوص التربوية الإسلامية بما فيها نص الوصيّة الباقرية من توجيه وإرشاد ومساعدة وخدمة للمحتاج صاحب المشكلة، وهي تلتقي مع مضمون العملية الإرشادية وتفاصيلها المجملة في أحاديث النبي محمد بن عبد الله عليهما السلام، وفي أقوال ونصوص الأئمة المعصومين الأطهار من عترته الكريمة.

ونعني من ذلك اعتبار هذه الوصيّة:

«وثيقة إرشادية مهمة، وآلية عمل عبادية يحاول المربّي المسلم عن طريقها اكتشاف خصائص الذات، ومعرفة قواعد السلوك السوي في منهج الله، وتفعيل العلاقة بينهما، بهدف تكين الإنسان من فهم ذاته، ومعرفة قدراته وتوجيهها في ضوء منهج إرشادي واضح الخطوط والمعالم.. منهجه يساعد على القيام بالأدوار والوظائف العبادية المكلّف بها من قبل خالقه سبحانه وتعالى، وتحقيق الأهداف الكبرى للإنسان»^(٢).

مفردة (الاسترشاد) بالعلم في نص الوصيّة.

بعد تعرّفنا على معانٍ متعددة للفظة (الرشد) في مصادرها اللغوية، كان أبرز معانيها.. الهدایة والاستقامة، ووضوح الطريق، تتوقف عند اللفظ الوحيد المباشر

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ٤٤.

الذي ورد في نص الوصية المباركة، ويدرك هذه العملية، وهو مصطلح (استرشاد العلم) المكون من لفظتين، ودللت هذه الجملة القصيرة التي ورد فيها هذا المصطلح على دعوة واضحة و مباشرة، ومحفزة للعبد المؤمن على أداء الفعل الإرشادي كوظيفة عبادية لحماية الذات الإنسانية من مزالق الهوى ومخاطرها سواء كان هذا المؤمن في دور (مرشد) أم كان في دور (مستشار)، وكما علمناه فهذه اللفظة (استرشاد) اقتربت بكلمة (العلم) إذ جاء لفظ (الاسترشاد) في إحدى جمل الوصية الباقرية المباركة في الجزء الثالث من نصها عندما قال الإمام الباقر في سلسلة أوامر متتابعة الجملة التالية في كلام مباشر لا لبس فيه ولا غموض لمن يتقن العربية ومفرداتها، وكان يدعو آنذاك لمواجهة الهوى بدلالة العقل وباسترشاد العلم، فقال، وهو يأمر صاحبه جابر الجعفي، وكل مؤمن موحد لله سبحانه وتعالى: «وَتَوَقَّ مُحَاذَةً الهوى بدلالة العقل، وَقِفْ عند غَلَبةً الهوى باسترشاد العلم».

الخطوة السابقة هي خطوة وقائية (استباقية) باستخدام أهم النعم الإلهية على الإنسان في مواجهة هوئ نفسه وشهواتها، ودفاعها المنفلتة، وباستعمال (العقل) القادر على التمييز بين الحق والباطل، وكذلك بالاسترشاد بالعلم كأحد مقومات الذات الإنسانية، ويمثل بالنسبة للإنسان خبرة ذاتية متولدة من نمو العقل، ونمو قدراته ونشاطها في حركة الحياة، فالعقل هو القدرات التي يولد الإنسان مزوداً بها من قبل الله عز وجل، أما العلم فهي خبرات الفرد، وما نشأ عنه من تجرب وتدريب هادف ومنظم في حركة الحياة، فكان منها الخبرات العلمية التي تدل على اختيار الطريق الصحيح، وترشده لما فيه خيره وهدايته واستقامته على منهج الحق، ولكن ذلك بخطوة وقائية قبل أن يلوث الإنسان نفسه وعقله بالانحرافات والذنوب وأنهاط الإعاقة لنموه النفسي والذهني، فيضطر حينذاك إلى معالجات مكثفة ووجهة لإزالة ما لوّث النفس الإنسانية



من انحرافات، وما أصابها من أوضار الدنس والإثم، ومعوقات واضطرابات، وعلل، ورواسب فاسدة، وقد أسمىها الإمام الباقر عليه السلام في نصوصه لصاحبته جابر بن زيد الجعفي بـ (سالف الذنوب).. أي مجموعة الذنوب والمعاصي التي عصفت بالذات في تجارب ماضيها واستحكمت بمصيرها، ويعني هذا أن (الاسترشاد) لا بد أن يكون منهجياً، يعتمد على العلم والخبرة المعرفية المتولدة عن نجاح العقل وقدراته الذاتية على توليد حقائق معرفية سليمة تعينه على التمييز بين ما هو سليم، وما هو خاطئ.

وكانت الجملتان السابقتان تربطان العلم بالعقل؛ لأن العقل هو في الأصل (عقل ولادة) أي القدرة العقلية العامة، فأحد النصوص صرخ قائلاً: «العقل أصل العلم، وداعية الفهم»^(١)، وما تمايز عنها من قدرات خلال نمو الفرد وتفاعلاته مع مثيرات الحياة وظروفها، أما (العلم) فهو في أصله (عقل) إفادة أو استفادة أو تجربة»^(٢)، أي

(١) محمدري ريشيري، ميزان الحكم، ج ٦، ص ٤٠٠، وكتابنا (التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية) ص ١٧٧.

(٢) إن العقل نوعان أحدهما الذكاء، وهو عقل فطري موهوب وفطري يولد الفرد أو الإنسان مزوداً به، ويسميه الإمام علي عليه السلام بـ «عقل ولادة، وعقل طبع، وعقل مطبوع»، أما النوع الآخر للعقل فهو تجارب الإنسان وما يكتسبه من بيئته بعد تفاعلاته المستمرة مع المثيرات في محیطه، ويسميه الإمام علي بعقل التجربة أو الإفادة، والمهم أن العقل - بقسميه معاً - أحد أهم العوامل المؤثرة في فهم الإنسان وتعلمه، واكتسابه الفضائل، والقيم وأنماط السلوك، وذكر في هذا الصدد بعض النصوص التربوية الواردة عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، وقد جاءت في بعض المصادر الإسلامية مثل قوله: «العقل ولادة، والعلم إفادة»، والعقل عقلان: عقل الطبع، وعقل التجربة، وكلاهما يؤدي إلى المنفعة، ويعني عقل الولادة ما يرثه الفرد من ذكاء فطري زوده الله به، أما عقل الإفادة فهو العلم والخبرات المتولدة عن استخدام الذكاء وتنميته في صور متعددة من القدرات العقلية لدى الكائن الآدمي في مراحل متدرجة وتصاعدية من عمره، وبخاصة في سن الطفولة، انظر ميزان الحكم، ج ٦، ص ٤١٣، وكذلك كتابنا (التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية)، يوسف مدن، ص ١٧٧.

أنّه مجموعة خبرات تكونت بعد نجاحنا في تنمية قدرات العقل ومهاراته الأساسية والفرعية بسلسلة من التجارب الدنيوية المقصودة كما ذكر الإمام علي  في بعض أقواله، ولهذا السبب -كما نعتقد- تقدمت في الجملتين المذكورتين لفظة (العقل) على لفظة (العلم)، وأتت في جملة من نص الوصية الباقرية لفظتا (دلالة العقل) قبل لفظتي (استرشاد العلم)، فالعقل في أصله قدرة ذهنية فطرية كامنة في تركيبتنا الأدميّة، وقد ولد الإنسان مزوداً بها كي يتم تربيتها، بينما يشكل (العلم)، وهو أهم مظاهر العقل الفطري مجموعة «قدرات وخبرات متولدة عنه، ومكتسبة تنشأ عادة عن التجارب وعن أنشطة المربi لتفعيل القدرات الفطرية الكامنة للعقل وتربيتها أو هو بلغة متداولة اليوم ينشأ العلم من الذكاء وليس العكس، وقد ذكرنا حديث أن «العقل أصل العلم، داعية الفهم»^(١).

كانت لفظة (الاسترشاد) لفظة واضحة، وتوحي لنا بالعملية الإرشادية في نص وصية الإمام الباقر  بتفعيل قدراته وقواه الداخلية والمكتسبة، ومنها العلم، والإرادة وشدة التيقظ الذهني في مخالفة الهوى، ومواجهة شهوات النفس للسيطرة عليها وضبطها، وجعلها تحت الطوع والإرادة والمشيئة الإنسانية، ولكن مع ذلك فشلة مفردات قليلة تصب في مسار الفعل الإرشادي وتعزيزه بالقيم العبادية كإشارة الوصية للفظ (التشاور)، والتفكير فيما قيل في الفرد من أقوال تزوير أو صحيحة، وهما شكلان من أشكال الفعل الإرشادي المراد تفعيله، وتأصيله، أمّا باقي ما ورد في نص الوصية من جمل وعبارات فهي مجموعة مواعظ ونصائح وأوامر ونواهٍ تجتمع كلها في تعزيز العملية الإرشادية لاستخدامها في بناء نمط عبادي لشخصية الفرد المؤمن باتّباع كل أمر يرشد إليه العقل والعلم والدين، وتجنب كل ما ينهون عنه من السيئات، والمعاصي

(١) محمدي ريشيري، ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٤٠٠.

وأفعال السوء.

قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «الأمور ثلاثة:

- أمر بـَانَ لكْ رُشْدُه فاتبعه.
- وأمر بـَانَ لكْ غَيْرَه فاجتنبه.
- وأمر أشْكَلَ عَلَيْكَ فرِدَدَتْه إِلَى عَالَمِه»^(١).

وبوجه عام - وكما عرفنا النفس - لن ترك صاحبها يختار رشده و هدايته وصواب الطريق بسلام وراحة واطمئنان، لذلك لا بد من تنبئه لمقاومة ما تريده من وسوسات شيطانية ونوازع إبليسية، وقد نصح أمير المؤمنين بما قاله لإبنه الإمام الحسين عليه السلام بضرورة اختيار مخالفة شهوات النفس.

ولنقرأ بعض النصوص القصيرة في هذا الشأن:

«يا بُنَيَّ كم من عاص نجا، وكم من عامل هوى، منْ تَحْرَى الصدق خَفَّتْ عليه المؤمن، في خلاف النفس.. رُشْدُه»^(٢)، وقول ابن أبي طالب سلام الله عليه في هذا الشأن: «الرُّشْدُ في خلاف الشهوة»^(٣)، والمراد هنا نوع الاستجابة، وتعني كما قلنا في دراسة تربوية وأخلاقية سابقة: «الاستجابة للشهوة المحرمة، غير السوية بالمعايير الديني والإنساني هو خلاف الرُّشْد العقلي للإنسان»^(٤)، وقوله: و«املكوا أنفسكم بدؤام جهادها»^(٥).

(١) الحراني، الحسن بن الحسين بن شعبة، تحف العقول، ص ١٤٩.

(٢) الحراني، ابن شعبة، مصدر سابق، ص ٦٦، وميزان الحكم، محمدي الريشهري، ج ١٠، ص ٣٨٤.

(٣) الحراني، ابن شعبة، مصدر سابق، ص ١٥٣.

(٤) مدن، يوسف، العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد، ص ٢٥٩.

(٥) محمدي الريشهري، ميزان الحكم، ج ١، ص ١٤٣.

ويستفاد من التركيبة اللغطية لنص وصية الإمام محمد بن علي عليه السلام، ومحتواها المعرفى الحكيم أنها دعت في مادتها الإرشادية للعملية الإرشادية بـاللفاظ مباشرة وقليلة ومحدودة، لكنها بـاللفاظ آخر.. غير مباشرة، وفي شكل أوامر ونواهي وأساليب إيجابية، وقائية، وعلاجية، وتنمية خصائص سلوكية إيجابية وتجنب رذائل سيئة قد غطّت هذه الوصيّة الميمونة - كما نعتقد - عناصر مهمة من العملية الإرشادية، وامتدت إلى جوانب عديدة من كيان الكائن الإنساني كي يكون شخصاً مؤمناً قادرًا على أداء وظيفته التربوية - العبادية في حركة الحياة، ومتقيداً مخلصاً بالتكاليف الشرعية من أوامر ونواهـ وباقي الأحكـام.

أهداف العملية الارشادية

ثمة مكونات لنص وصية الإمام الباقر عليه السلام كسائر النصوص في مجالات فكرية وتربيوية وغيرها، فهناك مكونات أساسية لهذا النص كـ (المحتوى المعرفي، والأساليب والطرق، ومناهجها العامة، وعملية تقويم السلوك)، وإلى جانب ذلك نجد في الأهداف جزءاً هاماً من مكونات نص هذه الوصيّة الكريمة، وقد مررنا في حلقة ماضية على أهداف عامة للنص بأكمله.

ونتوقف هنا على أهداف عامة للعملية الارشادية، وأخرى خاصة أو فرعية، وجميعها موصول العلاقة بالأهداف السابقة، أو متفرع منها، أي مشتقة منها، وهي في الحلقة السابقة، وفي هذا الموضع من دراستنا هي أهداف حيوية بالنسبة للفرد، وقد تم صياغتها برؤيه اجتهادية قد تكون مقبولة للقارئ أو يجد فيها ما يحفظ عليه أو يعتب، فإن أصينا فأجرنا على رب العالمين، وإن أخطأنا نسأله عز وجل أن يغفر لنا ما تقدم من ذنب وما تأخر.



ونقسم هذه الأهداف إلى عامة وفرعية.

أ - الأهداف العامة.

كما فهمنا من باطن هذه الوصيّة فإنَّ العملية الارشادية التي استوعبها نصوصه الإمام الباقر عليه السلام تستهدف تحقيق هدفين أساسين، وهما:

١. تحقيق الفرد المؤمن في جهده العبادي حالة من الشعور بالأمان، والاطمئنان، والرضا الإلهي عن أداء ذاته حتى بالحد الأدنى.

٢. تحقيق قدر طبيعي من الاتزان الانفعالي، والتواافق النفسي، وقدر مطلوب ومقبول من الصحة النفسية والعقلية.

ب - الأهداف الفرعية (الخاصة).

١. السعي إلى تدريب الشخصية المؤمنة بطريقتين وقائية وعلاجية على فضائل السلوك العبادي وقيمته، وعاداته الحسنة التي يرضيها الله عزّ وجلّ.

٢. تعويذ الفرد المؤمن على اكتشاف نفسه، وتنمية مهاراتها، ومعرفة خصائصها لمساعدة نفسه على التربية الوقائية بتنمية الخصال الحميدة، وعلى التربية العلاجية التي تعيد الذات إلى الحالة الإيمانية.

٣. تنمية صفات الشخصية المؤمنة سواء في مرحلة التربية الوقائية أو في مرحلة التربية العلاجية باكتشاف خصائص النفس ومعرفتها.

٤. التعرف على مبادئ وأساليب تنظيم السلوك في نصوص الوصيّة وتسخيرها في بناء النمط العبادي للشخصية الإيمانية.

٥. اكتشاف قوى مصادر التوجيه والإرشاد الموجهة التي تمكن الأفراد من ضبط

سلوكهم، وتنميته بالمحددات الإيمانية والتَّوافقيَّة.

٦. التعرُّف على أمراض السلوك العصابي كما حدّتها الوصيَّة كالاستهانة بالذنب وقبول الحالة التي يكون عليها الفرد العاصي المذنب، وتحديد أساليب التغيير، والمعالجة وطرائق تعديل السلوك المرغوب نحو الأفضل بالقيم والفضائل.
٧. تبييه أذهان الأفراد إلى مخاطر الهوى وتسوييف التوبية وقساوة القلب.
٨. تفعيل قدرة الأنَا المؤمنة على تنمية روح المسؤولية والتأكيد على فاعليتها في معرفة السلوك، والتمييز بين أنماطه الخاطئة والصحيحة.
٩. استثمار أُخْلاقيَّة نص الوصيَّة وجذوته الدينيَّة في ضبط السلوك الإنساني وتوجيهه وتقويمه، وتفويية عناصر القوة في شخصية الفرد المؤمن.
١٠. تمكين الفرد المؤمن من معرفة نفسه وفهم خصائصها، ومعالجة مشاكله، وإثارة دافعية المسترشد وتفسيرها، ووضع حلول علاجية لهذه المشكلات.

مصادر الاسترشاد وينابيعه الأساسية

الاسترشاد - بحسب ما قرأناه في نص الوصيَّة - واجب شرعي، وضرورة تربوية دينية تحقق للفرد المؤمن أهداف وجوده في الحياة، وتشعره بأهميته ككائن مكلف شرعاً، وكما يلحظ من طبيعة الخطاب الإرشادي للوصيَّة الباصرية وقوفنا على بعض مصادر توجيه السلوك وإرشاده لدى الكائن الأَدَمِي كالعقل بقدراته الفطرية لتمييز ما هو حق عَمَّا هو باطل ثم عمل الفرد بنتيجة هذا التمييز الراشد، وكذلك العلم، والدين، والضمير الأخلاقي الوجداني، والرؤاد أو القلب، وتحبّط هذه المصادر كقوة إيجابية داخل تركيبتنا الأَدَمِية لمواجهة قوة هي من داخلنا أيضاً، وهي (قوة الهوى) وشهواته

ووساوسه، وهو مصدر رئيسي لأنحرافات الإنسان ومعين ذنبه ومعاصيه، وغرضها تحقيق راحة للنفس واجماع القلب، أي تحقيق توافق نفسي، وقدر معقول من الصحة النفسية والعقلية للإنسان، وصولاً إلى الهدف الأكبر وهو رضا الله سبحانه، وتجنب حالات سقوط الفرد من عين الله وأعين الناس معاً.

إنَّ الفعل الإرشادي لن يكون مفيداً إلَّا بتأسيسه على دلالة العقل، واسترشاد العلم، وحكمة الدين والتكاليف الشرعية، وحيوية الجهاز القيمي، والضمير الأخلاقي، ورقة الفؤاد أو القلب الإنساني وعطافه ولطفه، فهذه القوى يمكن أن تتآزر معاً، ويستفاد منها كمصادر توجيه في ضبط العمل الإرشادي وتسخيره في تقديم خدمات معرفية وروحية ونفسية وذهنية تعين الأفراد على مناصحة أنفسهم من أجل تنمية مهاراتهم، وتطوير قدراتهم، وبناء نمط عبادي مطلوب لشخصياتهم.

وكانت وصية الإمام الباقر صريحة في إسناد الفعل الإرشادي بأوامره ونواهيه (سلوك عبادي) للأفراد، وهم يحاولون مجاهدة أنفسهم ومخالفتها أهواءها، وانتقاء حالات إشباع للشهوات بأساليب حلال ومشروعه، وهذه الوصية صريحة في تدعيم القوى للأفراد في التعود على اكتساب الفضائل والقيم، والمفاهيم المعرفية المرغوبة في النظرية التربوية الإسلامية، ثم المران، وتدريب الذات على تأصيل وترسيخ المشاعر الإنسانية النبيلة التي يسعى المربى المسلم بأدواته المتعددة بهذه الوصية الكريمة إلى تعميميتها في كيان الفرد وتقويتها.

ولنقرأ - كأمثلة - بعض المقاطع اللغوية المهمَّة التي تستبطن وجود هذه القوى الداخلية في كيانبني آدم كمصادر توجيه وإرشاد متفرقة في نص الوصية وجملها وعباراتها وضبط سلوكنا نحو الفضائل وتجنب الرذائل، فهذه المقاطع جمعت بين دفتيرها قوى:



١. العقل (الذكاء العقلي الوراثي للفرد) أو عقل الولادة.

٢. العلم، وهو العقل المستفاد أو عقل التجربة.

٣. الفؤاد أو القلب.

٤. صدق الخوف، والإرادة الذاتية للإنسان.

٥. الضمير الوجданى، والقيم الأخلاقية وغيرها.

وجميعهم من القوى الإيجابية التي يستخدمها الإنسان (مؤمن أو غير مؤمن) لردع قوة الهوى وكبح دوافعه، وشهواه الشيطانية الماجنة، وتطويقه على إشباع ما هو طبيعي، وما هو مقبول منها بالأساليب السوية التي يقرها المشرع التربوي الإسلامي.

ولتأمل في الجمل والمقطوع اللغوية التالية:

• «ادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وَتَوَقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وَقِفْ عند عَلَبة الهوى باسترشاد العلم».

وفي مقطع آخر مكون من سلسلة جمل متتابعة قال الإمام الباقر عليهما السلام:

• «وابتبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتفاق الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيشار القناعة، واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلاص إلى راحة النفس بصحبة التفويض، واطلب راحة البدن بإجمام القلب، وتخلاص على إجام القلب بقلة الخطأ، وتعرّض لرقّة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام



الحزن، وتحرز من إيليس بالخوف الصادق، وإياك والرجاء الكاذب، فإنه يوعلك في الخوف الصادق، وتزيّن الله عز وجل بالصدق في الأفعال».

وإذا كان العقل والعلم بارزین بوضوح في المقطع الأول، وفي دورهما المؤثر فإنَّه قد اجتمع في النص الثاني والمكون من عدة جمل تأثير قوى آخری هي مصادر لضبط الفعل الإرشادي وهي بعض القيم والأخلاق (القناعة، والزهد، وقصر الأمل، ورد اليأس، ومعرفة النفس، والوجود أو ليونة القلب والفواد، وأساليب ذكر الله تعالى في الخلوات، والخوف الصادق من الله عزّ وجل ودوم الحزن على معاصي النفس، وحماقتها، وارتكابها المستمر أخطاء متفاوتة الشدة والضعف في الماضي، والحاضر، ومحاولة التغلب على سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار وحسن المراجعة).

مهارات الطرفين (المرشد والمستشار) في العملية الإرشادية

ترتكز العملية الإرشادية على نشاط متبادل لطرفين هما (المرشد والمستشار) أو الناصح ومستقبل النصيحة، وقد يكون بين مربي ومرشد واحد وجموعة أشخاص كما في عمليات الإرشاد الجماعي، ومنها ما ذكره بعض الرواة والمحدثين عن نصح الإمام الباقر ومواعظه في أكثر من مرة لجماعات من شيعته، وهذا نمط من المقابلة الجماعية للأفراد في ممارسة العملية الإرشادية عند أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ولكلِّيهما (المرشد والمستشار) كائنين آدميين قدرات ومهارات خاصة بالعملية الإرشادية، وتحسب - غالباً - بلغة بعض العلماء المعاصرين كمهارات في الاتصال التعليمي، وتعني بها مهارات المرشد والمستشار، ولا حظنا باجتهداننا الشخصي بعضاً

من هذه المهارات الالزمة لنجاح العملية الإرشادية، وهي كما يأتي:

أ- مهارات للمرشد:

١. تمنع المرشد بمهارة الكلام والتحدث، وكان نص الوصية شاهداً على قدرة الإمام الباقر كمرشد تربوي وأخلاقي وروحي في مهارات التحدث والإملاء وصياغة الأفكار ومعانيها، وتوصيلها بلغة واضحة.
٢. قدرة المرشد -وهو هنا الإمام الباقر- على تعليم الآخرين، وتوفير المعونة الإرشادية المطلوبة، وتقديم الخدمة النفسية والروحية والأخلاقية.
٣. قدرة المرشد على تحديد حاجات المسترشد، والقيم الالزمة، والمصادر والأساليب والطرق ومبادئ عملية الإرشاد.
٤. مهارة المرشد النفسي، والمربي الأخلاقي في تشجيع المسترشد على مناقشة موضوعات مهمة من المشكلة المطروحة، ومن المادة الإرشادية التي هي موضوع الحوار بدون خوف وبطريقة مشجعة، وإرساء علاقات الاحترام المتبادل بمشاعر إيجابية مع المسترشد.
٥. مهارة المرشد على توجيه المسترشد ومساعدته على الاستفادة من فرص التعلم والتفكير الإيجابي والاختيار السليم، وتغيير السلوك بما يتفق وأهداف المشرع الإسلامي العبادي في نص الوصية.

ب- مهارات للمسترشد:

١. للمسترشد كذلك مهارات الاستماع إلى مرشدته، والإنصات إليه في حديثه، وذلك مقابل مهارة المرشد في التحدث، فأحدهما، وهو المرشد (الإمام الباقر) بنص



الوصية كان يتكلم ويتحدث، والآخر (وهو جابر أو أي مسترشد من الأفراد المؤمنين) يستمع إلى حديثه.

٢. يكون للمسترشد كالمرشد قدرة متفاوتة على فهم معاني التوجيهات، والإرشادات والتفاعل مع المرشد بتسامح وتعاطف واحترام متبادل بينهما.
٣. قدرة المسترشد على فهم المادة الإرشادية (التوجيهات وال تعاليم)، وما يتصل بها من معلومات وتوظيفها في عمليات التغيير المراد إحداثه.
٤. القدرة على ملاحظة السلوك اللفظي بنفسه أو الاستعانة بمرشد، وفهمه، وتنفيذ التعاليم الإرشادية الخاصة بشأنه من نص الوصيّة المباركة.

٥. لديه قدرة فاعلة في التعلم الذاتي، والتفكير الذاتي، والقدرة على مقابلة ما كان صحيحاً من فكره وسلوكيه ومشاعره، وما كان خاطئاً بمعايير ومحددات إيمانية.

مكونات العملية الإرشادية

لقد طلبت عملية تأملنا الذهني في نص الوصيّة الباقرية ومادتها المعرفية-الارشادية تحديد أهم المكونات الأساسية للعملية الإرشادية التي تضمنتها هذه الوصيّة المعنية، ولا يمكن تصور وجود مثل هذا النص بدون وجود فعلي لمكونات لهذا الوجود، وهي ما يأتي:

١. المكون الأول وهو المادة الإرشادية:

وهو نص وصيّة الإمام محمد بن علي الباقر، وهي رسالة بلغة الإعلاميين، وقد وصلتنا مادتها ومعانيها بواسطة المروي له، وتعتبر هذه المادة (منهج التوجيه وفقه

العمل الإرشادي)، ويكون من قسمين هما:

أ - التركيبة اللغوية.

وهي التركيبة اللغوية للنص، وتعني بها مجموع الكلمات والألفاظ، والجمل والعبارات المتلاحقة، والمتعلقة والمكتوبة بلغتنا العربية، وقد احتوت هذه التركيبة على محتوى معرفي في مجال توجيهه وارشاد الفرد المؤمن، وتحديد علاقاته الأربع مع الله ونفسه والإنسان الآخر وعالم الأشياء المادية المحاطة بكيان شخصيته.

ب - المحتوى المعرفي الإرشادي.

ويراد به المحتوى المعرفي – الإرشادي الذي تضمنته التركيبة اللغوية ومفرداتها اللغوية، وتضمن هذا المحتوى إرشادات وقيماً وفضائل وأخلاقاً، وآداباً اجتماعية، وأساليب وأدوات بناء السلوك العبادي المطلوب بالنسبة للفرد المؤمن وأساليب وطرائق تعديل سلوكه في حالة وقوعه بانحرافات السلوك، وغرقه في بحر من الذنوب والمعاصي والأخطاء.

٢ . المكون البشري:

ويدخل في سياقات هذا المكون أطراف بشرية فاعلة ومتفاعلة، ويشمل هذا المكون أطراف التفاعل البشري مع المادة الارشادية للوصية، وهم كما يأتي:

أ- إمامنا أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباqr عليهما السلام، صاحب النص ومصدره، وهو المرشد، ومنظّر الخطاب الإرشادي في هذه الوصيّة الميمونة.

ب- جابر بن يزيد الجعفي صاحب الإمام الباqr عليهما السلام، وأي فرد مؤمن آخر يعيش في أزمنة متعاقبة، وهو بلغة الإعلاميين (المستقبل) لفردات النص ومعانيه، وهو (الم sisil)



له، وهو من اوصل لنا ولغيرنا في آن واحد الرسالة والمادة الارشادية، والتفاعل مع مفردات النص اللغوية ومحتواه المعرفي، ومعانيه وعظاته التربوية.

ج- أمّا الطرف البشري الثالث، وهو كل عالم، مربٌّ، ورجل أخلاق، وكل من يستعان به من ذوي التخصصات في مساعدة الفرد المؤمن وتقديم خبرات إرشادية له، أو هو كل من يقوم بمهمة التوجيه للفرد المؤمن في تفاعله مع المضمون المعرفي والأخلاقي والإرشادي لهذه الوصيّة المهمّة.

٣. مدى التفاعل بين المكون البشري والمادة الارشادية.

وهذا التفاعل ضرورة تربوية لتحقيق أهداف العملية الارشادية، ويكون هذا التحقق بمقدار تفاعل الإنسان مع نص الوصيّة ومادتها الارشادية، ويتوقف ذلك على ما انطوت عليه طبائع الإنسان بمختلف أدواره، وقواه الفاعلة من إيجابيات واستعدادات داخلية تمكن الأفراد من التفاعل مع وصيّة الإمام محمد الباقر عليه السلام كنص إرشادي.

إنَّ منهج العمل الإرشادي واضح في لغة النص، وفي مطالبه، أمّا الطبيعة البشرية فمتساوية في مكوناتها الفطرية من دوافع وبواعث واستعدادات وقوى وقدرات ذاتية متصلة، ييد أن المشكلة تكمن في تفاوت الأفراد، ومن انضموا تحت المكون البشري المشار إليهم من حيث تفاعلهم مع النص ومادته الارشادية بخاصة المسترشد ومدى تعاونه مع مطالب النص أو الوصيّة، وقدرته على اكتساب أنماط السلوك العبادي من قيم، وفضائل، وعادات السلوك الحسن، والمرغوب فيه كما حدده هذا النص، ومن جهة أخرى يعمل الفرد على تخلص نفسه من عوائق السلوك العبادي كالذنوب والغفلة عنها، وتسويف النفس عن محاربتها، وافتعال أغذار غير مقبولة تنتهي إلى تعطيل

العملية الارشادية وإبطال تأثيراتها على النفس في جانبها العلاجي.

٤. المكوّن الزمني والمكاني.

ويخص الطرف التاريخي لصدور نصوص وصية الإمام محمد بن علي الباقر، وأسباب وبواعث كلامه عليه السلام لصاحبها جابر بن يزيد الجعفي رضوان الله عليه، ويشمل تاريخ صدور النص في زمن غير معلوم بدقة تامة من القرنين الأول أو الثاني الهجريين، وإن كانت فترة صدوره واقعة في هذا الزمان، ثم تداوله على مدار زمن تارิกنا الهجري بين أهل العلم والخبرة والإيمان والصلاح في مصادرهم وأدبائهم.

وكذلك يتضمن هذا المكون الأزمنة التي تستغرقها عملية البناء العبادي للشخصية أو تعديل سلوكها في فترات متعاقبة من تاريكنا الهجري فيما بعد فترة صدور النص، ويدخل في هذا المكون فترة استيعاب النص، إعداد شخصية كل فرد تفاعل مع القيمة المعرفية للنص، من كل عصر، أمّا المكان فالمدينة المنورة التي صدر فيها هذا القول الحكيم أو أي مكان تم فيه تطبيق هذه الوصية.

٥. المكوّن الخامس (أجر العمل بهذا النص وتنفيذه).

لو قُدِّرَ لنا أن نتعامل مع هذه الوصيّة كبيعة فإنّ لها في حساباتنا الدنيوية (بائعًا ومشتريًا وثمناً)، كذلك نجد هذه الوصيّة أشبه بهذه البيعة الشمينة، لها (بائع) هو الإمام الباقر صاحب النص، و(مشتري) هو جابر بن يزيد الجعفي، ومن بعده كل فرد من المؤمنين، و(ثمن) هذه البيعة، وهو (الأجر) الذي نحصل عليه عادة من التزامنا – قدر استطاعتنا – بآداب هذه الوصيّة وتفاعلنا مع أخلاقياتها في حياتنا الإيمانية والعبادية.

ونتصور أن للعلاقة بين مكونات نص الوصيّة ثمناً نحصل عليه إذا ما تقيدنا بمحتوها الداخلي، ونسجنا نسقاً لـ (ذاتنا)، فالثمن الطبيعي هو ما نحصل عليه من



أجر العمل بمضمون هذه الوصيَّة وتطبيقها على أنفسنا، ومصدر هذا الأجر من الله سبحانه، إذ يجازينا على أفعالنا الحسنة خيراً، كما يعاقبنا على ما فعلناه من سيئات، فالعمل الإرشادي له - كبيعة - عنصر آخر هو تحصيل الأجر من الله لطاعتنا لأوامره ونواهيه التي يمثلها نص الوصيَّة، وإذا ما تحققت مرضاة الله عز وجل، وشعر الفرد المؤمن بالرضا وسعادته والارتياح في داخل نفسه عن الله عز وجل، وعن رضا الفرد على نفسه يكون للوصيَّة ثمنها، وثوابها.

المحادثة كأسلوب عام للعملية الارشادية في نص الوصيَّة

ساد في نص الوصيَّة الارشادية أسلوب عام ميَّز هذه الوصيَّة كخطاب إرشادي، واحتزن هذه الوصيَّة بمجموعة أساليب فرعية، ويمكننا تحديد ذلك فيما يأتي:

١. كانت (المحادثة) تجسيداً لعلاقة ثنائية (وجهًا لوجه) بين الإمام الباقر عليه السلام، وصاحبـه جابر الجعـفيـ هو الأسلوب الإرشادي العام، والظاهر في هذه المقابلة بينـهماـ، وبالرغم منـ أنـ المـحادـةـ لمـ تـظـهـرـ (حواراً مباشرـاً)ـ بـيـنـهـماـ، إـلـاـ أـنـهـ فيـ نـهاـيـةـ المـطـافـ قدـ تـكـوـنـتـ عـلـاقـةـ إـرـشـادـيـةـ،ـ وـبـصـورـةـ مـبـاـشـرـةـ عـلـىـ نـمـطـيـةـ (المـحادـةـ)ـ الـواـضـحةـ،ـ فـقـدـ أـظـهـرـتـ الوـصـيـَّـةـ الإـرـشـادـيـةـ أـنـ الـإـمـامـ الـبـاقـرـ يـتـكـلـمـ أـوـ يـمـلـيـ أـقوـالـهـ،ـ وـصـاحـبـهـ جـابـرـ يـسـتـمـعـ أـوـ يـكـتـبـ أـوـ يـحـفـظـ مـاـ يـقـالـ،ـ وـهـذـاـ عـلـىـ كـلـ حـالـ مـؤـشـرـ عـلـىـ التـفـاعـلـ وـالـاتـصـالـ العـقـليـ وـالـعـاطـفـيـ بـيـنـهـماـ،ـ وـتـيـحـ لـجـابـرـ وـكـلـ مـؤـمـنـ فـرـصـاًـ مـتـجـدـدـةـ لـلـتـعـلـمـ وـالـتـفـكـيرـ الإـيجـابـيـ وـالـاخـتـيـارـ،ـ وـتـغـيـرـ الـأـفـكـارـ وـالـمـشـاعـرـ وـالـسـلـوـكـ طـوـاعـيـةـ،ـ وـبـطـرـقـ مـقـبـولـةـ،ـ بـلـ وـمـرـغـوبـةـ كـذـلـكـ.

٢. وبرزت كذلك طريقة (التوجيه الفردي) بصورة مباشرة، وكانت مرتبطة بالمحادثة، ومن ثم قامت - فيما هو ظاهر بهذه العملية - على معاونة الإمام الباقر عليه السلام،

وتقديم خبرته المعرفية، والتربية كـ(مرشد وكمرّب) على أساس فردي وشخصي خاصّة فيها يتعلق بمشكلات الفرد والشخصية المؤمنة.

٣. ومع بروز الأسلوب الفردي في التوجيه والإرشاد، فنص الوصية وجّه الأنظار وبصورة غير مباشرة، لتوجيه الأفراد، والجماعات، فالمكشوف في هذا النص علاقة بين مرشد هو الإمام، ومستشار هو جابر، وكان ذلك لحظة صدور النص، أمّا الآن فالإمام الباقر، وجابر غير موجودين، ولكن تجاوزت الوصية أسلوب التوجيه الفردي، فجاءهاير المؤمنين الأحياء بعدهما يمكنهم، وعلى امتداد العصور الاستفادة الجماعية من هذه الوصيّة، وبطريقة التوجيه الجماعي إذا ما توافرت فرصة اللقاءات، والجلسات الجماعية بين مرشد يفسّر معاني هذه الوصيّة وجماعة إيمانية، ويتلقون منه توجيهات الإمام الباقر عليه السلام من وصيّته.

٤. ثمة أساليب نصّت عليها الوصيّة كالنصح والموعظة، وتقديم المساعدة للمستشار للاستفادة منها في تنمية قدراته الذاتية بـ(القيم الأخلاقية كالقناعة والزهد، وصدق الخوف من الله، وقصر الأمل، واستخدام المعالجة بأسلوب (أصداد السلوك وتقابليها)، وتأجيج المشاعر الوجданية الإيجابية كتجغير مشاعر الندم، واستخدام أساليب الاستغفار، والذكر في الخلوات، وحسن المراجعة، ونقد الذات، والتفكير، والدعاء، وأداء الفرائض، وأساليب عديدة متفرقة في نص وصية الإمام عليه السلام).

أسس هامة في العلاقة الإرشادية

ثمة أسس يجب مراعاتها كما توحّي الوصيّة الإرشادية، ونذكر بعضها:

١. تقوم هذه العلاقة الإرشادية على التفاهم، والاحترام المتبادل بين المرشد



والمستشار.

٢. ترتكز هذه العلاقات على أساس إنساني، وعلى معرفة خبيرة بنفسية المستشار.
٣. أن تتوافق في العلاقة الارشادية صفات الإخلاص والوفاء والأمانة الأخلاقية من المرشد والمستشار معاً.
٤. أن تكون لدى المرشد ثقة كافية بنفسه وقدراته على أداء مهمته الارشادية، ومراعاة مشاعر المستشار واحترامها.

جوانب المنهج الإرشادي (الوقائي والعلاجي والإنمائي).

يتحرك المنهج الإرشادي في نص الوصية باعتماد طريقين معاً هما الجانب الوقائي والعلاجي، ويتقدم أحدهما على الآخر بحسب الموقف التربوي للذات، ويتدخل في أداء أدوارهما نوع ثالث يسميه بعض العلماء بالجانب الإنمائي، ويمكن وصف التأثير الإيجابي لكل جانب بنحو مختصر يتناسب وموقع هذه الجوانب الثلاثة من البحث.

١. الجانب الإنمائي.

ودور المنهج الإنمائي، ويسمى (الإنسائي)، حيث تقدم الخدمات الإرشادية إلى (العاديين لتحقيق زيادة كفاءة الفرد الكفاء، وإلى تدعيم الفرد المتواافق إلى حد ممكن، ويتضمن هذا المنهج الإجراءات التي تؤدي إلى النمو السُّوي السليم لدى الأسواء والعاديين خلال رحلة نموهم طوال العمر حتى يتحقق الوصول بهم إلى أعلى مستوى ممكن من النضج والصحَّة النفسيَّة، والسعادة والكفاية)^(١).

(١) أبو أسعد، أحمد عبد اللطيف، مصدر سابق، ص ٣٤٩

ويتوزع الجانب الإنمائي للذات على مستوى الجانين السابقين (الوقائي والعلاجي)، فيتجه جهد الذات المؤمنة في استخدام عمليات تنمية لصفات الذات وتزويدها بالقيم الطيبة، والفضائل وعادات السلوك الحسن، حين تقوم بالتربية الوقائية لتصل الذات إلى أعلى ما يمكن من النضج والكفاية، وعندما تبدأ الذات في توبتها أو تقوم بعمليات تعديل أخطائها، وسلوكها تلجأ إلى إنماء الشخصية بالصفات الحسنة محل صفات السلوك السيء والخاطئ، وتبذل جهداً مناسباً لتزويذ هذه الشخصية بما يساعدها على استئناف الحياة السوية بنحو يجعل الذات أكثر قرباً من الله سبحانه ومنهاجه القويم، وهذا أهم أهداف هذا النص، ثم تحقيق حالة مقبولة من الصحة النفسية، وهو هدف يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة للمؤمن.

إنَّ عملية (إنماء صفات الذات وخصائصها) لا تتوقف على الجانب الوقائي فحسب، بل ويشارك مرة أخرى في فترة العلاج وتعديل السلوك، واستعادة التوازن النفسي المفقود، فالجانب الإنمائي يوازن بين كفتى الجانين ويختار ما يرجح انتصار الخير في الذات، ويقوى صفاتها الطيبة، وينمي كذلك قدراتها الذاتية معتمداً على مصادر العملية الإرشادية في توجيه الذات المؤمنة وضبط مسارات حركتها العبادية بما يحقق للفرد زيادة صفاته الحسنة في نفسه سواء كان في فترة وقائية أم في مرحلة علاج سلوكي للذنوب والسيئات والمعاصي.

وهكذا فمساحة هذا الجانب تمتد على مدار عمر الفرد، والزمن الذي يستغرقه بقاوه في هذه الدنيا، ولهذا نجد الأساليب الوقائية، والمقترحات العلاجية في نص الوصيَّة متداخلة مع بعضها في جمل وعبارات متشابكة، مما يشعرك بأن لا فصل زمنياً في مهمة الفرد المؤمن، وهو يمارس الجانب الإنمائي من العملية الإرشادية طالما كانت الذات المؤمنة على قيد الحياة، ويقدم المقطع الأخير من نص الوصيَّة هذا التداخل بنحو



لا فصل في مهمة العملية الإنمائية لوصية الإمام الباقر للفرد في جوانبها الثلاثة المتصلة مع بعضها، ففي الجزء الأول منه، وهو قوله: «وتخلص على إيجام القلب بقلة الخطأ، وتعرّض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إيليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيّن الله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال» يدخل ضمن الفترة الوقائية.

ويكون المقطع الثاني منه، وهو قوله: «إيّاك والتسويف فإنه بحر يغرق فيه الهمكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلتجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم» ضمن سياق المرحلة العلاجية، وإن كانت بعض هذه الأساليب تستخدم في التربية الوقائية كذلك، ولكن المهم أن الفرد يقوم بعملية تنمية صفات الخير، والقدرات الذاتية لدى الكائن الإنساني كتنمية قدراته العقلية وإبراز كوامنه في خبرات علمية وأنشطة إيجابية.

ولهذا جاءت عبارات وقائية وأخرى علاجية تخدم دور الجانب الإنمائي للذات مثل قول الإمام في الفقرة التالية من وصيته:

«يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل».

ثم حثت الوصية على اغتنام الفرص، والمبادرات في انتهاز الفرص والبغية أو

المطالب، والتزود من الدنيا بقصر الأمل، وتنمية الصفات العلمية والأخلاقية كالقناعة والزهد وقصر الأمل والعدالة وشدة التيقظ وغير ذلك.

٢. الجانب الوقائي.

ففي بداية العمل مع تربية الشخصية يركز المربi المسلم على التربية الوقائية واستباق الأمور بتأصيل صفات وفضائل وعادات السلوك الحسن، وقيم إيجابية مرغوبة من المشرع الإسلامي، وتأصيلها وتشييدها وتمكين الفرد من التفاعل الصحي معها في إدارة حركة ذاته مع داخلها، ومع الآخر ومع الله سبحانه، بل ومع عالم الأشياء المحيطة به، وكان الغرض التربوي من البناء الوقائي للذات تسهيل تعبدها وطاعتتها الله ومنهاجه، وتجنبها مزالق الهوى، وذنوب النفس ومعاصيها، وواقاتها من مخاطر شهوات النفس، وسببيات الأفعال الشريرة على كيان الفرد، ويؤكد العمل بالتربيـة الوقـائـية سلامـة التـفاعـل مع المنـهج الإـرشـادي وقيـمة التـربـويـة تـحـقـيقـاً لـأـمـنـ الذـاتـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ، وـدـرـءـاـ لـهـاـ منـ مـخـاطـرـ الشـرـ وـوـسـوـسـاتـ الشـيـطـانـ وـنـزـغـاتـهـ المـظـلـمـةـ، فـيـحـوـلـ حـيـاتـهـ إـلـىـ كـآـبـةـ وـعـبـثـ، وـيـتـعـلـمـ قـلـبـهـ تـدـريـجـياـ قـساـوةـ قـدـ لاـ يـجـدـ بـعـدـهاـ فـرـصـةـ لـلـتـلـيـنـ وـتـرـيقـهاـ.

ويقصد بالوقاية.. «أي جهود أو ممارسات علمية تبذل بهدف تجنب أو منع أو تقليل من فرص وقوع المشكلات سواء كانت هذه المشكلات جسمية أو نفسية أو اجتماعية أو ثقافية التي قد يواجهها بالأخص الأفراد أو الجماعات المعرضة أكثر للمخاطر»^(١).

وهذا المنـهجـ، وـعنـيـ الـوـقـائـيـ، وـيـطـلقـ عـلـيـهـ أـحـيـاناـ منـهجـ (ـالـتـحـصـينـ النـفـسيـ)ـ ضدـ المـشـكـلاتـ وـالـاضـطـرـابـاتـ وـالـأـمـرـاـضـ النـفـسـيـةـ^(٢)ـ يـوـفـرـ وقتـ وجـهـ المـرـبـينـ، وـيـخـفـفـ

(١) أبو أسعد، أحمد عبد اللطيف، علم النفس الإرشادي، ص ٣٦٢.

(٢) أبو أسعد، أحمد عبد اللطيف، مصدر سابق، ص ٣٦٢.



عليهم عبء العمل العلاجي وتكليفه، بالإضافة إلى تجنب المعاناة مع الرواسب النفسية التي تولد عادة عن المشكلات النفسية وروابطها، كتسببيها في مشاعر القلق والتوتر

وقد استبطن نص الوصية اهتمامه الشديد، وبوضوح تام للجانب الوقائي في العمل الإرشادي، ونجد كلماته وبطريقة مباشرة ومكشوفة إلى البدء بوقاية النفس من (مجازفة الهوى) باستخدام القوى المضادة له المعرفية والروحية والأخلاقية كالعقل والعلم والدين، والوجودان الأخلاقي الفطري في داخل تركيبتنا الآدمية، ويمكن معرفة هذا الاهتمام من كلمات متفرقة في نص الوصية، لكنها تشكل قاعدة البناء المعتمدة والرئيسية والأولى لمرتكزات الشخصية الإيمانية.

ففي كلمات وجمل وعبارات داخل نص الوصيّة مثل قوله ﷺ: «وتَوَقَّ مجازفة الهوى كالبعد عن الانحراف حتى لا تحتاج إلى التوبّة، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيشار القناعة»، وكلمات وجمل أخرى موزعة في نص الوصيّة نلاحظ عنایة الوصيّة ب التربية الفرد المؤمن بطريقة وقائية، وقبل أن تفترسه المعاصي، ويغرق في بحر الشهوات والذنوب، فيصعب عليه التغيير، وربما يجد مسافة شاقة بينه وبين عودته إلى الله سبحانه وتعالى من جديد.

ولنأخذ أمثلة مدونة في نص الوصيّة تطالب ببدء الوقاية قبل خطوات المعالجة السلوكية، فقوله: «لا تظلم، لا تغضب، لا تخون، لا تجزع وغيرها» هي تعبر عن رغبة الإمام الباقر ﷺ في وقاية الفرد من شر الآخرين، وأن يبدأ بتعويدها على الضبط الانفعالي المادئ كفضيلة أخرى هي الحلم، والصبر على أذى الناس بأخلاق الإسلام، وتطلب جملة أخرى باستكمال الفرد لنفسه من الله قليل الرزق تجنبًا للوقوع في الطمع،

وتدرّيًّاً للنفس على شكر الله حتى وإن بدا العطاء قليلاً.

ونجد في جملتين متصلتين هما: «وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بياضار القناعة» دفعاً للنفس بطريقه وقائيه، وتدرّيّها وتعويدها على القناعة كخاصية وقيمة، وقبول ما توافر في اليد حتى لا يطمع فيها هو بأيدي الناس، ويكون فيما بعد - مفتاحاً للنهب والسرقة واغتصاب الحقوق، وكذلك ما قالته الوصيّة بـ«استجلاب حلاوة الزهد بقصور الأمل»، وإشباع الذات بقدر ما تحتاجه وما ترثاه فيه، وشّمة جمل أخرى في هذا السياق الوقائي لتحقيق أمن الذات.

٣. الجانب العلاجي.

هذا الجانب ملحوظ في باطن النص الباقري الميمون، فالإمام محمد بن علي عليه السلام لم يترك إشاراته للجانب العلاجي في مواقف عديدة من وصيته المباركة، وكان نصه المقطوع في نهاية الجزء الثاني من النص «إنَّ المؤمن معنِي بمجاهدة نفسه، وإشارته للفرع من انتكاسة النفس في إصلاح اعوجاجها، والمبادرة للتوبة ومحافاة الله» أوضح هذه الإشارات، وشّمة أقوال متفرقة بالنص تشير إلى الانحرافات، والمعاصي، والاستهانة بها، ورضا الفرد بالحالة التي يكون عليها، وما ترتب عليه من ذكر لبعض أساليب المعالجة الإيمانية للذنوب مثل (التوبة، وشدة الذنوب، وحسن المراجعة، وتحذيراته من التسويف والتواني فيما لا عذر للأفراد فيه، والغفلة، وغير ذلك).

لقد تباعدت الأفكار العلاجية في موضع متفرقة من نص الوصية، فمرة يتحدث الإمام الباقر عن التوبة، وأهميتها الجهادية، وضرورتها الأخلاقية والسلوكية، وهي حالة عالية من العمل العلاجي، ومداواة أمراض السلوك التي تغرق الفرد في شهواته



ومأساتها، ولا سبيل له سوى التوبة حتى يتمكن من استبصار ذاته، ويقبل على مواجهة هذه الذنوب بثورة تغييرية وعمليات جهادية داخل كيانه، وضد شهوات نفسه المغلقة، يقول نصوصية الإمام الباقر ﷺ في هذا الشأن:

«إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في حبّة الله، ومرة تصر عه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش ويقليل الله عنّته فييتذكر ويفزع إلى التوبة والمخافة، فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).»

ويعود النص الكريم للوصية الباقرية، وفي مقطع آخر على التحذير من عوائق تحرير النفس والاستسلام لها كالغفلة، وتسويف مواجهة النفس من ذنبها، وافتعال أذمار غير مقبولة لا حصر لها تسويفاً لهم في بدء التوبة، وتصفية المعاصي، وتنتقد الوصيّة كوامن الإعاقة للتوبة، ومنع النفس عن الوصول إلى تحقيق أهداف توبته وإصلاح ذاته بما يرضي الله سبحانه، كتسويف النفس، واستمرار غفلة صاحبها، والتواني فيها لا عنده، والخضوع لتأثير سالف الذنوب، ورواسبها النفسيّة، حيث جاء في الوصية الكريمة قول الإمام الباقر ﷺ: «وتخلص إلى راحة النفس بصحّة التفويض، واطلب راحة البدن بإjection القلب، وتخلاص على إjection القلب بقلة الخطأ، وتعريض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدؤام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإياك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيّن الله عز وجل بالصدق

(١) الأود: محرك (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

في الأعمال، وتحبب إليه بتعجيل الانتقال، وإيّاك والتسويف فإنَّه بحر يغرق فيه الهمكى، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيها لا عذر لك فيه، فإليه يلجم النادمون، واسترجع سالف الذنب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم».

وتستمر الوصيَّة في تأجييج روح القوة لدى الفرد المؤمن لضمان نجاح عمليات التوبة ومراجعة الذات وإصلاح حالها من جديد، والوصول بها إلى بر الأمان فيَّت الوصيَّة تحذيراتها من آثار استمرار عوائق التوبة، وقدمت للفرد المؤمن مقتراحات علاجية عملية كتحديد بعض الأساليب المعرفية والوج다ُنية والسلوكية التي تدفع بحركة الذات في توبتها نحو الأهداف المرسومة، والوصول بها لمساراتها الطبيعية الآمنة، فتبين الوصيَّة كيفية مواجهة الهوى وغلبته بالعقل والعلم، والسيطرة على سالف الذنب بشدة الندم وكثرة الاستغفار والذكر في الخلوات، وطلب عفو الله ورحمته، وحسن مراجعة الذات في أفكارها وعواطفها وسلوكياتها، واستخدام خالص الأدعية والمناجاة في الظلم.

تقول بعض الجمل والعبارات في نص الوصيَّة الباقرية، وقد تداخلت فيها الأساليب الوقائية والعلاجية والإنهائية: «وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزيين بحاضر الحياة، وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء».

وفي مقطع آخر من الوصيَّة يقول عليه السلام: «وتخلى إجمال القلب بقلة الخطأ،



وتعَرَّض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيَّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزَّئِنَّ لله عز وجل بالصدق في الأفعال، وتحبُّ إليه بتعجيل الانتقال، وإيَّاك والتسويف فإنَّه بحر يغرق فيه الظلَّكى، وإيَّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيَّاك والتلواني فيها لا عذر لك فيه، فإليه يلْجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعَرَّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حُسْن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم».

أدوات ومصادر جمع المعلومات عن مشكلات الذات

شددت الوصية الباقرية على أهمية معرفة النفس في أكثر من موضع، وعلى وقاية الذات، ومعالجتها من أمراضها ومشكلاتها في جمل وعبارات وفقرات عديدة، ومع أن النص الباقرى ليس مادة مماثلة لما هو معتمد لدى الأكاديميين، إلا أنَّ فهمنا يدرك أنَّ بعض الأدوات والمصادر التي تساعد الأفراد على جمع معلومات عن أنفسهم لمعرفتها والتصرف معها على ضوئها هي ملحوظة على نحو غير مباشر، ومن تلك المصادر التي يتم بواسطتها جمع بعض المعلومات عن الذات ما يأتي:

١. ملاحظة سلوك الذات:

ويكون عادة بجهد الفرد نفسه أو استعانة بموافقات الآخرين كانت له أو عليه كما في دعوة الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي بأن يكشف سلوكه عن الاستجابات المحرمة، ويدعوه إلى الصبر وثبات النفس والحلم وضبط النفس في مواجهة مواقف انتفالية صادرة من الأفراد الآخرين في ظروف استفزازية تتبعي إيزاء الفرد.

٢. المقابلة الإرشادية:

وهي أحياناً (فردية أو ثنائية)، وقد تكون جماعية في أحيان أخرى.

إنَّ الملحوظ في نص هذه الوصية أنَّ الفاظها ومفرداتها تُبيِّن لنا - لقارئها ومستمعها - أنها (مقابلة ثنائية بين الإمام الباقر عليهما السلام) وصاحبها جابر بن يزيد الجعفي رحمة الله عليه، وما نشأ عن هذه المقابلة بشكلها المعروض في النص من محادثة كان فيها المتكلم هو الإمام الباقر، وقد تعرف فيها جابر على مجموعة من الآداب والقواعد الإرشادية التي استهدفت تربية شخصيته، وضبط سلوكه وتربيتها، وتحفيزه على أداء وظائف ومهام السيطرة على دوافعها، وبهذه المقابلة والمحادثة جمع جابر هذه المعلومات المتوافرة في نص وصية الإمام الباقر عليهما السلام.

وإذا كانت مقابلة الإمام الباقر لجابر ومحادثته تصنف كـ(مقابلة فردية، وثنائية) فإنَّ ثمة نوعاً آخر من المقابلة نسميتها بـ(ال مقابلة الجماعية) ونذكر نص الخطبة التالية كنموذج لذلك، وقد ابتدأت خطبته، وهي في شكل (موعظة توجيهية وإرشادية) بقوله عليهما السلام:

«وَحْضُوره - أَيُّ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ^(١) - ذَاتِ يَوْمِ جَمَاعَةِ مِنَ الشِّيعَةِ فَوَعَظَهُمْ وَحْذَرَهُمْ، وَهُمْ سَاهُونَ لَا هُوَنَ، فَأَغَاثَهُنَّ فَأَطْرَقَ مَلِيًّا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «إِنَّ كَلَامِي لَوْقَعَ طَرْفَهُ فِي قَلْبِ أَحَدِكُمْ لَصَارَ مِيتًا، أَلَا يَا أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاحَ، وَذِبَابًا بِلَا مُصَبَّحٍ كَأَنْكُمْ خَشَبَ مَسْنَدٌ وَأَصْنَامَ مَرْبَدَةٌ، أَلَا تَأْخُذُونَ الْذَّهَبَ مِنَ الْحَجَرِ، أَلَا تَقْتَبِسُونَ الضَّيَاءَ مِنَ النُّورِ الْأَزْهَرِ، أَلَا تَأْخُذُونَ اللَّؤْلَؤَ مِنَ الْبَحْرِ، خَذُوا الْكَلْمَةَ الطَّيِّبَةَ مِنْ قَالَهَا، وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَبَعِّهُونَ أَحْسَنُهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ

(١) انظر هذا النص في تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ٢١١ - ٢١٢، وبحار الأنوار

للمجlesi، ج ٧٥، ص ١٧٠ - ١٧١.

هَدَاهُمُ اللَّهُ^(١)، ويحك يا مغورو ألا تحمد من تعطيه فانياً، ويعطيك باقياً، درهم يفني عشرة تبقى، إلى سبعاء ضعف مضاعفة من جواد كريم، آتاك الله عند مكافأة هو مطعمك وساقيك، وكاسيك ومعافيك وكافيتك وساترك من يرعايك من حفظك في ليك ونهارك، وأجابك عند اضطرارك، وعزم لك على الرشد في اختبارك، كأنك نسيت ليالي أوجاعك وخوفك دعوه فاستجاب لك، فاستوجب بجميل صنيعه الشكر، فنسيته فيمن ذكر، وخالفته فيما أمر، ويلك إنما أنت لص من لصوص الذنوب^(٢)، كلما عرضت لك شهوة أو ارتكاب ذنب سارعت إليه وأقدمت بجهلك عليه، فارتكتبه كأنك لست بعين الله، أو كأن الله ليس لك بالمرصاد، يا طالب الجنة ما أطول نومك، وأكل مطريك، وما أكسبك لما يوقعك فيها، انظروا إلى هذه القبور سطوراً بأفanes الدور، تدانوا في خططهم^(٣)، وقربوا في مزارهم، وبعدهم في لقائهم، عمروا فخرربوا، وآنسوا فأوحشوا، وسكنوا فأزعجوها، وقطعوا فرحتها، فمن سمع بدانٍ بعيد وشاحط^(٤) قريباً، وعاشر خرب وآنس موحش، وساكن مزعج، وقاطن^(٥) مرحل.. غير أهل القبور؟»

وابع قوله في نصحهم:

«يا بن الأيام الثلاث: يومك الذي ولدت فيه، ويومك الذي تنزل فيه قبرك، ويومك الذي تخرج فيه إلى ربك، فيا له من يوم عظيم، يا ذوي الهيئة العجبة والهيم المعطنة^(٦)»

(١) الزمر: ١٨.

(٢) اللص بالكسر (فعل الشيء في الستر)، ومنه قيل للسارق (لص) وجمعه لصوص.

(٣) جمع خطة بالكسر، ما يخيطه الإنسان من الأرض ليعلم أنه قد اجتازها لينييها داراً، والأرض التي تنزلها، ولم ينزلها نازل قبلك، وبالضم (الأمر والحصلة).

(٤) الشاحط هو (البعيد).

(٥) القاطن هو المقيم.

(٦) الهيم هي الإبل العطاش، العطن بالتحريك (وطن الإبل ومبركتها حول الماء)، وأعطنت الإبل: حبسها عند الماء فبركت بعد الورود، وعطنت الإبل (رويت ثم بركت).

مالي أرى أجسادكم عامرة وقلوبكم دامرة، أو ما والله لو عاينتم ما أنتم ملاؤه، وما أنتم إليه صائرون لقلتم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرُدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، قال جلّ من قال: ﴿بَلْ بَدَالُهُمْ مَا كَانُوا يُخْفِونَ مِنْ قَبْلٍ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٢).

٣. دراسة الحال:

تركت لنا الوصية إيعازاً بأهمية (دراسة المرشد لسلوك) المسترشد - إيجابياته وسلبياته - من خلال نصها الكريم، أو قيام الفرد نفسه، وهو (صاحب المشكلة، وبالاستعانة بمرشد، مربٍ، خبير) بدراسة نفسه في مشكلة معينة أو أكثر، مستخدماً مضمون نص الوصية وأدابها وتوجيهاتها، وقوى التحفيز وتحريك الإرادة والهمة، حيث يساعد المرشد (المسترشد) في دراسة حالته الذاتية وتبين كوانن الضعف والقوة فيها، كي يتم العمل على أساسها من حيث ما ينبغي إصلاحه، وما ينبغي تقويته، ومع أن مشكلات السلوك متعددة نسبياً، لكنَّه أوضح مثال على ضرورة دراسة الفرد لمشكلاته الذاتية بنفسه أو بالاستعانة بغيره لتغيير طباعها الخاطئة ما قالته الوصية عن مشكلة «الاستهانة بالذنب، والرضا بالحالة التي يكون الفرد عليها»، فيمكن لكل فرد تصدق عليه هذه الحالة أن يدرس حاليه بنفسه أو بالاستعانة بمرشد أو مربٍ، ومستفيداً كذلك من المادة الارشادية لنص هذِه الوصية وتوجيهاتها الميمونة.

٤. استخدام ملف، صحيفة وسجل تراكمي للمعلومات:

لم نجد في ثنايا كلمات الوصية إشارة مباشرة إلى استخدام سجل تراكمي، صحيفة، ملف، كتاب معين لجمع المعلومات عن حالة الذات، ولكنَّ تفصيلها لأمراض السلوك

(١) الأنعام: ٢٧.

(٢) الأنعام: ٢٨.



والتبوية والعوائق، والإجراءات الوقائية تقتضي استخدام (ذاكرة الفرد) لجمع معلومات عن حالة ذاته، وقد يستخدم ما ذكرناه كمعزز لما يجمعه في ذاكرته عن حالته الذاتية، حيث يقوم المسترشد بلاحظة سلوك ذاته وتسجيلها في كراسة خاصة أو غيرها، وهذا السجل التراكمي عبارة عن تجميع أعمال المسترشد والراغب في تغيير ذاته، وب بواسطته يمكن الكشف عن قدراته ومدى تقدمه وتحديد ما أتقن وما لم يتقنه، وعن انصار الإعاقة مقابل خطوات التقدم، وكذلك تسجيل وتدوين أنماط السلوك العصابي ومشكلاته التي يحتاج المرء إلى تعديل وتغيير سلوكي، وتسجيل ما أحصاه الفرد من عيوبه في السلوك والرأي والأخلاق والمهارات اليومية كما قال الإمام علي عليه السلام في نصه التالي.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نصه التالي:

«وعلى العاقل أن يحصي على نفسه عيوبها في الدين، والرأي والأخلاق، والأدب، فيجمع ذلك في صدره، أو في كتاب، ويعمل على إزالتها»^(١).

ربما لم نلحظ إشارة واضحة وقريبة عن تسجيل إشارات في نصوص الوصية عن مشكلات السلوك وأمراضه، وجمعها في صحيفة، ملف، كتاب، أو أي سجل تراكمي للمعلومات، وتحفظ فيه مشكلات السلوك المشار إليها في الوصية كالغفلة، والجزع المرضي، والرغبة في الرد على الآخرين بسلوك انتقامي، وإعجاب النفس بذاتها، والرياء أو ما عرف بخفي (الرَّيْن)، وهو الدنس والآثام، وكذلك ما أسمته الوصية بـ(ذل الطمع) الذي وصفه الإمام علي عليه السلام بـ(رق مخلد، الفقر الحاضر) الذي لا يتوقف من داخل النفس ولا تقطع النفس عن الحرص والاشتهاء (التشهي)، والرغبة بما في أيدي الناس، وأيضاً ما جاء في الوصية من تحذير من التسويف، والتواني، والرجاء الكاذب،

(١) كتاب غور الحكم ودرر الكلم، ج ٢ للأمدي، ص ٢٩، وكتاب الطفل بين الوراثة والتربية، ج ٢، للشيخ محمد تقى فلسفى، ص ٤٣٤.



وقسوة القلب وتبدل الوجدان، والاستهانة بالذنب وقبول الفرد بحالته التي عليهما، ثم تدرس وتفهم وتواجه بحلول ومعالجات عبادية مرغوبة، كل على حدة، أو جميعها... ذلك على سبيل التمثيل.. لا غير، والعقل الإنساني قادر على التمعن والتأمل حتى الإبداع.

الحلقة الرابعة

السلوك الإنساني في وصية الإمام الباقر عليه السلام مفهومه،
ومكوناته، وعناصره، وتنظيمه وخصائصه

نسعى في هذا البحث من كتابنا الذي بين يديك عزيزي الكريم - وبنظره هي بطبيعة الحال اجتهادية لا تلزم أحداً - لتحديد مجموعة من المبادئ السيكلولوجية التنظيمية، والوجهة لسلوكنا وأفعالنا البشرية، والحديث عنها كمبادئ إرشادية واضحة في نصوصية الإمام الباقر عليه السلام رحمة الله تعالى، ومفردات تركيبته اللغوية، وبعض فقراته، وعباراته، ومحتواه المعرفي والقيمي والسيكلولوجي، وغرضنا من ذلك الاطلاع على منظومة هذه المبادئ وتحديدها كجزء حيوي وهام من البحث لكشف المزيد من الثروة المعرفية والسيكلولوجية من محتوى هذه الوصيّة الكريمة، وتحديد أثرها وفعاليتها وقيمتها التربوية في السمو والارتقاء الطبيعي بالإنسان المؤمن وتكوين شخصيته العابدية التي تستمد هويتها من مصادر المشرع التربوي الإسلامي وأحكامه الشرعية.

ونحن هنا نفعل ذلك بداعف البحث، ومحاولة الاجتهد الفكري، ولا نزعم بالتأكيد أنّا نأتي في هذا الموضوع بشيء جديد، ولا نبالغ في مقاصد الإمام محمد بن علي عليه السلام، وقدرنا - كبشر - أن نبدأ المحاولة الأولى التي تصيب أو تخيب، وكيف تووضع هذه التجربة للقراءة والفهم والتخيّص والنقد بغرض تطويرها، وتوظيفها في عمليات التربية الروحية والمعرفية في زمن صعب يواجه جموع المؤمنين بالإسلام وتعاليمه وقيمته، والتأمل في المادة الإرشادية والمعرفية والروحية لهذه الوصيّة بمحتواها القيم وفهم موضوعه، وتحليل مادته، والاستفادة من معانيه في عمليات التوجيه والإرشاد للشخصية العابدية، واستثمارها كذلك في عملية (انضباطها) وسلامة تكوينها الإيجابي والعقائدي والمعرفي والسيكلولوجي في هذا الزمن الصعب.

المكونات الأساسية للشخصية الإنسانية

نجد من الفائدة تناول إشارات وصية الإمام الباقي ﷺ لمكونات شخصية الإنسان قبل الدخول في تفاصيل مباحث هامة من هذه الدراسة؛ لأنَّ موضوعات هذه المباحث كالسلوك والانفعالات وغيرها مؤسسة على جملة من المكونات الأساسية للشخصية البشرية، وطالما أن نص الوصية المباركة مرَّ بالإجمال على هذه المكونات فيستحسن ربط مباحث دراستنا بهذه المكونات، والتمهيد لها بحديث غير مفصل، ولكنَّه ذو قيمة علمية تربط بعض المفاهيم الأولية في البحث بهذه المكونات.

إنَّ المخاطب بهذا التوجيه الإرشادي القوي كمَا هو ملحوظ هو الإنسان ذاته باعتباره الكائن الوحيد المكلف شرعاً من قبل الله سبحانه وتعالى في عالمه الدنيوي القصير، وفي أدبيات المشع التربوي الإسلامي بتنفيذ شبكة ومنظومة (الأوامر والنواهي) العبادية في مجالات عديدة من حياة الإنسان، وقد وردت في التركيبة اللغوية للوصية الخالدة، وبطريقة مباشرةً ألفاظ وكلمات تذكر أهم مكونات الكائن الآدمي، وتشير لتفاعل هذه المكونات مع بعضها في تشكيل وصياغة النمط الأساسي للشخصية الإيمانية (العبادية) كما يريدها الله عز وجل للناس في حركة واقعهم اليومي بعالم الدنيا.

وأهم المكونات الأساسية للشخصية الإنسانية كما جاءت في نص الوصية هي ما يأتي:



أ- المكونات الرئيسية وهي:

١. البدن (الجسم الإنساني).

وهو جسم الإنسان بكل أعضائه وأجزائه، وجاء ذكره في الجملة التالية من الفقرة الثانية: «واطلب راحة **البَدَنِ** بِإِجْمَامِ الْقَلْبِ»، وقوله في نهاية الفقرة الثالثة: «وبادر بانتهاز **البغية** عند إمكان الفرصة، ولا إمكان **كال أيام الحالية مع صحة الأبدان**»، ثم ذكرت ألفاظ قليلة تشير، وبطريقة غير مباشرة لبعض أعضاء البدن وأجزائه مثل لفظة **الغذاء**، وتعني مجموعة أعضاء مثل **اليد واللسان، والمعدة، وكل ما يقوم بمهمة هضم الطعام**، ومثل لفظة **«الفرائض»** التي لا تنجز إلّا بحركات صادرة من نشاط أعضاء فاعلة في جسم الإنسان كـ**حركات اليدين، والوجه، والرجلين، واللسان وغيرها**.

٢. العقل الإنساني.

ويشير لفظ **(العقل)** أولاً، وكما يبدو لنا إلى وجود **(المخ)** كخلق إبداعي، وكجزء طبيعي في أعلى رأس الإنسان، وقد أُنْيَطَ بالعقل من قبل الله عز وجل مهمة أداء التكاليف الشرعية، وتفعيل التفكير والعمليات والوظائف العقلية كالتفكير والتذكر والاستبصار والوصول إلى اليقين ومعرفة الحقائق ما أمكنه إلى ذلك سبيلاً، وأيضاً مهام عقلية أخرى كنقد سلوك الذات وغير ذلك، وكما يلحظ من نص الوصية فلفظة **(العقل)** وما يتصل بها) من قدرات كالعلم والاستبصار والتيقظ والتذكر والمعرفة ذكرت مباشرة، وبنحو لا يتجاوز (خمس مرات).

ومع ذلك فهذه الألفاظ والمصطلحات تؤكد وجود مكون أساسي ثانٍ هو **(العقل)** بما اشتمل عليه من وجود المخ في رأس الإنسان، وما تولد عنه من عمليات ذهنية، ووظائف عقلية تنتج أفكاراً ومعرفة يستفيد منها الكائن الآدمي في حياته وفي أداء مهامه



الوظيفية والعبادية.

ويتجلى هذا المكون بحسب التصنيف الإنساني وبعض الدراسات السيكولوجية المعاصرة في نمطين رئيسيين هما (عقل ولادة) تسميه الروايات والأحاديث وهذه الدراسات المعاصرة بـ (الذكاء) بمستويات يتفاوت فيها الأفراد على حسب ظروف حياتهم، وإن كان عدل الله عز وجل يجعلهم متساوين في نسبة توافره فيهم، لكنهم تفاوتوا بحسب ظروف ولادتهم وانتسابهم لتنازل بشري مختلف الأعراق والأنساب، وهذا الذكاء في مجمله هو (قدرة عقلية عامة فطرية)، ويقابلها وجه آخر له أنواع ثانٍ هو ما تسميه بعض روایات أهل البيت عليهم السلام، ودراسات علم النفس الحديث بـ (عقل التجربة)، ويتفاعل كلاهما في حياة الإنسان، فيؤديان إلى تكوين تجارب من التعلم بأشكال متعددة، وتوليد الخبرات العلمية المطلوبة، وهذا ما أسمته الوصية في بعض مفرداتها بـ (العلم والمعرفة والاستبصار).

٣. النّفس البشرية.

وهي المكون الأساسي الثالث الذي يجمع الجسم والعقل في كيان واحد، وتمثل حركتها جيئاً في علاقة تفاعلية تنتج فكراً وسلوكاً وحياة شعورية بعواطفها وانفعالاتها وإراداتها، ومشاعرها الإنسانية المختلفة، وقد خوطبت في نص الوصية بلغة مباشرة، وباستخدام اللفظة ذاتها (مصطلح النفس) كما في قول الإمام الباقر عليه السلام لصاحبہ جابر بن زید الجعفي رحمه الله في أول مقطع من الفقرة الثانية من نص الوصية: «إزارء على النفس» و«معرفة النفس» و«راحة النفس» و«كغنى النفس».

وذكرت بالألفاظ قريبة منها مثل «فإن عرفت من نفسك، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ومجاهدة نفسه، تصر عه نفسه، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله، وادفع عن



نفسك حاضر الشر»، أو كانت الإشارة إليها بكلمات وإشارات مخاطبة مثل: «حضرت، غبت، شهدت، قلت، قوله، ظلمت، خانوك، كُذبَت، مدحت، ذمت، وفَكِرْ، عرفت، فسقُوطك، خفت»، وكلمات كذلك كثيرة ومتفرقة في التركيبة اللفظية للوصية، وجميعها تدل على إشارة مباشرة أو غير مباشرة للإنسان، وكل فرد مؤمن معني هنا بـ(التوجيه والإرشاد والنصح ومواعظ الإمام الباقر) كما في قوله ﷺ: «إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها»، وما يؤكّد في النهاية، وبنحو واضح توجيه الخطاب إليه في نص الوصيّة.

بـ- ومكوناتها الفرعية.

وهي ما نعتقد بالعناصر الفرعية الناتجة عن تفاعل المكونات الأساسية فيؤدي عملها جمِيعاً إلى انتظام سلوك الشخصية وبروز ما يسميه عدد من علماء النفس المعاصرين بـ(الشخصية المتكاملة) مثل الجانب الوجداني والانفعالي أو الإرادي، والجانب الاجتماعي، والجانب اللغوي.

وقد عبرت الوصية في بعض مفرداتها اللفظية عن هذه المكونات كما في حديثها عن:

١. بعض أنماط السلوك الانفعالي، والعواطف، ورقة القلب، وقساؤته، وفقره، وغنى النفس، والحزن والسرور، والمخافة والخوف والرغبة في العفو الإلهي، وإجحام القلب، ودوام الحزن، وشدة الندم، وذل الطمع، وشهوات النفس وهوها، وخاص الدعاء، فجميعها يعبر عن انفعالات الإنسان وإرادته.

٢. أما الجانب اللفظي فقد ذكرته الوصية في مواطن عديدة كالمحادثة بين الإمام الباقر ﷺ، وصاحبـه جابر الجعفي، وخالص الدعاء والمناجاة في الظلم، وفي ألفاظ

عبرة مثل كلمات «وقالوا، كثرة الذكر، كثرة الاستغفار، والتواني فيما لا عذر للإنسان فيه، وأداء الفرائض»، فهذه شواهد على الإشارة للجانب اللغوي.

٣. أما الجانب الاجتماعي للذات فإنَّ ما هو ملحوظ في نص الوصية الباقرية من تعبيرات عن الاجتماع البشري وتفاعلاتهم متفرق هنا وهناك، ولكنها تعبيرات دالة على هذه الظاهرة الاجتماعية، وثمة مواقف اجتماعية تجسد هذا الجانب كمكون كبير ومهم من الشخصية، وإن كانت أهميتها بمساحة كبيرة من حياة الأفراد والجماعات، ويتمثل حضور الحياة الاجتماعية والتعبير عنها من مفردات الوصية فيما ذكرته من إشارات مثل:

أ- تمثل بروز الجانب الاجتماعي من الشخصية الإنسانية في المحادثة ذاتها، وفي مقابلة الإمام الباقر<ص> لصاحبه جابر وتفاعلها اللفظي، وترتبط عن كلٍّ منها صياغة نص (الوصية)، ودل هذا كله في الوقت نفسه على اجتماعهما الثنائي كمظهر لإشباع حاجتها للاجتماع البشري، وإبراز أنشطة تعبيرية عن هذا الجانب.

ب- هناك مواقف في نص الوصية تعبّر عن مواقف تفاعلية بين البشر، وفي حياتهم الاجتماعية كتحذيرات الإمام الباقر<ص> لجابر الجعفي عليه الرحمة من الرد على مظالم غيره من الناس بنفس أساليبهم العدوانية والظلمة الاستفزازية، وهي مواقف تنطوي على علاقات وعمليات نفسية واجتماعية ولكنها غير سوية، وهذا أوصى الإمام الباقر<ص> صاحبه (جابر الجعفي) بأهمية السمو الأخلاقي للذات عن رذائل الآخرين وسفالاتهم، وضرورة وضع ضوابط ترشيد للسلوك الاجتماعي في مقابل ذلك، ومن جهة أخرى مبادلة هذا السلوك المنحط بإعلاء النوازع الذاتية في التعامل مع الآخر، وباستجابات أسمى، ومتواقة من المحدّدات الإيمانية، وكما يريد المشرع التربوي الإسلامي في دوائر ضبط السلوك البشري والسيطرة عليه.



وتسقطن التركيبة اللغوية للوصية جملًاً وعبارات تفيه بحديثها عن الجانب الاجتماعي للناس، ومن ذلك استخدام الوصية لمفردات تنطوي على (واو الجماعة) كإشارة على وجود الجماعة كقول الإمام الباقر مثلاً: «قالوا، ولو قالوا، والنادمون».

كما استخدمت الوصية ثلاثة جمل تؤكد على وجود جانب اجتماعي مثل قول الإمام الباقر للجعفی:

- «حتى لو اجتمع عليه أهل مصرك».

- قوله: «سقوطك من أعين الناس».

- وما جاء في الوصية من توجيه للناس: «فإليه يلتجأ النادمون».

مفاهيم أولية في مدخل البحث.

نعتقد أنَّ هناك مفاهيم - ذات أهمية أولية، وهي قليلة ومحدودة - نحتاج بادئ ذي بدء تحديد معانيها بإيجاز، وهدفنا أن يتمكن القارئ الكريم من متابعة معانيها منذ البداية، وأنْ يتوقف عند بعض هذه المفاهيم في سياق حركتنا مع المباحث اللاحقة، ونحدد معانيها في مواضعها المناسبة، وما يهمنا في هذا البحث قبل الدخول في تفاصيل هو التوقف المجمل عند بعض معاني المصطلحات المهمة وتأمل مفاهيمها بصورة مجملة، وهي كما يأتي:

- السلوك.
- تنظيم السلوك.
- المبادئ التنظيمية للسلوك الإنساني.



• خصائص السلوك.

مفهوم عام للسلوك.

السلوك كما يراه علماء النفس المحدثون والمعاصرون في عدد من تعريفاتهم المتداولة بينهم، وفي أدبياتهم ومصادرهم هو (كل ما يصدر عن الكائن الحي - بخاصة الإنسان والحيوانات العجماء - من نشاط و فعل أو حركة أو مشاعر وجذانة بمختلف أشكالها) سواء كانت سوية أو غير سوية، وهو عندهم سلوك خارجي، ظاهري يمكن قياسه باللحظة المنظمة وبأدوات، وأجهزة ضابطة للداخل والحركات وغيرها، ويخضع السلوك الإنساني والحيواني لهذا التحديد العام السائد في كتابات علماء النفس، ولمجموعة مبادئ لضبط وتنظيم وتوجيه سلوك الكائن الآدمي الذي تعرفوا عليه.

وقد حدد معجم المصطلحات التربوية والنفسية السلوك بأنه: «ظاهرة يهتم علم السلوك الإنساني بدراستها»^(١)، ويعرف كذلك بأنه: «ذلك الجزء من تفاعل الكائن الحي مع بيته الذي يمكن من خلاله تحري حركة الكائن الحي وحركة جزء منه في المكان والزمان، والذي يتتج عنه تغيير قابل للقياس في جانب واحد على الأقل من جوانب البيئة»^(٢).

ويعرف أيضاً: « بأنه الاستجابة الكلية التي يبديها كائن حي إزاء أي موقف يواجهه»^(٣).

ويمثل هذا الموقف بيئه سلوكيّة تتكون من المثيرات التي يستجيب لها الفرد في

(١) حسن شحاته، وزينب النجار، معجم المصطلحات التربوية والنفسية، ص ١٩٦.

(٢) حسن شحاته، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ١٩٦.

(٣) حسن شحاته، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ١٩٦.



موقف معين^(١).

إن علم النفس هو العلم الذي يبحث في سلوك الإنسان وخبرته ونشاطه من خلال تفاعله مع مثيرات بيئته الداخلية، ومكوناتها المحيطة به من داخله وخارجها كظروف النمو النفسي للجنين وهو ما يزال في رحم أمه، ثم في مراحل تفاعله المتلاحقة مع مثيرات بيئته خارج بطنها، وتمثل في كل ما يواجه الفرد من مثيرات انفعالية، وعواطف وأحاسيس وأفكار وصور مختلفة، ومنبهات مختلفة، وأنماط النشاط كالمشي والجري والكلام والصمت، والابتسامة، وكل تعبيرات الوجه وحركات اليدين، وغيرها من أنماط السلوك الكثيرة، ودراستها بطريقة موضوعية كما يدعى علماء النفس، وتقوم طريقتهم هذه على الخطوات التالية:

١. قياس السلوك الخارجي لمعرفته.
٢. وقيام عالم النفس بضبط السلوك والتحكم فيه والتنبؤ به.
٣. وأخيراً تفسيره على أساس علمية وصحيحة في مجالات عديدة من نواحي حياتنا، والتعرف على قوانين السلوك الحاكمة له.

تحديد معنى (المبادئ) ومفهومه العام.

مفردة (مبدأ) اسم مفعول، وجمعه (مبادئ) كما في بعض معاجم اللغة ومصادرها، إذ جاء في بعض المعاجم أن المبدأ هو (مبدأ الشيء).. أي أوله، ومادته التي يتكون منها ك(النواة مبدأ النخل) أو ما يتربّك الشيء منها.. كالحرروف هي (مبدأ الكلام، والجمع مبادئ)، وهذا التفسير - كما هو ظاهر - لغوي مُحضر وجيه لالتقائه بحركة الواقع

(١) حسن شحاته، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ١٩٦.



وتطابقه مع دلالاته.

والमبدأ في مصدر لغوي آخر يطابق معناه الاصطلاحي، فهو «معتقد، وقاعدة أخلاقية أو عقيدة، ومبادئ الأخلاق: معتقد، قاعدة ومعيار علمي تبني عليه قيم الأعمال، ومبدأ الشيء: قواعده الأساسية التي يقوم عليها، وفي قول (المبدأ) هو القانون، البند، وتعني مبادئ العلم أو الفن أو الخلق أو الدستور أو القانون، وقواعده الأساسية التي يقوم عليها»^(١) في حياتنا البشرية اليومية، وكذلك المبادئ هي «صيغة جمع لمفردة (مبدأ) المتداولة بكثرة في لغتنا، فيقال عند بعض اللغويين العرب (مبادئ هذا العلم أو الفن أو غيرهما.. وهي قواعده الأساسية»^(٢).

ويستخدم البعض من الباحثين لاسيما من المعاصرين لفظة (المبادئ القيمية)، وهي نمط أو صورة من التعميمات تأخذ هيئة قواعد خلقية أو مبادئ أو مثل عليا يتوجب على الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات إتباعها في تعاملهم مع بعضهم ومع غيرهم، ويكون مصدرها الدين والدستور والعادات والتقاليد والأعراف المهنية وغيرها من مكونات التراث الثقافي في مجتمع ما»^(٣)، وما لا شك فيه أن النظام القيمي المركب مهمته سلوك الفرد ويووجهه لفترة طويلة، و يؤدي إلى تكوين أسلوب في الحياة مميز له»^(٤).

ومصطلح (المبدأ) يسميه معجم المصطلحات التربوية والنفسية بـ (القاعدة الوصفية)، وهو عبارة عن: «تعميم مصوغ في صورة جملة أو عدَّة جمل خبرية تعبِّر

(١) مجموعة لغوين عرب، المعجم الوسيط، باب حرف الباء، ص ٤٢.

(٢) مسعود، جرمان، قاموس: رائد الطالب، باب حرف الميم، ص ٨٠٦.

(٣) حسن شحاته، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ٢٥٣.

(٤) حسن شحاته، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ١٥٥.



عن وجود علاقة، ويمكن تطبيقها على وجه العموم، كما يمكن استنتاجها بالتعيم من حالات خاصة (حقائق مثلاً)، فالمبدأ أو القاعدة القائلة بأنَّ معظم المعادن جيدة التوصيل للحرارة، قد استخلص من عدة حالات (حقائق نسبية^(١)).

والمبادئ بوجه عام (قيمية وعلمية وغيرها) كما يذهب بعض المهتمين بعلم النفس والتنبويين المعاصرين بأنَّها «مجموعة قواعد ونظم وقوانين تفسر السلوك كالنمو الإنساني على سبيل المثال أو تفسير العلاقة القائمة بين ظاهرتين أو نمطين أو أكثر من ظواهر السلوك وأنَّها عند الكائن الأدبي وتضبط حركته في اتجاه معين» كالعلاقة – على سبيل التمثيل – بين النضج الطبيعي وتعلم الكائن الأدبي أو الفرد عادات السلوك وأنَّها، وبالتالي فمهمة هذه المبادئ (تفهم طبيعة السلوك، ومعرفة طرائق تنظيمه وضبطه، وكذلك معرفة مستويات النضج عند الأفراد في ظروف مختلفة، وأيضاً معرفة طبيعة التغيرات التي تطرأ في حياتهم تحت تأثير متغيرات محددة).

وهكذا يراد لهذه المبادئ – وهي ذات طبيعة نفسية – أن تعمل على ضبط العلاقة السلوكية للإنسان سواءً كانت تعبيراً عن حالة سلب أم حالة إيجابية، وكما في علوم الاقتصاد والسياسة، والمنطق، وغيرها من العلوم مبادئ عامة، كذلك ثمة مبادئ تنظيمية وسلوكية ذات طبيعة سيكولوجية ترك بصماتها على التكوين النفسي للأدميين من مختلف أصنافهم.

مكونات السلوك وعناصره.

ما قدمناه كان تحديداً لمفهوم (السلوك) وتعريفه مبسطاً لقارئ متخصص أو غير

(١) حسن شحاته، وزينب النجار، مصدر سابق، ص ٢٥٢ / ٢٥٣



متخصص، بيد أن للسلوك لدى الكائن الآدمي بوجه خاص مجموعة عناصر ومكونات تحدد هويته، وتذكر في أدبيات علم النفس ومصادره، ويبدو السلوك بمفهومه الإنساني، والعبادي على وجه التحديد كان محفوظاً بعدد من المكونات والعناصر الحاكمة لحركته، وتحديد مساراته، وثمة أكثر من عنصر تتدخل فيما بينها لتقوم بضبط السلوك وتوجيهه في مساراته المرغوبة، فهذه العناصر هي قوة مؤثرة، وفاعلة في توجيه الفعل، وضبط حركته ككيان موحد، فكل (سلوك) يتكون في نظرنا من مجموعة عناصر نشير كذلك بإيجاز، وهي:

- المثير والاستجابة.
- الهدف أو الغاية.
- النية أو التوجيه الداخلي للإرادة نحو فعل معين.
- المبادئ التنظيمية.

ويمكن بإيجاز تحديد دور هذه العناصر المكونة للسلوك بكلمات قليلة على النحو التالي:

أولاً: المثير والاستجابة.

تعبير (المثير أو المنبه) أحياناً هو من مفردات المدرسة السلوكية، فعلماء هذه المدرسة وفي مقدمتهم واطسون الأمريكي اهتموا بدراسة السلوك الإنساني، ورأوا أنه كوحدة سلوكية مكون من (وحدات فرعية أو أجزاء).. أولها (المثير ثم الاستجابة)، ويأخذ المكون الأول ونعني به (المثير) دوره الفاعل في استشارة إحساس الإنسان وتنبيه شعوره، ثم تحريك سلوكه بقوة دافعة تنطلق من داخله، فلا ينفع الماء أو يظهر سلوكاً لأن (يبكي أو يفرح أو يتكلم) بدون وجود مؤثر داخلي أو خارجي يحرك سلوكه، وهذا هو



المثير سواء كان من داخل الفرد أم في محیطه الاجتماعي والمادي، فالمثير في قوته بمثابة دافع تنبیه.. يحرك ويشط ويووجه نحو موضوع ما، وبالتالي يصدر فعل مريح كتحقيق (إشباع جزئي أو كامل لحاجة معينة).. أو يكون هذا الفعل الصادر بصورة غير سارة.

أما الاستجابة فهي رد فعل الإنسان أو الكائن الحي تجاه المثير، وهي بلغة بسيطة (سلوك صادر عن الكائن الحي، والأدبي كذلك بعد ظهور مثير) كما في المثال السابق (استجابة الإشباع)، وكاستجابته في شكل بكاء الفرد من خطایاه أو تفاخره بمعاصيه في السر والعلن أمام الملا لوقوع استشارة مؤقتة أثارت سلوكه فتفاخر بعزة الإثم، وتتعدد الاستجابات في حياة الإنسان بتنوع الوجوه في أرض الله الواسعة، وبتنوع المواقف التي يكون فيها الناس، بل وتنوع استجابات الفرد الواحد حتى في الموقف السلوكى، وتزداد كثرة وتنوعاً في مواقف عديدة يمر بها الكائن الأدبي، وكان الرابط بين المثير والاستجابة وجود كائن حي زُوَّدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ بـجهاز عصبي يستقبل المثيرات ويعطي إشارات للدماغ، فيفسر نوع الإثارة على شكل سلوك خارجي ملحوظ، يسمى بها علماء النفس بـ(الاستجابة).

ونعتقد أن (وصيَّة الإمام الباقر لجابر الجعفي) وما احتواه نصها من مفردات لفظية ومعرفية قدم مواقف سلوكية مكونة من (إثارات واستجابات) في سلوك الكائن الأدبي، وسنمر على بعضها لاحقاً كنهاذج في دراستنا، فمفردات هذه الوصيَّة تنطوي على مثيرات (لإثارة المشاعر والأحاسيس، وتهيئة النفس للتفاعل باستجابة معينة سلبية أو إيجابية)، فالوصيَّة بمجملها قول أو كلام يمثل مثيراً لجابر ولكل إنسان يستمع لهذا القول أو يقرأ هذه الوصيَّة، واستجابة جابر أو استجاباتنا نحن المؤمنين المتأخرین تتمثل في الاستماع لهذه الوصيَّة أو قراءتها وكتابتها ونقلها بآلسنتنا، وأدواتنا الثقافية، هذا بالنسبة للمثير الكلي العام، وللاستجابة الصادرة عنه منا.

أمّا في باطن النص الإرشادي لهذه الوصية، وبين كلماتها وأساطرها فتكثر المثيرات وتتنوع، ولا يسعنا في هذا الموضع من البحث سوى ذكر أمثلة محدودة، وترك بعض تفاصيل ذلك في موقع لاحقة من بحثنا، وأول ما يلفت النظر استخدام الإمام الباقر عليه السلام لصيغة (المناداة بقوله: يا جابر) ثم استخدام صيغة (أفعال التنبية وإثارة الشعور) وتكرارها أكثر من مرة مع صاحبه جابر بن يزيد الجعفي عليه رحمة الله، وتحريكها كمثيرات ومنبهات أولية تؤدي إلى تكوين استجابات سلوكية مرتبطة بها، وصادرة عنها، ويمكن لهذه المثيرات أن تستثير شعورنا ف تكون لدينا، وعلى أساسها استجابات سلوكية كذلك في موقف مختلفة.

فالإمام محمد الباقر عليه السلام كرر في نصوصه فعل (اغتنم) مرتين، وأفعالاً كثيرةً ومتعددة مثل: «إنْ كُذِبْتَ، ظُلِمْتَ، خانوكَ، مُدْحَثَتَ، ذُمِّتَ، عَرَفْتَ، ادْفَعْ، تَحْرَزْ، تَوَقَّ، وَقِفْ»، وكلها أفعال تنبية وإثارة شعورية تأتي من خارج الذات، وبعضها يستمد قوته نشاطه من داخلها كما في قوله: «إن المؤمن معنی بمحاجدة نفسه ليغلبها على هواها»، فبداء انطلاقه حركة مجاهدة شهوات النفس تأتي عادة إماً بدافع ذاتي أو بتوجيه من الآخرين والاستعانة بهم، ولكن الاستشارة الشعورية والوجданية داخلية بالتأكيد، وتبنيت قوتها من دافعية الفرد، وتكون المجاهدة ذاتها في أنها طبيعة من السلوك هي (استجابات) هذه المثيرات الدافعة والمحرك، ومن هنا تعتبر هذه الأفعال جميعاً مثيرات تستدعي ردود فعل أو استجابات طبيعية، فالاستجابة الطبيعية تصدر من الإنسان (الكائن الآدمي) سواء كان المثير من تجربة في بيئته الخارجية والمادية أو باستشارة ذاتية من الداخل كما تقدم كلامنا في مثال مجاهدة النفس المشار إليه أعلاه.

ويلاحظ من بعض جمل وصية الإمام الإرشادية أنَّ مثيراتها متعددة، ومن المنطقي أيضاً أن لا تكون الاستجابات دائمةً من نمط واحد، وسبب ذلك تفاوت طبائع العباد

واستعداداتهم، وتعدد مثيرات الشعور، واختلاف نواياهم وسرائرهم، وتضمنت الجملة التالية انموذجاً لهذا التنوع في مثيرات السلوك بصرف النظر عن نوع الاستجابات الصادرة، بل وتنوعها فعلياً بحسب نوع المثير وقوته.

قال الإمام الباقر:

«أوصيك بخمس: إنْ ظُلِمْتَ فَلَا تُظْلِمْ، وإنْ خَانُوكَ فَلَا تُخْنِ، وإنْ كُذِبْتَ فَلَا تَغْضِبْ، وإنْ مُدْحَثْتَ فَلَا تُفْرِحْ، وإنْ ذُمِّتَ فَلَا تُجْزِعْ».

هذا مجرد مثال على تنوع منبهات الموقف الانفعالي في حياة الأفراد، ولكن يتوقع في حياة شخص غير جابر الجعفي، أن لا تتساوى مشاعره مع إيمان جابر وقربه العبادي، وأن تتنوع استجابات هذا الإنسان الآخر، بينما مطلوب من جابر عليه الرحمة (كف سلوكه) بحزم وضبط شديدين لنفسه عن معاملة الآخرين بمثل أفعالهم، أي أن يمنع جابر استجابته عن أن تكون ماثلة لسلوك الظالمين له، والمكذبين عليه، والخائنين إياه، والمبالغين في مدحه، والذَّامِنَ القادحين في شخصه، كما أن في نص الوصيَّة المباركة على سبيل مثال آخر على ترابط المثير والاستجابة في وحدة سلوكيَّة واحدة، ومترابطة بقوله ﷺ في نص وصيَّته الشريفة والمعتبرة جابر الجعفي:

«إن المؤمن يعني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أوتها (عوجها)، ويخالف هواها في حبَّة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعش الله فينتعش، ويقيل الله عثرته فيذكر، ويفرغ إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف».

وبتأمل مفردات هذا المقطع اللغطي المهم في وصيَّة أبي جعفر محمد بن علي الإمام الباقر ﷺ نتعرف في سياقه اللغطي على بعض المثيرات والاستجابات المتصلة والمتداخلة، فبداء عملية (جهاد المؤمن لنفسه) هو مثير من داخلها، ويترتب عنه إما أن يتمكن منها



فيقيم أودها (عوجها) ومواطن الخلل فيها، ويخالفها في محبة الله (ويكون ذلك كله استجابات للمثير -جهاد النفس- أو تكون الاستجابات فاشلة حينما تصرعه نفسه فيتبع هواها، ويعقبه (انتعاش كمثير، فينتعش، ويقليل الله عثرته ويذكر، ويفزع إلى التوبة، ويخاف، ويزداد بصيرة ومعرفة، وجميعها أشكال من الاستجابات السلوكية والمعرفية والوجدانية)، وهكذا فنص الوصية كما في هذا المثال وحدة سلوكيَّة مكونة من إثارة شعورية، واستجابات متراقبة في علاقتها، ومتعددة في أنها طها.

وكل ذلك يفسر اختلاف الاستجابات السلوكية حتى لو كانت الاستشارة واحدة، فالممكن من تاريخ السلوك الإنساني يشهد بأن المثير الواحد لدى الكائن الآدمي قد يصدر عنه مجموعة من الاستجابات المختلفة ليست على نمط موحد في كل الحالات.

وقد تقدمت مَنَّا الإِشارة إلى ذلك، وبالطبع أخيراً، لا توجد علاقة بين المثير والاستجابة كمكونات أساسيين للسلوك إلَّا بتزويد الكائن الحي، ومنه (الإنسان) بجهاز عصبي حي وفعال قادر على استقبال (الإثارات أو المثيرات أو المنبهات)، وتحويلها إلى ردود أفعال، واستجابات وجدانية، وفلسفية وعقلية وإدراكية، وغير ذلك.

أنموذج تطبيقي لمجموعة من مثيرات السلوك الإرشادي واستجاباته :

يمكن النظر للوصيَّة - كنص إرشادي - بأكمله كوحدة سلوكيَّة متراقبة في مثيراتها واستجاباتها، وككيان معرفي مكون من عناصر أساسية في وحدة السلوك الإنساني، ويبدأ هذا الكيان من مثير داخلي أو آتٍ من جهة خارجية، ويتهيَّ في العادة إلى تكوين استجابات سلوكيَّة مختلفة الأشكال، ويكون وضع (المثيرات والاستجابات) في السلوك الإنساني، بل في سلوك كل كائن حي لاسيما الحيوانات أشبه بوضع (الفعل



والفاعل) في قواعد النحو العربي، فال فعل الإرشادي سواء كان في شكل وصية كوصية الإمام الباقر عليه السلام لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي، أم في شكل موعظة، ونصيحة، وموقف عظة واعتبار يظهر في بداياته الأولى كمثير، ودافع ومحرك ذاتي للسلوك من داخل الفرد، وبقوّة ذاتية، فإنْ كانت العظة الإرشادية كما في (وصية الباقر أو موعظه أو نصائحه أو غيرها) منبثقة من داخل كيان الفرد كان المثير (داخلياً) وقوّة دفعه هي الأخرى ذاتية، وهذا ما كان الإمام الباقر عليه السلام يؤكّد عليه في وصيته كنص إرشادي، وفي خطابه الإرشادي.

يقول عليه السلام في هذا الصدد:

«منْ لم يجعل الله من نفسه واعظاً فإنَّ موعظ الناس لن تغنى عنه شيئاً»^(١).

وجاء في نص آخر له قوله: «كفى بالمرء غشاً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من أمر نفسه، أو يعيّب غيره بما لا يستطيع تركه»^(٢).

ويراد بالإثارة الداخلية في الموقف الإرشادي تحسّس الفرد، وبواعث ذاتية وداخلية في تقبل الموعظ والنصائح، والسعى للفعل الإرشادي من داخله، وبمحض إرادته، وقد تعزز هذه الإثارة الذاتية الداخلية بإثارة داعمة ومساندة من موقف اجتماعي أو خارجي، كأن يتطوع أحد الناس في إسداء نصيحة فاعلة أو تنبية لنا على ضرورة تغيير سلوك خاطئ صدر عنّا، ويفترض في سياق هذا الموقف زيادة نشاط الفرد بتأثير التدخل الاجتماعي، فكلاهما، الوعظ الذاتي للفرد، والوعظ الخارجي يحرّكان سلوك الفرد في اتجاه البحث عن حل موفق للمشكلة، وضبطها، والسيطرة عليها.

(١) الحَرَانِيُّ، ابن شعبَة، تحفَ العقول، ص ٢١٤، وبحار الأنوار للمجلسي، ج ٧٥، ص ١٧٣.

(٢) الحَرَانِيُّ، ابن شعبَة، مصدر سابق، ص ٢١٦.

وإذا ما صدر من داخلنا مثير ذاتي محرك لسلوكنا أو بمعونة آخرين، فالمتوقع أن يقابل هذه الإثارة الداخلية أو الخارجية ظهور (استجابة سلوكية) سواء كانت معرفية، وجذانية، اجتماعية وأخلاقية أم غيرها، وهذه الاستجابة تكون في حقيقتها بمثابة ردود فعل منعكسة قد تختلف من فرد لآخر، أو بحسب تنوع المواقف أو من زمن إلى آخر، فالاستجابة بأي شكل هي الجناح الآخر للفعل الإرشادي كوحدة سلوكية متربطة ومتصلة.

ونعتقد أنَّ وصية أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام التي ندرسها كوثيقة تربوية وإرشادية هي موعظة روحية - أخلاقية لصاحبه جابر بن يزيد الجعفي، ولكل إنسان مؤمن، وينبغي له (أي المؤمن) الاستعانة بزادها الروحي والإرشادي، ومخزونها الأخلاقي والسيكولوجي في الرقي بذاته وتطوير قدراته، والسمو بسماتها وصفاتها، وقد اجتمع في نص وصية الإمام العنصران الأساسيان المكونان للسلوك كوحدة متربطة؛ حيث أن النص بأكمله يمثل في نظرنا شبكة من المبهات والإثارات المحركة للسلوك، وهي مختلفة الأشكال سواء كانت معرفية، روحية، وجذانية أم جانباً آخر من جوانب الشخصية.

وما لا شك فيه أنَّ هذه المثيرات الإرشادية تساعد، وبطريق إيجابية على توليد قدر ممكن من الرغبة في التغيير لدى الفرد، وتعديل السلوك، وذلك من أجل بناء نمط عبادي للشخصية الإيمانية المرغوبة بما يتفق ومعايير المشرع التربوي الإسلامي، وبما يحقق رضا الله سبحانه، ورضا الفرد نفسه عن أفعال ذاته، وهذا ما نراه عنصراً مهماً في وحدة السلوك لدى الكائن الحي، وهو ما يجسده في نظرنا (الاستجابة السلوكية) المترتبة عادة عن مثير مسبق في اتجاه معين.

وكما أن الوصية الباصرية - كوثيقة إرشادية - اختزنت أشكالاً من المثيرات



والمنبهات المحركة للسلوك كاللفظية والسمعية والحسية وغيرها، فالنص ذاته استوعب جملة ظاهرة من الاستجابات السلوكية، وتوزع هذا التنوع في المثيرات والاستجابات السلوكية في جميع فقرات الوصية الباصرية، ويستطيع كل قارئ وباحث متأنل في مضمون المادة الإرشادية للوصية المذكورة إدراك العلاقة بين المثيرات والاستجابات كعنصرتين أساسين للسلوك الآدمي، وتدرج جميعها من مثيرات واستجابات في العلاقة الإرشادية، وهي في حصيلتها العامة تمثل (فعلاً إرشادياً)، فيكون جزء من الجملة مثيراً أو منهاجاً إرشادياً، ويكون الجزء الآخر منها استجابة إرشادية قائمة أو ينبغي أن تكون.

وسنمر في طي مباحث دراستنا التي بين يديك على نماذج عديدة من مثيرات السلوك الإرشادي واستجاباته، وردود الأفعال الصادرة عن الأشخاص، وسيلاحظ القارئ الكريم نماذج من مكونات السلوك الإرشادي، وتشكل هذه النماذج منظومة التوجيه والإرشاد في الخطاب الباصرى بوصيته لجابر الجعفى، ومن هذه النماذج ما يأتي:

١. السلوك الإرشادي بمثيراته واستجاباته كما في نص الوصية ومحوار المعرفى.
٢. الانفعالات النفسية في المادة الإرشادية للوصية الباصرية الميمونة.
٣. العوامل المؤثرة في السلوك الانفعالي، وهي تراوح بين مثيرات و استجابات سلوکیة.
٤. الحاجات النفسية والمادية.
٥. القيم الإرشادية وتأثيراتها في ضبط السلوك الفردي.
٦. مبادئ تنظيم السلوك الإرشادي.
٧. مشكلات السلوك وحالاته المرضية.



٨. الأساليب الإرشادية (وقائية وعلاجية).

ومن هذه المثيرات التي تؤدي دوراً مهماً في العملية الإرشادية مثيرات الجنس والغذاء، ومثيرات سلوكية كما في الاستفزازات والسلوك العدواني كالظلم والتخوين والتكذيب والذم والقدح في أعراض الناس، والخوف، والوقاية من هوئ النفس، والترغيب والترهيب، ومثيرات العملية الجهادية للنفس وشهواتها، والفرز إلى التوبة وبروز مقاومة لمثيرات روابط النفس الناجمة عن سالف الذنوب، والشهوات الحاضرة، ويقابل هذه المثيرات كذلك استجابات من طبيعة المثير ذاته وجنسه كنماذج فقط للترابط بين المثيرات والاستجابات في العلاقة الارشادية كما في الجدول التالي:

المثيرات الإرشادية	نوع المثير	الاستجابات الإرشادية المأморلة	نوع الاستجابة
إِنْ ظُلِمْتَ	نفسي (عدواني)، أخلاقي واجتماعي	لاتظلم	أخلاقية
إِنْ خَانُوكَ	نفسي وأخلاقي (عدواني)	لاتخون	أخلاقية
إِنْ كُدِّبْتَ	سلوكي أخلاقي (عدواني)	لاتغضب منهم، واردد الغضب، أي تجنبه.	وجدانية
إِنْ مُدِحْتَ	لفظي، سمعي، وجداني	لاتفريح بأقوالهم	وجدانية، أخلاقية



وجودانية، أخلاقية	لا تجُّعَ من ذم الناس	لفظي، سمعي، وجوداني، و(عدواني)	إِنْ ذُمِّتَ
استجابة معرفية وذهنية	التفكير فيها قيل من كلام عدواني	مثير خارجي، لفظي وسمعي	ما قيل فيك من قول الزور
استجابة روحية وجودانية لما تتطوّي عليه من رغبة وأمل وطمأنينة وبشاشة	الثبات على القرآن والتمسك بما جاء فيه	مثير ديني، روحي، وجوداني، ونفسي، وعملي أو سلوكي	الرغبة في القرآن والخوف من تحويقه
استجابة عملية وتطبيقية تجتمع فيها جوانب متعددة من مكونات الذات البشرية كالجانب الروحي والنفسي، والوجوداني وغير ذلك	الاستجابة بالذكر والفرع إلى التوبة	مثير روحي، نفسي، سلوكي	تعثر حركة الفرد المؤمن في عملية المجاهدة النفسية
استجابة وجودانية، وروحية	استجابة الندم الشديد، وكثرة الاستغفار والذكر في الخلوات والعلن	المثير نفسي ذو طبيعة روحية وإيمانية	استرجاع سالف الذنوب
استجابة أخلاقية اجتماعية	استجابات التعود على عادات السلوك الشرير.	نوع المثير (نفسي، واجتماعي، وسلوكي).	الثقة بغير المؤمن



ثانياً: الهدف المراد تحقيقه.

لكل سلوك، و فعل، و شعور في حياتنا البشرية غاية، و هدف محمد أو أكثر يراد تحقيقه في حركة الواقع، أو على المستوى الشخصي لحياة الفرد نفسه، وبالكيفية التي يتطلع إليها العبد من عمله، والهدف كما أشرنا.. غاية إنسانية يراد الوصول لها بعد أداء عمل عبادي معين أو مجموعة تكاليف شرعية تحقق الغاية التي يرضي الله عنها، أو تشعرنا كبشر بحالة من الارتياح النفسي والشعور بالسعادة والمتعة الذاتية.

وللهدف معنى تربوي يحدده بعض المشغلين بالدراسات التربوية والسيكولوجية فجاء في بعض المصادر أن الهدف (Goal) يُعرَف لدى بعض علماء النفس بأنه: «طموح الإنسان وما يرغب في أن يُكَوِّنَه، ويقصد به التغيير البناء الذي يحدث في سلوك المتعلم نتيجة مروره بمواقف تعلمية معينة، وتفاعلاته معها، ويمكن قياسه وتقويمه»^(١).

والهدف في معناه البسيط، وكما نعرفه هو (كل سلوك متوقع، ويرجوه الإنسان^(٢)) ويطلبه مؤمناً كان، أم غير مؤمن من ممارسة سلوك معين أو أداء فعل ما، ولذلك يحرص الإنسان العابد على تحديد هدف واضح مما سيفعله أو غاية مرجوة ومأمولة من سلوكه، ومن أجلها يبذل الفرد المؤمن جهده لتحقيقه، وإضفاء طابع المسؤولية عليه، وصيغه بالطابع العبادي السوي الذي رسمه المشرع الإسلامي في أحکامه التكليفية الشرعية بمختلف أنواعها لضبط وتوجيه حياة الكائن الآدمي، فيطلب من الفرد المؤمن وصوله إلى هدف مهم، وتحقيقه - على سبيل المثال - طلب إرضاء الله عزَّ وجلَّ تعالى، أو تحقيق قدر معين و المناسب من التوافق النفسي والاجتماعي أو انجاز شيء معين أملأ في الوصول إلى قدر معقول من الصحة النفسية.

(١) حسن شحادة، و زينب النجار، مصدر سابق، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) مدن، يوسف، سيكولوجية الانتظار، ص ٤٢.

وعادة ما يتم استخدام الوسائل والأدوات والآليات الممكنة لبلوغ الهدف المحدد، ومن ذلك استخدام ثقافة الدعاء وطابعها المعرفي والروحي، وتفهم نصوصية المذكورة طلباً من العبد المؤمن لتنمية علاقته مع خالقه عزّ وجلّ، وحيث هذا الطابع بطابعه الأخلاقي والإرشادي للفرد المؤمن بخاصة زماننا المعاصر زمن غيبة إمامنا المهدي عليه السلام، وزمن المنتظرین لظهوره الميمون على طلب التوافق السوي بإشباع الحاجات، وإزالة الهموم وتفریج الكرب، وقبول نعم الله سبحانه وتعالى، والتعامل معها بشكل سوي، وتوافقی، وتكیف سلیم مع قواعد البناء السوي لننمی الشخصية العبادية المطلوبة، أو القریبة من دوائرها على أقل تقدیراتها.

وما نلحظه أنه في نصوصية تحددت بعض مطالبات الإنسان المؤمن بتوجيه من الإمام الباقر، ورغبة منه في تحقيق أهدافه من الله سبحانه، وتوقف غالبية مقاطع هذه الوصيّة كأمثلة عند المدفین الرئيسيين، وهم (طلب رضا الله، وتحقيق التوافق النفسي والاجتماعي)، ثم ما ارتبط بها من أهداف صغيرة ومشتقة تلتقي بخيوط مع المدفین الأساسية المذکورین، وتقدمت إشارة بعض أهداف الوصيّة الارشدية في حلقة سابقة، وجاء في الوصيّة قول الإمام الباقر عليه السلام بعد إشارته لنماذج من المثيرات الانفعالية ومطالبه جابرًا بكف سلوكه عن المعاملة الظالمه والمنحرفة بالمثل فقال عليه السلام محذراً من نتيجتين تسقطان المؤمن في هاوية، وتحرمانه من تحقيق هدفيه.. رضا الله، ورضاه عن نفسه، ورضا الآخرين عنه، وطلب منه التفكير فيها قيل حتى يتتجنب هذا السقوط المزدوج، قال الإمام الباقر عليه السلام في توجيه نصيحة لجابر بن يزيد الجعفي رحمة الله عزّ وجلّ:

«وفكر فيها قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله جلّ وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس،



وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك».

أي بها يعرف رضا الله عن الذات، ورضا الفرد عن نفسه.

وينتهي المقطع التالي الآخر إلى تأكيد أهمية الهدفين السابقين، تحقيق نصر على الذات، والوصول إلى حالة من الاتزان والرضا الذاتي، وإنعاش الله للإنسان بعد استبصراته، ودفع مخاطر ما مسه من طائف الشيطان ووساوشه الخطيرة، وهو ما يتحقق به الفرد المؤمن رضا ربها، وهو في الوقت ذاته مطلب وهدف يؤدي بالنسبة للفرد المؤمن إلى تحقيق هدف أقل منه وأصغر وهو تحقيق حالة معقولة من التوافق والصحة النفسية، قال مقطع من نص الوصيّة: «إن المؤمن معنی بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فيتعشعش ويقيل الله عثرته فيتذكر ويفرغ إلى التوبية، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

وتوزعت في النص الإرشادي للوصيّة مطالبات عديدة من الإمام الباقر لضمان بلوغ الهدفين الرئيسيين مثل استقلال كثرة الطاعة، و تعرض النفس لطلب عفو الله، وخلاصها من الغفلة، وتقظها الذهني، وصدق الخوف، وغلبة الهوى باسترداد العلم ودلالة العقل، ومراجعة الذات، والت Hibب لله بالمسارعة في تعجيل الأعمال الصادقة، واستبقاء خالص الأعمال الصالحة ليوم الجزاء واتقاء الحرث بإيثار القناعة، وتذوق حلاوة الزهد بقصر الأمل، وكثرة الذكر في الخلوات وكثرة الاستغفار لتلبيس القلب

(١) الأود: محرك (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.



وترقيقه، وخاصة الدعاء، وعظيم الشكر، وتزيين النفس بصدق الأفعال وسلسلة من الأفعال العبادية نصح الإمام الباقر بتفيذها.... الخ.

ثالثاً، النية الإنسانية:

ويراد بهذا المصطلح العبادي (التوجه الداخلي الحاسم للنفس نحو الإيمان الكامل بهذه العقيدة أو غيرها بلا تردد أو حيرة)^(١)، وهذا ما قاله أحد العلماء واللغويين كابن عشيرة البحرياني رحمه الله، إذ قال عن النية: «هي القصد من غير تردد»، أما العزم فهو الحاصل بعد التردد، وهو العقد على الأمر بالإرادة^(٢)، والنية كما قال ابن عشيرة البحرياني «من أفعال القلوب، فلا يصح إطلاقها على الله، والإرادة يصح إطلاقها، فيقال إرادة الله سبحانه وتعالى»^(٣)، بحيث يوجه العبد المؤمن عمله العبادي كله لله عز وجل، وتكون إرادته موجهة نحو فعل معين مطلوب بنية ندية ونظيفة لله خالية من الشوائب والرياء والشرك الخفي وطلب الشهرة.

فالنية الصالحة في نظر المشرع التربوي الإسلامي هي روح العمل، والفقه بها وضبطها هو وعاء العمل وقادته، وكلاهما يتحقق مواءمة بين عمل الذات وبرنامج المنهج على هدي الإسلام وقيمته وتعاليمه، وهنا توجه النفس في سلوكها نحو بارئها بنية صالحة وموافقة من الناحية العبادية وموافقة لمعايير المشرع الإسلامي ومحدداته الإيمانية.

ونتلمس الإشارة إلى النية كمحدد مهم وأساسي في تكوين السلوك وتلوينه بطابع

(١) مدن، يوسف، مصدر سابق، ص ٤٢.

(٢) ابن عشيرة، يحيى بن الحسين، بهجة الخاطر ونزة الناظر، ص ٦١.

(٣) ابن عشيرة، يحيى بن الحسين، مصدر سابق، ص ٣٩.

الخير في مقطع مهم ومثير ذكره الإمام الباقر عليه السلام، حيث لم يترك تأكide على دور النية الصالحة أو الطالحة في جُمل عديدة من وصيّته عليه السلام لجابر، وتحديد نوع الفعل وإضفاء طابع عبادي أو خلافه عليه، ونذكر القارئ بكلمات الإمام في مقطعين لتأملها واستلهام معاناتها.

قال الإمام الباقر عليه السلام عن إرادة الخير في الإنسان:

«يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للغفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخاص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقّع مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترداد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة، واستجلب حلاوة الرهادة بقصر الأمل، وقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخليص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجام القلب، وتخليص على إجام القلب بقلة الخطأ، وتعرّض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق».

وقال في مقطع آخر:

«واسترجع سالف الذنب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخاص الدعاء والمناجاة في الظلم، وتخليص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة



النعم بعظيم الشكر، والتسلل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العز بإيمانة الطمع، وادفع ذل الطمع بعزم اليأس، واستجلب عز اليأس بعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الحالية مع صحة الأبدان، وإياك والثقة بغير المأمون، فإن للشر ضراوة كضراوة الغذاء، وأعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامه كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء مُعين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغارك الدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ولا نعمة كالعاافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف وبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالملاسة في الدرجات، ولا عدل كالإنصاف، ولا تتعدي كالجلور، ولا جور كموافقة الهوى، ولا طاعة لأداء الفرائض، ولا خوف كالحزن، ولا مصدية كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين فقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد الخوف، ولا مصدية كاستهانتك بالذنب ورضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذل الطمع».

ورد في نص الوصية الباقرية عن إرادة السوء لدى العبد قوله ﷺ:

«إياك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق»، ودعا في مواجهة ذلك إلى قوله: «وتزيّن الله عز وجل بالصدق في الأفعال، وتحبّب إليه بتعجيل الانتقال».

ثم قال في جملة ثانية:

«إياك والتسويف فإنه بحر يغرق فيه الهمكي، وإياك والغفلة، ففيها تكون قساوة



القلب، وإيّاك والتواني فيها لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون».

«ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها».

«وإيّاك والتفرط عن إمكان الفرصة، فإنه ميدان يجري لأهله الخسران».

ففي هذه المقاطع تأكيد على وجود القصد أو النية أو الإرادة الداخلية، وعلى نوعها الآخر من حيث الاستقامة أو الفساد، ويشهد المقطع كله على فساد نوايا بعض الناس، والمهم في هذه المقاطع جميعها تأكيدها على وجود النية (خيرة وشريرة) كعنصر ومكون للسلوك عند الآدميين، ودورها في تشكيل شخصياتهم سواء كانت بنية خالصة لله سبحانه أم بنية تحاذل وسوء، بل شر، فالنية مكون ملحوظ الأثر في بُنيّة الفعل الإنساني وتكونيه، بل ويوصف الإنسان بالخير أو الشرير على أساسه.

وبقيت الإشارة إلى مكونات أساسية للنّيّة الإيمانية الصادقة، والمفترض تتحققها في شخص جابر الجعفي أو من سَائِر جابرًا على منواله الإيماني، وإنْ كانت نِيّة كل فرد كان (جابرًا أم غيره من الأفراد) تتكون من مكونات ثلاثة أساسية، ونوجزها فيما يأتي:

١. مكون معرفي:

ويقصد بهذا المكون معرفة الفرد بالأمر المراد عمله، ويشمل مجموعة الآراء والأفكار والمعتقدات والحجج العقلية سواء أكانت (خاطئة أم سليمة)، وهي معنية بتفسير وفهم الباعث على النشاط والعمل، والغاية من الفعل، وبالتالي المتوقع أن تترتب عنه، فيختار الإنسان أو الكائن الآدمي، وبنّيّة صحيحة يعلم الفرد بنتائجها، ويعرف بعقله وإرادته الواقعية جهة القصد التي توجه إليه.

٢. والمكون الثاني (المكوّن الوجودي):



ويحدد هذا المكون كل المشاعر الوجدانية المرتبطة بـ «موضوع النية» كالحب أو الميل النفسي والانجذاب نحو شيء معين أو الرغبة القلبية تجاه تحقيق فعل معين، أو حالة الجذب الداخلي نحوه، فالنية التي وراء صدور الفعل قد تكون مشحونة بمشاعر «الحب أو الكره، بالسلام أو العداون، بالتفاؤل أو التشاوُم».

٣. والمكون السلوكي :

وهذا المكون مهم، وهو مكون عملي وتنفيذي يتم بعد وضوح الرؤية المعرفية وتحديد مشاعر الحب والبغض للموضوع، ويقوم هذا المكون على نزوع النفس عملياً إلى تنفيذ الأفعال والاستجابة السلوكية نحو موضوع معين^(١) سواء أحبته النفس أم كرهته.

ونلقت نظر القارئ إلى مسألة توجيه الإمام الباقر عليه السلام لصاحبه جابر الجعفي بكفّ أية استجابة مماثلة لمن ظلمه أو خانه أو كذبه... الخ، ورد الفعل أو الاستجابات المطلوبة - وكما يريدها الإمام الباقر عليه السلام - لا بد أن تتصف بالأمور التالية:

أ - خلوها من الظلم.

ب - وأن لا يكون رد الفعل هو نفسه خيانة مماثلة لسلوك الخائن نفسه.

ج - ولا تكون الاستجابة على فعل التكذيب استجابة غضب، ويقصد الغضب العلني، المخلوط بالحماقة، والطيش، والشتائم وبذاءة القول.

قد تتتنوع استجابات الشخص الذي تعرض لهذه المثيرات الاستفزازية، ولكن بحسب وصية الإمام الباقر عليه السلام عليه أن يتتجنب استجابات الظلم والتخوين والتکذیب والاستجابة بالمثل، وربما بردود فعل سيئة، أمّا في تربية ردود فعل جابر، ومن يحب

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ٢٢٨ - ٢٣٠.



الإمام ويمثل لأوامره ونواهيه، فهذا الموقف يُبَيِّنُ على مثيرات واستجابات، ووجود كائن آدمي، ويرتكز على وجودانية صادقة لديه كي تكون الاستجابة كما أراد الإمام مثالية ومنضبطة، وهي لا تخلو من مكوناتها الثلاثة التي ذكرناها قبل قليل.

فالملعون المعرف قد تحقق، وهو أن جابرًا يعلم بالامر المراد منه فعله، وهو عدم ظلم من ظلمه أو تخوين من خونه وغير ذلك، وتكون هذه المعرفة سببًا في الامتثال والطاعة لأوامر؛ لأنها تكسبه الفضل على غيره، ويكون ثوابها مجزيًّا عند الله، وتتيح للفرد تربية نفسه، وسموه عن البداءات وفحش القول وغير ذلك.

أما المكون الوجداني لنية جابر هنا، فيميل جابر أو من يوالي الإمام الباقر إلى طاعته حبًّا في الانقياد لأوامره، وميلاً لطلب الأجر، والبعد عن الفواحش، وحب السلام لا العداون ألم الكراهة، فالتعاطف مع هؤلاء الأشخاص هو حب للإمام الباقر، وتصديق لقوله بأن كف السلوك هو الخيار الأفضل، وفي المكون التنفيذي أو السلوكي عمل بمشورة الإمام كخيار عبادي سليم، حيث تعبير النية عن صدقها، ورشدها، وإخلاص جابر أو غيره من المؤمنين للإمام الباقر وطاعته لأوامره، وتنقية قلبه من الشوائب، وهكذا فنية الصحابي الكريم كلها -للإمام الباقر أو غيره- إن تمكن فعليًّا من التقيد بأوامر الوصية وضوابطها تجسيد تعبيراً للنية الصادقة والرشيدة، وهي تعبير عن نجاح جهادي بتنقية داخل الفرد من شوائب الدنيا، وما انسحب على هذا الموقف السلوكي ينسحب على ألفاظ وجمل وعبارات في نص الوصية من حيث توافق مكونات ثلاثة لنية، وهذا ما يساعد على تنظيم السلوك وتوجيهه مساراته نحو أهدافه العبادية المرغوب بها.



رابعاً: مبادئ تنظيم السلوك

مررنا في مدخل هذه الحلقة بتحديد (مفهوم المبادئ التنظيمية) للسلوك الإنساني، وهي عنصر يرتكز عليه البناء العام والأساسي للشخصية العبادية الإيمانية، وتشكيل سلوكها ومشاعرها وبناء تنظيمها سواء في مجال عقائدي، أو في مجال آخر كال المجال السلوكي، وسنعالج هذا الجانب في هذه الحلقة لاحقاً بعد الوقوف المختصر عند خصائص هذه المبادئ.

ويتحدد على أساس هذه المبادئ نمط أساسي للشخصية العبادية للأفراد المؤمنين في عصور مختلفة بخاصة في زمن غيبة إمامنا قائم آل البيت عليه السلام، إذ تعاون جميع المبادئ، وتعمل كوحدة موحدة في تنظيم سلوكنا، وبناء النمط العام لشخصية الفرد منها، فالنص الكامل بأسره لوصيَّة الإمام الباقر عليه السلام، وما تضمنه هذه الوصيَّة من مفردات لفظية استبطن عدداً من المبادئ بشقيها (الأخلاقي والسيكولوجي)، وهي جميعها متراقبة تستهدف تنظيم بناء النمط العبادي الأساسي لشخصيات الأفراد المؤمنين، وعما لا شك فيه أن التعرف على مجموعة هذه المبادئ يحتاج إلى ثقافة سيكولوجية ودينية معقولة من الباحث، وإلى توافر مفردات لفظية من داخل نص الوصيَّة ذاتها كي تساعد الباحث على الجمع والحصر والتحديد وربط هذه المبادئ في نسق فكري يمنحه فرصة مناسبة لصياغة نسق عام قريب لنظرية معرفية عن مجموعة المبادئ التنظيمية للسلوك، ونأمل التوفيق.

معنى تنظيم السلوك.

لفظة: تنظيم (اسم)، وقيل (فعل)، نَظَم، وَيُنَظِّم، تنظيماً، فهو مُنظَّم، والمفعول (مُنظَّم)، وجمعه تنظيمات بأشكال مختلفة ومتعددة، ومصدر (نَظَم)، ويقال في بعض أدبياتنا (تنظيم العمل، وهو ترتيب الأمر بطريقة مسبقة، وتديرها ليأخذ نسقاً معييناً)

في الحركة والتوجيه وتنظيم الجهد، فمفهوم مصطلح (تنظيم السلوك) يعني جعل أجزاءه وعناصره كتلة عمل واحدة، وتعمل متألفة، ومتآزرة لأجل أداء غرض معين أو هدف مشترك، ويتم ترتيب نشاطها كوحدة سلوكية، فتنظيم السلوك يعني «نظم مكوناته وأجزاءه وترتيب حركتها، وخاضعة لقانون أو قاعدة كترتيب العلاقة مثلاً بين مثيرات السلوك واستجاباته».

وهكذا فالسلوك الإنساني على اختلاف أنماطه واستجاباته، وتبالين أغراضه وأوصافه يعتبر سلسلة من العمليات المتتابعة، بشكل يجعل من مجموعها صيغة فعلية واحدة، تؤدي غرضها بعد أن تجسد حقيقة سلوكية على مسرح الحياة^(١)، وهذا وجْه فعال من أوجه تنظيم السلوك في اتجاهاته المطلوبة، ووجهة قصده.

أولاً: خصائص مبادئ تنظيم السلوك في نصوص وصيَّة الإمام الباقر.

قد تمكنت الملاحظة الأولى لنصوص وصيَّة أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام بتماسك مفرداتها ومعانيها ودلالاتها الإنسانية، وتبسط لدى الإنسان قليلاً من التأمل الذهني في محتوى المادة الإرشادية - التعليمية لوصيَّة الإمام محمد بن علي الباقر عليه الصلاة والسلام من رؤية مبادئ وأفكار، ومضامين أنظمة، ومعانٍ قيم مؤثرة، وهي بكل تأكيد قوى مؤثرة، وضابطة للسلوك في تكوينه الأولى وحركته المتتابعة.

كما أنَّ هذه المبادئ بمثابة (أدوات ضبط) تستخدم للمساعدة على تحقيق هذه الأهداف وتنظيم سلوك الإنسان، وتنظيم حركة العلاقة البشرية في إطار دوائر متعددة كالعلاقة بين الإنسان وربه سبحانه، وعلاقته مع الآخر، وعلاقة ثالثة مع نفسه،

(١) تنظيم السلوك الإنساني، دراسة من إصدارات دار التوحيد الكويتية، ص ٧.



وكذلك علاقته مع عالم الأشياء المادية المحيطة به في الدنيا، ويرتبط هذا الكشف بمعرفة خصائص عامة لهذه المبادئ التنظيمية للسلوك، وفهمها كضرورة تربوية ل التربية (الذات العبادية) بطريقة وقائية، أو مساعدتها بطريقة علاجية على التخلص من بعض عيوبها وأمراضها، ورذائلها.

ومن هذه الخصائص:

- طابعها رباني.

- إنسانيتها.

- تنظيمها وطابعها الأخلاقي.

- هدفية هذه المبادئ.

- تشابك وتداخل هذه الخصائص مع بعضها.

١. ربانية المبادئ.

والمراد من مضمون هذا المبدأ ارتباط محتواه الداخلي بتعاليم السماء، والقيم الإلهية الخالدة، فالتوجيهات الإلهية هي المصدر الأساسي لمادة ومحنتى هذه المبادئ التنظيمية الموجهة لـ (سلوك الإنسان) في علاقته بالله تعالى.. الرب الكريم للمخلوقات كلها بلا استثناء، وكذلك في علاقات الإنسان الخاصة مع ذاته، ومع الآخرين في محيطه الاجتماعي الواسع والمتتنوع، ومع عالم الأشياء في البيئة الخارجية للفرد ومثيراته ومكوناته، إذ تستمد هذه المبادئ روحها، وقوتها عملها من رؤية الدين ومن تعاليم الله سبحانه وقيمه ومبادئ منهجه القويم، ونقصد الإسلام كدين موجه للسلوك في مجالات متعددة من حياة الإنسان على أزمنة مختلفة، وفي بيئات مكانية متعددة.

فإذا طلب المرء الحصول على شيء من (اللذة) على سبيل المثال أو أراد تجنب (الألم)، ودفع الضرر عن نفسه كانت توجيهات الله سبحانه وتعالى ماثلة أمامه لتنظيم تحقيق هذا المبدأ، والاستفادة منه في توجيهه مساره في حركة الحياة الإنسانية وضبطها إمّا بتحقيق الرغبة في إشباع (اللذة المطلوبة) أو (تجنيبه آلاماً تؤديه)، وقد أسس نص هذه الوصيّة الكريمة كل (مبادئها التنظيمية) وفق اجتهادنا الخاص، وهي كما نعتقد مبادئ موجهة للسلوك على أساس طابعها الرباني.

فكـل ما يتحقق تنفيذ هذا المبدأ موكـل إلى الله سبحانه وتعالـى، باعتباره هو المصـدر الأسـاسي في تـأمين ما يـحتاجـه الأـفراد من طـلـباتـهمـ، وـحـاجـاتـهمـ المـخـلـفةـ، وـأنـهـ سـبـحـانـهـ الـذـيـ خـلـقـ الـإـنـسـانـ، وـهـوـ عـلـىـ عـلـمـ بـتـرـكـيـتـهـ الـعـضـوـيـةـ وـالـنـفـسـيـةـ وـالـذـهـنـيـةـ، وـمـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ وـمـاـ لـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ، وـتـطـابـقـ مـبـادـئـ وـصـيـةـ وـلـيـهـ فـيـ أـرـضـهـ إـلـامـ مـحـمـدـ الـبـاقـرـ.

وهـكـذـاـ فـكـلـ مـبـادـئـ تـنـظـيمـ السـلـوكـ مـسـتـمـدـ مـنـ تـعـالـيمـ اللهـ وـتـوـجـيـهـاتـهـ، وـمـرـتـبـ تـنـظـيمـيـاـ بـالـأـوـامـرـ وـالـنـواـهـيـ الإـلـهـيـةـ، وـتـكـونـ الـاسـتـفـادـةـ مـنـ هـذـهـ مـبـادـئـ بـأـكـمـلـهـاـ دونـ استـنـادـ فـيـ مـهـمـتـهاـ المـحدـدةـ، وـهـيـ الـارـتـقاءـ بـالـذـاتـ وـإـنـضـاجـ كـيـانـهاـ بـالـتـعـالـيمـ وـالـأـسـالـيبـ وـالـقـيـمـ الـعـبـادـيـةـ وـتـحـقـيقـ رـضـاـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ.

٢. إنسانية مبادئ الوصيّة.

وـنـعـنـيـ بـ(ـإـنـسـانـيـةـ هـذـهـ مـبـادـئـ)ـ الـوارـدـةـ فـيـ نـصـ وـصـيـةـ إـلـامـ الـبـاقـرـ انـ المرـشدـ الـإـلـامــ قدـ قـامـ بـتـسـخـيرـهـاـ فـيـ خـدـمـةـ الـإـنـسـانـ،ـ لـاسـيـاـ الـمـؤـمـنـ الـمـتـدـينـ،ـ فـالـغـرـضـ مـنـ الـوـصـيـةـ،ـ وـمـنـ مـبـادـئـهـاـ أـنـ تـكـوـنـ فـيـ خـدـمـةـ الـإـنـسـانـ وـمـوـجـهـةـ لـمـنـافـعـهـ،ـ وـغـرـضـهـ الـقـيـامـ بـعـمـلـيـاتـ (ـضـبـطـ وـتـنـظـيمـ)ـ تـفـكـيرـهـ وـمـشـاعـرـهـ وـأـنـشـطـتـهـ وـأـفـعـالـهـ التـكـلـيفـيـةـ بـمـحـدـدـاتـ الـمـشـرـعـ الـتـرـبـويـ الـإـسـلـامـيـ وـأـحـكـامـهـ الـشـرـعـيـةـ،ـ وـقـدـ سـُـمـّـيـتـ بـهـذـاـ الـاسـمـ لـاتـصـالـهـ الـمـباـشـرـ

 بخدمة الإنسان.

وتميز هذه المبادئ على تعددها بـ (سمو طابعها الإنساني)؛ لأنها تصبح بصماتها بالطابع الإنساني، فمن حيث كون هذه المبادئ منتظمة للسلوك البشري، وما يقوم به جموع الناس من أدوار ومشاركات إنسانية مباشرة في صنع الأفعال الصادرة عنه والإتيان بها سواء أكانت من الأفعال (الخطأة) أم من الأفعال (العبادية الصحيحة)، والإفادة منها في تكوين وتوجيه السلوك الإنساني؛ إذ إنها مستمدّة من مصدر رباني.

فهذه المبادئ - إذن - ليست موجهة للكائن آخر غير الإنسان كالحيوانات والجمادات التي تفتقر للتفكير السامي، والشعور بالمسؤولية، وحيوية الإرادة والارتباط بعالم الغيب، وهذا تهم يإدارة شؤون الإنسان وإدارة نشاطه مستلهمة روحها من المحتوى المعرفي لهذه الوصيّة، وتستهدف تنمية قواه الذاتية في مرحلة تطوره المعرفي والأخلاقي والروحي لاسيما في (المرحلة الوقائية) للذات، وكذلك تهم بالإنسان ومشكلاته وهو مومه كما رأينا في مرحلة العلاج وتعديل السلوك بمحددات إيمانية يرضيها الله سبحانه لعباده، وهذا لم تسمّ هذه المبادئ بـ (إنسانية) إلّا لكونها تخدم الإنسان وتحقق له درجة مقبولة من (كماله الروحي والمعرفي) يبيّنه لقاء الله تعالى في عالم الآخرة، وقد تمكن بنجاح من بناء نمط شخصيته العبادية.

٣. الطابع الأخلاقي لمادة دعاء الافتتاح ومحفوظ المعرفي والروحي.

تمتاز كل وصايا، ونصوص وأدعية أئمة أهل البيت عليهم أفضل الصلة وأذكرى سلام الله عز وجل بثروة قيمة وأخلاقية ومعرفية مُربّية، وتنطوي على أهم المبادئ الضابطة والتنظيمية لحركة السلوك البشري، ولا يشد نص وصية الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام عن هذه القاعدة، إذ تتسم مادته الإرشادية - التعليمية بطبع أخلاقي ومعرفي

وروحي يحقق (صدق العبودية) كما جاء في أقوال أئمة أهل البيت، وهو هدف عبادي كبير يشدد المشرع التربوي الإسلامي على تحقيقه والعمل من أجله، فجميع مبادئ هذه الوصيَّة الكريمة كالعفو عن الذات، وطلب الاعتذار والاعتراف بالذنب والتوبة وكثرة الذكر في الخلوات، وتكرار الاستغفار وطلب إشباع الحاجات الإنسانية، والاستغاثة على شهواتنا والبحث عن اللذات وتجنب الألم مؤسسة على طابع أخلاقي واضح، وفاعل ومؤثر في (تربيَّة المؤمنين) وصياغة كياناتهم الذاتية.. أفراداً وجماعات.

فما يميز هذه المبادئ (التنظيمية) في هذه الوصيَّة هو ما اتسمت به من قيم، وتعاليم ذات طابع أخلاقي مؤثر يساعد على تكوين أفعال سلوكية موسومة بالأخلاق العبادية التي يتبعها الإمام محمد بن علي الباقر عليه أفضل الصلاة والسلام تحقيقها في حياة الفرد المؤمن من تطهير داخل النفس الإنسانية من الشك والشكوك والنفاق، وتخليصها من وثاق الشهوة وأسر الهوى وأمراض السلوك ومشكلاته، فليس هناك قوة تحرر النفس من أوزارها، ومشاعر الاستياء والإثم أهم من تفعيل الأخلاق العبادية التي شدد الإمام الباقر عليه في مواجهة الهوى، وبذل الممكن من أجل تنظيم السلوك الإنساني وضبطه والارتقاء به واستئثاره في تحقيق الازان النفسي المفقود.

٤. الهدفية السامية للمبادئ التنظيمية في نص الوصيَّة.

تقدَّم قولنا بأنَّ الهدف طموح إنساني، وسلوك مرجو التحقق، وما لا شك فيه أنَّ هذه المبادئ لم توضع في نص الوصيَّة عبثاً، وأنما وضعت من أجل أن يتحقق عباد الله المؤمنون أهدافهم بواسطتها، بل هي (منظومة معرفية وروحية وأخلاقية) تتبعها ضمن أهدافها القيام بمهمة ضبط وتنظيم سلوك الإنسان المؤمن، وهي في نظرنا (آليات عمل) موصولة بأهداف عبادية واضحة أكد عليها الإمام محمد بن علي الباقر في نص وصيَّته، فمبادئ هذه الوصيَّة ليست غاية في حد ذاتها، وإنما أدوات قوة موجهة للسلوك، وغايتها



أن ترعى عمليات بناء الشخصية العبادية المطيعة لله سبحانه وتعالى.

وأهم ما تريده هذه المبادئ تحقيقه - كما ذكرنا مراراً - هدفان أساسيان هما:

أ - تحقيق الرضا الإلهي، وتحقيق رضا الله على عباده بأدنى حد.

ب - تحقيق حالة رضا العبد عن ذاته، بتعديل سلوكها أو إزاحة مؤشرات التوتر النفسي المؤلم، وهذا ما نسميه بحالة التوافق النفسي للذات مع نفسها.

فعلى سبيل المثال نجد (طلب العفو عن الذات كمبدأ تنظيمي للسلوك) يستهدف محو الأثر النفسي المترتب عن ضغوطات السيئات أو قهر الذنوب وتحديات المعاصي وتراكيمها الجاثمة على كيان الشخصية الإنسانية، واستبدلاته بتحقيق أثر نفسي إيجابي مضاد كالشعور بحالة من الرضا النفسي، والإحساس بالراحة داخل النفس، وإزاحة ضغوط مشاعر الاستياء الناجمة عن ارتكاب الذنوب ومنع صفاتها، والوصول إلى راحة النفس كما أوصت الوصية باجمام القلب وقلة الخطأ، وبتلبية مطالب العملية الإرشادية بأكملها.

ويلحظ أن تحقيق الهدف الثاني مع قدرته على الوصول بالفرد المؤمن إلى مستوى عال، ومتقدم من الإنجاز الإيجابي فإنه في الوقت نفسه مظهر لتحقيق هدف أكبر.. هو الرغبة الكبرى في تحقيق رضا الله عزّ وجلّ ورضا الفرد عن ذاته، وفي كل الحالين يتحقق لدى الفرد رغبة في نيل الطلب الفعلي والمهم (الرضا الإلهي كهدف رئيسي)، وتحقيق قدر معقول من الصحة النفسية، وهذا ما ينسحب على مبادئ أخرى موجهة سلوك الفرد في نص هذه الوصيَّة.

٥. شموليتها.

ونعني بذلك شمول هذه المبادئ مختلف جوانب شخصية الإنسان المؤمن

(الجسمية، والروحية، والنفسية والاجتماعية، والعقلية والوجودانية)، فالإنسان يمثل كياناً واحداً، ولا تتعامل هذه المبادئ مع جزء من هذا الكيان دون غيره، فإذا داومت نفسه على شيء من السلوك العبادي انعكس ذلك على مكونات أخرى من كيانه كالتفكير والحياة الوجودانية، وأعضاء جسمه، وحياته الاجتماعية، وإذا أدى فرائضه اليومية المكلف بأدائها انتظمت جوانب الشخصية مع بعضها وتفاعلت مع مجموعة من المبادئ، وتحركت الذات الإنسانية في اتجاه منتظم واحد.

كما أن هذه المبادئ تدرج في حركة توجيهها للذات البشرية تحت تأثير مناهج ثلاثة هي (المنهج الإنمائي، والمنهج الوقائي، والمنهج العلاجي)؛ لأن الكيان الآدمي كله كتلة موحدة، يتأثر فيه كل عضو، أو جانب بالأجزاء الأخرى، وقد رأينا تداخل مفردات نص الوصية في حديثها عن إنسان مؤمن موحد الكيان، وموحد الوجود المادي والروحي والعقلي والاجتماعي.

٦. عمل هذه المبادئ كمنظومة موحدة في تأثيرها التربوي.

تداخل مبادئ تنظيم السلوك الإنساني وضبطه في التركيبة اللفظية لهذه الوصية مع نفسها، ومع الأُساليب العلاجية - الإرشادية، فمختلف القضايا التي اهتم بها نص وصيَّة الإمام محمد بن علي الباقر لا تخلو فعلياً من تداخل وتشابك وتفاعل فيما بينها، فكل أنماط العلاقات ودوائرها الأربع في مادته موحدة معرفياً، ومرتبطة بالعلاقة الكبرى، وهي علاقة الإنسان مع الله سبحانه وتعالى، ومؤسسة على مبنها الروحي والعقائدي والمعرفي، فكل خاصية من الخصائص الأساسية لهذه المبادئ مرتبطة بالآخرى تتأثر بها وتأثير فيها.



ونعتقد أنَّ هذه المبادئ كلها لا تعمل منفصلة عن بعضها في توجيه الذات في سلوكها، وأفكارها ومشاعرها، ولهذا لا تتحرك هذه المبادئ مفككة عن بعضها في عمليات الضبط، وفي تأثير مجموع كيانها من أجل تحقيق الأهداف التي تزيد الوصيَّة الوصول إليها، وأهمها، وفي صدارتها المدفان الكبيران:

- (طاعة الله وطلب رضاه عز وجل).

- (وبناء شخصية الإنسان على مرتکزاتها بنحو يرضي الفرد عن أداء ذاته).

إنَّ جميع مبادئ الوصيَّة أو غالبيها -كما نراها- تتحرك معاً كمنظومة معرفية ونفسية وقيمية في إدارة الذات وتنميتها، وفي اتجاه واحد يساعد على بلوغ الهدف الأكبر.. رضا الله سبحانه، وهدفها الرئيسي المرتبط بهدف تحقيق رضا الذات عن نفسها، واكتمال حالة النضج لديها، وتحقيق مستوى معقول من الصحة العقلية والجسدية والنفسية.

فلا يمكن على سبيل المثال الاستفادة من مبدأ الإثابة، وتطبيقه على الأفعال العبادية بدون قيام الفرد بالأعمال العبادية من طاعات وأعمال حسنة، وتجنب المعاصي، وبدون تفعيل مبدأ الاعتراف والتدم، والتوبة وتعديل السلوك، وحل صراعاته الداخلية، وتكرار الأفعال العبادية، والاستعلاء على الشهوة والانتصار على الهوى، والإشباع المنظم المشروع، وغير ذلك؛ حيث إنَّ جميع هذه المبادئ منظومة واحدة لا تتعارض مع بعضها في حركتها الضابطة والتقويمية والتوجيهية لسلوك الذات البشرية، وفهم من المادة الإرشادية للدعاء المذكور ومحتوها المعرفي والروحي تأكيد لها على هذا التداخل، وعلى عملها الموحد كمنظومة توجيه لسلوك الإنساني.

الحلقة الخامسة
الانفعالات النفسية
مفهومها، وشروط حدوثها، وأنواعها
وترشيدها في وصيَّة الإمام الْبَاقِر ع

المقدمة

مررنا في حلقة سابقة على نص وصية الإمام الباقر عليه السلام، وهي إحدى أهم نصوصه الأخلاقية والتربوية والإرشادية لديه، فعشنا على جمل وعبارات ومفردات لفظية تشير إلى نماذج من السلوك الانفعالي المعتمد في الحياة اليومية للكائن الآدمي، ومن المنطقي أن يختزن التراث الروائي والفكري للإمام الباقر عليه السلام، وهو يتعامل مع الناس وبخاصة أهل بيته وتلامذته والمحيطين به، جمل وعبارات انفعالية شكلت جزءاً من رؤيته للانفعالات النفسية البشرية وكيفية ضبطها وتوجيهها بقيم الإرشاد الأخلاقي وأساليبه الروحية والمعرفية.

وما لا شك فيه أن هذه الإشارات جاءت في سياقها الطبيعي، وهي تعرض على جموع الناس لا بقصد التركيز على انفعالات معينة في نصوص الإمام وأحاديثه، وإنما أشارت إليها مصادر عند الإمام الباقر عليه السلام إن صح استخدام هذا المصطلح في سياق حديثه العام عن رؤيته الإرشادية، وتوجيهه الأخلاقي والمعرفي للناس المحيطين بالإمام الباقر عليه السلام من أجل ضبط سلوكهم، فيكون الإمام الباقر عليه السلام بهذا الاهتمام بفكرة الإرشادي قد أدى وظيفته في التوجيه والنصائح والتربية والإرشاد وضبط السلوك الإنساني بمعايير وحددت إيمانية تتحقق في نهاية الأمر الأهداف العبادية التي توخي أبو جعفر محمد بن علي الإمام الباقر عليه السلام الوصول إليها من خلال عمليات نشر وبث تعاليمه الإرشادية بأساليب متعددة كما في وصيته هذه العبادية - الإرشادية لجابر بن زيد الجعفي أو في حكمه القصار ومعانيها أو في غيرها من مصادر فكره التربوي - الإرشادي.



وبالتأكيد فالإشارة لنوع هذا (الانفعال) كالفرح أو الحزن لا يتم - كما نفعل اليوم - له إعداد دراسات موضوعية ومفصلة ومنفردة عنه عند الكائن الحي ولا سيما لدى الكائن الآدمي، وتحديد مفهومه وعناصره وشروط حدوثه، وتحديد العوامل المؤثرة فيه، والبحث عن نتائجه على سلوك الشخصية الإنسانية لاسيما النمط (العبادي) للشخصية.

وإنَّا يتم ذلك في إطار الوظيفة الإرشادية العبادية الكبرى التي اضطلع بها ﷺ في ميدان توجيه الناس ومحاولته المادفة - بعمليات إرشادية موجهة - ضبط سلوكهم الانفعالي والارتقاء بواقع ذاتهم وتطوير قدراتهم في مواقف متعددة من حياتنا اليومية، وبحسب أنواع الانفعالات المختلفة التي تواجه الناس في حركة الحياة، وباستعدادات وقابليات أو باستجابات انفعالية سوية تتفق مع معايير حقل الصحة النفسية وعلم النفس المرضي، ومع محددات النظرة العبادية التي تبنَّاها الإمام الباقر ﷺ وقواعدها المعرفية الأخلاقية، وهي نظرة معرفية سليمة مستمدَّة من مصادر التشريع الإسلامي من آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي الكريم ونصوص الموصومين من أهل بيته الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام.

إنَّ الملحوظ في نصوص الإمام الباقر ﷺ ومصادر أحاديثه سواء في رواياته، وخطبه، والجمل الطوال، والحكم القصار الواردة في تراثه أو في مقاطع الشعر التي ينظمها أو يستخدمها في التعبير عن قضايا يحتاج إلى بيانها ومعالجتها، وما استبطنته هذه النصوص والمصادر من مفردات لفظية ولغوية تعبَّر عن عناية فائقة ومقصودة من الإمام الباقر ﷺ بتنظيم وضبط السلوك الأخلاقي ومثيراته واستجاباته، وأنواعه، وأوامره التنظيمية ونواهيه بضبط أنماط السلوك الانفعالي والسيطرة على استجاباته الظاهرة لدى الكائن الآدمي.

وإذا ما بسطنا النظر، وتأملنا في مفردات بعض تراث الإمام الباقر عليه السلام نجد أنفسنا بين كلمات دقيقة ومعبرة عن حالات وجданية وانفعالية متنوعة، وهي بالتأكيد ليست للترف الفكري أو لاستخدامات غير هادفة، فأهل البيت عليهم السلام يشغلون أنفسهم بتعزيز الحق، ولا يتسلل الباطل في حياتهم، فالإمام الباقر كسائر الأئمة عليهم السلام يؤدي مهاماً إرشادية لضبط السلوك الانفعالي واستقامته، وتعديلاته أو تقويمه بجهد إصلاحي، وتسخيره في خدمة الأهداف العبادية التي تحقق أمرين أساسين هما أهم أهداف التربية الإرشادية عند الإمام الباقر وما:

١. السعي إلى تحقيق رضا الله سبحانه وتعالى.
٢. العمل من أجل تحقيق الرضا النفسي عن الذات الفردية عن طريق تحقيق توافق نفسي واجتماعي في داخل كيانه الذاتي، وفي علاقاته مع الآخر.

وكلا الهدفين السابقين يتحققان للإنسان علاقات سوية وإيجابية وفاعلة في دوائرها الأربع (مع الله عزَّ وجلَّ، ومع نفسه في كيانها الداخلي، ومع الإنسان الآخر، وفي تعامله مع عالم الأشياء)، وتجعله يتمتع بقدر من الصحة النفسية المرجحة.

النصوص الانفعالية في وصيَّة الإمام الباصر عليه السلام

ورد في متن الوصيَّة ما يؤكد التزوات والاستجابات الانفعالية، وهي مجرد جانب من الحياة الوجدانية للكائن الآدمي، ومن هذه العبارات ما يأتي:

• روي عنه عليه السلام أنه قال لجابر:

«يا جابر اغتنم من أهل زمانك خمساً، إن حضرت لم تعرف، وإن غبت لم تفتقد، وإن شهدت لم تشاور، وإن قلت لم يقبل قولك، وإن خطبتك لم تزوج، وأوصيك بخمس: إن



ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مدحت فلا تفرح، وإن ذمنت فلا تجزع، وفكـر فيها قـيل فيـكـ، فإن عـرفـتـ من نـفـسـكـ ما قـيلـ فيـكـ فـسـقوـطـكـ من عـيـنـ اللهـ جـلـ وـعـزـ عـنـدـ غـضـبـكـ منـ الـحـقـ أـعـظـمـ عـلـيـكـ مـصـيـبـةـ مـاـ خـفـتـ منـ سـقـوـطـكـ منـ أـعـيـنـ النـاسـ، وإن كـنـتـ عـلـىـ خـلـافـ ماـ قـيلـ فيـكـ، فـثـوابـ اـكتـسـبـتـهـ منـ غـيرـ أـنـ يـتـعبـ بـدـنـكـ.

وقال في الفقرة الثانية من وصيته:

«وأعلم بأنك لا تكون لنا ولـيـاـ حتى لو اجتمع عليك أـهـلـ مـصـرـكـ، وقالـواـ: إنـكـ رـجـلـ سـوـءـ لـمـ يـحـزـنـكـ ذـلـكـ، ولو قالـواـ: إنـكـ رـجـلـ صـالـحـ لـمـ يـسـرـكـ ذـلـكـ، ولكنـ اـعـرـضـ نفسـكـ عـلـىـ كـتـابـ اللهـ، فإنـ كـنـتـ سـالـكـاـ سـبـيلـهـ زـاهـداـ فيـ تـزـهـيـدـهـ، رـاغـباـ فيـ تـرـغـيـبـهـ، خـائـفاـ منـ تـخـوـيفـهـ فـأـثـبـتـ وـأـبـشـرـ، فإـنهـ لـاـ يـضـرـكـ ماـ قـيلـ فيـكـ، وإنـ كـنـتـ مـبـائـنـاـ لـلـقـرـآنـ، فـإـذـاـ الذـيـ يـغـرـكـ مـنـ نفسـكـ، إـنـ المـؤـمـنـ مـعـنـيـ بـمـجـاهـدـهـ نفسـهـ ليـغـلـبـهاـ عـلـىـ هـوـاـهـاـ، فـمـرـةـ يـقـيمـ أـوـدـهـ^(١)ـ، وـيـخـالـفـ هـوـاـهـاـ فيـ مـحـبـةـ اللهـ، وـمـرـةـ تـصـرـعـهـ نفسـهـ فـيـتـبعـ هـوـاـهـاـ فـيـنـعـشـهـ اللهـ فـيـتـعـشـ وـيـقـيلـ اللهـ عـشـرـتـهـ فـيـتـذـكـرـ وـيـفـزـعـ إـلـىـ التـوـبـةـ، وـالـمـخـافـةـ فـيـزـدـادـ بـصـيـرـةـ وـمـعـرـفـةـ لـمـاـ زـيـدـ فـيـهـ مـنـ الخـوفـ، وـذـلـكـ بـأـنـ اللهـ يـقـولـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا إِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

وتخلل الفقرات الأخرى للوصية كلمـاتـ معـبرـةـ عـنـ بـعـضـ الـانـفعـالـاتـ وـجـوانـبـ منـ حـيـاتـنـاـ الـوـجـانـيـةـ الـبـشـرـيـةـ مـثـلاـ: «يا جـابرـ استـكـثـرـ لـنـفـسـكـ مـنـ اللهـ قـلـيلـ الرـزـقـ تـخلـصـاـ إلىـ الشـكـرـ، وـاستـقـللـ مـنـ نفسـكـ كـثـيرـ الطـاعـةـ لـهـ إـزـرـاءـ عـلـىـ النـفـسـ وـتـعرـضاـ لـلـعـفوـ»، وـقولـهـ عـنـ الـهـوـيـ وـضـرـورـةـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ تـأـثـيرـاتـهـ الشـهـوـيـةـ: «وـتـوـقـ مـجاـزـفـةـ الـهـوـيـ بـدـلـالـةـ

(١) الأـوـدـ: مـحـرـكـةـ (الـعـوـجـ)، وـقـدـ يـأـتـيـ بـمـعـنـيـ الـقـوـةـ، انـظـرـ تحـفـ العـقـولـ، صـ ٢٠٦ـ، وـبـحـارـ الـأـنـوارـ، جـ ٧٥ـ، صـ ١٦٣ـ.

(٢) الـأـعـرـافـ: ٢٠١ـ.

العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترداد العلم».

وأقوال متتابعة متأخرة في النص كقوله:

« واستجلب حلاوة الزهادة بقسر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلاص إلى راحة النفس بصحبة التفويض، واطلب راحة البدن بإيجام القلب، وتخلاص على إيجام القلب بقلة الخطأ، وتعرّض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن».

وأيضاً ما قاله من تحذيرات لا تخلو من انفعالات واضحة كشدة الندم وكثرة الذكر والاستغفار وما يتبع عنها من رقة قلب أو قساوة وتبليد، حيث جاء في النص:

« وإياك والتسويف فإنه بحر يغرق فيه الهمكي، وإياك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإياك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم»، وقوله عليه سلام الله: « واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس بعد الهمة».

« ولا خوف كالحزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد الخوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذلك الطمع»، وإشارات متفرقة في جمل متأخرة من نص الوصية.



ويمكن للباحثين التعرف على موضوعات سيكولوجية متعددة كالانفعالات النفسية ومشكلاتها، والدوافع، وال حاجات، وظاهرة الفروق الفردية، ومبادئ تنظيم السلوك الإنساني، والقيم الإرشادية وغيرها من تجارب العلماء وتحليلاتهم، وفهم بعض النصوص لأئمة أهل البيت عليهم السلام ونظرياتهم وأفكارهم الإرشادية، ثم دراستها بلغة معاصرة، ونظرًا لظهور العلاقة بين إرشادات الإمام الباقر عليه السلام وأنماط من السلوك الانفعالي فقد آثرنا دراسة هذه العلاقة معتمدين على نص الإمام الباقر عليه السلام في وصيته لصاحب جابر بن يزيد الجعفي عليه الرحمة والرضوان.

قد يكون من الصعوبة على بعض الباحثين -أمثالنا- القيام بحصر كلي لأنماط السلوك الانفعالي واستجاباته التي أشارت إليها نصوص وتعاليم الثقافة الإرشادية التي توزعت مادتها المعرفية في عدد من أحاديث الإمام الباقر عليه السلام، لكنَّ الحصر الجزئي - هذه الأنماط - ممكن في نص محدد إذا ما كان مطولاً نسبياً، ويكون بمقدور كل باحث جمع بعض النصوص الروائية الفرعية من هذا النص الطويل كي تشكل جزءاً من التجربة الانفعالية والوجودانية والسلوكية لجماعة المؤمنين وتوجيهها بقيم إرشادية مبثوثة في النص الإرشادي الباقي المتقدم أو في أي مصدر من مصادر فكر أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه الصلاة والسلام.

لهذا فالمنطقي أن يتوقف باحث مثلنا عند بعض النصوص والواقع التاريخية التي تستبطن ظاهرة (الانفعالات النفسية، ومكوناتها، وعناصرها، وخبراتها ومشكلاتها) الشعورية والسلوكية، وما يصحبها عادة من اضطرابات واستشارة انفعالية بعد حالة من السكون والهدوء، كان المؤمنون -أو حتى غيرهم- وما تزال الجماعات الإيمانية تعيشها إلى يومنا الحاضر، وتؤدي إلى تغيرات مفاجئة أو شبه مفاجئة، ويتربّ عليها - بالضرورة - ظهور آثار انفعالية واضحة في سلوكهم الخارجي، وفي وظائفهم الجسمية.

و قبل الدخول في تفاصيل العلاقة بين التوجيه الإرشادي وعملية ضبط السلوك الانفعالي ومعرفته نحتاج إلى تحديد مفهوم الانفعال، ومعرفة شروط حدوثه، وعنصره، ونعتقد أن القارئ العادي غير المتخصص يحتاج إلى هذا التحديد وفهم معناه وشروط تكونه في حياة الكائن الأدمي.

تحديد مفهوم الانفعال

والانفعالات تجربة شعورية مهمة في حياتنا الوجدانية، تنقل الأفراد من المؤمنين، ومن غيرهم على حد سواء من موقف إلى آخر.

و ثمة تعريفات متعددة للانفعال كحال العلماء في اختلافهم لتحديد معانٍ سيكولوجية.

١. التعريف الأول:

الانفعال النفسي هو «الانتقال من حالة سكون وانتظام وهدوء إلى حالة من الاضطراب والاستشارة، ويعيشون خلالها تغيرات مفاجئة مصحوبة بآثار بادية على سلوكهم الخارجي، ووظائف أعضائهم الداخلية».

٢. التعريف الثاني:

يتم تعريف مفهوم (الانفعال النفسي) بأنه حالة تغير تصيب الكائن الحي.. إنساناً وحيواناً.. من سكون وانتظام وهدوء إلى حالة من الاضطراب والاستشارة، ويصاحب الموقف الانفعالي تغيرات مفاجئة مصحوبة بآثار تظهر في سلوكهم الخارجي، ووظائف الأعضاء الداخلية للأفراد».



٣. التعريف الثالث.

وفي تعريف ثالث للانفعال النفسي مشابه للتعريف السابق قيل في بعض الدراسات في علم النفس المعاصر: إن الانفعال النفسي هو (اضطراب حاد يشمل الفرد كله، ويؤثر في وظائفه الداخلية وسلوكه الخارجي)^(١).. أو هو (حالة من الاضطراب والاستشارة تسبقها حالة سكون وانتظام)، أو هو (تغير مفاجئ أحياناً يصيب الكائن الحي كبني آدم، وتظهر آثاره في السلوك الخارجي للفرد، وفي وظائف جسمه الخارجية).

وتمَّ في سياق تعريف آخر معرفة ظاهرة الانفعالات النفسية في حياة الكائنات الحية بمجموعة «استجابات نفسية وفسيولوجية (أي داخلية) تؤثر في جميع أوجه النشاط التي يقوم بها الكائن الحي، وتجعل حياته النفسية مليئة بخبرات وتجارب متنوعة»، فحياتنا النفسية - كما يدرك القارئ الكريم - مليئة بخبرات وتجارب وجاذبية متنوعة، وهي كما يدرك الكثيرون مناً لا تسير على وطيرة واحدة، بل يختزن الفرد الواحد نهراً متدافعاً من الانفعالات والعواطف والمشاعر الوجدانية.

شروط حدوث السلوك الانفعالي

على الرغم من تعدد الانفعالات النفسية في حياتنا الإنسانية كالفرح والسرور والحزن والحنان والهرب والخوف والغيرة والغضب واليأس وغيرها إلَّا أنها تخضع في حركتها لشروط ما تهيء الأفراد، والكائنات الحية الأخرى إلى النشاط والاضطراب والاستشارة، وقد حدد علماء النفس المعاصرون شروطاً ثلاثة واضحة لحدوث الانفعال، وهي:

(١) العمران وآخرون، مبادئ علم النفس، ص ١٤٩ - ١٥٠.

١. وجود مثير داخلي أو خارجي.

ويطلق عليه في لغة علماء النفس كذلك مصطلح (**المُنبِّه**) أو **المحرك**، وهو ما يتسبَّب في إثارة شعور الفرد، فيدفعه نحو إصدار استجابة سلوكيَّة معينة، وقد يكون هذا المنبه أو المثير داخلياً أو خارجياً، فاللأم المفاجئ - كان نفسياً أم عضوياً - وسواء كان في داخل جسم الإنسان أم في خارجه، كالمغص على سبيل المثال هو منبه ومحرك للشعور، وهو مثير داخلي يدفع الفرد نحو استجابة انتفعالية معينة كالصرخ، والبكاء، أو الخوف، وقد يصاحب ذلك غضب واضطراب وتهيج وجذاني شديد، وقد يكون هذا المثير (خارجياً) في المحيط المادي للفرد أو الكائن الحي .. كأن يكون المثير الخارجي كرؤيه كلب أو حيوان مفترس كالأسد أو الذئب سبباً لحدوث انفعالات نفسية تصيب الكائن الحي بغيرات تؤثر على نشاطه الخارجي، وأعضائه الداخلية، كمحاولته الهرب أو الاستعداد لفعل شيء ما للدفاع عن النفس وتجنب الوقوع في موقف صعب.

٢. كائن حي له جهاز عصبي.

لا بد للكائن الحي من وجود جهاز عصبي يقبل الاستشارة ويستقبل المثيرات بمختلف أشكالها ويتجاوب معها عن طريق فعالية الجهاز العصبي، وهذا لا يتوافر للكائن جامد وأصم، لذلك يعتبر الجهاز العصبي آلية استقبال واستشارة وتمهيد لإصدار استجابة مناسبة أو غير مناسبة، ولا يعتبر الكائن كائناً حياً بدون فعالية لجهاز استقبال من أي نوع، وينطبق هذا الحال على كل إنسان بصرف النظر عن كونه يتميَّز بтивار ديني معين أو مذهب سياسي أو اتجاه ثقافي أو غير ذلك.



٣. صدور استجابة أو رد فعل من الكائن تجاه المثير.

وينطبق هذا الشرط على الكائن الحي في مواقف انفعالية سواء كانت صيغة الانفعال إيجابية أم سلبية، وما يصاحب الموقف من تغيرات وأثار الانفعالات في حياة الناس من العاديين ومن المنظررين، ويمثل هذا الشرط وحدة في بنية الموقف السلوكي.

فمن يفاجأ بوجود حيوان مفترس بالقرب منه، وقرب يجد أن نفسه تصدر عنها استجابة معينة أو رد فعل ما كالبكاء، أو الاستعداد للهرب، أو حمل آلة دفاع عن النفس، أو الإقبال على مواجهة هذا الحيوان لتطييعه أو الاستئناس به بحسب خبرة كل إنسان - (المثير) الخارجي وحجم تأثيراته النفسية عليه.

تأملات علمية في نصوص الوصيّة

ويمكننا بعد التأمل المركز حيناً في النص الإرشادي السابق أو العابر حيناً آخر على حد سواء إدراك الجمل والعبارات اللفظية المعبرة فيه عن السلوك الانفعالي ونماذج من أنواعه بعرض توجيه الانتباه إليها في أحد أهم نصوص الإمام الباقر عليه السلام، والسعى لتربية القدرات الذاتية لدى الأفراد وتدريلهم على ممارسة تجارب السيطرة الوجدانية على انفعالاتهم الظاهرة والمستترة في حياتهم اليومية المستمرة، فبعض مصادر التراث الفكري والتربوي والمعرفي للإمام الباقر عليه السلام قد اختارت مصطلحات وألفاظاً وجملات انفعالية واضحة ومعتبرة في علم النفس، وهي في الوقت نفسه شائعة ومتدولة في ثقافتنا ولغتنا اليومية، أو استواعت معانيها كما في معرفة الألفاظ الانفعالية وتحديدها، واستخراج قائمة للاحفعالات بحسب التصنيف الدارج في الدراسات المعاصرة.

- مفردات ومصطلحات انفعالية.
- قائمة الانفعالات.
- ربط المثيرات والاستجابات الانفعالية في نصوص لفظية من وصية الإمام الباقي ﷺ.
- أساليب التعبير عن الحالات الانفعالية.
- شروط توجيه الانفعالات نحو أهداف عبادية.
- خصائص للسلوك الانفعالي.
- نماذج من الحالات المرضية في مجال السلوك الانفعالي.
- العوامل المؤثرة في السلوك الانفعالي^(١).
- تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي في نصوص الوصية الإرشادية.

أولاً: الفاظ انفعالية (مفردات ومصطلحات انفعالية).

ونلحظ على سبيل المثال في أنماط من تراثه ومصادره المتعددة، لاسيما في وصيته الارشادية لجابر كلمات عن مواقف وحالات انفعالية، وهي مصطلحات سائدة في علم النفس نفسه، ففي النص الإرشادي الذي اخترناه لاستخراج النظرية الإرشادية عند الإمام الباقي ﷺ ألفاظ وكلمات، بل وجمل قصيرة مثل:

(١) سنعالج - إن شاء الله عز وجل - مجموعة العوامل المؤثرة على السلوك الانفعالي في فصل مستقل، كما سنمر على مسألة تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي في مواضع متفرقة من مباحث الكتاب.



أ - ألفاظ وكلمات: (تفرح، يسُرك، أبْشِر، ينعشه الله، يتتعش، حب البقاء، زاهداً، راغباً في ترغيبه، راحة النفس، راحة البدن، شدة التيقظ، إجحام القلب، رقة القلب، قساوة القلب، فقر القلب، سلامة القلب، عز اليأس، كثرة الاستغفار، المناجاة في الظلم، ولا رجاء كرجاء مُعين).

ب - وكلمات وجمل: (تضصب، غضبك، رد الغضب، تجزع، يفرز، إزراء النفس والضيق منها، خفت، تخويفه، صدق الخوف، الخوف الصادق، المخافة، الخوف، خائفاً، فقد الخوف، خوف زوال النعم، يحزنك، ولا خوف كالحزن، قلة الحزن، يسرك، غلبة الهوى، غنى النفس، استهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، راحة النفس، شدّة الندم، وذل الطمع).

وهكذا تضمن النص الإرشادي الكريم للإمام الباقر عليه السلام لصاحبـه جابر الجعفي مفردات ومصطلحات وجданـية تلامـس الحـالة الانفعـالية على نحو خـاص وبأشـكال عـديدة مـأـلـوـفة في الـكتـابـات السـيـكـوـلـوـجـيـة المـعاـصرـة، وتو~ضـحـ في الـوقـتـ نفسه حالـات من السـلـوكـ الانـفعـالي المتـوقـع إنـ التـزمـ الإنـسـانـ بـمـبـادـئـ هـذـهـ الـوـصـيـةـ، أوـ لمـ يـلتـزمـ بـهـاـ فيـ مقـابـلـ ذـلـكـ.

ثانياً، قائمة السلوك الانفعالي وأنواعه.

عني بذلك قائمة للانفعالات المذكورة بنص صريح أو بـألفاظ غير مباشرة في النص الإرشادي للإمام محمد الباقر عليه السلام، ونؤكـدـ مـرـةـ أـخـرىـ بـأنـ الـوـصـيـةـ لمـ تـكـتبـ كـنـصـ مـعـرـفـيـ إـرـشـادـيـ بـغـرـضـ فـرـزـ وـتـصـنـيـفـ الـحـالـاتـ الـانـفعـالـيـةـ التـيـ عـادـةـ ماـ تـواـجـهـ الـأـفـرـادـ فيـ موـاقـفـ حـيـاتـهـ الـيـوـمـيـةـ، وـتـتيـحـ لـنـاـ كـبـاحـثـينـ درـاستـهـ وـتـفـهـيمـ معـانـيـهـ لـعـمـومـ النـاسـ.

ولـكـنـ معـ ذـلـكـ اـقـضـىـ تـأـمـلـنـاـ الـذـهـنـيـ -ـكـمـاـ فـيـ الإـشـارـةـ السـابـقـةـ-ـ أـنـ نـذـكـرـ أـنـهـاـطـاـ مـنـ

السلوك الانفعالي، وتطلب ذلك -باجتهدانا- تصنيف هذه الأنماط في قائمة مبسطة تضم انفعالات إيجابية، ويقابلها في الوقت نفسه انفعالات تعرف عن الناس بانفعالات سلبية، معأخذ الاعتبار بتصنيف كل انفعال بحسب الموقف الانفعالي الذي يكون عليه الفرد، ولكون بعض الانفعالات متداخلة بين دخولها في وضع إيجابي سوي أو دائرة عدم التوافق الصحيح، وأهم ما ذكرناه من حالات انفعالية يتم تقسيمها وفقاً للتقسيم العام المذكور إلى موجب وسالب، وإن كانت في بعض الأحوال إيجابية سوية وتوافقية، أو غير توافقية، وفقاً للموقف الانفعالي الذي يكون عليه الفرد وحالته الإيجابية، وبذلك تكونت هذه القائمة كما يبينه الجدول التالي:

الانفعالات السالبة وغير التوافقية	الانفعالات الموجبة والسوية
حالات وجданية كانفعارات الغضب غير المعتدل وغير المتزن، وحالات الجزع والخوف، والحزن، والضيق وإزراء النفس، وقساوة القلب أو يصل لمستوى ما يسمى أحياناً بـ «التبدل الانفعالي».	الفرح والسرور، والاستبشرار، والانتعاش النفسي، واجمام القلب، ورد الغضب والسيطرة على النفس والصبر على المكاره وتقبلها، ورقة القلب وتلين عواطفه الإنسانية، والدهشة المصحوبة بالتيقظ العقلي التي تتيح للفرد استكشاف المخبوء.

ثالثاً: ربط المثيرات والاستجابات الانفعالية في مقاطع افظعية من وصية الإمام

الباقر 

أوضح النص الإرشادي -ونقصد وصية الإمام الباقر - جانياً منهاً من صور الحالات الارتباط الوثيق بين المثيرات والاستجابة في الموقف الانفعالية المتوقعة في سلوك الناس مع بعضهم، فإذا ما ظهر أحد هذه المثيرات في موقف معين ترتبت عليه



بالضرورة تكوين استجابة سلوكية افعالية تتسم بالرشد أو بالحماقة أو بالتبليد، وبروز رد فعل - بشكل تلقائي - في مواجهة هذا المثير أو ذاك، وجرت مقادير حياتنا كبشر أن ننفعل لظهور مثيرات من داخلنا أو من بيتنا الخارجية، فتصرّف بكيفية تلحق الضرر بنا أو تساعدنا على حماية أنفسنا.

ويُنطبق هذا الحال على سلسلة من الأنماط الانفعالية السليمة أو الخطأة المعتادة في حياتنا اليومية، وكما تقدم فالنص الإرشادي للإمام الباقر ﷺ وضع نماذج من هذا الترابط بين مثيرات الموقف الانفعالي واستجاباته حتى وإن لم يستخدم له ألفاظاً اعتاد علماء النفس، والدارسون لهذا العلم استخدامها بنفس مسمياتها، لكنَّ من خبرَ الدراسات السيكولوجية، لاسيما التي اهتمت بدراسة الحياة الوجدانية يمكنه معرفة كل إشارة للارتباط بين المثيرات الانفعالية واستجاباتها، وإدراك عناصر كل موقف انفعالي على حدة وتفسيره باستخدام عبارات وجمل وألفاظ وردت في نص الإمام الباقر ﷺ، ووصيته الإرشادية الموجهة لجابر الجعفي رحمه الله تعالى، ومعنى بها.. كل المؤمنين من يعنיהם أمر المتابعة للإمام وطاعته والولاء له، والاستماع لإرشاداته في الأوامر والتواهي على حد سواء.

وطالما أن هذه الوصية ليست درساً منفرداً في موضوع الانفعالات فسنأخذ من تركيبتها اللفظية نماذج مقتناة نوضح فيها إشارة هذا النص الإرشادي الثمين المهم إلى مسألة الارتباط بين مثيرات بعض المواقف الانفعالية، وردود الفعل إزاءها، وهذا ما يسميه علماء النفس بـ(الاستجابة السلوكية) في سلوك الكائن الآدمي، لأي مثير انفعالي يواجهه في حياته اليومية.

نماذج مختارة

النموذج الأول لشروط حدوث الموقف الانفعالي.

إذا تأملنا قليلاً في مدخل الوصيَّة، وببدايات كل جملها، سوف نضع أيدينا على المثيرات، والاستجابات في كل مقاطع هذه الوصيَّة، وجميعها مثيرات صوتية تحولت بعد ذلك إلى مثيرات واستجابات مكتوبة، وتشكل في النهاية وعياً معرفياً يحتاج إليه، وتفاعل مع مكوناته اللغظية في حركة حياتنا على مَدِّ أعمارنا، وفي البدء نقرأ الوصيَّة كرواية إرشادية (يا جابر: اغتنم من أهل زمانك خمساً)، فهذه الجملة في حد ذاتها تمثل آنذاك، لاسيما لسمع جابر الجعفي رحمه الله (مثيراً صوتيًا)، فاستجاب عليه الرحمة بحفظ النص في ذاكرته كرواية سمعها، وتم تدوين مفراداتها، وتناقلها، ونشرها على مدار زمن طويل من القرن الثاني الهجري إلى يومنا الحاضر.

إنَّ المثير هنا (صوقي) كما تقدم، وهو مناداة الإمام الباقر عليه السلام لصاحبِه جابر باسمه: «يا جابر»، وكان ذلك في الجملة الأولى من الوصيَّة، ثم تبعت الاستشارة الصوتية بتحول الألفاظ والجمل والعبارات والمقاطع اللغظية إلى نص لغوي معرفي وإرشادي ومدْون، نقرأه اليوم، ونعتز بآداته الإرشادية، ونستفيد من مضامينه، ويلحظ اجتماع عناصر الموقف الانفعالي لمضمون نص الوصيَّة وما داته الإرشادية بما يأتي:

١. الاستشارة الأولى، وهي تعليمية محضة:

الاستشارة الصوتية لم تكن على نمط واحد، فمرة يستشار جابر بذكر اسمه (أسلوب مناداة)، وفي غالب الأمر يستخدم الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أفعالاً في صيغة أمر، تكليفاً شرعاً مثل: «اغتنم يا جابر، وأعلم بأنك، واستكثر لنفسك، واستقلل من نفسك، وادفع عن نفسك، واستعمل، وتحرَّز، واستجلب، وتوقَّ مجاذفة الهوى بدلاله

العقل، وَقِفْ عند غَلَبةِ الْهُوَى، واستبق خالص الأَعْمَال، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص»، وهكذا تواصلت صيغة استخدام أفعال الأمر باستخدام مثيرات صوتية تستثير في لحظة الاستماع بين الإمام وجابر سمع الأخير، وتستثير معاني يراد فهمها، وتقبلها، والعمل بها في برنامج تربوي من أجل إعداد شخصية إيمانية.

٢. الاستجابة التعليمية:

وما يقابل الاستشارة الصوتية بـاللفاظ اسمية وفعالية فهو استجابة تصدر عن الإمام نفسه بإلقاء النص، واستجابة تصدر عن جابر بالاستماع إليه وحفظه ونقله، ولا تبدو هذه واضحة أول الأمر في سلوك جابر، ولكنها كانت واضحة على نحو مكشوف في سلوك الإمام الباقر، ثم في سلوك جابر الجعفي وعلى نحو متاخر، إذ ظل جابر يستمع للوصية كنص إرشادي ويتأمل معانيه، ثم رواه للناس نقلًا عما سمعه عن إمامه الباقر، وتم حفظه وتدوينه ونشره وتداوله في مصادر الحديث عند الشيعة الإمامية، وبقيت هذه الرواية إحدى أهم مصادر الوعي الإرشادي، في مجال هداية الناس وتوعيتهم، وتوجيههم نحو العمل العبادي.

٣. الشرط الثالث هو توافر (جهاز عصبي) في الكائن الآدمي:

وتتوفر الآن - بمقتضى ما ذكرناه - شرطان في هذا الموقف التعليمي، وهو لا يخلو من طبيعة وجودانية وانفعالية هما (المثير والاستجابة الصادرة) عنه في سلوك الإمام الباقر وصاحبه جابر، وبقي توضيح الشرط الثالث الذي ربط المثير والاستجابة في وحدة سلوكيّة معرفية انفعالية متداخلة، وهو وجود (جهاز عصبي) لدى كائن آدمي تمثل في وجود الإمام محمد الباقر وصاحبه الجعفي، فهذا التلميذ النجيب له مثل سائر البشر جهاز عصبي قادر - بإرادة الله سبحانه - على ربط أي مثير

من داخل كيان الفرد أو من خارجه بالاستجابة الصادرة عنه والمرتبطة به، وتناسبه، فالملخ وهو مركز الإبداع الإلهي في رأس الإنسان يستقبل المثيرات الصادرة ويفهمها، ويحاول تفسيرها كاستجابات سلوكية محددة كأن تكون استجابة جابر الجعفي، وهي فعلاً كذلك (استناداً للنص، وحفظاً له كرواية وكتابتها وتكرار نشرها بين الناس).

هذا نموذج تطبيقي يتم تشكيلاً من السياق اللغوي والمعرفي لوصية الإمام الباقر عليه الرحمة، واستخرج هذا النموذج من هذا السياق عن الرابط بين مثيرات الموقف الانفعالي في موقف تعليمي واستجاباته، وتجسدت في:

أ - كلام الإمام الباقر كمثير صوتي لجابر.

ب - واستجابة الأخير بحفظ النص وروايته.

ج - وكان بينهما جهاز عصبي استقبل المثير وحوّله لإشارات سلوكية تعليمية.

المواقف الخمسة في النموذج الثاني.

وسنحاول الآن العودة إلى فهم ألفاظ وجمل مقطع صغير في مدخل هذه الوصية الإرشادية، وتحتوي على خمسة نماذج صغيرة تربط في مفراداتها بين مثيراتها، والاستجابات الانفعالية التي يحاول الإمام الباقر دفع جابر نحو الاستجابات الصحيحة والسمو بها، ويتم تفاعಲها عبر نشاط يقوم بها جهاز عصبي زُوّد به الكائن الحي لاسيما الإنسان، والحيوانات.

نستعيد النص لفهمه وتفكيره وتحليله وربط معانيه بخاصية بين مثيراته واستجاباته، قال الإمام محمد بن علي عليه الرحمة في توجيهه لصاحبه جابر بن بزيid الجعفي: «وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن



مدحت فلا تفرح، وإن ذمت فلا تحزّع، وفكـر فيـما قـيل فـيـكـ، فإنـ عـرفـتـ منـ نفسـكـ ماـ قـيلـ فـيـكـ فـسـقوـطـكـ منـ عـيـنـ اللهـ عـزـ وجـلـ عـنـدـ غـضـبـكـ منـ الحـقـ أـعـظـمـ عـلـيـكـ مـصـيـةـ مـاـ خـفـتـ منـ سـقوـطـكـ منـ أـعـيـنـ النـاسـ، وإنـ كـنـتـ عـلـىـ خـلـافـ ماـ قـيلـ فـيـكـ، فـثـوـابـ اـكتـسـبـتـهـ منـ غـيرـ أـنـ يـتـعـبـ بـدـنـكـ».

ويلاحظ بعد التأمل الأولى ما يلي:

أ- تقوم هذه الوصايا على وجود مثيرات عصبية أو مرضية وهي (ظلم الناس لجابر، وتکذیبهم ایاه، وتخوینه، ومدحه المطبع، وقد يكون بصورة مبالغ فيها، وتعرضه للذم والتحقیر والإزراء والإساءة متعمدة أو من غير قصد).

ب- ويقابل المثيرات السابقة تحذير من فعل الفرد (الاستجابات المحرّمة)، وينطوي توجيه الإمام محمد الباقر عليه نهي أخلاقي وشرعي، وهو في حقيقته دعوة علنية و مباشرة من الإمام إلى القيام بعملية (كف للسلوك) العصبي، والسيء، وغير التواافقي، وهو ما يساعد على ضبط النفس وتحقيق اتزان انفعالي صحي.

ج- إن هناك ربطاً بين مثيرات هي عصبية ومحرمة، وبين استجابات يريدها الإمام محمد الباقر إيجابية وشرعية وصحيفة من وجهة نظر المشرع الإسلامي.

د- أن تستبدل (الاستجابات الممنوعة) في وصية الإمام الباقر، وكما أراد عليه الصلاة والسلام، بعملية أسمى وفعالة، وواقعية، وهي عملية (تأمل وتفكير) في سلوك الذات، إنجازاتها وأخطاءها، وكشف ما يتبيّن للمرء في النهاية (مدى قرب أو بعد) هذه المثيرات العصبية من شخصية جابر عليه رضوان الله سبحانه، أو الشخص المؤمن المخاطب بهذه الوصايا، والتفكير ملياً، وبجدية في نتائج هذه الأقاويل.. صححة أم كاذبة.

هـ- تحذير جابر، وكل فرد مؤمن من نتيجتين سيئتين، وهذا أحد خياراته الساقطة، أو توجيهه إلى الصبر على الاستجابات الحلال (أن لا يظلم آدمياً، أو لا يغضب مثلاً، أو لا يخون أحداً، أو لا يطمئن لمدح قد يكون خادعاً للذات، أو لا يجزع من ذم هذا أو ذاك)، فيnal ثواب الله ومرضاته، وهو لم يتعب بذنه بشيء كما أوضحت الإمام الباقر عليه السلام.

وـ- من الصعوبة بمكان فصل العلاقة بين الانفعالات - كما في النموذجين التاليين - والدافع، فكلاهما يرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً، وإنما متداخلان ومتشابكان معاً، فإذا تأملنا في الجمل والعبارات الانفعالية لحظنا ذلك، فالفرح، والمدح والحزن، والغضب والحزن هي انفعالات لا تخلي من قوة محركة، أي (دافعية محركة لسلوك الكائن الحي آدمياً) أو تحرك سلوك الحيوانات الأخرى، كما أن الدوافع تنطوي عادة على شحنة انفعالية، فحب (البقاء) على سبيل المثال تتدخل فيه انفعالات الرغبة والحب والغضب والخوف عند تعرض لخطر، وإذا لم تُوجه نحو تحقيق أهداف عبادية اصطدمت بالسلوك المحرم، وأصبحت (معصية) كما جاء في وصية الإمام الباقر عليه السلام، كما أن الظلم والتکذیب والخيانة والمدح والذم نزعات تختفي وراءها دوافع وبواعث نفسية كالرغبة في العداوة أو الانتقام أو إيذاء الغير، وغير ذلك.

١. الموقف الأول (إثارة الظلم والاستجابة الانفعالية):

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي				الموقف الانفعالي
	الكافئ الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه	النص الانفعالي	
تحقيق اتزان انفعالي، وعملية ضبط سلوك الذات عند كف سلوكيها عن الظلم، وتعرضها للتآزم وعدم الاستقرار إذا ردت على الظلم بمثله	وهو الجهاز العصبي	عدم ظلم الغير، وعدم معاملته بالمثل	كأن يقوم أحد الناس بظلم الآخرين كجابر الجعفي مثلاً أو تعرض أحدهنا لظلم شخص ما	إنْ ظُلِمْتَ فَلَا تُظْلِمْ	الأول

٢. الموقف الثاني (إثارة خيانة الغير ورد الفعل):

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي			النص الانفعالي	الموقف الانفعالي
	الكائن الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه		
ازдан انفعالي، وتحقيق ضبط سلوك الذات في حالة ضبط النفس عن خيانة الخائن، وقد تعرض نفوسنا للتآزم وعدم الاستقرار إذا ردت على الخيانة بمثله		عدم خيانة هذا الخائن، وعدم معاملته بخيانة ماثلة	قيام فرد ما بخيانة جابر أو مؤمن آخر	إِنْ حَانُوكَ فَلَا تَخْنَ	الثاني



٣. الموقف الثالث (إثارة التكذيب ورد الفعل المضاد).

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي			النص الانفعالي	الموقف الانفعالي
	الكائن الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه		
انزان انفعالي، وتحقيق ضبط لسلوك الذات في حالة كف النفس عن الغضب، ومقابل ذلك تعرضها للتأزم وعدم الاستقرار إذا رددت بحالة غضبية		أن يكف الفرد عن استجابة الغضب ضد مكذبه	يقوم أحد الناس مثلاً بتكذيب جابر الجعفي أو تكذيب غيره	إنْ كُذبَتْ فلا تغَضَّب	الثالث

٤. الموقف الرابع (المدح كمثير، واستجابة الفرح).

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي			النص الانفعالي	الموقف الانفعالي
	الكائن الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه		
ازдан انفعالي، وتحقيق ضبط لسلوك الذات في حالة مدح الآخرين، ومقابل ذلك قد ت تعرض للتأزم وعدم الاستقرار إذا رد المرء بفرح مبالغ		أن يكف الفرد عن استجابة الفرح خاصة إذا كان المدح مبالغًا فيه	يقوم أحد الناس مثلاً بمدحك، والكلام موجه لجابر الجعفي أو لمؤمن آخر	إِنْ مُدْحَتْ فَلَا تُفْرَح	الرابع



٥. الموقف الخامس (مثير ذم الآخرين والرد عليهم).

النتيجة	مكونات الموقف الانفعالي			النص الانفعالي	الموقف الانفعالي
	الكائن الحي	الاستجابة	المثير أو المنبه		
اتزان انفعالي، وتحقيق ضبط لسلوك الذات في حالة ذم الآخرين للفرد، ومقابل ذلك تعرض للتأزم وعدم الاستقرار إذا أغرق الفرد المنتقد بالذم		أن يخف الفرد عن استجابة الجزء	يقوم شخص معين من الناس مثلاً بذم شخص كشخص جابر، أو مؤمن آخر	إنْ ذُمْتَ فلَا تجزَعْ	الخامس

رابعاً: أساليب التعبير عن الحالات الانفعالية في النص الإرشادي (وصيّة الإمام).

بعد أن جمعنا بين يدي القارئ الكريم كماً من مفردات السلوك الانفعالي بأنواع متوقعة من الاستجابات الواقعية في حياة الكائن الآدمي، يمكننا الآن أن نلاحظ هذه المفردات، وقد عبّرت عن حالات انفعالية متفاوتة في مستويات شدتها، وهي في الوقت نفسه متنوعة في أنماط وجودانية تتم بطريق مباشر حيناً، وبطريق غير مباشر حيناً آخر.

وتسقّفنا في المفردات اللفظية السابقة -كمصطلحات انفعالية- إشاراتها

للنمطين الأساسيين (المباشر وغير المباشر)، وكلاهما يدلان على وجود نشاط انفعالي تعرفه الشخصية الإنسانية ب مختلف حالاته السوية والعصبية على حد سواء، ويترتب عنه نتائج سيئة أو جيدة، فيحتاج إلى التوجيه والإرشاد، وتكون الاستجابات السوية المرغوب بها وفقاً لأهداف هذه الوصية الكريمة ومحدداتها في التمييز بينها وبين الاستجابات الانفعالية غير التوافقية المرفوضة شرعاً وعقولاً، وبمنظلمات علم النفس المرضي المعاصر ومدارسه.

وهذان الأسلوبان هما:

الأسلوب المباشر.

تم بواسطته استخدام مفردات لغوية معبرة مباشرة عن حالات متوقعة تظهر كاستجابات سلوكية انفعالية نتيجة ارتباطها بمثيرات انفعالية مثل استخدام مصطلحات (الغضب) بمثيرات مثل تكذيب جابر على حد تعبير الوصيَّة أو تكذيب واحد منَّا، ويروز مصطلحات «الحزن، والخوف، والفرح، والسرور، والجزع، وغير ذلك في السياق اللفظي، والمعرفي لهذه الوصيَّة.

الأسلوب غير المباشر.

وهو أسلوب اللغة الانفعالية بطريق غير مباشر، ويستفاد من كلمات الإمام الباقر عليه السلام أنه يعني الإشارة الرمزية إلى أنماط من السلوك الانفعالي وحالاته التي قد يعيشها الإنسان في حياته، أو باستخدام سائد في العلوم كعلوم الأخلاق والتصوف، وال الحديث، ومن ذلك كلماته المعبرة عن حالات وجданية دون استخدام الفاظ مباشرة بنفس حروفها، وهي غير متعارف عليها في كتب علم النفس الحديثة، أو في مصادر وأدبيات اللغة ومعاجمها على أنها أنواع للانفعالات.



ولقد شاع في نص الوصيَّة الإرشادية «كلمات وجمل مثل، وهي تعني بطريق غير مباشر حالات انفعالية دون استخدام مصطلحات انفعالية مثل: ألفاظ وجمل (راغبًاً في ترغيبه، إزراء للنفس -أي ضيقها- والحط من كرامتها، قساوة القلب، ورقة القلب، وإجمام القلب، وفقر القلب، والانتعاش، وشدة الندم، والمناجاة في الظلم^(١))، فهذه الألفاظ شائعة الاستعمال في اللغة العربية، وهي متوافرة في المعاجم، وتعني من بعيد أو قريب حالات انفعالية، لكنها تخلو مباشرة من الاستخدام اللغطي وبhydrofها المألوفة في لغتنا العربيَّة.

خامسًا، شروط توجيه الانفعالات نحو أهداف عبادية:

ما لا شك فيه أن التركيبة اللغظية لنص الوصيَّة، ومادتها الإرشادية كانت واضحة في توجيه نصائحها لجابر كحالة إنسانية، وكممثل لجميع الناس، فخصائصهم واحدة، وكانت هذه النصائح من أجل تنظيم قدراتهم على ضبط انفعالاتهم والسيطرة على نزعاتهم، ووضعها في مسارها العبادي المرغوب فيه، ولا نعتقد أن أحدًا من الناس يخاطئ في فهم مقاصد الإمام محمد الباقر<ص> من أجل تحقيق أهداف خطابه الإرشادي في تمكين النفس من السيطرة على شهواتها، والتحكم في انفعالاتها بما يتحقق كما أسماه الإمام الباقر بـ(سلامة القلب)، وهو ما يعادل في تعبيرات علماء النفس وألفاظهم مفهوم (الصحة النفسيَّة) أو (الاتزان النفسي).. أي التوافق ورضا الفرد عن نفسه، وبما يتحقق هدفًا أكبر وأسمى هو رضا الله سبحانه وتعالى عن الذات.

(١) إن عملية المناجاة في الظلم كما عبر نص الوصيَّة هو مجموعة مشاعر وجданية تتم في لحظة ممارسة الدعاء كالتجفُّب والحزن والخوف والبكاء والرجاء وغير ذلك، ويبيِّن النفس الإنسانية لـ«تكوين عاطفة دينية» بصيغة منظمة ومعقدة المشاعر.

وتستبطن وصية الإمام الباقر عليه السلام في تركيبتها اللغوية والمعرفية، ومادتها الإرشادية بعض الشروط المساعدة على تحقيق نجاحات مستمرة ومتواصلة لعملية التوجيه الإرشادي للذات في مواجهة سلوكها الانفعالي، واستخلصنا ذلك بخبرتنا، وبنظرنا اجتهادية قد تحظى بتقدير الغير، أو تكون عند غيرهم موضع نظر، ومن هذه الشروط ما يأتي:

١. شدة التيقظ الذهني.

وفي ذلك إشارة مباشرة من نص الوصية لدور العقل في العملية الإرشادية وتقبلها، وإلى دور انتباه الأفراد واستخدام تفكيرهم الناضج، والبحث المستمر عن الطائق العقلية التي تساعد على مجاهدة النفس وترشيد سلوكها ونزاعاتها، وضبط انحرافاتها للسيطرة على الهوى وغلبة قواه -كما أوحى النص- وعبرت الوصية بألفاظ مختلفة كـ(حاضر العلم، وشدة التيقظ، ودلالة العقل، واسترشاد العلم) عن هذا التيقظ الذهني، وما يلعبه العقل والعلم وقدراتهما في تحقيق غلبة للفرد على هواه ومجاهدته، وثمة عبارات تشير إلى هذا الشأن نحو هذا المقطع: «يا جابر: استكر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقّ مجازفة الهوى بدلاله العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء».

٢. وجود قابلية إيجابية لدى النفس في التفاعل مع النص الإرشادي.

التيقظ، والانتباه، وتوظيف قدرات التفكير الناضج قوى مهمة في تحقيق سيطرة

على انفعالات الذات، والانتصار على شهواتها، وأهوائها، والقرب بذلك من الله ورضاه عز وجل، والتواافق مع النفس ورضا الفرد عنها، ولكن مع ذلك تحتاج إلى توفير قابلية داخلية لديه كي يتفاعل مع المثيرات الداخلية والخارجية كالتفاعل مع أي نص إرشادي (الملواعظ والنصائح الأخلاقية والعبادية)، وتأكد وصية الإمام الباقر عليه السلام على أهمية توافر هذه القابلية الحيوية التي تستقبل هذه المثيرات وتحركها لتكوين استجابات إيجابية تتفق مع الدعوة الإرشادية لوصية الإمام الباقر عليه السلام لنا، ويمكن تأمل بعض الكلمات التي تصب في مصب الاهتمام بهذه القابلية الإيجابية وتكيفها مع أوامر الوصية ونواهيه، ومن هذه المفردات كلماته عليه السلام في مواضع متفرقة من وصيته لجابر الجعفي كمصطلحات ومفاهيم (مجاهدة النفس، غلبة الهوى، التوبة والمخافة، البصيرة، كثير الطاعة، الصدق في الأعمال، شدة التيقظ، صدق الخوف، الخوف الصادق، عظيم الشكر، راحة النفس، إجام القلب، رقة القلب، نور القلب، دوام الحزن، شدة الندم، حسن المراجعة، كثرة الاستغفار، كثرة الذكر في الخلوات، المناجاة في الظلم، بعد الهمة، وهكذا).

٣. القيام بمهمة مجاهدة النفس وترويضها:

نص على هذه المجاهدة كلام صريح من الوصية مثل قوله: «إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في حب الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فيتعش ويقييل الله عشرته فيذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

(١) الأود: محركة (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

وهي في العادة تجربة افعالية صعبة تعبّر عن حالة صراع داخلي بين الإنسان والشهوات التي تبسيط سيطرتها عليه، فالمجاهدة ليست هدفًا في حد ذاتها، بل هي خليط من القوى الإيجابية المؤثرة في داخل كيان الفرد لمواجهة أهواء النفس وشهواتها، وتواجه بالمقاومة المبنية على شدة التيقظ، والرغبة الذاتية في قهر النفس وتقيد شهواتها، واسترشاد العلم، والتخاذل العقل دليل عمل، وبمعرفة النفس، وصبر الفرد على مغالبة هواها، مرة تغلبه وتصرعه، ومرة يخالف هواها في محبة الله ويتمكن منها حتى يغيل عثرته، ويزداد بصيرة، ويتمكن من تحقيق نتائج إيجابية في صراعه الداخلي مع القوى السلبية داخل كيانه الذاتي.

٤. الاستمرار في متابعة عمليات الضبط الانفعالي ومراقبتها الدائمة:

تحتاج النفس كي تضمن سيطرة جيدة على انفعالاتها وبنجاح معقول إلى مساندة من قوى النفس لاسيما العقل والتيقظ الذهني، واسترشاد العلم منذ بداية التجربة الجهادية حتى نهايتها؛ لأن الانفعالات السلبية هي الأخرى لا تتوقف عن العودة إلى تأثيراتها السابقة بسبب ارتباطها المستمر -على الأقل في بادئ الأمر- بالرواسب النفسية، وهي رذائل وسبيّلات تحزنها النفس في داخلها من أيام الانحراف الشخصي، فالغضب في صورته غير السوية، وزراء النفس وتحقيرها، وقساوة القلب وتبلد الحسن الانفعالي مثلاً لن يجعل عملية السيطرة على الانفعالات عملية طبيعية، وسيحرفها عن مساراتها السوية ما لم يكن عقل الفرد متيقظاً، وما لم تكن نفسه اللوامة مسترشدة بأوامر ونواهي هذا النص الإرشادي وغيره من وصايا الدين، فالحياة الانفعالية لا تسير دائمًا على وتيرة واحدة، بل تظل حركتها متأرجحة بين صعود وهبوط، ويمكن قبول ذلك في مرحلة ضبط للنفس سابقة، ولكن مع ترس الفرد على مجاهدة انفعالاته، وضبط شهواته يكون هذا التأرجح غير مقبولٍ إن كان متواصلاً، ولا بد من الوصول إلى نتائج



إيجابية واضحة تستقر فيها الانفعالات عند مستويات قريبة من الأهداف العبادية لوصية الإمام الباقر عليه السلام، ونظرته العبادية والإيمانية.

وقد امتلأت هذه الوصية بأمثلة عديدة كما في مطالبته - على نحو واضح - بـ كف السلوك الانفعالي غير السوي إذا ما ظلم إنسان كظلمن الناس صاحب الإمام (جابر بن يزيد الجعفي) أو حين يتم تكذيبه أو تخوينه، وإذا خانه أحد من الناس، أو تعرض بعض الذم والقبح في ذاته، وطالبا الإمام الباقر عليه السلام - كما طالب جابراً - في مقابل ذلك بضرورة التفكير فيما قيل فيه، واستخلاص العبر والتنتائج، وتطبيقها على الذات.

سادساً: خصائص السلوك الانفعالي.

بعد تكرار قراءة نص وصية الإمام الباقر عليه السلام، يمكن معرفة ذلك حتى من الورقة الأولى، فتأملنا في هذا النص الإرشادي، وحددنا بعض خصائصه السلوكية في المجال الانفعالي، وهذا ما يعني هنا، ويمكن تحديد بعضها فيما يأتي:

١. التنوع.

تنوعت عبارات الإمام الباقر عليه السلام في وصيته وتعددت جملها اللفظية، واختزنت في داخلها تنوعاً في ذكر مجموعة من الانفعالات النفسية التي جرت عليها حياتنا الإنسانية، فثمة أكثر من جملة، ومقطع لفظي دلّ على أنهاط من السلوك الانفعالي، ومع أن الإمام محمد الباقر عليه السلام ليس هدفه البحث عن أنهاط الانفعالات كما في الدراسات السيكولوجية المعاصرة، وهي من جهة ثانية معروفة لدى الناس، إلا أنه ذكر جملة من الانفعالات كانت متفرقة في نصوص وصيته الإرشادية - وهي كما ذكرنا - متأرجحة بين انفعالات إيجابية، ومقابلتها من جهة أخرى بالفاظ تشير لأنفعالات سلبية، وقد

مررنا في موضع سابق على نماذج منها فيما تقدم.

كما ارتبط بهذا التنوع في السلوك الانفعالي وأنماطه تنوع آخر يحيث الفرد المؤمن على إصدار استجابات سلوكية متنوعة تناسب تعدد أنماط الحياة الانفعالية للكائن الآدمي، وتتنوع أساليب معالجتها الروحية والعقلية والأخلاقية وغيرها.

٢. تداخل نشاط الانفعالات.

تحريك الانفعالات لدى الكائن الحي، بما فيها الإنسان كمجموعة، فيتشابك في كثير من الأحيان نشاطها بين سلبي وإيجابي، وقد تعرف شخصية ما من الناس فيوصف بالجبان الخائف أو بالغضوب أو غيرهما، وذلك يسيطر أحد هذه الانفعالات على الفرد، صاحب هذه الشخصية، وبالعكس قد توصف بأنها «هادئة، صبوراً، وباردة الأعصاب، وسلامة قلب صاحبها» إذا ما تمكنت من اكتساب الفضائل الأخلاقية والدينية الصحيحة بنحو يميزها عن غيرها من الناس أصحاب الانفعالات السلبية.

ومع ذلك كله يبقى التشابك والتداخل في نهاية الأمر حقيقة في سلوك الأفراد، فلا الماء لا يغضب يوماً، ولا الغضوب لا يهدأ في موقف غالب عليه أو تغلب فيه على دقات الغضب وشحنته الانفعالية، ولهذا فكل شخصية، أيًا كانت (مؤمنة أم غير مؤمنة) هي في النهاية ذات قابلية فطرية، ومستعدة للتفاعل مع شبكة متداخلة من الانفعالات في مواقف متعددة من حياتها، بل أحياناً متعارضة في موقف واحد، فلهذا كان التوجيه الباقي الكريم وأوامره ونواهيه من أجل أداء مهمة «تربيَة الانفعالات وتنظيمها والسمو بها» في مقاطع متعددة من نصوصه وصيته.



٣. قابلية النفس الإيجابية في تعديل السلوك الانفعالي نحو الأفضل.

يولد الإنسان بقابليات انفعالية محايدة حتى تظهر أنماط من السلوك الانفعالي ثم تتميز في مراحل لاحقة من نموه النفسي، فالطفل لا يعرف في بداية عمره سوى التهيج العام، فتتفرع عنه مشاعر تعبّر عن التجاوب، والمحبة أو الغضب والخوف والضيق، ويعبّر عن ذلك بالتجاوب العاطفي المريح، وقد يكون بالبكاء وغيره، ويعني ذلك انطواء طبيعتنا كبشر على استعداد خير أو استعداد معاكس يقوم على التفاعل مع نزعة شريرة، ومع ذلك تبقى قابلية أنفسنا إيجابية لتعديل انفعالاتها، وتطوير استجاباتها بنحو دائم لمستوى أفضل.

ونجد في ألفاظ الإمام ووصيته المباركة تركيزاً على:

أ - إيجابية في قابلية أنفسنا لتعديل السلوك الانفعالي.

ب - وإيجابية في وصاياه، وتوجيهه الإرشادي.

ج - وإيجابية في تحديد الأهداف التربوية بطابع عبادي كقوله: «ويخالف هوها في حبّة الله» أو قوله: «ويفزع إلى التوبة والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة».

و واضح من نصه الإرشادي المتقدم ظهور حركة توجيه مزدوجة تتبعغي بوضوح تحقيق أهداف الوصية بنظرتها العبادية في اتجاهين متكمالين تجاه:

١. النصح والوعظة لكف استجابات السلوك الانفعالي بطابعها العصبي، بل تكوين استجابات سلوكية مضادة، وظهر كمثال لذلك في توجيه جابر الجعفي وهي الإمام الباقر له عن الظلم والكذب بمثل ما يفعل بعض الناس، وحثه على التحكم والسيطرة على مشاعر الغضب ودفقاته المجنونة أحياناً، وطالبه بالسمو بها أسماء في وصيته بـ(رد الغضب)، وغير ذلك، بل طالبه بالتفكير السليم فيها قيل فيه ومعرفة

نتائج وأخذ العظة التربوية الازمة حتى لا يواجه نوعين من السقوط (سقوطاً دنيوياً من أعين الناس، وسقوطاً أهم وأصعب وهو السقوط من عين الله) سبحانه وتعالى.

٢. الدعوة الى استئثار واقع النفس بعد التفكير بها قيل فيه، وبناء نسق انفعالي سوي يقوم على قبول المدح والاستماع اليه بلا فرح ولا مبالغة، وتفهم النقد والذم بلا جزع، ومجاهدة النفس في محبة الله ورضاه، والفرز إلى التوبة إليه سبحانه ومخالفته بمعرفة وبصيرة، واسترشاد العلم، ودلالة العقل واعتباره دليل عمل في خطة البرنامج العبادي، وإيشار القناعة على الحرص، واستجلاب حلاوة الزهد، ورد الغضب بهدوء وانضباط داخلي وسكينة، وبكثرة الذكر في الخلوات والاستغفار، والخوف الصادق، وتزيين النفس بالصدق في الأفعال، والتحبب لله سبحانه وتعالى بالمسارعة في أداء الأعمال الصالحة، وغير ذلك من الإرشادات والمواعظ والنصائح التي استهدفت بناء نمط عبادي لشخصية الفرد المؤمن.

الحلقة السادسة

العوامل المؤثرة في ضبط السلوك الانفعالي
في الوصيَّة الإرشادية للإمام محمد الباقر

مقدمة

ظهرت في الكتابات السيكولوجية المعاصرة اهتمامات من الباحثين والمشتغلين بظواهر نفسية مثل النمو النفسي والتعلم والدافع والاتجاهات، والميول والفرق الفردية والإدراك، والإحساس، والاتزان الانفعالي والنفسي، كما ظهرت اهتمامات ببحث ودراسة العوامل المؤثرة بهذه الظواهر وغيرها بشكل وثيق عن هذه الظواهر انشغال بعض علماء النفس ببحث ودراسة العوامل المؤثرة في هذه الظواهر وغيرها.

وما لا شك فيه أن ظاهرة الاتزان النفسي، ومنها (الاتزان الانفعالي) لم تشد عن هذه القاعدة، فالدارسون يمكنهم - وقت حاجتهم - معالجة حالات الاتزان الانفعالي، ودراسة العوامل التي تؤثر في عملية الاتزان الانفعالي إنْ وجدوا حاجة علمية إلى ذلك، وغالباً ما تكون الحاجة موجودة في صلب اهتماماتهم العلمية، ومن المفيد القول إننا وجدنا حاجة علمية في تحديد العوامل المؤثرة بشقيها الإيجابي والسلبي في ظاهرة (الاتزان الانفعالي)، واستخلاصها من مفردات التركيبة اللغوية ومعانيها للوصية الباقيبة، وما تضمنته من وصايا وإرشادات تبدو في الظاهر أنها كانت موجهة لجابر الجعفي، بينما هي في حقيقتها وثيقة توجيه إرشادي للناس في المجتمع الإسلامي.

ولقد تكلمنا في فصل سابق عن الانفعالات كسلوك إنساني تعرفه الحياة البشرية، وعن شروط حدوث هذا الانفعال، وأنواعه، والإشارات التطبيقية التي تضمنتها الوصية المذكورة، ولما وجدنا أن دراسة موضوع ظاهرة الاتزان الانفعالي قد اتسَع وتمدد فعلاً في سياق حديثنا عنه، عقدنا هذا الفصل مستقلاً لدراسة العوامل المؤثرة



سلباً وإيجاباً في ظاهرة الاتزان الانفعالي، وعالجناه استكملاً لما رأينا من وجود نظرية سيكولوجية خاصة بحالات الاتزان الانفعالي، والدعوة المباشرة والصرحية إليها في مفردات وصيحة الإمام الباقر عليه السلام، والتي وجهها لصاحبـه جابر بن يزيد الجعـفي رضوان الله عليه.

ولهذا تبعـنا - باجتهادـنا الشخصـي - مجموعة محدودـة من هـذه العـوامل، واستخلصـناها من باطن النـص ومـفرداته، ولكنـنا نـقول في الوقت ذاتـه: إنـنا لا نـملك كـلمـة فـصل نـهائيـة تـحـسـم الأمـر، فالـعقل الإنسـاني - كـما يـعلـم العـالمـون بذلك - لا يتـوقف عن إضافـة الإـبداع، ولا تـنـكـفـع قـدرـاته - مـهمـا كانت الـظـروف - عن كـشـف كلـ ما هو جـديـد.

وعـلـى هـذـا التـأـسـيس يـمـكـنـنا القـول إنـ ثـمـة عـوـامـل إـيجـابـية وـسـلـبـية مـتـقـابـلة في نـص الوـثـيقـة الإـرـشـادـية للـإـمام مـحمد بن عـلـي البـاقـر عليه السلام، وأـوضـحت هـذـه الوـصـيـة عـلـاقـة العـمـلـيـة الإـرـشـادـية التي اهـتمـت بـهـا وـصـيـة الإمام البـاقـر بـأـهـاط السـلـوكـ الانـفعـاليـ، وـتأـثـيرـها على استـجـابـات الأـفـرـادـ في مـواقـفـ انـفعـالـيـة متـعدـدةـ، وهـيـ كـما سـيـلـحـظـ القـارـئـ العـزـيزـ تـسـمـ بـأـدـوارـ إـيجـابـيةـ تـرـكـ بـصـماتـهاـ علىـ سـيـكـوـلـوـجـيـةـ الفـردـ، وـتـمـدـهـ بـرـؤـيـةـ حـكـيـمةـ تـسـاعـدهـ عـلـىـ الضـبـطـ السـلـوـكـيـ الانـفعـالـيـ، أوـ تـسـمـ بـأـدـوارـ سـلـوكـيـةـ سـلـبـيةـ وـسـيـئـةـ تـؤـقـيـ بـتـنـائـجـ مـعـاكـسـةـ مـؤـثـرةـ عـلـىـ الـاسـتـجـابـةـ الانـفعـالـيـةـ فيـ سـلـوكـ الكـائـنـ الـأـدـمـيـ.

ولـمـسـنا فيـ جـملـ وـعـبـارـاتـ وـتـعـلـيمـاتـ إـرـشـادـاتـ وـصـيـةـ الإمام مـحمدـ بنـ عـلـيـ البـاقـر عليه السلام، وبـعـضـهاـ يـوـحـيـ لـنـاـ بـتـأـثـيرـاتـ عـوـامـلـ إـيجـابـيةـ، وبـعـضـهاـ الآـخـرـ سـالـبـةـ، وـسـنـذـكـرـ مـنـهـاـ ماـ توـصـلـنـاـ إـلـيـهـ مـنـ تـحـدـيدـ لهاـ سـوـاءـ أـكـانـ إـيجـابـياـ أمـ سـلـبـياـ، وهـيـ كـماـ يـأـتـيـ:

١. العوامل الإيجابية :

ومن صور هذه العوامل وأنواعها ما يأتي:

أ - التيقظ الذهني والتفكير الجاد في نتائج السلوك الانفعالي:

بعد أول مقطع في نص وصية الإمام محمد الباقر عليه السلام نبهت كلماته عليه السلام صاحبه جابر بن يزيد الجعفي، ولفت نظره إلى التأمل الذهني، والتفكير في نتائج ما قيل له من تكذيب وافتراضات توجه ضده من سفهاء الناس أو عقلائهم، وطالبه عليه السلام بعدم الغضب، ودعاه إلى ضبط نفسه في حالة مدحه بما يستوجب فرحة، وأراد له التفكير في مواجهة الحساسية الانفعالية الناجمة عن ذمه، وحثه على الاتصاف بالهدوء النفسي، والاتزان الانفعالي وثبات النفس وعدم الجزع في الشدائيد، ومواقف الألم والحساسيات الشخصية، وحمله بدلاً من ذلك على مواقف إيجابية لتقدير سلوك الذات وهي تواجه بمثيرات انفعالية تربكها وتضعفها.

ودعا الإمام الباقر عليه السلام صاحبه جابر الجعفي بأن لا يتم كثيراً لآية استشارة انفعالية سالبة تحط من قدره الشخصي، وتطيح بصره وقدرته على تحمل الصعاب والشدائيد، وما يسميه بعض علماء النفس المعاصرین بـ (وصيد الاحتياط النفسي)^(١)، وهذا المصطلح السيكولوجي يعني «قدرة الفرد على تحمل الشدائيد، وثبات النفسي في المواقف الصعبة».

وقد وأشارنا إلى هذا المصطلح في كتابنا (سيكولوجية الانتظار) بقولنا عنه: «مصطلاح نفسي يراد به قدرة الفرد على الصبر، وعلى الثبات العاطفي، وتحمل الشدائيد ومقاومة الإحباط والحرمان، والصدمات الانفعالية بطريقة توافقية بالمعايير العبادي

(١) انظر أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، ص ٤٩٨.

والوضعية معاً^(١).

وتحت الإشارة حالة التيقظ الذهني وتأثيراتها الإرشادية على تشكيل السلوك السوي ومراقبة تعديله في أكثر من موضع من نص هذه الوصية، وكان أحدها بذكر المصطلح نفسه كما هو، ومرة ثانية بذكر أهمية التفكير فيها قيل جابر أو أي فرد إذا ما كُدِّبَ أو ذمَّه بعض الناس، ويتبين من كليهما أثرهما الإيجابي في مراقبة سلوك الذات وضبطه، وتعديل الاستجابات السلوكية الانفعالية بما يتفق ونظرة المشرع العبادي الإسلامي وأحكامه التكليفية الشرعية.

ويدعو في مواضع أخرى الأفراد المؤمنين إلى الاسترشاد (بالعقل والعلم) معًا في غالبة هوى النفس وجهادها، فكلمات الإمام تقول في وصيته المباركة، وهو يخاطب جابر الجعفي، وكل من يؤمن بولايته وإمامته بضرورة استخدام التفكير، وكل مظاهر التيقظ الذهني لتجنب ظهور مشكلات تؤثر سلبًا في المجال الانفعالي وغيره:

- «وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مدحت فلا تفرح، وإن ذمت فلا تجزع، وفكِّر فيما قيل فيك...» ومعرفة نتائج ذلك.

- «وأعلم بأنك لا تكون لنا ولِيًّا حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك، وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكًا سبيله زاهدًا في تزهيده، راغبًا في ترغيبه، خائفًا من تخويفه فأثبتت وأبشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فهذا الذي يغرك من نفسك، إن المؤمن يعني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم

(١) مدن، يوسف، سيكولوجية الانتظار، ص ٢٠٨.

أودها^(١)، ويخالف هواها في محنة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فيتعش ويقيل الله عثرته فيذكر ويفرغ إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ»^(٢).

• يا جابر: «تحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقّ مجاذفة الهوى بدلاله العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم».

• وقال في مقطع آخر: «واعلم أنه لا علم كطلب السلام، ولا سلامه كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء مُعين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغارك الدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك».

• وقول الإمام كذلك: «لا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب».. أي إنه يشير إلى قوة كيان الفرد في مقاومة غضبه، وفي سيطرته السليمة والصحيحة على دوافع الانفعال غير المتزن عند الغضب لحظات الغضب.

ويستفاد من هذه المقاطع ضرورة استخدام تأميننا الذهني فيما قيل لنا بذلك من الاستجابة العميماء للسلوك الانفعالي الأحمق، وفهم معانيها، ودلالاتها المطلوبة، فالفرد بين طريقين:

١. إما اختيار الحماقة التي تلحق الضرر بشخصياتنا كبشر في الرد على الاستشارة

(١) الأود: محركة (العوج)، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.



الانفعالية بخاصة في مواقف الإساءة، والغضب الناجم عنها.

٢. النظر لاهانات الآخرين وإساءاتهم بتفكير هادئ، وسليم، لعواقب الاستجابة السيئة للمثيرات الانفعالية، والتصرف إزاءها بهدوء يخلو من الغضب العلني أو يناسب بإيجابية أي حساسية انفعالية سلبية كالتحسّس من أي نقد أو ذم، والرد عليها بحساسية حمقاء، وبلا تفكير سوي، وهذا ما اسمته الوصيّة الباقرية في أحد مقاطعها بـ(رد الغضب) وأنه لا قوّة في نظر الإمام محمد الباقر عليه السلام كـ(رد الغضب)، والسيطرة على مثيراته بحكمة، وإطفاء جذوة فتنته العبيضة.

وهكذا قد حدد الفرد المؤمن - بهذه المواجهة العقلية - اختيار الطريق السوي بمعرفة ما في النفس، وما قيل بشأنها بما يستدعي الغضب، والرد عليه بهذه الأسلوب فيكون ناتج الأمر أمرین، كلاهما مُرّ ومتعب، فكلاهما سقوط في الهاوية التي لا نريدها، وجابر عليه الرحمة أولى بردها عن نفسه؛ لأن كليهما ينطوي على مرارة الخسارة الفادحة، ونقصد خسارة تقديرين مهمّين، وهما:

١. التقدير الإلهي: والمقصود به نيل رضا الله نتيجة صبره على مكاره الناس وحماقاتهم، وعبرت عن ذلك جملة في مدخل مقطع في وصيّة الإمام الباقر عليه السلام تحدد هذه الهاوية السيئة، وهي قوله عليه السلام: «فسقوطك من عين الله جلّ وعزّ عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من سقوطك من عين الناس».

٢. التقدير الاجتماعي: هي خسارة التقدير الاجتماعي متيبة وصعبه على بعض الناس وإن كانت أقل من الخسارة الأولى بشكل مؤكد، فخسارة تعاطف الناس ثقيلة؛ لأنها تعني خسارة الدفء العاطفي والاجتماعي من أفراد المجتمع، فيكون السقوط في هذه النتيجة هاوية مضاعفة، (هو سقوط وزن أنفسنا وتقديرها من أعين الناس)،



وانحطاط تقديرهم واحترامهم لشخصيتنا بينهم.

ويقابل تلك النهايتين السنتين نتيجة ثالثة إذا كان الحال في المواقف الانفعالية، وما قيل في الفرد بخلاف ما قيل فيه منهم، وهي نتيجة مخزية في التقديرتين السابقتين، وجميلة في الحالة الثالثة التي أوضحتها الوصية الباقرية، تقول العبارة في نجاح الفرد على ضبط سلوكه الانفعالي والسيطرة عليه بحكمة العقل ورشد وتروٍ: «إِنْ كُنْتَ عَلَىٰ خَلَافِ
مَا قِيلَ فِيكَ فَثَوَابُ اكْتَسِبَتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَبَّدَ بِذَنْكَ»، وتعني النتيجة في هذه الحالة (ضبط سلوكنا الانفعالي) بمحددات إيمانية يرضي الله عنها، وعَنَّا وننال ثوابه ومرضاته وتقديره سبحانه، بل وتقدير الناس، ومودة المجتمع وعطف أفراده، حتى وإن لم يبذل الفرد جهداً بدنياً للحصول على مثوبته، وذلك بحد ذاته نعمة كريمة وعظيمة من نعم الله سبحانه على المرء المؤمن.

لم تتوقف وصية الإمام عليه السلام جابر الجعفي في هذا الصدد بالتركيز عند استجلاب شدة التيقظ الذهني وتتجير قدراته على ضبط السلوك الانفعالي واستثماره في نيل مقاصد التربية الشرعية من رضا الله، ومودة الناس ونيل ثواب لم تتعجب فيه، بل ربطت هذه الوثيقة بقيمها التربوية والإرشادية والعبادية ما أسمته بـ (شدة تيقظنا العقلي والذهني) بإسناد إيجابي لها من قوى كامنة في طبيعتنا البشرية، يقول الإمام الباقر عليه السلام في وصيته الإرشادية، وهو يطالب جابرًا باستثمار الطاعة والشكر والعفو الإلهي والرحمة، والعلم والتيقظ الذهني، وصدق الخوف ودلالة العقل ورشده والقناعة وحلوة الزهد، وقصر الأمل ومعرفة النفس، وإجمام القلب وكثرة الذكر في الخلوات، ودوم الحزن، وخالص العمل والدعاء، وكثرة الاستغفار، وحسن مراجعة الذات فيها تفعله، وغير ذلك من قوى الدعم والإسناد التي تمكنه من تعديل السلوك:

«يَا جَابِرَ اسْتَكِثِرْ لِنَفْسِكَ مِنَ اللَّهِ قَلِيلَ الرِّزْقَ تَخْلُصَا إِلَى الشَّكْرِ، وَاسْتَقْلَلْ مِنْ



نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للغافر، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقّع مجازفة الهوى بدلاله العقل، وقف عند غلبة الموى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيشار القناعة.

واستجلب حلاوة الرهادة بقصر الأمل، وقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخالص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإيجام القلب، وتخالص على إيجام القلب بقلة الخطأ، وتعريض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإياك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيّن الله عز وجل بالصدق في الأفعال، وتحبّب إليه بتعجّيل الانتقال».

ثم تابعت الوصية قولها في الاستفادة من قوى الاسناد من داخل الذات أو من خارجها فقالت: «إياك والتواني فيها لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعريض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم، وتخالص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، والتسلل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العز بإيمانه الطمع، ودفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس بعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كال أيام الخالية مع صحة الأبدان، وإياك والثقة بغير المؤمن، فإن للشر ضراوة كضراوة الغذاء».

ويلاحظ من النص الإرشادي أنَّه أشار لقوى إسنادية معززة للسلوك الإيجابي عند الفرد المؤمن، وذكرنا بعضها قبل عرض هذا المقطع من الوصيَّة، وهي جميعاً تستهدف -كما نصح الإمام الباقر صاحبه جابرًا- تعزيز السلوك الإيجابي للذات بأساليب عبادية وإيمانية لا في مواجهة السلوك الانفعالي غير التوافقي فحسب، بل لتعزيز الصفات والسمات المختلفة لجوانب الذات وتقوية صلتها بالله سبحانه، وبنفسها والمجتمع وعالم الأشياء من حولها بما يرضي الله سبحانه.

ب - إيجابية الوصيَّة كنص إرشادي موجه للسلوك العبادي ومعزز له:

قدم الإمام الباقر نصَّه لخدمة جابر بالتأكيد، ولضمان انتصاره الفرد المؤمن على قواعدها وتوصياتها الأخلاقية والعبادية لحماية نفسه من غوايائل الزمن وانحرافات الناس في أيامهم، وهي وصيَّة تضمن ترشيد سلوكهم، وبالتالي ليست هذه الوصيَّة الكبيرة خاصة بجابر الجعفي وحده، بل هي خطة عمل وبرنامج عبادي وتربوي يسترشد به الأفراد في المجتمع المسلم، ويستفيدون من بنودها في صياغة نمط إيماني يساعدهم على تكوين شخصية عبادية متزنة التفكير والمسار والسلوك، وطبيعية في التعامل مع مثيرات الحياة برأي وأفكار مستنيرة.

وما لحظناه ونحن نقرأ هذه البنود ونكتبه أنَّ هذا النص التربوي الإرشادي القيِّم هو فرصة متتجددة لاستئثار روحانية الإمام الباقر، وخبرته الأخلاقية والقيمية والمعرفية بفهم طبائعنا كبشر من أجل بناء نمط الشخصية العبادية التي ابتغى الإمام الباقر اجتهد المؤمنين في الوصول إليها ما أمكنهم في حياتهم التي يعيشونها، وارتبطت هذه الوصيَّة كفرصة تربوية مستمرة ومتتجددة بالنسبة لأجيال المؤمنين الحاضرة في زماننا، كما كانت في عصور سابقة وسالفه بطبعتها الإيجابية، وتمتعها ببرنامج عمل إرشادي وتربوي قوي وتقديمي، كما في وجود قوى الإسناد التي أشرنا

لها، والإفادة منها في تأثيرها العبادي والإيماني.

إن كل ما جاء في نصوص وصية الإمام ك (وثيقة تربوية وارشادية) يضمن للمؤمنين كأفراد وجماعات تحقيق فرص متكررة للسيطرة على أنفسهم وإدارة نشاط ذواتهم، ومخالفة هواها في محبة الله ورضاه عز وجل، وإنعاش قوى النفس وتحقيق رغباتها الإيمانية، ومطالبتها في التوافق والصحة النفسية والعقلية، والرضا النفسي عن الذات.

وليست عملية ضبط السلوك الانفعالي إلّا جزءاً محدوداً من عمليات متكاملة تقوم بتوجيه مجموعة القوى الطبيعية الكامنة في النفس، وبالاستفادة من قوى الإسناد حتى تتمكن أنفسهم من السيطرة التامة على انفعالاتهم، وإخضاع حركتها للمحددات الإيمانية، وصرفها في الاتجاه الذي يساعدهم على تحقيق نمط الشخصية العبادية المتكاملة أو القرب من دوائرها على أقل تقدير باعتبار أن قدرات الناس متفاوتة، وبذلك يمكن اعتبار هذه الوصية وبنودها بأكملها أشبه ببرنامج عمل تربوي وإرشادي دقيق ورشيد يمكن الاستفادة منه - ما أمكنهم - في تحقيق الأهداف العبادية والإيمانية لكل فرد مؤمن، والتعايش مع الإسلام وقواعده وتعاليمه وإرشاداته المعرفية والأخلاقية.

ج - دور الفرد المؤمن في عمليات تعديل السلوك الانفعالي للذات:

إذا كانت الوصية - كما قدما - برنامج عمل موجهاً للذات من خارجها، وقد عرضها الإمام الباقر عليه السلام على صاحبه جابر بن يزيد الجعفي رحمة الله عليه فإن القيام بهذه العملية وانجازها يحتاج إلى فعل أطراف، وهم الأفراد، ويكون المؤمن نفسه أهم هؤلاء الأفراد العاملين على مساعدة نفسه وخدمتها بفكر إرشادي قوي لا في المجال الانفعالي فحسب، بل في مجالات تطوير قدراتها الذاتية.

إن التربية الجهادية تعتمد على المسؤولية الفردية في كل مراحل العمل العبادي

وخطواته، فالفرد المؤمن يتحمل مسؤولية إنجاز المهمة الإرشادية وتنفيذ بنودها، ولكن لا يعني بالتأكيد استبعاد أدوار أطراف أخرى لتطبيق بنود هذه الوصيَّة الحيوية؛ حيث إن إنجاز هذه المهمة الإرشادية يتطلب مشاركة فاعلة من أطراف آخرين، وقد توافق وجود قائد منظرٍ، ومرشد معرفي وأخلاقي، ونص وثائق اجتمعت فيه بنود عمل تربوي وإرشادي يمكن استئثاره في تربية الذات على المفاهيم والقيم العبادية، ولا تستغني عملية تنفيذ هذه المهمة عن دور فعال للفرد المؤمن نفسه.

ونلحظ -بكل تأكيد- الإشارة إلى هذه الأطراف في نص الوصيَّة وجميعها تبدو قوى ظاهرية، واضحة، مثل الموجه التربوي أو المرشد وهو إمامنا الباقر عليه السلام، وتلميذه أو صاحبه جابر بن يزيد الجعفي، وهو من عنته بعض الأحاديث بالحتاج للتوجيه والنصح والوعظ والإرشاد، وبرنامج عمل متقن ومحكم تمثل في وجود وصيَّة أو وثيقة إرشادية قدمت خطاباً متكاملاً ل التربية الشخصية المؤمنة، ثم حددت للفرد المؤمن دوره التربوي الإيجابي الذي يتفاعل مع بنود الوصيَّة، ويطبقها على كيانه، وذاته الشخصية في مجالات نمو متعددة بداعٍ أو باعث داخلي من ذاته، وقد التقى هذا الكلام في معناه مع قول الإمام الجواد عليه السلام قد حدد فيه لإنجاز المهام التربوية والإرشادية أدواراً متفاعلة لضمان نجاح العمل والتقدم به، وتوفيقه من رب العباد سبحانه.

قال الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام:

«المؤمن يحتاج إلى توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول مَنْ ينصحه»^(١)، والجملة الأخيرة من هذا النص القصير قد تضمنت بوضوح طرفي تفاعل كان أحد هما (الناصح)، والآخر هو مادته الإرشادية أو (نصيحته) التي وعظ بها غيره، فإذاً لا بد من قيام الفرد - مؤمناً أو غير مؤمن - بتحمل مسؤولياته الفردية في هذه المهمة،

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص ٣٣٧.

فهي ضرورة تربوية لنجاح العمل وتطبيقاته، وذلك بمقدار طاقته، وبحجم ما يتسع له جهده الذاتي، وتطبيقه إمكانياته الفردية، فما نعلمه أن الإنسان الفرد يهبع الأسباب، لكنَّ الله تعالى -بمقتضى توافر هذه الشروط والأطراف المتفاعلة- يصنع نتائج العمل بعد توفيقه للعبد.

ومن هنا أسندت وصيَّة الإمام الباقي لجابر فعله المؤثر في النشاط الإرشادي، وكان الكلام موجهاً لجابر بأن يفعل، وقد انتشرت أوامر الفعل لجابر في كثير من جمل الوصية وعباراتها مثل قول الوصية: «يا جابر اغتنم، إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مُدِحْتَ فلا تفرح، وإن ذمتَ فلا تجزع، وفَكَرْ فيما قيل فيك، واعرض نفسك على ما في كتاب الله، والمؤمن معني بمعاجدة نفسه ليغلبها على هواها، واستكثر لنفسك من الله قليل الرزق، وادفع عن نفسك، واستعمل حاضر العلم، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ»، وهكذا جرت حركة السياق اللغطي للوصية، وهو يسند بنود النصيحة (الوصيَّة) إلى جابر بن زيد الجعفي، أي إلى كل إنسان، لأن المخاطب هو جابر، وكل مؤمن.

وغاية هذا الإسناد في القيام بأفعال محددة، كما يتضح من نصائح إرشاداته الصادقة هو توجيه الأفراد للقيام بتكاليف شرعية ل التربية أنفسهم من جهة، ولি�تعلم المؤمنون أساليب تحقيق التوازن الانفعالي في حياتهم الشخصية، فيكون مثلاً هادئاً في معاملاته مع الآخرين، ومع نفسه، بل ومع ربه، لهذا كفَّ الإمام عن الغضب متى كُذِّبَ، وأن لا يجزع عندما يُذمَّ بوجه حق أو بغير وجه حق، ولا يطير فرحاً لمجرد أن قيل فيه ما يمدحه، فيصاب بغرور الذات، والتبدل الانفعالي عن مراقبة سلوك ذاته، ورؤيه عيوبه، ولا يفكر فيها قيل فيه إلَّا بما يريحه لأن يحمله على مواجهة مشكلاته الشخصية، وهذا كله يصنع في داخل الفرد وحياته العملية إمَّا حالة من الصراعات والتآزم النفسي وعدم

الاتزان الانفعالي، أو يقوده -إذا ما التزم بتوصيات الإمام- إلى اتزان انفعالي ونفسي يحس بوجوده الناس وأهم من ذلك يرضاه الله كهدف عبادي إنْ قصد رضاه من هذا العمل النفسي والأخلاقي.

وانسحب إسناد الأفعال للعبد على مواقف وجمل وعبارات نصَّت عليها وصيَّة الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ في خطابه الإرشادي الكريم، ودعا جابر بن زيد الجعفي، ومجاميع المؤمنين عبر عصور متفاوتة من التاريخ، وفي أي مكان إلى العمل، والتقيُّد ببنود ما تضمنته هذه الوثيقة وتنفيذها، ولا يجد الفرد المؤمن ما يسُوِّغ له التخلص من مسؤولياته المسندة إليه في هذه الوصية والعمل بكل بنودها، وبعبارة صريحة تسند الوصية للفرد المؤمن كامل المهمة العبادية في تحمل مسؤولياته لتحقيق الاتزان النفسي والانفعالي.

د - إرادة المنافسة في العمل وكسب درجات أعلى:

تقدمت الإشارة إلى تأكيد الوصية على أهمية المسؤولية الفردية في ضمان نجاح الخطة الإرشادية التي وضعها الإمام الباقر ﷺ لتوجيهه جابر وإرشاد المؤمنين أفراداً وجماعات، وحرصه الشديد على سير حركة برناجها في حياتهم الشخصية بالممكن الأفضل، بيد أن استمرار تواصل القيام بالمسؤولية الفردية يرتكز على حيوية الإرادة لدى الفرد، ويلفت نظرنا الإمام في النصف الأول من وصيته إلى توجيهه جابر إلى عرض نفسه، عندما يطبق برناجاً إرشادياً لبناء ذاته، على كتاب الله بعد أن نصحه بدوام التفكير فيها قيل فيه، ومعرفة نتائج تفكيره لصالحه أو ضده، وما يترب عن هذا التفكير من بوادر عمل لتعديل السلوك عنده كفرد، وما لا شك أنه كلام للجميع لا لجابر الجعفي وحده.

تذكرة الوصية لهذا المقطع:



«ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيلاً زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فأثبت وأبشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فماذا الذي يغرك من نفسك».

ثم قال الإمام الباقر عليه السلام في جزء آخر من هذا المقطع:

«إن المؤمن معني بمحاجدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها، ويخالف هواها في حبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش ويقيل الله عثرته فيذكر ويفزع إلى التوبية والمخافة، فيزيد ب بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١)».

وتتابعت إرشادات الإمام الباقر عليه السلام في عرض إثارات لتفعيل إرادة الفرد المؤمن بما فيهم جابر، وبطرائق إيجابية ومعتبرة لدى الإنسان المؤمن، فأكثرت وصية الإمام من استخدام ألفاظ وكلمات غايتها تفعيل إرادة الإنسان وتقويتها، وهي تحمل مسؤوليتها في المجاهدة النفسية، وشغلها الشاغل ضبط سلوكها، فقرأنا في نص هذه الوصية كلمات استشارة الإرادة مثل: «استكثر لنفسك، ادفع عن نفسك، استعمل، تحرز، استجلب شد التيقظ، وتنق مجازفة الهوى، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخالص إلى اجحament القلب»، وكلمات كثُر مترابطة في نص الوصية تستهدف تنشيط الإرادة البشرية، وقوية نشاطها في إدارة العمل العبادي بعزم الفعل كي يتحقق برنامج الخطبة الإرشادية، وت تكون - بدرجات متفاوتة - نهادج جيدة للشخصية العبادية المتكاملة.

.(١) الأعراف: ٢٠١

واستخدم الإمام الباقر في توصياته الإرشادية عوامل إيجابية لبناء الإرادة البشرية الفاعلة التي تسهم في تربية النفوس، وضبط افعالات الذات والتحكم في مساراتها لتصب في مصب الخير، وهذا ملحوظ في عبارات الإمام وأقواله في مقاطع الوصيَّة كلاً بلا استثناء، ويمكنا الإشارة لبعض مضامين مقاطع لفظية من نص الوصيَّة ومعانيها الذهنية:

١. مقطع التوظيف المباشر للنص في حث الفرد المؤمن على المجاهدة النفسية في نهاية القسم الأول من الوصيَّة، وهو مثال حي على صراع الإرادات في داخل الشخص نفسه وتفعيلها حتى يتمكن من إنجاز مهمته العبادية الجهادية بنجاح متقن، وآمن، ومن ذلك قوله: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنَى بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ لِيُغْلِبَهَا عَلَى هُوَاهَا»، وما يواجه الذات من صراعات داخلية حتى تتغلب على شهواتها المحرمة، فـ«مَرَّةً يَقِيمُ أَوْدُهَا وَيَخَالِفُ هُوَاهَا فِي مُحْبَّةِ اللَّهِ، وَمَرَّةً تَصْرِعُهُ نَفْسُهُ فَيَتَبعُ هُوَاهَا، فَيَنْعُشُهُ اللَّهُ فَيَتَعَشَّشُ، وَيَقِيلُ اللَّهُ عَثْرَتُهُ فَيَذَكِّرُ، وَيَفْزُعُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمُخَافَةِ فَيُزَدَّادُ بَصِيرَةً وَمَعْرِفَةً لَمَازِدْ فِيهِ مِنَ الْخُوفِ»، واستخدم الإمام لتوضيح نهاية هذا الصراع بإيجابية - وهو توفيق من الله للإنسان المؤمن - آية قرآنية تكشف عن نجاح الفرد في صراع إراداته مع شهواته، فقرأ الإمام جابر الجعفي قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، ودلالة هذا النص لا للتأمل الذهني فحسب، بل لتهيئة الذات لأدوار جديدة تطور من قدراتها، وتقر بها من الله سبحانه وقيمته وتعاليمه.

٢. ومقطع آخر اقتطعنا ألفاظه من قول الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما الصلاة والسلام في تحفيز إرادة العمل وتنشيطها بمحفزات وبواعث داخلية ذاتية ومتواصلة، تقول كلمات هذا المقطع لجابر بن زيد الجعفي، وللأفراد المؤمنين عبر الزمان: «وَلَا مَعْرِفَةُ كَمْ عَرَفْتَ نَفْسَكَ، وَلَا نِعْمَةٌ كَالْعَافِيَّةِ، وَلَا عَافِيَّةٌ كَمُسَاعِدَةِ التَّوْفِيقِ،



ولا شرف كبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة في الدرجات»، وتعني التنافس والمفاخرة والمبرأة في انجاز العمل بين الأفراد داخل أنفسهم في المقام الأول بين فترة زمنية وأخرى، ويرتكز هذا المبدأ على مضمونه التربوي المهم، وهو التنافس الفردي، وغايته -كما ذكرنا- مسابقة الفرد لنفسه في أوقات مختلفة من حياته لتطوير نفسه واكتساب ما يقربه ويدينه من الله، ونيل درجات تقربه للمثوبة الإلهية.

٣. استهار أساليب في التركيبة اللغوية لنص الوصيّة لتنمية الإرادة الفاعلة، ولنلمح عدداً من هذه الأساليب في باطن هذا النص على امتداده كإثابة المؤمن من غير أن يتعب بدنـه إن تحمل مشقة ضبط النفس عن انفعالاتها الحمقاء، والزهد، والرغبة والتخييف، والثبات النفسي، وكذلك استبصر المرء ومعرفته الحق بعد فزعه للتوبة، ومحافة الله سبحانه وتعالى، والعمل على التقيد بالقيم الأخلاقية الواردة في وصية الإمام محمد الباقر، وكل التوصيات التي شددت عليها الوصيّة، وضبط نمو الإرادة وتأثيرها الإيجابي في مسار عبادي، والتقيد بتوجيه المبادئ الإرشادية المتعددة مثل (دفع الضرر، وإماتة ذل الطمع بعـز اليأس، واستجلاب العزة بـبعد الـهمـة، والـشكـر واستـكـثار قليل الرزق من الله، وإـيـثـارـ القـنـاعـةـ، ومـبـدـأـ التـروـيـحـ عنـ النـفـسـ أوـ «ـمـاـ أـسـهـاـ نـصـ الـوـصـيـةـ بـ(ـاجـامـ الـقـلـبـ)ـ وـتـخـفـيـفـ معـانـاتـهـ، وـتـزـيـنـ النـفـسـ بـصـدـقـ الـأـعـمـالـ، وـالتـحـبـبـ إـلـىـ اللهـ عـزـ وـجـلـ بـالـمـسـارـعـةـ إـلـىـ أـدـاءـ الـأـعـمـالـ الصـالـحةـ لـاسـيـاـ الـفـرـائـضـ، وـطـلـبـ الـعـفـةـ وـكـثـرةـ الـاسـتـغـفـارـ، وـذـكـرـ اللهـ فـيـ الـخـلـوـاتـ، وـحـسـنـ الـمـرـاجـعـةـ لـسـلـوكـ الـذـاـتـ وـمـشـاعـرـهـ وـفـكـرـهـ، وـمـعـالـجـةـ رـذـائـلـ الـنـفـسـ بـأـضـدـادـهـ مـنـ الـفـضـائلـ وـالـقـيـمـ الـرـبـانـيـةـ، وـانـتـهـازـ فـرـصـ الـخـيـرـ دـائـيـاـ)ـ وـهـذـاـ مـاـ عـنـتـهـ جـمـلةـ فـيـ نـهـاـيـةـهـ تـقـولـ:ـ(ـوـإـيـاكـ وـالـتـقـرـيـطـ عـنـ إـمـكـانـ الـفـرـصـةـ، فـإـنـهـ مـيـدانـ يـجـريـ لـأـهـلـهـ بـالـخـسـرـانـ)ـ.



٢. العوامل السلبية المؤثرة على تحقيق الاتزان الانفعالي:

حددنا فيما مضى بعض العوامل الإيجابية التي توصلنا إليها بنظرة اجتهادية متأمِّلاً، وهي تحتمل إضافة عوامل أخرى أو شطب بعضها بحسب قدرة الباحث على كشف مضمومين النص، ونقصد وصيَّة الإمام الباقر الارشادية لجابر، وبقي علينا متابعة بعض العوامل المؤثرة سلباً على تحقيق حالة الاتزان الانفعالي لدى الفرد، فالعوامل السلبية هي ما تستثير السلوك الانفعالي بطريقة غير سوية، وبأساليب غير توافقية كما يحدث في حركة الناس بالحياة الشخصية وال العامة، وتقود هذه العوامل الأفراد إلى أخطاء سلوكيَّة في مجالات متعددة من حياتهم.

ويمكّنا الآن استخلاص بعض هذه العوامل التي تعمل كقوى مؤثرة سلباً على انفعالات الأفراد، وتدفعهم لأنحرافات فكرية وسلوكيَّة مضادة، ومتعارضة مع الأهداف العبادية التي توختها الوصيَّة الإرشادية للإمام محمد بن علي الباقر ﷺ.

ومن هذه العوامل ما يأتي:

١. النزعة الشيطانية:

وهو ما ذكرته الوصيَّة بـ(إبليس) اللعين أو الشيطان، ويراد به القوة الشريرة في داخل كيان الإنسان التي توسوس له، وتستثيره بتحريضات مستمرة للإقبال على أعمال سيئة مضادة لأوامر الله ونواهيه، ولجملة الخطاب الإرشادي في وصيَّة الإمام الباقر ﷺ، وما يعرضه على الإنسان بصورة مستمرة من تضليلات منحرفة تصده عن سواء السبيل، لاسيما قربه من الله عز وجل وطاعته وعبادته، وقد ورد ذكره في مقطع لفظي من نص هذه الوصيَّة في قوله ﷺ، وهو يوجه نصيحة لجابر من عوائق إبليس، فقال محذراً صاحبه الجعفي: «وتحرَّز من إبليس بالخوف الصادق».



ويتجلى التأثير الشيطاني في كينونة الإنسان بأكثر من صورة أشارت لها كلمات وصية الإمام الباقر عليه السلام بخابر عليه رحمة ربه، ومنها ما يأتي:

أـ حث الشيطان للإنسان على ارتكاب أفعال سيئة، وقبائح متعددة سواء من صغائر الذنوب أم من الكبائر كالظلم والكذب والتخوين، والسرقة ومعاملة الناس بحالات من الغضب الشديد، وبذلة القول، وفحشاء اللفظ مع الآخرين أو الاعتداء عليهم، وإزراء الناس، والفتن وغيرها، وعلاج هذه الحالة من خلال الحذر والتحرز، والعمل بالخوف الصادق من الله عز وجل، وبخلاف ما يريده الشيطان، وهذا ما قصده الإمام الباقر: «وتحرّز من إبليس بالخوف الصادق».

بـ خداع الإنسان بحالة من التزيين المصنوع، وما ارتبط به من أمني الذات وغوروها، وتسويفها، والرجاء الكاذب، والغفلة، وتشجيعه على الحرام حتى يصل قلبه للقساوة والتبلد الانفعالي الشديد الذي لا يحس فيه بشيء، والتواني فيما لا عنzer للإنسان فيه، جاء في مقطع من الوصية الباقرية: «وإياك والرجاء الكاذب فإنه يوترك في الخوف الصادق» وجاء في مقطع آخر من الوصية: «وإياك والتسويف فإنه بحر يغرق فيه الهمجي، وإياك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإياك والتواني فيما لا عنzer لك فيه، فإليه يلتجأ النادمون».

وعلاجه قوله عليه السلام: « واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم» وما ورد من وصايا إرشادية لضبط سلوك العباد.

٢. هوى النفس:

أمّا الخطير الثاني الذي يعيق حركة الذات المؤمنة في الوصول إلى أهدافها، ومنها

تحقيق حالة طبيعية من الاتزان النفسي والانفعالي فهو ما تسميه الوصيَّة بـ(هوى النفس)، وتكرر هذا المصطلح الإسلامي مراراً في نص هذه الوثيقة التربوية والإرشادية باللفظ نفسه أو بالألفاظ قريبة منه، وإذا ما تتبعنا وجود هذا المصطلح في باطن التراكيب اللغوية لهذه الوصيَّة الكريمة فسوف نجده مكرراً بمصطلحات هي (هواها، أي النفس، ومحازفة الهوى، أي مخاطره)، وأنه في مقابل ذلك جاء في جملة قصيرة من الوصيَّة: «لا جور كموافقة الهوى».

يراد بالهوى -وجمعه أهواء- ويراد به في معناه العام مستودع غرائزى، وقوة ميل داخلي نحو الشهوات وزواهدها، بل ونحو الاستجابة لمطالب النفس والإسراف فيها دون ضوابط أحياناً، وهو ميل وعشق داخلي نحو شهوة معينة، وتكون في الخير والشر على حد سواء، وإذا ما بالغ المرء في الاستجابة لها هوى وسقط في هُوَّة سحرية، والمراد به في وصيَّة إمامنا ومادتها الإرشادية أنماط من الاستجابة المنحرفة أو المبالغ بها للشهوات، وربما المحَرَّم منها، فتعميت قدرتنا في إشباعها باعتدال وبطريق سليمة، بل وتتلذذ فيها النفس بإشباع الشهوة المحرمة دونها مبالاة بشيء.

ولقد عَبَرَ أحد مصطلحات الإمام الباقر، وإحدى جمل وصيَّته بقوله موجهاً كلامه لجابر بن يزيد الجعفي: «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها»، وإذا ما تمكن الحال بالفرد أن يبلغ هذه الحالة من استهانة بفعل الذنب، بل والرضا العصابي، المريض بالحالة التي كان عليها المذنب، وما يصاحبها عادة من تأزم داخلي، ووقوع أشكال من الصراعات الداخلية بين روابط النفس، وشهواتها المحرمة مع الضمير الأخلاقي، والوجودان البشري، والعقل، وكل قوى النفس الحية، ومن ذلك نمو مشاعر الإحساس بالإثم، والعجز عن تعديل السلوك الأخلاقي، والاستسلام التام للغرائز التي تحركه كما تشاء، فيفقد الإنسان قيمته الحقيقة، ويظل نهباً لصراعات



لا تنتهي في داخله، بحيث تبقى تؤرقه في كل حين لاسيما لحظات العيش في ظروف الرذيلة والشهوة المحرمة.

ومن هنا حاولت مقاطع من الوصية معالجة هذه الحالة المرضية بما يقابلها، وبتغليب رشد العقل وقوية قدرته ليتم تحقيق الازان الانفعالي، والنفسي، ف مقابل ذلك الفاظ في نص وثيقة الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ ما أشارت إلى فضيلة الانتصار على «هوى النفس» مثل قول الإمام الباقر ﷺ لصاحب الجوفي: «وغلة الهوى»، ويراد به غلبة النفس بشهواتها على عقل الإنسان وتفكيره، ومخالفة الهوى في قول الإمام الباقر ﷺ: «ولا عقل كمخالفة الهوى»، وقول الإمام ﷺ يشير إلى قوة الإنسان في غلبة الهوى بعقله: «ولا قوة كغلبة الهوى»، وكذلك قول الوصية «ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى».

٣. قوى الظلم من حول الإنسان:

قد تكون مصادر الخطر آتية في كثير من الحالات المجهدة للفرد من داخل كيان ذاته البشرية كما في حدوث تأثيرات الهوى (شهواته)، والتزعات الشيطانية ووساوسه المؤذية، ولكن بكل تأكيد لا تقف مصادر الخطر عند هذا الحد من الرغبة في السيطرة على نفسية الإنسان، فهناك مخاطر على نفسية الفرد من تأثيرات قوى محيطة به، وكان من المنطقي أن ينبه الإمام الباقر ﷺ صاحبه جابرًا وكل المؤمنين إلى هذه المخاطر الواقعية وتأثيراتها، وكثير منها سلبية تحد من نمو الشخصية وتطورها، وتعوق حركة بنائها، والارتفاع بقدراتها.

نعود إلى نص الوصية الإرشادية نستنطقها في هذا الشأن وتحديد بعض المخاطر التي تمنع النفس البشرية من تحقيق نجاح مضمون ومؤكد في حالات الازان النفسي لاسيما



(الانفعالي)، ففي مفردات هذه الوصية ما يمكننا أن نبسط القول بأمثلة عن تأثيرات قوى تأتي للفرد من خارج ذاته، وتأثير على قراراتها، بل وتحول دون تحقق (atzanah الانفعالي)، فاستدعي ذلك التنبيه والتحذير من الإمام الباقر ﷺ في وصيته المباركة، حيث طالبت هذه الوصية في الأسطر الأولى منها بتجنب المشكلات التي تعوق نموها، وتمنع تحقق اعتدالها وتوازنه الانفعالي، وطالبت في الوقت نفسه باستجابات صحيحة وهادئة في مواجهة استفزازات الآخرين، وتدخلاتهم المصطنعة، وربما الخادعة لغيرهم، بقصد وغير قصد، كما في مبالغاتهم في مدح بعض الناس.

ونأخذ من نص الوصية هذا المثال البارز، تقول وصية الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ:

«يا جابر اغتنم من أهل زمانك خمساً، إن حضرت لم تعرف، وإن غبت لم تفتقد، وإن شهدت لم تشاور، وإن قلت لم يقبل قولك، وإن خطبتك لم تزوج، وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مدحت فلا تفرح، وإن ذمنت فلا تجزع، وفكري فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله جلّ وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك».

إذا ما أمعنا النظر في كلمات الإمام وتوجيهاته بهذا المقطع وجدنا ما يأتي:

١. تحذير من الإمام جابر، وكل الأفراد المؤمنين من الاستجابة لظلم الآخرين لهم باستجابات غير سوية تؤثر على اتزانهم النفسي والانفعالي.
٢. وتنبيه جابر وللأفراد المؤمنين من استخدام أسلوب المعاملة بالمثل متى تعرضوا لاستفزازات انفعالية غير طبيعية، وحثهم على السمو في الرد، وإثبات أن استجاباتهم



بطرائق سوية عنوان على نصح أنفسهم، وقدرتهم على السيطرة على أنفسهم، والقوى الشيطانية الدافعة تجاه صنع المشاكل التي تؤرق حياتنا.

٣. تدعو الوصية الإرشادية إلى التفكير ملي فيما قيل في جابر أو فينا، وعواقب ما يترتب عادة عن ذلك من مشاكل، واستجابات حمقاء تصاحب هذه المثيرات، التي ذكرها المقطع من الوصية ونقصد تكذيبنا فنغضب، ونمدح فنطير فرحاً، وندم من الناس بحدق أو بصفاء نفوس، فتحسّس عداوتهم، وكراهيّتهم، ونجزع مما قالوه فينا، ونضيق بهم وبأقوالهم، وتبدأ المشكلات النفسية والاجتماعية تتحرك في أنفسنا، وفي علاقاتنا بهم وبمحيطنا الاجتماعي ودوائره الضيقة أو الواسعة على حد سواء.

٤. تتبع ومعرفة نتائج العمل كتكذيبنا، وذمنا، وتخويننا من خلال عمليات تأمل وتفكير، وفرز بين ما هو صحيح، وبين ما هو خاطئ من نتائج، والتأمل فعلياً في نتائج الاستجابات الانفعالية، غير الرشيدة من سقوط الإنسان بين نتيجتين فاسيتين، وهما (إماً) السقوط من عين الله عز وجل إذا كان رذلاً لا يرضي الله سبحانه، وليس على حق، أو السقوط الآخر، وهو صعب كذلك، أي السقوط من أعين الناس، وربما يكون هذا السقوط مزدوجاً يجمع النوعين، وبذلك يخسر الفرد رضا ربِّه في آخرته ودنياه، ويخسر في الوقت نفسه رضا المجتمع ومودة أفراده في الدنيا.

٥. وثمة نتيجة أخرى نبهت الوصية إليها، وهي حصول الفرد المؤمن الضابط لأنفعالاته، المتفكر فيما قيل فيه على رضا ربِّه تعالى، إن كان أمر المؤمن المتهם بأقوالهم الضالة، على خلاف ما قيل فيه فهو في خير كما توحى نهاية هذا المقطع، فقد أشار هذا المقطع في آخر جملة فيه إلى هذه النتيجة الحسنة، وهي مكافأة المؤمن بجزاء إلهي، وبمثابة ربانية عادلة، حيث قال الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر:



« وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك »، أي حصول الفرد على نتيجة إيجابية، وبذنه لم يتعب في القيام بأي نشاط وعمل من أجل تحصيلها.

وهكذا فالنوازع الشيطانية المحددة هنا في الوصيَّة باسم (إبليس)، وهي النفس وشهواتها المنفلتة بلا ضوابط كابحة، وكذلك ممارسات الظلم البشري الاستفزازية لنفسية الإنسان الآخر هي جمِيعاً مصادر فعلية لنشوء استجابات انفعالية مضادة، فإنَّ إبليس يحرض - كعادته - جموع الناس على ارتكاب المحرمات، والذنوب، والأفعال الخاطئة على أقلها، وذلك لإبعاد الناس عن القرب من ربهم عز وجل.

أمَّا الهوى فنزعات داخلية تمثل في دفق شهوات زائدة مصحوبة في غالب حالاتها بشحنات انفعالية تؤدي إلى ردود فعل انفعالية ضارة وسيئة، بينما لا يترب عن مظالم الآخرين لنا وللفرد - تكذيباً وتخويناً ومبالغة في الثناء والمدح، وذمًاً، وقدحاً في أعراض الآخرين - سوى استجابات عصبية، وردود فعل خاطئة تؤثر على درجات اتزانهم الانفعالي، وعلى علاقات سلبية منها الإمام الباقر عليه السلام عنها.

٤. الضغوط التي تواجه الأفراد في عمليات تحقيق الاتزان الانفعالي:

تنقابل الحياة لدى الإنسان منذ بدء الخلقة على مواجهة (الفرص والتحديات)، وكلها يترك تأثيراته على السيكولوجية العامة والخاصة للأفراد، فالضغط النفسي تحفر بصمات متفاوتة الشدة في نفسية الأفراد وفي حياتهم الاجتماعية، وتمثل الضغوط وتحديات الحياة أحد عوامل التوتر النفسي، وتضع أمام طريقهم جملة من الصعوبات،



تؤثر عليهم في تحقيق حالات الاتزان النفسي والانفعالي، ويقتضي قبل الدخول في هذه الإشارات تحديد معنى الضغط النفسي لغة واصطلاحاً، ومن بعض مصادر علم النفس وأدبياته المعاصرة.

المفهوم اللغوي للضغط.

لغة: ضغط ضغطاً، وضغطه: «عَصَرُهُ، وزْحِمَهُ وضَيْقَ عَلَيْهِ الضُّغْطَةُ» (بضم الضاد)، الزحمة والضيق والشدة والمشقة، الضَّغْطَةُ (فتح الضاد)، الْقَهْرُ وَالضَّيْقُ وَالاضْطَرَارُ، ومنه ضغطة القبر، أي تضيقه على الميت»^(١).

واصطلاحاً يُعرَّف: (الضغط) كمصطلح سيكولوجي على: «أنه صراع أو حالة من التوتر النفسي الشديد، وتعرف الضغوط النفسية على أنها عوامل خارجية ضاغطة على الفرد، سواء بكليته أم بجزء منه، وبدرجة تُوجِّدُ لديه إحساساً بالتوتر، أو تشوهها في تكامل شخصيته، وحينما تزداد حدة هذه الضغوط، فإنَّ ذلك قد يفقد الفرد قدرته على التوازن، ويُغيِّر نمط سلوكه عمَّا هو عليه إلى نمط جديد»^(٢) قد يكون في الغالب سيئاً بدرجة أكثر شدَّةً وصعوبة.

ولهذا يقال في بعض الأمثال الشعبية الدارجة أن (الضغط يُوَلِّدُ الانفجار)، ولعل قائليه يقصدون نتائجه السيئة، وإن هذا الضغط قد يصنع تغييراً غير موجه، وبردود فعل سلبية، وإن كان في بعض الأحوال يأتي (الضغط) بتتائج إيجابية عندما يصنع في داخل النفس ثورة وتمرداً ضد الظلم وأشكاله وأعوانه، وحيثئذ يحقق الفرد في داخله حالة من التوازن بين الفرص والتحديات.

(١) حسن شحاته، وزينب النجار، معجم المصطلحات التربوية والنفسية، باب حرف الضاد، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) حسن شحاته، وزينب النجار، مصدر سابق، باب حرف الضاد، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

كما توجد في حياة الإنسان فرص متعددة في الغالب، وما يرتبط بذلك من توافر بعض الإمكانيات تعينه على مواجهة صعب الحياة، وهناك كذلك تحديات ومواجهات وشدائد وضغوطات عليه، وعادةً إِمَّا أن تؤدي هذه الضغوطات إلى نتائج طيبة تمكنه من الصمود أمام الشدائد والثبات أمامها، وتتيح له فرصة طيبة للتمكن في حياته، أو أنها تشكل له كتلة من المهموم، والغم، وأعباء ثقيلة، وحالات من التوتر النفسي المستمرة.

ويحدد حجازي مفهوم الضغوط بشرح مبسط وسهل يقوم على عرض أمثلة إيضاحية، فيقول: «يشيع في العربية استخدام الكلمة (ضغط)، وضغط للدلالة على المصطلح (Stress) المأْخوذ من علم الفيزياء في الأساس، حيث يعني ممارسة قوة ضغط أو شد على جسم ما، وقياس تأثير هذه القوة على حالته وما طرأ عليها من تحول، أقرب تصور لذلك هو ممارسة شد على حبل إلى أقصى طاقة احتماله، بحيث ينقطع بعدها، وقياس مدى احتماله، ومنها على الصعيد الجسمي (Stress) الشائع طبياً لفحص مدى قدرة القلب على المقاومة، وبالتالي قياس حالته الصحية».

وتتكرر في العامية مقوله (أعصابي مشدودة) للدلالة على توتر الحالة الجسمية بسبب الأعباء أو التحديات وما تشكله من إجهاد، وهناك في العربية كلمة (شدة)، هي الأقرب للتعبير عن المصطلح الأجنبي، وجمعها شدائد، والتي تعني تحديات وضغوطاً تضع الإنسان في حالة أزمة، وتحمل معنى التعرض للخطر، قد تكون الكلمة شدة، وشدائد أكثر تعبيراً عن هذه الحالة من الكلمة ضغط وضغط»^(١).

ثم عرض ثلاث وجهات نظر حول الضغوط ودخل في بعض تفاصيلها، وهي:

١. الضغوط كاستجابة للتهديد.

(١) حجازي، مصطفى، الأسرة وصحتها النفسية، ص ١٧٠ - ١٧١



٢. الضغوط كتهديد بحد ذاتها.

٣. الضغوط بمثابة أمور داخلية متعلقة بالفرد ذاته^(١).

ومن ذلك على سبيل المثال (الذنوب والاحباطات المتراءمة، والصراعات النفسية ومشكلات السلوك وحالاته المرضية) وغيرها.

الضغوط والتحديات في نصوصية الإمام الباقر

وقد ورد في نصوصية الإمام محمد بن علي الباقر إشارات واضحة، و مباشرة لمجموعة من الهموم والضغوط والتحديات والشدائد التي كانت تواجه الأفراد المؤمنين في حياتهم اليومية، وما تزال حتى حاضرنا تمثل تحديات وضغوطات داخلة في سياق وجهات النظر الثلاث، ويمكننا الآن تحديد بعضها من سياق التركيبة اللغوية للنص ومحتواه المعرفي، وكما فهمناه اجتهاداً، وفقاً لخبرتنا العلمية المتواضعة في هذا المجال.

إنَّ الناس - فرداً وجماعات وفي أعمار مختلفة من حياتهم - يواجهون صعوبات وضغوط وتحديات في تنفيذ آداب العمل الإرشادي وتوصياته، وغرضهم بناء (النموذج العبادي) للشخصية الإيمانية، ونعتقد أن المحتوى المعرفي لنصوصية الإمام الباقر ذكر بأساليب مباشرة وإيماءات وإيحاءات بعض هذه التحديات والضغوط وشدائد الحياة في تجربتهم الجهادية للذات، ويمكننا تقسيمهما، وبإيجاز على النحو التالي:

أ- تحديات وضغوطات متعلقة بالفرد ومنها على سبيل المثال كما جاء في الوصية ما يأتي:

- تحديات التجربة الجهادية للمؤمن مع نفسه، ومنها حالات الصراع مع شهوات النفس، والتوبة وتعثر المحاولات التغييرية، وسقطات السلوك، وعثراته،

(١) حجازي، مصدر سابق، ص ١٧١ - ١٧٦.



والمخاوف المرضية، وقساوة القلب، وفقر القلب من الحس الإنساني.

- تحديات الشر، ونزغات إبليس ووساوشه المَرْضِيَّة، وتقصير ذات الفرد كغفلته عن نفسه، وغفلته عن تأثيرات الدنس، والرين الخفي، ومخاطر الهوى، والرجاء الكاذب، وغير ذلك.
- تحديات هوى النفس وزواائد شهوتها المحرّمة، وضعف قدرة الفرد المؤمن لتخليص نفسه من شوائب الدنيا.
- تحديات وضغوطات من داخل النفس، ومن رذائلها المَرِيَّضة كالحرص، وذل الطمع وأسبابه، وإعجاب المُرء بنفسه، والكذب، والغور، وطول الأمل، وشدة إلحاح عادات السلوك الشرير على النفس، بنحو يماثل شدة إلحاح الحاجة للغذاء لدى الفرد.
- تحديات الذنوب والمعاصي وما ارتبط بها من رواسب النفس، والاستخفاف بالذنوب، والتسويف، واختلاق الأعذار لتبرير استمرار المعاصي، والتواني فيها لا عذر للفرد فيه، ورضاه بالحالة التي يكون عليها الفرد من معاصٍ وذنوب.
 - بـ- تحديات وضغوطات متعلقة بالفرد مصدرها خارج كيانه.

ومنها على سبيل المثال كما جاء في الوصية ما يأتي:

- تحديات الناس للشخص المؤمن بمظلومهم كتخوينه، وظلمه وتكذيبه وذمه والقدح في عرضه وكرامته، وفقدان قدرة الفرد على الاتزان الانفعالي، وفي مقابل ذلك تمكنه من السيطرة على سلوكه الانفعالي.
- ما يترتب عن الفشل في تقدير ما قيل فيه، وما ارتبط بأقوالهم من احباطات



ثقيلة كالسقوط من عين الله، ومن أعين الناس.

- اتهام الآخرين للشخص بأنه رجل سوء.
- فشل نتائج عرض نفسه على كتاب الله، ومبaitته له، وما يصاحب ذلك من الإحباط والشعور بالخطر.

موقف كف السلوك العدواني وتحويل التحديات لفرص إيجابية:

هل يمكن تحويل هذه التحديات إلى فرص نجاح للشخص المؤمن؟

نعم، وبعد نجاح الفرد المؤمن في تحقيق توازن داخلي بين العداون عليه، والرد باستجابات إيجابية يكون أمام الإنسان المؤمن فرصة لتعديل حال ذاته، وتحويل بعض التحديات التي تواجهه إلى فرص وامكانيات أفضل، ولنأخذ نموذجاً (موقف كف السلوك العدواني وتحويل التحديات لفرص إيجابية)، والفرص المتوقعة هي كما يأتي:

١. الفرصة أولى: تحقيق رضا الله، ونيل أجره ومثوبته.
٢. والفرصة الثانية: حصوله على تقدير اجتماعي طيب من الناس، وربما يكون من ذوي السلوك العدواني أنفسهم.
٣. وثالثة الفرص هي اكتساب الشخص المؤمن مهارات وجданية مهمّة كـ(مهارات الصبر والثبات العاطفي، وقدرة الفرد على تحمل الشدائـد، ومعاملة الغير بأخلاقـيات أسمى من أخلاقـيات المعدين عليه، ومعاملتهم بسمـات وسلوكيـات مـا يـسمـيه البعض بسمـات الذكاء العاطـفي، والشعور بالرضا الذاتـي).

تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي في نصوص الوصية الإرشادية :

حظيت مسألة (تحقيق الاتزان الانفعالي) بقدر كبير من العناية في نصوص وصية الإمام جابر ومفرداتها اللغوية، وتبدو أهمية الاتزان الانفعالي في دعوة نصوص الوصية المباركة وتأكيد قيمها الأخلاقية على ضرورة تجنب كل ما يثير المشكلات أمام الفرد بسبب ما يحدث له من افعالات متفاوتة الشدة والقوة في حركة حياته، ويستفاد ذلك من عبارات واضحة المعنى في نصوص الوصية الإرشادية، ويتجلى على سبيل التمثيل لا الحصر في وصايا أخلاقية وسيكولوجية مهمة وردت في نصوص هذه الوصية.

عبارات وردت في مدخل وصيته ﷺ تدعو جابرًا إلى تحقيق سيطرة تامة أو جزئية من قبله على افعالاته كي يتتجنب متابعته تؤثر على كيانه الأدبي وتتوافقاته النفسية والاجتماعية في حركة الحياة، وهذا ما أطلق عليه في أدبيات علم النفس المعاصر بـ«الاتزان الانفعالي» كأحد مظاهر التوافق، والاتزان النفسي والاجتماعي، وهذا - كما سيتبين - من أهم أهداف الإمام الباقر - كمرشد ومربي - في تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي للشخصية العبادية.

ونعني بـ(الاتزان الانفعالي) قدرة الأفراد على السيطرة الذاتية على أنفسهم في مواقف افعالية، وتجنب مشكلاتها، ومتاعبها، ويعادل هذا التوصيف في معناه ما يُعرف في الثقافة الأخلاقية الإسلامية ومفاهيمها بـ(الصبر)، وهو كما يدرك القارئ الكريم من كبرى القيم والفضائل والمفاهيم الأخلاقية التي ارتکزت على بنائها التربوي والإرشادي هذه الوصية بمفاهيمها وقيمها، وكان غرض الصبر - قيمة أخلاقية - والاتزان الانفعالي - كمفهوم سيكولوجي - أن يمنع الفرد المؤمن نفسه من مواجهة مشاكل مجده ناجمة عن افعالاته، ومن تكيف سلبي، وغير توافق معها.

فالوصية الباقرية الكريمة التي ندرس قيمتها في تحقيق الاتزان الانفعالي بإرشاداتها



القيمية والأخلاقية أرادت تحقيق تأصيل ذلك بمنظور عبادي أولاً، وتعديل سلوك الأفراد بما يتفق ومحదاته الإيمانية ثانياً، فالوصية في مقاطع متعددة من خطاب الإمام الباقر عليه السلام أرادت من الفرد مثلاً في شخص جابر أن يهتم بضبط نفسه انفعالياً في مواقف تم تحصيصها بكلام مباشر، وأن يخفف عن نفسه آلام ما ينجم عنها من مشكلات سيكولوجية، وأن يهرب نفسه كي تدخل في قلبه السكينة والأمن والطمأنينة.

ولهذا دعا الإمام الباقر عليه السلام في وصيته المذكورة جابرًا إلى تحمل المكاره وشدائد الحياة وصعوباتها بالقبول والصبر، وبضبط النفس في مواقف انفعالية، ومعاجلة مشاكل الحياة بالصبر والحكمة والتروي، ورشد السلوك، كما دعاه عليه السلام إلى عدم الإضرار بنفسه في هذه المواقف، فلا يغضب حينما يتم تكذيبه من الناس أو أحدهم، ولا يتحسّس بمباغتهم في ذمهم شخصه، فيدخل في مشاكل معهم، ولا يغره مدحهم اياه ويائس به في الداخل الغرور، ويرضى عن نفسه، ولا ينبغي لجابر، وأي إنسان يسمع بهذه الوصية أن يتفاعل مع أي موقف أو أي انفعال غير توافقي، وكان التوجيه في المقطع المذكور صريحاً لجابر بن يزيد الجعفي بأن لا يغضب إذا ما كذبَه أحد الناس، وطالبه بالثبات النفسي في مواقف وحالات انفعالية كأن يذمه بعض الناس أو يغير بمدحهم شخصه فينسى عيوبه، وينخدع من حيث لا يدرى، فالمقطع الوارد في مدخل وصية الإمام الباقر استهدف الوصول إلى حالة طبيعية، بل عالية من الاتزان الانفعالي، والثبات النفسي في الشدائـد، وفي غيرها.

قال عليه السلام: «وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغصب، وإن مدحت فلا تفرح، وإن ذمت فلا تجزع، وفكـر فيها قـيلـ فيـكـ، فإن عرفت من نفسك ما قـيلـ فيـكـ فـسـقوـطـكـ من عـيـنـ اللهـ جـلـ وـعزـ عـنـدـ غـضـبـكـ منـ الـحقـ أعـظـمـ عـلـيـكـ مـصـيـةـ مـاـ خـفـتـ مـنـ سـقوـطـكـ مـنـ أـعـيـنـ النـاسـ، وإنـ كـنـتـ عـلـىـ خـلـافـ مـاـ



قيل فيك، فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك».

ويلحظ من ذلك فشل المرء في تحقيق الرضا الإلهي عن الذات، وعبرَ عن ذلك بالسقوط من عين الله عز وجل، وفشلها كذلك في بلوغ حالة معقولة من الرضا والتوافق النفسي والاجتماعي مع الناس، وعبرت عن هذه الحالة عبارته «سقوطك من أعين الناس».

إنَّ غرض الإمام الباقر عليه السلام في وصيَّته الإرشادية بمدخلها هو توجيه شخصية جابر، وكل فرد وصله هذا البلاغ التربوي والإرشادي بالثبات النفسي والاتزان الانفعالي، وتحمل - بدرجة معقولة - مكاره الناس ومتاعبهم بالقبول والحكمة ورشد القرار، ومنع نفاذ آثار مشاكل الحياة إلى داخله بالتبسم والضجر والضيق، فتستثير نفسه - فيما بعد - آلامًا نفسية أخرى كالوقوع مثلاً في حالات من الصراع النفسي، والعجز عن مواجهة الرواسب النفسية القابعة في داخل النفس، والضعف عن التخلص من تأثيرات الماضي، وما يترتب عنه من إحباط نفسي، ثم الوقوع في براثن المرض النفسي.

وقدمت هذه الوصية، كما في سياقها اللغطي والمعرفي، بعض المفاهيم والقيم الأخلاقية التي توزعت في نصها الإرشادي، وابتغت مساعدة الأفراد على تحقيق الاتزان الانفعالي، فصدحت هذه الوصية بعباراتها اللغوية الدقيقة والرفيعة أدبياً بقيم الزهد في الحياة، والقناعة برزق الله حتى لو بدا في أعين الناس قليلاً، والصبر، وشكر نعم الله عز وجل، والتحرز من الرجاء الكاذب حتى لا يقع في الخوف الصادق خداعاً، وفي المقابل دعت إلى مواجهة عملية لقيم سلبية كالتسويف والغفلة، وغير ذلك باسترجاج سالف الذنب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وكثرة الذكر في الخلوات الخاصة، وكل ذلك لتخليص النفس من شحانتها الانفعالية الضارة، ولدفع الذات عن الوقوع المرضي غير السوي فيها أسمته وثيقة الإمام الباقر عليه السلام الإرشادية بـ «ذل الطمع»، ومعالجته كما

أوصى ﷺ بـ «عز اليأس»، وبمفاهيم قيمة وأخلاقية أخرى استهدفت تحقيق الاتزان الانفعالي للفرد المؤمن، كاستجلاب زيادة نعم الله بعظيم الشكر، واستقلال رزق الله بكثير من الطاعة لله سبحانه، وإذراء النفس بتعریضها للعفو والرحمة، واستجلاب شدة التيقظ بصدق الخوف.

وفي متن الوصية المباركة وتركيبتها اللغوية والمعرفية دعوة صريحة من الإمام الباقر ﷺ لجابر الجعفي لـ (مجاهدة الهوى) ومغالبة شهواتها ورواسب ماضيها حتى يقيم جابر، وكل فرد مؤمن.. رجلاً وامرأة (أوَدَّها أو اعوجاجها)، وذلك بمخالفتها، ومقاومة نزعات الهوى في حبّة الله سبحانه، فتصرعه نفسه مرة، ويصرعها مرة أخرى حتى يتمكن (المؤمن) في نهاية تجربته الجهادية من قهر النفس والسيطرة على شهواتها فيتعش، ويقيل الله عثرته، ويزداد بصيرة ومعرفة وثباتاً على الحق، وهذا المعنى هو الجانب التطبيقي لوصية الإمام الارشادية ونتائجها السوية في هذا المجال، وما يصاحب ذلك من تلذذ الانتصار، وبلغ (الاتزان النفسي والانفعالي).

قال الإمام الباقر ﷺ في هذا الصدد:

«إن المؤمن معنی بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها^(١)، ويخالف هواها في حبّة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتعش هواها فينعش الله فينتعش ويقيل الله عثرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).»

(١) الأود: محرك العوج، وقد يأتي بمعنى القوة، انظر تحف العقول، ص ٢٠٦، وبحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

ثم يتدرج الفرد المؤمن بعد بلوغ المراحل الأولى من الاتزان الانفعالي والتوافق النفسي في تحقيق درجات من السمو الروحي، ومن حالات الرضا الداخلي بسلسلة من الفضائل وأداب السلوك، والقيم الأخلاقية التي أرشدت إليها الوصيَّةُ الباقرية في برنامجها العبادي الرشيد في الجزأين الثاني والثالث من هذه الوصيَّةُ الشريفة من قول الإمام الباقر، حيث قال ﷺ لصاحبِه جابر بن يزيد الجعفي في مقطع من وصيته المذكورة:

«يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للغفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقَّعْ مجازفة الهوى بدلاله العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثير القناعة».

واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخالص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإيجام القلب، وتخالص على إيجام القلب بقلة الخطأ، وتعرَّض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إيليس بالخوف الصادق، وإيَّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيَّن لله عز وجل بالصدق في الأفعال، وتحبَّب إليه بتعجิل الانتقال، وإيَّاك والتسويف فإنه بحر يغرق فيه الهملكى، وإيَّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيَّاك والتواني فيها لا لاعذر لك فيه، فإليه يلتجأ النادمون، واسترجع سالف الذنب بشدة التندم، وكثرة الاستغفار، وتعرَّض للرحمه وغفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم.



وتخلّص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، والتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العز بإمامات الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس بعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، ويدبر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحة الأبدان، وإياك والثقة بغير المؤمن، فإنَّ للشر ضراوة كضراوة الغذاء.

وأعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامه كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء مُعين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغرك الدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ولا نعمة كالعاافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف كبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالملاسة في الدرجات، ولا عدل كالإنصاف، ولا تعدي كالجحور، ولا جور كموافقة الهوى، ولا طاعة كأداء الفرائض، ولا خوف كالحزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد الخوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد مجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذلك الطمع، وإياك والتفرط عن إمكان الفرصة، فإنه ميدان يجري لأهله الخسران».

فكل مقطع من وصيته، وكل جملة منها يتطلب من المؤمن تأملاً ذهنياً دقيقاً لادراك القصد في معانيها المعرفية والأخلاقية والروحية، ثم يدرك بعد ذلك العلاقة بين مضامينها الإرشادية والحالة النفسية التي تحقق للشخصية المؤمنة حالة مقبولة من (الاتزان الانفعالي النفسي)، وما يتصل بها من حصول الفرد المؤمن على قدر معقول من «الصحة النفسية» بمقدار ما تبذل الذات المؤمنة من جهود إيمانية تلتزم فيه بوصايا أبي جعفر الإمام



محمد بن علي الباقر عليه السلام في بناء الشخصية العبادية، وصياغة مركباتها الإيمانية.

وهكذا يكون (الاتزان الانفعالي) في المحصلة النهائية العامة نتاجاً وثمرة تفاعل (الفرد المؤمن) مع سلسلة المفاهيم المعرفية والأخلاقية التي تضمنتها وصيَّة الإمام الباقر عليه السلام - كوثيقة إرشادية ربانية ومحكمة - وكان غرضها تحقيق (الأمن النفسي للذات والشخصية الإيمانية) لا في عالمها الدنيوي فحسب، بل في عالمها الآخر وهي الأكثر أهمية واعتباراً وزناً، وهو ما أسماه الإمام الباقر عليه وعلى آبائه وأبنائه السلام بـ «الحاصل الأعمال يوم الجزاء»، وذلك في مقطع من قوله الدقيق: «واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء»، يوم الفزع الأكبر الذي لا ينفع فيه شيء آخر غير العمل الخالص لله سبحانه ورحمة تعالي.

وما عرضناه من علاقة بين مفاهيم هذه الوصيَّة الكريمة، وتحقيق حالات طيبة من الاتزان الانفعالي، والنفسي مجرد نماذج محدودة، قد اخترناها للتوضيح ولفت الانتباه إلى ثروتها النفسية والأخلاقية في عمليات البناء التربوي للشخصية المؤمنة، فالوصيَّة الباقرية بأكملها تستبطن محطَّات وجوانب رائعة ومثيرة من هذه العلاقة، وتحتاج إلى بعض الشروحات المطلولة، ولكن اقتضت جوانب أخرى من دراستنا عن إمامنا الباقر عليه السلام الاكتفاء بنماذج من بنود هذه الوصيَّة في بيان العلاقة بين إرشاداتها القيمية والأخلاقية والمعرفية، وبين تحقيق وضع من الاتزان النفسي والانفعالي.

ونأمل أن نجد فسحة لتابعة تحليل مفردات هذه الوصيَّة الكريمة واستجلاء معانيها السيكولوجية والأخلاقية، والتعرف - بنظرة اجتهادية - على هذه المعاني المختزنة في التركيبة اللغوية لهذه الوصيَّة الأخلاقية الكريمة.

الحلقة السابعة

ال حاجات والقيم الإنسانية

في وصيَّة الإمام الباقر عليه السلام وتحقيق الاتزان الانفعالي والنفسي

مقدمة

العلاقة وثيقة بين (ال حاجات الإنسانية)، القيم الإنسانية، وهي في مجلتها العام قيم إيجابية تضم قيماً أخلاقية ودينية وإرشادية، ويقابلها في المحتوى اللفظي والمعرفي بالنص مفردات تشير لقيم أخرى سلبية، فالكائن الآدمي يسعى بفطرته، وبتركيبة الداخلية إلى إشباع مختلف الحاجات التي يستشعر الرغبة في إشباعها، ولدفع الخطر ودرء الألم عن نفسه، وما يتهدده من نقص في الإشباع يقوم الإنسان بالبحث عن صيغ من الإشباع، وبما يتلاءم مع ظروف التفتیش عنه وتوفيره، إلا أنَّ مسارات عملية الإشباع وطبيعتها لا تبقى معزولة عن تأثير عوامل ضبطها لضمان الوصول لإشباع سوي ومشروع، وذى منافع على الكائن الآدمي، وبفوائد على المجتمع الذي يعيش الفرد حياته فيه، وتأثيرها على أجواء العلاقات مع أفراده.

وبالتأكيد تتعدد عوامل وقوى ضبط عملية الإشباع لحاجات الإنسان (الكائن الآدمي)، ويمكن للمربي بتربية ذاتية أو الاستعانة بمرشد ومربي آخر، أن يسخر قوى الضبط (الذاتية أو الموضوعية) في تحقيق صيغ وصور من الإشباع المعقول للحاجات، وما يرتبط من الوصول إلى ما تسميه الوصية بـ (سلامة القلب)، وحالات الازان النفسي، والشعور بالسعادة، والارتياح النفسي، والرضا عن الذات، ورضا الله عن ذاته.

وما لا شك فيه أن بعض قوى ضبط (الإشباع) وعوامل توجيهه قد صرَّح بها نصوصية الارشادية وبوضوح تام، بينما استبطنت عبارات هذا النص وجمله بعضها الآخر، وتتآزر هذه القوى الصريحة والضمنية في تحقيق مستويات معقولة، ومقبولة من الإشباع



للحاجات النفسية، وما قد ينشأ عنده من الاتزان النفسي، ومن بروز مظاهر ومؤشرات الصحة النفسية أو ما تطلق عليه الوصية مصطلح (سلامة القلب) وانعكاسات ذلك إيجابياً على الشخصية العبادية وأدوارها في الدنيا، وضمان أمنها بعلمه الآخر، وهكذا وضعنا عنوان هذا الفصل لإبراز حالة العلاقات بين (ال حاجات النفسية) كمتغير تابع، وتأثير القيم بمضامينها الدينية والأخلاقية والإرشادية كمتغير مستقل.

وتتضمن دراسة العلاقة بين الحاجات والقيم مرورنا العام، وبصورة مبسطة، ومجملة على الحاجات الإنسانية التي ورد لها ذكر مباشر باسمها المعروف، أو بمصطلح مألف (كالزواج)، وهو تعبير إنساني عبر عن حاجة بيولوجية - اجتماعية، وتظهر فيها تعبيرات عن صور من الإشباع لحاجات نفسية واجتماعية أخرى، ولا يتوقع بالطبع صياغة نظرة تفصيلية وموسعة، وتفتقر لمعالجة تكاملية ومتراقبة، لهذا سنكتفي بما تيسر لنا فهمه من مفردات لفظية بنص الوصية تشير إلى هذه الحاجة أو إلى حاجة أخرى من الحاجات الشائعة في الدراسات السيكولوجية المعاصرة.

ثم بحث قسم آخر من هذا الفصل القيم الإنسانية وتأثيراتها الإرشادية بحسب فهمنا للمحتوى اللغطي والمعرفي في وصية الإمام الباقر عليه السلام جابر الجعفي، وبمجتمع الكتابة عنها في هذا الفصل يتبيّن لنا صورة عامة عن العلاقة بين الحاجات والقيم الإرشادية كما فهمناها في هذه الوصيّة الكريمة، ويكون من قسمين:

القسم الأول: دراسة مجملة (للحاجات الإنسانية).

والقسم الثاني: (دراسة القيم وتأثيراتها التربوية - الإرشادية).

أولاً: الحاجات الإنسانية :

وتشتمل على موضوعات فرعية متداخلة ومتصلة مع بعضها، كمفهوم الحاجة، وأهدافها في نص وصية الإمام محمد بن علي (ع)، وأنواعها، وخصائصها، ودورها في تحقيق الازان الانفعالي والنفسي للشخصية المؤمنة العبدية.

١. مفهوم الحاجة:

يتداول علماء النفس هذا المصطلح في كتبهم، ومصادرهم وأدبائهم، ويعني «شعور الكائن من حيوان أو إنسان بنقص معيّن لديه، فيشعر بالحاجة إلى إشباعه وتحقيق التوازن الجسدي أو النفسي، واستعادة المفقود أو تعويضه، ويرد في بعض أقوالهم أن الحاجة بمختلف أشكالها هي «إحساس الكائن، وخاصة الآدمي بفقدان التوازن الداخلي لديه نتيجة شعوره بفقدان شيء معيّن مثل إحساسه بالجوع، العطش، النوم، الراحة الجسدية، أو الحب، والرغبة في التقدير، الانجاز، الاجتماع الإنساني، الأفعال الروحانية، فيؤدي ذلك الشعور إلى إثارة دافعية الكائن، وتحفيزه إلى سلوك معيّن يؤدي إلى الإشباع» وهكذا فالحاجة كمصطلح سيكولوجي مرتبط بالدافع والانفعالات والحياة الشعورية، ومتى استطاعت الحاجة إثارة الدافع، تبعه صدور استجابة سلوكية كالبحث عن الطعام، الماء، يكون قد تحقق الإشباع فالرضا والارتياح للكائن الحي أو الآدمي.

٢. مفهوم عملية إشباع الحاجات:

عرّفنا مفهوم الإشباع في دراسة تربوية كتبناها سابقاً بأنه:

عملية «إعطاء الفرد كمية مناسبة من المعزز لسد النقص لديه، فإذا أحس بنقص في الماء أو الطعام أو الحب فإن الفرد لا يحصل على إشباع مناسب إلا بإعطائه كمية معقولة من المعزز، أي كمية مما يحتاجه أو قدر حاجته من الطعام أو الشراب أو الحنان المفقود



- أي تعويض المفقود - وبالتالي تتحقق له - للفرد أو الكائن الآدمي - حالة من الرضا والارتباط والشعور باللذة^(١).

٣. أهداف عملية إشباع الحاجات.

ال حاجات الإنسانية، هي موصولة بالد الواقع والانفعالات وجوانب الحياة الشعورية متنوعة، ومتعددة في أهدافها، ويمكن تحديدها في أهداف خاصة بحياة الفرد نفسه، ويقتصر بعضها على حدود عالمه الدنيوي، وما يتصل بالنوع الإنساني وحفظ الذات البشرية، ويتعداها بعضها الآخر ليكون متخصصاً بالأمور العبادية تتصل بأمن الذات على مصيرها في عالم الآخرة ونوجزها بما يأتي:

أ - بقاء النوع البشري كما في حاجةبني آدم وغيره للجنس والأمومة.

ب - بقاء وحفظ الذات كسائر الحاجات النفسية والاجتماعية.

ج - بناء نمط عبادي للشخصية.

د - تحقيق تكيف نفسي واجتماعي يرضي الفرد عن ذاته.

ه - طلب تحقيق رغبة الفرد في رضا الله سبحانه عن ذاته.

وفي تعمقية روحية بعد أداء صلاة الظهر، ودعاء قصير قد احتوى على سلسلة مطالب للعبد الضعيف من خالقه الكامل المعطي، جاء في مقطع متأخر من هذا الدعاء: «ولا حاجة لك فيها رضا، ولني فيها صلاح، إلا قضيتها يا أرحم الراحمين، أمين رب العالمين».

٤. الحاجات الإنسانية في نصوصية الباقرية.

وهي - كما تأملنا - في نصوصية الإمام الباقر تنقسم لتقسيمات عديدة بحسب

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ١١٩.

معايير التقسيم، لكننا عملنا بالتقسيم المأثور والغالب في الدراسات السيكولوجية، وهي (ال حاجات الفسيولوجية، وال حاجات النفسية والاجتماعية).

أولاً: الحاجات الفسيولوجية الملحة:

ولهذا النوع من الحاجات في أدبيات علماء النفس ومصادرهم وكتبهم ودراساتهم مسميات شائعة مثل وصفهم له بـ (ال حاجات الفطرية، الحاجات الأولية، الحاجات الفسيولوجية، الحاجات البدنية، وأخيراً عرفت لدليهم في بعض المصادر بال حاجات الحرمانية)، وتأتي في المرتبة الأولى من حيث أهميتها في إشباع الحاجات بالنسبة للكائن الحي، والأدمي على حد سواء، ومتاز بشدة الضغط، والإلحاح القوي اليومي على الفرد الأدمي، والكائن الحي، وقد انعقد إجماع عدد كبير من علماء النفس المحدثين والمعاصرين على الإقرار بهذه الأهمية البيولوجية والنفسية في حياة الكائن الحي.

ولم نجد في نص الوصية الكريمة كلاماً مفصلاً، وموسعاً، بل اكتفت بعض جملها وعباراتها بالإشارة المجملة لعدد محدود من الحاجات الفسيولوجية الأساسية الظاهرة في حياتنا الأدمية، وسنمر عليها بترتيبها الجاري في نص الوصية، ولا يدل ذلك على ترتيب أهميتها البيولوجية، وإنما قرأتنا النص فجاءت الإشارات لها متتابعة كما يأتي:

- الحاجة إلى الجنس.

- الحاجة إلى الأمة والبنوة، وما يتصل بها من حاجات نفسية.

- الحاجة إلى الغذاء.

- الحاجة إلى راحة الجسد (جسم الأدمي).

- الحاجة إلى صحة الأبدان.



أ- حاجة الكائن الآدمي للجنس.

عندما ذكر الإمام الباقر عليه السلام في قوله لخابر الجعفي جملة: «إِنْ خَطَبَتْ لِمُتُزَوِّجَ» فهمنا أنها تعني في طياتها أموراً تتصل بالحياة الزوجية للناس بوجه عام، وفي صدارة هذه الأمور (زواج المؤمن من امرأة أو اقترانها برجل) في علاقات شرعية تكون أسرة وعائلة، وتتضمن هذه العملية سعيًّا منها -من الجنسين- لإشباع حاجتها، ومن اشباعات متصلة بالعلاقات الزوجية كإشباع حاجة الرجل إلى «البنوة»، وإشباع حاجة المرأة إلى الأمة، ثم ما يترتب عندهما من رغبة في إشباع حاجات نفسية واجتماعية بُنيَت على الحياة الزوجية وعلاقاتها.

وبالإشارة إلى الزواج يعني قدّمت الإشارة إلى عدد من الحاجات المرتبطة ببيولوجياً ونفسياً، وبخاصة الحاجتين البيولوجيتين الأساسيةن وهما:

١. اشباع حاجة الكائن الآدمي للجنس، واتصال الرجل والمرأة بعلاقات جنسية مشروعة بمعايير المشرع الإسلامي، وضوابط المجتمع وأنظمته القانونية والاجتماعية، وبتحقيق هذا الإشباع يتم تحقيق التوازن النفسي في حياة الزوجين، وشعورهما بالرضا والارتياح النفسي.

٢. وإشباع في الوقت نفسه حاجة حيوية مزدوجة هما (البنوة والأمة) للزوجين، فالإشباع هنا هو الآخر مزدوج، فالرجل يشعر فيه بإشباع رغبته القوية في البنوة، وطلب الولد من الجنسين (ذكور وإناث)، وأنه يحفظ بهذا التناسل نسبة وجوده وامتداده الاجتماعي والعرقي، أمّا الأكثر وضوحاً وبروزاً فيتمثل في (سلوك الأمة) التي تجد فيه المرأة حاجتها المنطقية من الإشباع الفطري، والفاعل بقوّة في داخل تركيبتها الأدبية البيولوجية، فيترتب عليه فيض متدافق في عواطفها، وهي تمارس

دورها الوظيفي في الأمة، وهكذا.. فالإشارة الأولى إلى الزواج، وما ارتبط بذلك من إشباع بعض الدوافع الفطرية الأصلية في آدميتنا كحاجة الإنسان إلى دوافع الجنس والأمة، ومارسة وظائف فسلجية وبiology حيوية كالإرضاع وغيرها مما يتصل بالبدن ووظائف البدن وأعضاء الجسم هو مبني على حاجة فطرية وأولية ذات طابع اجتماعي، وخصائص سيكولوجية.

بـ- الحاجات البدنية.

وتتمثل في إشارة الوصية المباركة لعدد من الحاجات التي تتصل ببدن الفرد والأدمي، ففي منتصف الجزء الثالث من نصها قال الإمام الباقر (ع): «واطلب راحة البدن بآجام القلب، وتخلاص إلى آجام القلب بقلة الخطأ».

وتفيد العبارة السابقة بأن (راحة البدن) هدف دنيوي قريب، ويتحقق بترك الجسم في راحة الحصول على لذة (الراحة)، ويطلب فهم هذه الجملة إثارة سؤالين قصيرين متداخلين:

«كيف تتحقق راحة البدن؟».

وما علاقة حالة (آجام القلب) بتحقق راحة البدن؟

ونعتقد بأن هذه الراحة المأموله في نص الوصية للبدن لا تتحقق، وهذا البدن تحت قبضة أمراض عضال تؤثر على سلامته، وتترك بصماتها في نفسه، وهذا الجسم لا يشعر بسلامة وظائفه الفسلجية وعمله بانسجام وسعادة وارتياح نفسي، ونرى كذلك أن توفير راحة للبدن مربوط بتحقيق حالات من الإشباع السوي لبعض الحاجات البدنية المترادفة مع حاجات نفسية في تكوين الإنسان، ونذكر - على سبيل المثال - بعضًا منها:



١. الحاجة إلى الدعة وراحة الجسم بالنوم:

فهذه الحاجة للنوم فعل طبيعي وضروري لراحة البدن والنفس واستقرارهما، فعن طريق النوم يتم إشباع حاجات بدنية ضرورية كسلامة البدن، ويأخذ قسطاً مناسباً من الراحة مفيدة في توفير راحة للبدن والنفس معاً، فينعكس ذلك على ارتياح الجسم وشعوره بالراحة والرضا النفسي، ولكن نص الوصيّة لم يأتِ بذكر لفظة (النوم)، بيد أن راحة البدن لا تتم إلا بأنهاط من الاشباعات كراحة جسد الإنسان بالنوم أو بالاسترخاء، وبالتالي فراحة (البدن) تضمنت هذه الاشباعات، ولا يمكن فهم تحقق راحة النفس والبدن بدونها.

٢. الحاجة إلى سلامـة الجسم الإنسـاني وصـحة الأـبدان:

شـمة ألفاظ توحـي لنا بطلب (السلامـة) لمـكونات أساسـية من كـيان الذـات الإنسـانية، كـطلب (السلامـة) بـوجه عامـ، ثم ذـكرت الوـصيـة مـصطلـحـات كـ(سلامـة القـلب)، وـ(سلامـة العـقل) وـ(صـحة الأـبدان) وـ(راحـة الـبدن)، وقد نـختلف في تـفسـير هـذه المصـطلـحـات التي تـطلق عـلـى مـسمـى واحدـ، ولـكـن قد تـخدم ما قـصدـناه من اهـتمـام الوـصـيـة بـسلامـة عـضـو من الأـعـضـاء المـهمـة لـإـلـيـسـانـ، فـمـثـلاً قد يكون القـصد من مـصـطلـح (سلامـة القـلب) الـوارـد في بـداـية الجزـء الرابعـ (خلـو فـؤـاد إـلـيـسـانـ من المشـكلـات النـفـسـيـة)، وـغـيرـها، وـربـما قـصدـت الوـصـيـة قـلـب إـلـيـسـانـ العـضـو الرـئـيـسي في صـدر إـلـيـسـانـ، وـهو كـما يـعلـم القـارـئ الكـريمـ (مضـخـة الدـم)، وـإـذا دـفـعـنا الكلـام عـلـى سـلامـة القـلب الذي يـوزـع الدـم في جـسـم إـلـيـسـانـ فـهـذا يـعـني إـشـارـة من نـصـ الوـصـيـة إـلـى سـلامـة عـضـو في الجـسـد، وـليـس إـلـى (الـقـلب).. كـنـافـذـة الـوعـي وـالـعـرـفـة وـالـعـواطفـ، الـذـي يتـلقـى الإـشـراقـ.

أـمـا مـا ذـكـرـته الوـصـيـة مـن مـصـطلـح (سلامـة العـقل) فـربـما عـنـت وـظـائـفـ العـقـل مـن

قدرات كالتفكير والعمليات الذهنية، وهذا محتمل جداً، بيد أنَّ هذه السلامة مربوطة بسلامة (المخ) الذي تدار فيه عمليات العقل من تفكير وتغيير وتذكر واستنتاج وملاحظة، وفي كلِّيَّهما قصدت الوصية عضواً أساسياً في جسم الإنسان.

وتتوسَّع الوصية في مقاربتها لبعض الحاجات البدنية بالإشارة إلى كلِّ البدن البشري بما فيه من أعضاء، وتذكرة بلفظة (صحَّة الأبدان) في نهاية الجزء الثالث من نصها، حيث قال الإمام الباقر (عليه السلام): «وبادر بانتهاز البغية -أي اغتنام المطالب- عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالآيَّام الخالية مع صحَّة الأبدان».

ولا تحتاج كلمة «صحَّة الأبدان» لتفسير معَّق، فهي واضحة لغير المختصين، وإنْ كان فهمها بصورة عميقهً أمراً مهماً عند ذوي الاختصاص كالأطباء، والحكماء، وتغطي (صحَّة الأبدان) بالتأكيد سلامَة القلب، وسلامَة العقل، وسلامَة كلِّ عضو في أجسامنا، وهي التي تساعد على راحة النفس واجمَام القلب، وإنْ ولادة الفرد سليماً، وربما يكون مستحِيلاً في بعض حالات الولادة، ولكن يمكن أن يترتب على ظهور بعض أمراضه شفاؤها، وعودة وظائف الجسم إلى عملها بلا متاعب، وتعني خلو البدن من أمراض صعبة ومستديمة تصيبه، وتنحل قواه، وقد يكون هذا مستحِيلاً، ولكن يؤمل على الأقل أن لا يعرقل بعض هذه الأمراض عمل أعضائه بعد الإصابة.

إنَّ لـ(صحَّة الأبدان)، وهي من مسببات تحقق اجْمَام القلب، منح الأفراد قدرة إيجابية على العمل وأداء مسؤولياته بنشاط، وتحيي لهم في فترة وقائية، وفي فترات توبتهم على استئناف حياتهم، فصحَّة أبدانهم تُكَبِّنُهم من الصمود، والثقة، والعمل على مقاومة بعض شهواتهم الضاغطة، وتحول دون الانجداب نحو سالف ذنوبهم للخلاص من أو ضار معاصيهِم وانحرافاتهم، ويترك هذا أثره الإيجابي على شخصياتهم، وهذا بخلاف (مرضى الأبدان) فإنَّهم معرضون للفشل والعجز أكثر من الأصحاء عن أداء



بعض مسؤولياتهم الشخصية والدينية في تعديل سلوكياتهم ما لم تكن إرادتهم حديدية.

٣. الحاجة إلى إشباع حاجات نفسية.

وهي حاجات ملزمة لراحة الجسم، وانعكاس آثارها على الماء، ومن خلال ما أسمته الوصية بـ(اجمam القلب)، ويعني راحة الفؤاد والقلب، فيصيب البدن والجسم شيء من الراحة والسعادة وحالة الرضا والأمن.

إنَّ حصول الفرد (مؤمناً وغير مؤمن في آن واحد) على قدر طبيعي ومناسب من الإحساس بالأمن والراحة، والتواافق يأتي من توافر حالات من (الإشباع) لمجموعة من الحاجات البدنية والنفسيّة، وهي بدورها تترك تحسناً على صحة الفرد البدنية والجسمية والعقلية، وتحظى شخصية الفرد بـ(راحة نفس، وراحة بدن، واجمam قلب) معاً.

ج - الحاجة إلى الغذاء.

ذكرت لفظة (الغذاء) في آخر مفردة أو كلمة من الجزء الثالث عندما جاء في وصية الإمام محمد بن علي بن الحسين الباقر عليهم الصلاة والسلام: «إيَّاكُ وَالثَّقَةُ بِغَيْرِ الْمَأْمُونِ، فَإِنَّ لِلشَّرِّ ضِرَاوةَ كَضْرَاوَةِ الْغَذَاءِ».

والغذاء المعنى هنا في نص الوصيَّة ليس بالتأكيد وجبة محددة من طعام وشراب في وقت معينٍ كوقت الظهيرة مثلاً، فيتناول الفرد بعد جوع وعطش وعناء غذاءه، وإنما يعني بوجه عام جمل الأطعمة والأشربة، ما يتناوله الآدمي على نحو يومي، ويتجذر عليه الجسم الإنساني على امتداد عمره، وفي أوقات متفرقة من حياته، ووفق نظام تعارف عليه الناس في هذا المجتمع أو ذاك من أوقات تناول الوجبات من طعام (صباحاً وظهراً وليلًا).

هذا ما ذهبت إليه بعض معاجم اللغة العربية وقواميسها.

فالغذاء وجعه (أغذية) وهو ما «يتغدى به من الطعام والشراب^(١)»، وهو ما يكون عليه نماء الجسم وقوامه من الطعام والشراب، ويشتمل على العناصر الضرورية لبنيّة جسم الإنسان^(٢)، ويدخل فيه الألبان والسوائل، وأنواع الأطعمة المشروعة، والصحيّة.

لم تذكر الوصية شيئاً في وصف الغذاء سوى تشبيه (ضراوة الشر) في حياة الإنسان بشدة ضراوة الغذاء لديه أو لدى كائن حي إذا اعتاده، وقد ذكر هذا التشبيه لاقترانها بصفة ما هي (الضراوة)، ولها دلالتها السيكولوجية كما سيأتي بيانه، فالإمام الباقر (عليه السلام) يوصي جابرًا بالانتباه لضراوة الشر وشدته إنْ تحولَ إلى عادة سلوكية لدى الإنسان، وينبهه بأن قوة ضراوته مماثلة لضراوة (الغذاء)، وإلحاحه على نفوسنا كعادات سلوكية وبiology يوميّة.

ويستبطن التشبيه بين (ضراوة الشر) و (ضراوة الغذاء) أي تشابه قوة إلحاحهما على الإنسان عندما يتحولان إلى عادات سلوكية ضاغطة على النفس، أمران اثنان هما:

١. إن الشر كما تقدم يتحول إلى أمر يعتاده الإنسان، وتتألفه النفس متى اكتسب بعض خصائصه، وصفاته، فيكون الشر في حياة الأفراد عادات سلوكية مستحكمة تمسك بتلابيب الأفراد وتبسط هيمنتهم على نفسياتهم، وتقودهم بهذه القبضة إلى مهالك.

٢. أن الشر كالغذاء تماماً بخاصية واحدة يشابهه فيها، فكلاهما يكتسب قوة الإلحاح

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، ص ١٩٧.

(٢) مسعود، جران، رائد الطالب، باب حرف الغين، ص ٦٦٧.



الشديد والضغط على الفرد حتى يستجيب للشر، كما يستجيب لـإلحاح الغذاء المستمر، وبعد الاستجابة لكتلتها يحدث بالغذاء توازن حشوي فتهداً النفس، ويرتاح الجسم، ويحدث للنفس ميل داخلي لفعل الشر، ولا ترتاح نفسية الإنسان إلّا بالاستجابة المعتادة لنوازعه الشريرة، وهي كما ذكرنا (شديدة الإلحاح) لا تترك صاحبها حتى يستجيب إليها، والإذعان لضغوطاتها.

ومجمل القول أن الوصية لم تدخل في تفاصيل عن الغذاء كحاجة أساسية في حياة الكائن الحي، وإنما ذكرت حينما شبهت قوة التعود على فعل الشر لدى الإنسان بقدرة الإلحاح، واستحكامها، بحال حاجتنا للغذاء، وهو حاجة أساسية شديدة الإلحاح، ولها ضغط على أنفسنا وأجسامنا حتى تتمكن من إشباعها بدون قيود، أو بدون مراعاة ضوابط الإشباع من الحلال والحرام.

بعد هذا التفسير المبسط نعتقد أن نص الوصية البارقية أشار إلى عدد من الحاجات الفسيولوجية والبيولوجية المرتبطة بالجسم البشري، متداخلة مع بعض الحاجات النفسية - الاجتماعية في تحقيق حالات من الإشباع المؤثر على شخصية الكائن الآدمي بالسلب والإيجاب معاً، ويمكن استعادة ذكر أسمائها، وهي:

١. الحاجة إلى الجنس، فهي مدخل الحياة الزوجية وبداية تكوين العائلة.

٢. الحاجة إلى إشباع دافع (الأمومة) لدى المرأة، ودافعية الرجل نحو (البنوة).

٣. الحاجة إلى النوم وراحة البدن كإحدى أهم الحاجات البدنية.

٤. الحاجة إلى صحة الأبدان وسلامتها.

٥. الحاجة إلى إشباع رغباتنا من الطعام والشراب.

٦. بعض الحاجات النفسية - الاجتماعية المتولدة عن إشباع الحاجات الفيسيولوجية والبيولوجية.

ثانياً: الحاجات النفسية - الاجتماعية :

وهي حاجات يختلط فيها الجانب النفسي بالاجتماعي، وبهاجات يدرجها علماء النفس المعاصرون ضمن جوانب من شخصية الكائن الآدمي، ونعتبرها حاجات متشابكة في المحتوى اللغطي والمعرفي للنص، وتوسّس جميعها لخريطة ذهنية نرسمها لتجتمع هذه الحاجات في نسق نقتربه لتصنيفها.

وباستقراء المفردات اللغوية لنص الوصية، نكون قد وضعنا أيدينا على عدد لا يأس به ومعقول من هذه الحاجات، وتبدو في صدارة النص، ومن قائمة الحاجات التي أشار إليها: (الحاجة إلى الاجتماع الإنساني مع افراد جنسه والميل إليهم، حاجة الأفراد للمشورة، حاجتهم إلى كف سلوكهم العدواني بطريقة مماثلة لغيرهم، الحاجة إلى الازان الانفعالي والنفسي، الحاجة للفكر، والتأمل فيما قيل في الأفراد، الحاجة للإثابة والعقوبة، الحاجة إلى الارتباط بقائد أو ولی دینی أو زعيم سياسي، الحاجة إلى العلم والمعرفة، الحاجة إلى التوبة، والعفو الإلهي، والبصيرة والمعرفة، الحاجة إلى الرحمة والهدایة الدينية، الحاجة إلى الرزق، والشكرا، الحاجة إلى طاعة الله، وال الحاجة إلى الرضا عن الذات (النفس)، الحاجة إلى خالص العمل العبادي.

ومنها كذلك الحاجة إلى شدة التيقظ الذهني، الحاجة إلى التحرر من الغفلة، الحاجة إلى صدق الخوف، الحاجة إلى غلبة الهوى، الحاجة إلى قيم إرشادية كالقناعة والزهد والصدق وغيرها، الحاجة إلى معرفة النفس، الحاجة إلى راحتها، واجمام القلب، الحاجة



إلى العبادة بأساليب الذكر في الخلوات، وكثرة الاستغفار، تزيين النفس بالصدق في الأفعال وحالص الأدعية والمناجاة في الظلم، الحاجة إلى الدافعية الوجدانية كاجمام القلب -ترقيقه- دوام الحزن، شدة الندم، التوسل، الحاجة إلى حسن المراجعة، الحاجة إلى التوفيق الإلهي، الحاجة إلى المنافسة في الدرجات الدينية العليا، الحاجة إلى التحرر من الذنوب، الحاجة إلى السيطرة على انفعالات النفي مثل رد الغضب، عز اليأس، وبعد الهمة، والثبات الانفعالي في مواقف المدح والثناء والذم والجزع، وغير ذلك.

خصائص الحاجات السابقة.

نذكر منها:

- كمون القابلية الداخلية لل حاجات.
- تشابك الجانب النفسي - الاجتماعي.
- قابلية الحاجات للتصنيف بين كبرى (رئيسية) و حاجات (جزئية أو فرعية).
- هدفيتها، وطابعها العبادي.

الخاصية الأولى: الكمون الداخلي لعنصري الخير والشر:

يولد كل كائن آدمي بقابلية واستعداد داخلي لفعل الخير والشر معاً، وبقابليته الداخلية للحاجة والتزوع الذاتي إليها، وبالاستعانة بغيره نفسياً واجتماعياً، فالله سبحانه وتعالى زوّد كل واحد مناً باستعداد داخلي للبحث عمّا يحتاج إليه من حاجاته الرئيسية أو الفرعية سواء كانت إيجابية أم سلبية، فمثلاً يولد الآدمي باستعداد داخلي

طاعة ربه، وعبادته وباستعداد للقيام بفعاله وباستعداد لحياة اجتماعية وثبات عاطفي للفعل بحرية، والاجتماع الإنساني، أو للثبات العاطفي أو باستعدادات مضادة لهذه الحاجات كالانحراف عن عبادة الله، وميله للعزلة الاجتماعية، ورغبة في الانتقام من الآخرين، وهكذا يوجز سلوك الكائن الأدمي في فعله الخير والشر بحاجته لهذا للنجد الآخر المقابل.

الخاصية الثانية: الطابع العبادي الهدف:

ثمة أهداف دنيوية، وقصيرة كسعى النفس لإشباع عاجل، وقصير الذي يوفر للفرد فرصة تحقيق إشباع دنيوي كالتناسل، والبقاء وحفظ الذات أو يساعده على التكيف النفسي والاجتماعي كما في موقف (كف السلوك العدواني) وعدم الاستجابة أو رد الفعل بمثله، وهو موقف عبر عن حالة طبيعية من الازان الانفعالي أو العاطفي، وتصرف حسن يسمى بأخلاق الفرد، ويوسمها بالنزعة العبادية في سلوك المسلم، ييد أن كل الحاجات حتى الدنيوية هي حاجات تحقق للفرد بعض الإشباع السوي في طاعة الله وعبادته وطلب رضاه، وتلبية اشباعات ذاتية و موضوعية.

الخاصية الثالثة: (تدخل الحاجات وتشابكها مع نفسها بطبع نفسي واجتماعي):

بالرغم من قابلية حاجاتنا البشرية للتصنيف العام بين نفسية واجتماعية وغيرها، فإنَّ التشابك بينها أمر واقعي، فالحاجة على سبيل المثال للتشاور وتبادل الآراء هي حاجة يتداخل فيها الطابع الوجداني ببروز أنواع من الانفعالات والدوارع، والأفكار، وأشكال من التفاعلات الاجتماعية، وغير ذلك، وينطبق الحال على حاجتنا للتوبة، إذ يتشارك في داخل الفرد وهو يفرز إلى التوبة إلى الله نهر من الانفعالات والمشاعر، والرؤى، والأفكار، وعوامل نفسية واجتماعية وروحية وأخلاقية، ومعيشية، وغير

ذلك.

الخاصية الرابعة: تصنيف الحاجات على كبرى وفرعية:

وهو تصنيف يسير بها من الدائرة الأوسع نحو دوائر أضيق، ونقصد من ذلك أن الحاجات التي ذكرناها يمكن تقسيمها إلى حالات كبرى ورئيسية، ثم تجزئتها إلى حاجات فرعية أصغر تدرج في ضميتها، وتظل تتسمى إليها، ونجد مثال ذلك حاجة كبرى كالحاجة إلى عبادة الله وطاعته، نجد أنه تدرج تحتها حاجات أضيق، وفي دوائرها مثل التوبة، العفو، أداء الفرائض، الخوف الصادق من الله، عظيم الشكر لله، خالص الأدعية والمناجاة في الظلم، وغيرها من الحاجات الروحية الأصغر.

ويمكنا الآن، وبتصور اجتهادي شخصي، ومقترح أن نضع قائمة تصنيف للحجاجات الكبرى في نص الوصية، وإدراج حاجات صغرى تدرج تحت سقفها، ومتصلة بالحجاجات الرئيسية، أو تدخل في نطاقها.

١. الحاجات الروحية:

هي حاجات عبادية، وتم بالطاعات وأداء الأعمال الصالحة وعبادة الله عز وجل، ومنها الحاجة إلى استلال كثرة الطاعة، والصدق في الأعمال الصالحة، التوبة، كثرة الذكر في الخلوات، وكثرة الاستغفار، وطلب العفو الإلهي، والتعرض المستمر لرحمة الله، واستبقاء خالص الأعمال ليوم الجزاء، وخالص الأدعية والمناجاة في الظلم، والتسلل، وتقديم عظيم الشكر لله عز وجل، والحاجة إلى أداء الفرائض اليومية، وغيرها كالزكوات والأحسان وغيرها، والتزود بوجه عام من الدنيا بقصر الأمان، وتجنب التسويف، والتزيين الخفي بحاضر الحياة وحطامها الظاهري.



٢. الحاجات الاجتماعية:

وتشمل الحاجة إلى الاجتماع الإنساني، والود الاجتماعي، والألفة مع الغير في داخل الحياة الأسرية، وفي خارجها، والتفاعل الاجتماعي مع الناس في دوائر اجتماعية متعددة سواء كانت في البيت، أم في مؤسسة العمل، أم في المسجد، أم في أماكن عامة أخرى.

٣. الحاجات الوجدانية:

وهي ما يتصل بالانفعالات والدعاوى والشعور والأحساس، وغيرها، ومنها كما وجدنا إشارات إليه في نص الوصية (الحاجة إلى وصيـد الإحباط النفسي، ومقاومة عدوـان الآخر واستفزـزاته المـرضـية باستـجابـات السـمو الأخـلاـقي الرـبـاني، وبـكـفـ السـلـوكـ المـحرـمـ كالـانتـقامـ، والتـلـذـذـ فيـ أـذـىـ النـاسـ، والـثـباتـ العـاطـفـيـ كـمـاـ فيـ المـدـحـ وـالـذـمـ وـالـجـزـعـ، وـرـدـ الغـضـبـ وـالـسـيـطـرـةـ عـلـىـ النـفـسـ أـثـنـاءـهـ، وـالـحـاجـةـ إـلـىـ شـدـةـ النـدـمـ وـدـوـامـ الـحـزـنـ وـاجـامـ الـقـلـبـ، وـرـاحـةـ النـفـسـ، وـرـفـعـ ذـلـ الـطـمـعـ مـنـ النـفـسـ بـعـزـ الـيـأسـ، وـقـصـرـ الـأـمـلـ بـدـلـاـً مـنـ طـوـلـ الـأـمـلـ، وـالـزـهـدـ، وـاسـتـصـغـارـ الدـنـيـاـ، وـعـدـمـ الـاسـتـهـانـةـ بـالـذـنـبـ، وـلـذـةـ تـحـقـيقـ غـلـبةـ الـهـوـىـ، وـالـخـوـفـ الصـادـقـ مـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ، وـالـسـيـطـرـةـ عـلـىـ عـجـبـ النـفـسـ، وـاسـتـجـلـابـ عـزـ الـبـأـسـ، وـطـلـبـ التـوـفـيقـ الإـلهـيـ، وـغـنـىـ النـفـسـ.

٤. الحاجات العقلية:

ويـنـدرجـ تـحـتـ مـظـلـتـهـ حاجـاتـ أـصـغـرـ، وـفـرـعـيـةـ أوـ تـنـتمـيـ إـلـيـهاـ مـثـلـ (ـدـلـالـةـ الـعـقـلـ)، أيـ اـتـخـاذـ الـعـقـلـ دـلـيـلـاـًـ فيـ تـوـجـيهـ نـشـاطـ الـمـؤـمـنـ وـضـبـطـ انـفـعـالـاتـهـ، وـاسـتـرـشـادـ الـعـلـمـ، وـالـعـرـفـ، وـشـدـةـ الـتـيقـظـ، وـالـبـصـيرـةـ، وـصـحـةـ التـفـويـضـ، وـمـعـرـفـةـ النـفـسـ، وـتـقـلـيلـ الـأـخـطـاءـ، وـحـسـنـ الـمـرـاجـعـةـ، وـالـتـفـكـرـ فـيـ مـاـ قـيلـ فـيـ الـفـرـدـ مـنـ أـفـكـارـ لـهـ أـوـ عـلـيـهـ.

٥. الحاجات إلى القيم الإنسانية:

وهي متداخلة ومتتشابكة، وعلى أشكال ذكر منها:

أ - قيم أخلاقية: وتشمل القناعة، والزهد، والصدق في الأعمال، وقصر الأمل، والخوف الصادق من الله، والتسلل إليه، وعظيم شكره سبحانه، وعز اليأس، ودفع ذل الطمع بعزم اليأس، وغنى النفس، وعدل الإنفاق، والخوف من زوال النعم، وبعد المهمة، واستكثار قليل الرزق.

ب - قيم إدراكية وعقلية، وتدرج تحتها كل القيم الإدراكية الفرعية التي مرنا بذكرها في بند الحاجات العقلية السابقة.

ج - قيم الثبات العاطفي مثل رد الغضب، والسيطرة على النفس في المدح والجزاء والذم، والندم، وضبط الصراع مع شهوات النفس، والتحبيب إلى الله بالأعمال الصالحة، وغير ذلك.

د - قيم معيشية ومنها استكثار قليل الرزق، غنى النفس، الخوف من زوال نعم الله، استجلاب زيادة النعم بعظيم الشكر، اتقاء الحرص بالقناعة، إماتة الطمع بعزم اليأس.

٦. الحاجات الأمنية:

قدمت وصية الإمام محمد بن علي عليه السلام بعض الأمثلة في نصها تشير إلى مواقف أمنية واضحة في سلوك الذات المؤمنة وتفكيرها، ونختار منها ما يوضح نماذج تعبيرية عن عنايتها بـمواقف تعبّر عنها يحتاجه الأفراد من إشباع رغبتهم في طلب الأمان، وما يبعث فيهم الطمأنينة والسكينة، ويدفع عنهم شر الدنيا والآخرة، كما أن الإمام عليه السلام طلب من الجعفي التفكير فيما قيل فيه لغرض استخدام هذا الموقف السلوكي من أجل فحص واقع حاله، ومعرفة نتيجة عمله، فإن كانت نهايته سقوطاً من عين الله

وأعين الناس، فهذا خطر كبير يهدد أمن الذات في الدنيا والآخرة، وإن كان كلام الناس (بخلاف ما قيل فيه) فالنتيجة مطمئنة، بحيث ينال الفرد المؤمن ثواب الله سبحانه، وهي نتيجة مرتبطة برضاه تعالى، ويعرف الفرد في الوقت نفسه مصيره، وأنه قد حقق لديه ثواب الله طمأنينة، وشعوراً بالأمن.

وتعبر الوصية في بعض كلماتها عن مظهر آخر لدى الإنسان برغبته في تحقيق الأمان الدنيوي والأخرمي، وحاجته لإشباع هذه الحاجة، والاطمئنان على نفسه بطريق طبيعي و Sovi، فإذا تحسس أن نفسه صرعته في جهاد هواه فرع بالتوبة إلى الله، ومخافة من جزائه يوم القيمة، فهذا الفرع مصدره قلق الذات وتحسسها الخطر الذي يهدد مستقبلها في غير عالم الدنيا، ففرع للتوبة من الله بحثاً عن ملاذ آمن يوم لا ينفع مال ولا بنون، وازدادت نفسه بصيرة ومعرفة وقرباً منه عز وجل، واستعاد توازنه النفسي المفقود.

ويتحرك نص الوصية في ألفاظ جميل ومصطلحات لتنبيه الإنسان وإثارة وعيه وشعوره كي يتحقق هذا الإشباع بالغلبة على الهوى، وتسخير قدراته الذاتية في التعبير عن خوفه من تأثيرات أمراضه السلوكية، وما يتمخض عن تجاربه الجهادية بنحو يحقق له في نهاية المطاف شعوراً بالأمن، ودفع الرجاء الكاذب بخوف صادق يقرر مصيره بالخير.

ونلحظ أن الحاجات الأمنية توزعت بين نوعين من طلب الحماية:

١. حماية وقائية كما في تنبيه الذات من خطر السقوط من عين الله وأعين الناس، وإيشار القناعة اتقاء الحرص، وغلبة الهوى باسترشاد العلم ودلالة العقل، وتحريك القيم الأخلاقية والإدراكية لمواجهة كل ما يهدد أمن الذات المؤمنة.

٢. وحماية أمنية علاجية كما في مواقف التوبة، وتحرير النفس من غفلتها بشدة التيقظ، واسترجاع سالف الذنوب بشدة الذنوب، وحسن المراجعة وكثرة الاستغفار



وكثرة الذكر في الخلوات، وطلب رحمة الله وغفوه.

أساليب ضبط الإشباع:

ونقصد ضبط عملية إشباع الحاجات بطابعها السوي، أو بطابعها العصبي الشهوي والمحرم، فإنها لا يتركان بلا تدخل من الفرد المؤمن كي يتحقق الغرض، فمفردات نصوصية الإمام الباقر عليه السلام للجعفي، وللمؤمنين تنطوي على بعض الأساليب القيمية والإدراكية والروحية التي تمكن الفرد من تحقيق سيطرة مكنته على دوافعه، ورغباته في الإشباع سواء كان نمطه حراماً أم حلالاً، سوياً، ونذكر من هذه الأساليب ما يأتي:

أ- إشباع مفتوح:

ويكون مطلوباً في مجال الخير الحصول ما أمكن على جرعات أكبر من الإشباع الزائد، والتسامي الذي لا سقف له ما أمكننا كما رغباتنا في طاعاتنا لله عز وجل، وكل أنشطة العبادات وطلب المداية الروحية والدينية والتزود بقيم المشرع الإسلامي، وقد ملأت الوصية سطورها بالدعوة إلى إشباع مفتوح لطاعة الله سبحانه، فأغلب سطورها تنطوي على ألفاظ اتجاه هذا الإشباع، ومن ذلك قول الإمام الباقر عليه السلام جابر: «يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة إزراءً على النفس، وتعرضًا للعفو...».

ب- كف الاستجابة المحرمة:

مثل كف السلوك عن (الإشباع المحرم) كما في منع الإمام الباقر جابرًا في رد الفعل أو الاستجابة ضد الآخرين برغبة في (الانتقام) أو الرد بالمثل، بما ينطوي عليه من إساءة وإهانة للآخر، وتسيفيه بنحو يلغى السمو الأخلاقي عند المؤمن.

ج - الإشباع بقدر الحاجة:

و عبرت عنه الوصية في بعض ألفاظها بمصطلحات أخلاقية ضابطة للسلوك، وبنحو يمارس فيه الفرد إشباعه لحاجته، ولكن بقدر ما يحتاج منها كيانه، جسده، نفسه، ومن هذه الألفاظ (القناعة، إيثار القناعة، الزهد، استكثار قليل الرزق، عظيم الشكر)، فإشباع الحاجات، ولو بعضها - بهذه الصيغة - يخفف من شدة الإحباطات النفسية، ويزيد من قدرات الأفراد على الاكتفاء بإشباع معقول حتى لو كان في نظر الغير قليلاً.

د- تأجيل الإشباع:

ويكون في بعض الاشباعات الوارد ذكرها في الوصية كتأجيل إشباع الفرد من حاجته للجنس بتأجيل فترة زواجه، وتأجيل شهوات ترتبط به لفترة مؤقتة تتغير فيها الأمور.

ه - تعديل في الإشباع:

وهو إشباع معدل حالة مرضية أو تقدير خاطئ أو انحراف نفسي أو أخلاقي، ويراد بهذا التعديل إعادة الذات لنظرتها في حالة معينة كتعديل نظرتها في الإعجاب المرضي بأنفسنا، وذواتنا، وهو مثال للغرور، إلى نظرة احترام إيجابية للقدرات، وشكر الله عليها.

و- التنازل عن بعض الإشباع لآخرين:

مثل إيثار القناعة لدفع الضرر عن الناس، واحترامهم كرد غضبهم بهدوء، فالقناعة قيمة أخلاقية تجعل المؤمن يقبل بالقليل عن رضا، ويتنازل عما في يديه لهم، ولا ينزع عهم إتقاء الحرص ودفعاً لخاطره على نفسه.



ز - التغيير الجذري:

لا يناسب التأجيل، بل يحتاج إلى تغيير عاجل، ومتابعته بتعديل دائمًا - حال الذات وموقفها، فلا بد في بعض الأحوال من التغيير الجذري والصارم، ويتوقف الإشباع المحرم ويكتفي بما هو مشروع، ومسموح به في فقه المشرع التربوي الإسلامي وأحكامه الشرعية، ومن ذلك وقف كل الاشباعات المحرمة التي تأتي من استهانة الفرد بالذنب، وبالحالة المخزية التي كان عليها، ورضانا بحالة جديدة تقرّب هذه الاستهانة للأبد، وتهيئه إلى عودة عبادية الله سبحانه وتعالى وطاعته.

القوى الضابطة للإشباع في مفردات الوصيّة :

بعد قراءاتنا المتكررة لمفردات النص الإرشادي لهذه الوصيّة الكريمة بدا لنا تأثير مجموعة من القوى المتعددة التي تستقر في داخل النفس أو تتصل بها، وتملك قدرة على تحقيق الإشباع السوي لحاجات الفرد المؤمن عدا عنصر واحد هو هوى النفس، وقد يفسد هذا العنصر تأثير القوى الخمس بجمعها إنْ كانت له في نهاية الأمر (غلبة فاعلة) عليها، ودائماً ما كانت الوصيّة تستثير هذه القوى لمواجهته وقهره، وعرضت موقف المؤمن من الانتصار على هوى نفسه في تجربة التائب المخلص.

ويمكن بإيجاز تحديد هذه القوى بما يأتي:

١. العقل وقدراته العامة والخاصة، ودعوة النص لاتخاذه دليلاً في العمل التكليفي، وكميّز للسلوك الصحيح، والسلوك الخاطئ، وكمرشد في ضبط سلوك الذات.
٢. العلم، وهو ما يتمّ خضُّ عنِّه عن تسخير العقل وتوظيفه، وبروزه في أشكال من الخبرات الموجّهة للسلوك، وبناء شخصية الإنسان.

٣. القلب أو الفؤاد، وهو كما قيل في بعض الدراسات السيكولوجية الإسلامية المعاصرة (نافذة أخرى للوعي والمعروفة).
٤. الضمير، وهو الوجدان الداخلي الذي ينهى عن أفعالسوء، ويحاكم الإنسان بعد ارتكابه المعاصي، ويوبخه، ويدفعه لتعديل السلوك من جديد بموازنة وتوجيه قواه الأخلاقية.
٥. الفطرة، وهي طبيعتنا البشرية، وما أودع فيها الله من ميول وقدرات ونزوات، وفضائل وقيم تجذب الإنسان نحو الأعمال الصالحة.
٦. الإرادة، ويفصفها بعض العلماء بأنها مركز القرار، وصاحبة الفعل المؤثر في هزيمة الهوى أو الانضباط بقيم الحق والخير.
٧. الهوى، وذكره نص الوصيَّة كثيراً كمجموع ومستودع للغرائز والشهوات المنفلتة، وهي قوة تتطلب إشباعاً مصحوباً بارتياح ولذات أو بألام وضيق واشمئزاز.
٨. الدين وأحكامه وضوابطه الشرعية، فهو عقل من الخارج، بينما العقل شرع من الداخل كما قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع).

ثانياً: القيم الإنسانية:

تمثل القيم الإنسانية في الأديان السماوية المنزلة، والأرضية على حد سواء، وتمثل في دراسات علم النفس القديم والمعاصر كياناً فطرياً، وهي تمثل الجهاز المعنوي الداخلي والفطري لشبكة الأخلاق وتنظيمها الذي تتشكل منها السمات الأخلاقية لشخصية الإنسان، وتتنظم حياة الأفراد بتوجيهه بعض المبادئ والقيم والمثل العليا التي يحكم الإنسان سلوكه الفردي والاجتماعي معاً، وهي على قواعد الأخلاق والدين قيم

مرکوزة في كياننا الأدبي تؤكد على قوة وإيجابية الطبيعة البشرية بالرغم من حياديتها، وفعالية منهج الله سبحانه وتعالى، وحيوية نظام القيم والأخلاق المستمدتين من التشريع التربوي الإسلامي.

ويتطلب هذا الجهاز الداخلي -الجهاز القيمي- لأداء دوره الطبيعي والحيوي في إشباع مختلف حاجات الإنسان من الفضائل الأخلاقية وغيرها، وأهمية تقويتها بعمليات تدريب موجه وهادف، وعن طريق ممارسة عبادية مستمرة ومقصودة يريد الإمام الباقر تتحققها في حياة جابر الجعفي وغيره من جموع المؤمنين، فذكرت وصيته بعض القيم الإيجابية في حياتنا الإنسانية وطالبت بتفعيتها، كما طالبت بإبعاد القيم السلبية عن التأثير فيها.

إن القيم -والمراد هنا الموجب منها- ليست غایيات في حد ذاتها، فهي مجرد وسائل وآليات لتشكيل الفعل العبادي السوي، أو تعديله إرضاءً لله تعالى؛ لأن ما تمتاز به القيم من قوة للإلزام الداخلي للأفراد يجعلها من أقوى وسائل بناء النفوس على أساس إيمانية قادرة على ضبط وتوجيه السلوك من الداخلي، وبنقائص هادفة، والقيم بهذا المعيار ضرورة تربوية تؤكد عليها التربية العبادية لتكوين روح الخضوع للنظام الأخلاقي الذي يريد الإمام المهدي شائعاً، وهو خضوع يتم تلقائياً وطوعاً، وإقراراً ذاتياً بفلسفة النظام وقيمه، مما يؤدي إلى ضبط السلوك سراً وعلنًا على حد سواء، وبطوعاً لا قسر فيها، ولا خوف من قهر السلطة أو نفاق المجتمع، وإنما يكون حباً بالقيم وإيماناً بها كوسائل ظاهرة نعبر بها عن حقيقة إنسانيتنا، ونعبر بها عن شعورنا بالمسؤولية، وابتهاجنا بالعمل»^(١).

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ١٧٠.

وما نلحظه أن موضوع (القيم) كمثل عليا في حياة الإنسان هو شأن ثقافي ووجوداني وإدراكي واجتماعي يأخذ مكانته الكبرى، واللائقة بدوره الحضاري في ثقافتنا اليومية، وكان من المنطقي أن يجد المرء في النصوص الدينية الإسلامية (أدعية وغيرها) اهتماماً بالموضوع ذاته مع تعدد هذه القيم (بمحدودية أو توسيع) في مستويات الاهتمام والعناية حتى لو كان التنوع والاهتمام في نص دعاء الافتتاح.. محدودين.

ولكننا مع اهتمام الدعاء بعدد من القيم الكبرى بنحو علني، وبآخرى بطريق غير مباشر إلأى أن الحديث في نص الدعاء عن (القيم) كادة علمية وإرشادية لم يأخذ نصيه الوافر في المحتوى اللغظي والمعرفي لدعاء الافتتاح، ولعل السبب يعود إلى أن الدعاء نص قصير وغير مطول كدعاء كميل والصباح وعرفة والنذبة وغيرها، وأن تركيز مادة هذا الدعاء -ونقصد الافتتاح- ليس محصوراً بالقيم وحدها، ومن هنا جاءت الإشارة إلى القيم الكبرى مجملة، ولحظنا كذلك إشارات أخرى متفرقة عن قيم فرعية وجزئية، سلبية وإيجابية، وهي كما يلاحظ الباحث والقارئ الأريب معاً موزعة - على تنوعها المحدود - في نص هذا الدعاء، وفي تركيبته اللغظية من بدئه لنتهائه.

مفهوم القيم.. لغة واصطلاحاً.

حدد علماء اللغة مفهوم القيمة، كثير من الكلمات والمفردات العربية، وأوضحاوا معانيها اللغوية، وسنمر على هذا التحديد بإيجاز كما في بعض المصادر اللغوية، وتعني لفظة (قيمة) في بعض مصادر لغتنا العربية ومعاجها وقواميسها: بـ «قيمة الشيء»، وهي قدره»، وقيمة المتراع ثمنه، والقيمة كما يقال أيضاً مرادفة للثمن، إلأى أن الثمن قد يكون مساوياً للقيمة أو زائداً عليها أو ناقصاً عنها، والفرق بينهما أن ما يقدر عوضاً للشيء في عقد البيع يسمى ثمناً له كالدرارهم والدنانير وغيرها، في حين أن القيمة تطلق على كل



ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته لاعتبارات اقتصادية أو سيكولوجية أو اجتماعية أو أخلاقية أو جمالية).

والقيمة كما في أحد المعاجم المتأخرة تعني:

«قيمة الشيء قَدْرَه، وقيمة المَتَاع: ثمنه، ومن الإنسان طوله»^(١).

وقوله: «قَيْمَ الشيء تقييماً.. أي قَدْرَ قيمته»^(٢).

كما نقل (مسعود جبران) وهو لغوی معاصر في معجمه معنیًّا قریباً ما تقدّم، وذلك قوله عن لفظة (القيمة) ما لفظه: «القيمة، الثمن الذي يعادل المَتَاع، درجة الأهمية النسبية له، ومجموعها قَيْمٌ^(٣)، ويقصد جمع مفردة (قيمة) بكلمة (قيَم).

وقد جاء في كلام الإمام عليه السلام: «قيمة المرء ما يحسنه»^(٤).

والقيم - كما نفهمها - مرجعية معرفية وأخلاقية يوزن بها الفعل الإنساني ويميز بين السوي منه عن الفعل غير السوي، وب بواسطتها يدخل هذا الفعل في دائرة العمل الصالح أو العمل السيئ بمعايير عبادية وموضوعية معتبرة كإثبات العمل بنية القربى لله سبحانه وامتثالاً لأمره أو بمدى تحقق منافعه في حياة الإنسان ونسبة الإتقان في أدائه، فلا يوصف فعل معين كعمل عبادي إلّا بتحقيقه للعمل الصالح وانجازه بنية القربى لله^(٥)، وينطبق هذا المعنى على القيم بأشكالها المتعددة.

(١) المعجم الوسيط، باب حرف القاف، ص ٧٦٨.

(٢) المعجم الوسيط، باب حرف القاف، ص ٧٧١.

(٣) مسعود، جبران، رائد الطلاب، باب حرف القاف، ص ٧٤٨.

(٤) المعجم الوسيط، باب حرف القاف، ص ٧٧١.

(٥) مدن، يوسف، مدخل إلى النظرية التربوية في الخطاب الحسيني، ص ٢٦٢.

وقد حظيت القيم باهتمام خطاب الإمام المهدي (ع) في أكثر من دعاء، وبقدر الحاجة المطلوبة كما رأينا في جانب عديدة أشار إليها (ع) في نصوصه المختلفة لقيم إنسانية عليها وإلى أنواع فرعية^(١) مرتبطة بها وداخلة في سياقاتها الروحية والأخلاقية.

الأهداف التربوية للقيم:

القيم - كما نعتقد - هي من رصيدهنا الفطري الذي نولد به، ويعمل في حياتنا من اللحظة التي يصدر عن الفرد سواء بترسيخ سلوك بطريقة وقائية أم بفقد فعل خاطئ، فالقيم كالضمير الداخلي تأمر وتنهي وتحاسب الفعل الإنساني، وبذلك فالقيم بمثابة آلية فطرية معتبرة وقوة وجودانية وأخلاقية ومعرفية تكسب قيمتها الوظيفية من تفاعلات الإنسان مع المكون الفطري لهذه القيم.

وتؤدي القيم (مهما كان عددها) في آن واحد مجموعة أهداف تتسم بطابع تربوي فعال، ومن الأهداف التي تستخدم القيم كقوة وجودانية، وثقافية وأخلاقية في انجاز الأدوار التربوية بعالم الإنسان ما يأتي:

١. مساندة القيم للأديان والأخلاق والثقافة العامة في تشكيل النمط الأساسي للشخصية الإنسانية، ومساهمتها في صقل بعض جوانبها بطريقة وقائية.
٢. تسهم منظومة القيم ب مختلف أشكالها بطريقة مضادة في إيقاف التدعيم لأي فعل خاطئ أو سلوك عصبي، وكف حركته التي تعوق النمو الطبيعي اللازم للشخصية الإنسانية من المتظرين ومن غيرهم.
٣. اشتراك القيم بقوة فعاليتها في إعادة تعلم الفرد لأنماط من السلوك السوي،

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي (الفصل السابع) ص ٢٤٥ - ٢٨٣.



والمساهمة في تجديد صياغة النمط المفقود للشخصية الإنسانية.

٤. تستخدم القيم البناءة في إسناد مهام المربi المسلم في تربية جماعة (المتظرفين) وتنمية اتجاهاتهم الفكرية ومشاعرهم الوجدانية، والإعداد السلوكي لأجيالهم.

٥. يمكن للقيم الإنسانية - ونعني هنا شبكة القيم الإيجابية والسوية منها بوجه عام - الاشتراك الجاد في إيجاد وعي خاص للمؤمنين، وتزويدهم بثقافة الإسلام وتعاليمه ومرجعيته المعرفية والأخلاقية في مجالاته المتعددة.

الحاجة إلى كشف منظومة القيم بالوصية:

ثمة دوافع تقودنا إلى القيام بعملية كشف القيم بشقيها الإيجابي والسلبي، ومن ذلك ما يأتي:

١. إن نص الوصية وطبيعتها الإرشادية احتزن مجموعة من القيم المعززة للسلوك الإيجابي وخصائص السلوك العبادي، والقيم المضادة المؤثرة في نمو الشخصية سواء أكانت بطابع إيجابي أو سلبي غير إيجابيّة.

٢. يستفاد من القيم التي تعرفنا عليها أن لها القدرة على إحداث تغيير إيجابي، ومساعدة الفرد المؤمن نفسه على تحقيق مقاصده وغاياته، وتعرفنا على قيم سلبية يمكن أن تؤدي إلى إضعاف الحركة الجهادية نحو التغيير الأفضل، ويمكن - في الوقت نفسه - للقيم العصبية أن تلعب دوراً مدمراً، وسلبياً في إعاقة فاعلية القيم الإيجابية.

٣. نحتاج كمؤمنين - أفراداً وجماعات - لخبرة الإمام الباقر عليه السلام في الميدان الروحي والأخلاقي النفسي، واستثمار نص وصيّته في تحقيق الوظيفة الإرشادية وتعديل سلوك الشخصية بما يرضي الله سبحانه وتعالى، ويساعد على مستويات مقبولة من الوصول إلى

حالة رضا، وتوافق مقبول باستخدام القيم، والأساليب، والأفكار السليمة.

٤. تمتلك الوصيّة في مفرداتها ثروة أخلاقية وروحية وسيكولوجية تتيح للباحثين، لاسيما المتخصصين في الدراسات النفسية أن يقوم بدراسة بعض الظواهر النفسية، وتحليلها، واستنتاج نتائجها وعِبرَها، وعُطَّلَاتِها، فالوصيّة كنص فرصة لتوظيف الخبرة السيكولوجية عند بعض الدارسين والباحثين في فهم الخصائص النفسية والسلوكيّة للشخصيّة، والعوامل (الموضوعية والذاتية) المؤثرة فيها.

أهداف القيم في الوصيّة.

تحقق القيم الإيجابية أنهاطاً من الاستجابات السوية التي تُمكّن الفرد المؤمن من استئثار فاعلية هذه القيم الإيجابية في تربية الشخصية العباديّة، وتزوده بمفاهيم وأفكار قويّة أخلاقية دافعة، ومعززة للسلوك السوي الذي تتطلع إلى تحقيقه مبادئ السماء، وتحقق في الوقت ذاته فوائد، ومنافع ذات صلة بما يرضي الله سبحانه وتعالى، وتربية الفرد المؤمن على قيم السماء وتعاليمها وإرشاداتها كما أرادت وصيّة أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام.

ومن أهداف القيم في وصيّته ما يأتي:

١. تحقيق الفرد المؤمن في كل أزمنة التاريخ، وبقاع الأرض رضا الله عزّ وجلّ.
٢. تفعيل مضامين القيم بمختلف أشكالها المذكورة في نص الوصيّة أخلاقية وثقافية وراعية لتكوين نمط الشخصية العباديّة وتحقيق مستويات الرضا لديها عن الله سبحانه، وعن الذات المؤمنة في أفعالها، وأدوارها العباديّة.
٣. استئثار المفاهيم والمعاني الفكرية والمعرفية بالقيم، وتوظيف شحناتها الوجدانية



- العاطفية لإحداث تغيير إيجابي في تفكير الذات وسلوكها بمحددات إيمانية.
٤. استخدام القوى الخيرية، والإيجابية في نص الوصية الإرشادية، وفي الذات المؤمنة لواجهة القيم السلبية وأثارها المدمرة.
 ٥. اكتشاف أساليب تعديل السلوك الخاطئ في بعض القيم الإيجابية والمرغوب بها لتغيير واقع الفرد المؤمن إلى الأفضل، وتفعيل الروح العبادية الطيبة بما يتحقق هذا التعديل الإيجابي وفق محددات النظرة الإيمانية.
 ٦. سعي النص الإرشادي إلى إضعاف التأثيرات السلبية للقيم المضادة، وتحرير النفس من أوضارها الضارة.

تأثير القيم الإنسانية في الاتزان النفسي والانفعالي للفرد:

يتأثر سلوك الإنسان - بحسب مشاهداتنا اليومية - بقيم متنوعة سواء كانت روحية، أم ثقافية، أم اقتصادية، أم أخلاقية أم غيرها، وتتجلى تأثيراتها بتتائج إيجابية أو سلبية على الشخصية، ولا أهمية ارتباط هذه التنتائج السلوكية بالقيم المؤثرة في تفكير الفرد، وباتزانه الانفعالي والنفسي والأخلاقي، فقد تركزت عليه جهود المربى المرشد في عمليات التوجيه الإنساني و مجالاته لتكون خواتيم هذا الوجه إيجابية، وتصب في حوض الخير الذي يتغيره عادة الموجد المرشد، والإنسان نفسه، وهو المستفيد من مجالات التوجيه وخدماته، ونعني به المتلقى لتعليمات المربى وإرشاداته.

ولم تخرج وصية الإمام الباقر عليه السلام في هذا الجهد الإرشادي والتنظيمي عن هذه المهمة العبادية الكبرى، والقيام بأدائها كوظيفة تربوية مهمة تستثمر القيم الإيجابية في تكوين نمط عبادي للشخصية الإيمانية، وتنبع في الوقت ذاته تأثيرات مضادة للقيم

السلبية التي تعرقل تنمية النمط العبادي لشخصية الفرد المؤمن وتأسيس بنائه على المقومات الإيمانية.

فالوصيَّةُ الْبَاقِرِيَّةُ الْمِيمُونَةُ شدَّدتُ فِي بَعْضِ جَمْلَهَا وَعَبَارَاتِهَا عَلَى أَهمِيَّةِ إِدْرَاكِ الْعَلَاقَةِ التَّبَادُلِيَّةِ بَيْنَ تَأثيرَاتِ القيَمِ، وَعَمَلِيَّةِ نَمْوِ السُّلُوكِ الإِنْسانيِّ وَتَطْوِيرِهِ فِي اِتِّجَاهَاتِهِ المُحدَّدةِ، وَفِي مَسَارَاتِهِ الْمُتَاحَةِ، وَمَا يَصْحُبُ ذَلِكَ مِنْ اِتِّزَانِ انفعاليٍّ وَنَفْسِيٍّ، أَوْ مَا يَرْتَبُ عَنْهُ مِنْ خَلْلِ وَاضْطِرَابَاتِ، وَسُوءِ تَوَافُقِ مَؤْثِرَةِ سَلْبًا عَلَى هَذَا الْإِتِّزَانِ لِلْفَرَدِ.

إِنَّ التَّرْكِيَّةَ الْلُّفْظِيَّةَ لَهُذِهِ الْوَصِيَّةِ اسْتَبْطَنَتْ عَدْدًا مَحْدُودًا مِنَ القيَمِ الإنسانية بشقيها الإيجابية الذي شدَّدتُ فِيهَا وصيَّةُ الإمام الباقر عَلَى الإِفَادَةِ مِنْ هَذِهِ القيَمِ فِي تَنْمِيَةِ السُّلُوكِ، وَشَقِّهَا الْآخَرِ، وَهِيَ القيَمُ السُّلْبِيَّةُ الَّتِي دَعَتْ وصيَّةُ الإمام محمد بن علي الْبَاقِرِ (ع) إِلَى تَحْلِيقِ إِرَادَةِ الدَّازِنِ لِلإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ وَتَحْرِيرِهَا مِنْ قَبْضَتِهِ، وَالْفَكَاكِ مِنْ تَأثيرَاتِهِ الْمُضَادَّةِ عَلَى التَّفْكِيرِ وَالْمَشَاعِرِ الْوَجْدَانِيَّةِ وَالسُّلُوكِ، وَيُمْكِنُ فِي مَوْضِعِنَا هَذَا مِنَ الْبَحْثِ، إِلَيْهِ اِشارةٌ إِلَى بَعْضِ القيَمِ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا (بِالاِسْمِ، وَبِالْمَصْطَاحِ الْأَخْلَاقِيِّ)، أَوْ بِالْفَاظِ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ فِي نَصِّ وصيَّةِ الإمام الباقر، وَكَانَ (ع) يَسْتَهْدِفُ كَمِرْبًّ، وَمَرْشِدًا مُوجِّهًا لَفْتَ نَظَرِ الْفَرَدِ، وَالْمُتَلْقِيُّ الْمُؤْمِنُ بِأَهمِيَّةِ القيَمِ فِي تَكْوينِ شَخْصِيَّتِهِ، وَتَنْمِيَةِ سُلُوكِهِ، وَإِكْسَابِ تَفْكِيرِهِ بِالْقِيمِ الْعَبَادِيَّةِ السَّلِيمَةِ.

وَإِذَا مَا أَطْلَنَا نَظَرَنَا، وَبِتَأْمِلِ وَإِمْعَانِ تَفْكِيرِ عَثْرَنَا عَلَى نَبَاذِجَ مِنَ القيَمِ الإيجابيةِ، وَأَخْرَى مِنَ القيَمِ السُّلْبِيَّةِ، وَالَّتِي تَصْبِغُ سُلُوكَ الإِنْسَانِ بِالْعَصَابِ، وَكَانَ جَمِيعُهَا مُبْثُوثًا فِي سِيَاقَاتِ لُفْظِيَّةٍ (جَمْلَ وَعَبَاراتٍ، وَفَقَرَاتٍ) مُكَوَّنةً لِلْمَحْتَوِيِّ الْلُّغَوِيِّ وَالْمَعْرُوفِ لِلْوَصِيَّةِ الْبَاقِرِيَّةِ الْمُحْكَمَةِ، وَبَعْضُهَا يَتَدَخَّلُ مَعَ انْفَعَالَاتِ، وَدَوَافِعِ، وَأَلفَاظِ أَخْلَاقِيَّةِ، وَرُوْحِيَّةِ أَوْ دِينِيَّةِ، فَالْمَعْرُوفُ بِوَجْهِ عَامِ نَسْقِ مَتَدَخِّلِ مِنَ الْمَفَاهِيمِ وَالْمَعَارِفِ، وَتَخْتَلِطُ مَعَ أَسَالِيبِ إِرْشَادِيَّةِ، وَتَسْبِطُنَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي تَسَانِدُ وَتَتَازَّرُ فِي أَدَاءِ وَظِيفَتِهَا بِيَنَاءً



شخصية الإنسان بوجه عام، والفرد المؤمن بوجه خاص كما تقتضي الطبيعة الإرشادية لوصية أبي جعفر سيدنا ومولانا الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.

تطل بعض المفردات برأسها، وهي تنبئنا بأنها قيم بحسب خبرتنا اللغوية، وثقافتنا الأخلاقية والسيكولوجية والدينية، وهي محدودة كما ذكرنا، وليس من بينها -كما هو ملحوظ- إشارة مباشرة للقيم الإنسانية الكبرى (الحق، والخير، والجمال)، وهي القيم بفروعها التي اهتم بها العلماء وال فلاسفة والروحانيون وعلماء الأخلاق والتصوف، وإن انطوت بعض الجمل، والعبارات اللغوية على إشارات مبطنة، ومستفادة بالتأكيد من لغة الوصية، ولكن قد يقع الاختلاف، وتفاوت الاجتهاد فيها بين الباحثين، أو بينهم وجمهور القراء، ولم يذكر منها مباشرة ولمرة واحدة سوى مصطلح قيمة «الحق».

ومن هذه القيم المذكورة مباشرة (الحق، الزهد، الشكر، الطاعة وبخاصة استقلال كثير الطاعة، العفو، والشر، العلم، العمل، الغفلة، التيقظ، العقل، استكثار قليل الرزق، والقناعة، الحرص، قصر الأمل، الطمع، اليأس، العجب، المعرفة، الصدق، الذكر كثرة الاستغفار، التسويف، التوانى، شدة الندم، الرحمة، العز، الدعاء، المناجاة، التوسل بمختلف حالاته، الإرادة، بعد المهمة، اليقين، العافية، الشرف، العدل، الإنفاق، الجور، الجهاد، مجاهدة الهوى، رد الغضب، المعصية، حب البقاء».

وي يمكن - الآن تصنيفها وتوزيعها - بوجه عام ك (قيم إيجابية ومعترضة ومحاتطة)، وتقابليها من جهة أخرى (قيم عصابية سلبية) بمحددات الوصية ورؤيتها الشرعية في الجدول التالي:

القيم الذاتية (السلبية)	القيم الموضوعية (إيجابية)
<p>(الشر، الغفلة، الحرص، طول الأمل، الطمع، اليأس، الرجاء الكاذب، العجب، التسويف، التوانى، الجور، الكذب والتكذيب، الخيانة، الظلم، ذم الآخرين والعذوان اللفظي عليهم، الجزع، الرغبة، موافقة الموى، إزراء النفس وتحثيرها، قساوة القلب، رد الفعل بالغضب، المعصية، الثقة بغير المؤمن، فقر القلب، حب البقاء، التفريط).</p>	<p>(الحق، الزهد، عظيم الشكر، الطاعة وبخاصة استقلال كثير الطاعة، العفو، العلم، العمل، التيقظ، العقل، التشاور، استكمار قليل الرزق، القناعة، التذكر، قصر الأمل، المعرفة، الصدق، صدق الخوف، الذكر وكثرة الاستغفار، شدة الندم، الرحمة، العز، بقاء العز، التوبة، الدعاء، والمناجاة، التوسل بمختلف حالاته، الإرادة وعز اليأس، إماتة الطمع، ذل الطمع، وبعد المهمة، اليقين، العافية، التوفيق، الشرف، العدل، الإنصاف، الجهاد، مجاهدة الهوى، مخالفة الهوى، رد الغضب، المنافسه في الدرجات، أداء الفرائض، استصغر الدنيا، غنى النفس، المبادرة بانتهاز البغية).</p>

وهذه القيم – حتى بمحدودية عددها، وتدخلها في مسمى اللفظ، واحتلاطها بالانفعالات والدوافع وبعض المصطلحات الأخلاقية والدينية وغيرها – تحتاج في نظرنا لدراسة مستفيضة، ولو في نطاق بحث مصغر مركّز، وتحديد أثرها في عمليات الانزان النفسي والانفعالي للفرد المؤمن أو في مقابل ذلك إحداث مظاهر سوء تكيف وتوافق نفسي، ومع ذلك فقدرنا الذي لا مناص منه في هذا الموقع من بحثنا عن وصيّة الإمام الباصرة بإرشاداتها المختلفة بخاصة الأخلاقية والتربوية والدينية أن نجتهد في الكتابة المختصرة عن القيم ووظائفها، وما يترتب عنها من انعكاسات إيجابية وسلبية على مستوى الشخصية المؤمنة في زماننا، ولهذا صاغ الإمام الباصرة عبارات توجيهاته ليحمي الفرد المؤمن من غوايائل الزمان ومخاطر الدنيا بشهواتها القاتلة.



وتقضي عملية مرورنا العابر بالقيم الإنسانية وتتأثيراتها وانعكاساتها على الحياة الفردية والاجتماعية أن نضع بعض العبارات كنموذج للتحليل الأخلاقي – السيكولوجي، ومعرفة آثار هذه (القيم إيجابية أو سلبية) في كيان الشخصية المؤمنة بوجه خاص، وأي إنسان بوجه عام، وهي فقط – لمجرد التمثيل المعرفي – لهذا الموضوع الحساس، والحيوي، وقد عقدنا له هذا الفصل المستقل، والمنفرد من هذا الكتاب لأهمية القيم وتأثيرها في تشكيل السلوك الإنساني وتعديلاته، ودوره في تنظيم الحياة الفردية للإنسان المؤمن.

أسس وأساليب تعديل الاستجابات السلوكية الانفعالية:

تعتبر في حقيقتها أساساً ملحوظة لتعديل سلوك الذات في مجالاته المتعددة، ولكننا نكتفي هنا بما يناسب عمليات ضبط السلوك الانفعالي لإدراكنا أن أمر الانفعالات صعبة الضبط والتعديل، والإدارة، بل أن كل تجريح أو إنقاوص يحبط بكرامة الإنسان تستثيره إنسانية الإنسان، ومتى نجح المربi في استخدام نص هذه الوصية ومضامينها في ترشيد سلوكنا الانفعالي ندرك أنها أضعفنا تأثير امتداداتها إلى جوانب أخرى من شخصية الإنسان نفسه، ومتى تم ضبط الحالات الانفعالية انعكس ذلك بآثاره الإيجابية على الجوانب المختلفة للشخصية.

ويمكننا بنظرة اجتهادية كذلك تحديد بعض الأساليب السوية لتعديل استجابات السلوك الانفعالي ليكون صحيحاً بدرجة معينة، وضبطها وتنظيمها بما يتفق مع المحددات الشرعية الإيمانية المشار إليها في نص هذه الوصية الإرشادية، ومنها ما يأتي:

١. استخدام مبادئ التربية الجهادية للذات، ومقاومة هوى النفس في مواقف انفعالية مختلفة.

٢. عدم معاملة الآخر باستجابات مماثلة.
٣. ضبط النفس على التوازن بين مدح الذات وذمها.
٤. استخدام التفكير والتأمل الذهني الذاتي.
٥. الاعتبار والعضة من تحذيرات الوصية من السقوط من عين الله وأعين الناس معاً.
٦. استخدام القيم الأخلاقية كأدوات ربانية في تحقيق غلبة الفرد على هوى نفسه ومطالبها المنحرفة.
٧. الترويح عن الذات وتحقيق مستوى معقول من إيجام القلب.
٨. بذل كل ما أمكننا لتقليل الأخطاء.
٩. تزيين النفي بصدق الأعمال.
١٠. كثرة الاستغفار، وكثرة الذكر في الخلوات لتلين القلوب وترقيتها.
١١. المسارعة إلى تعجيل الانتقال إلى الله بالأعمال الصالحة.
١٢. استخدام الندم بصورة سوية، والاستعانة بحسن المراجعة لسلوك الذات.
١٣. إيقاظ الضمير بشدة التيقظ الذهني والوجوداني.
١٤. استخدام تجربات روحية حية والمداومة عليها كالآدعيَّة، ومناجاة الله في الظلم شكرًا له.
١٥. دفع الأضرار عن الذات بطلب الفضائل وترسيخها.
١٦. استخدام طريقة المعالجة بالأضداد.

الحلقة الثامنة

مبادئ الإرشاد النفسي والأخلاقي في وصيَّة الإمام الباقر عليه السلام
ودورها في تنظيم السلوك العبادي

مقدمة

نسعى في هذا المبحث من كتابنا الذي بين يديك عزيزي الكريم - وبنظرة هي بطبيعة الحال اجتهادية لا تلزم أحداً - تحديد مجموعة من المبادئ السيكولوجية التنظيمية، والوجهة لسلوكنا وأفعالنا البشرية، والحديث عنها كمبادئ إرشادية واضحة في نصوصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي رحمة الله تعالى، ومفردات تركيبته اللغوية، وبعض فقراته، وعباراته، ومحتواه المعرفي والقيمي والسيكولوجي، وغرضنا من ذلك الاطلاع على منظومة هذه المبادئ وتحديدها كجزء حيوي وهام من البحث لكشف المزيد من الشروة المعرفية والسيكولوجية من محتوى هذه الوصيّة الكريمة، وتحديد أثرها وفعاليتها وقيمتها التربوية في السمو والارتقاء الطبيعي بالإنسان المؤمن وتكوين شخصيته العبادية.

ونحن هنا نفعل ذلك بدعافع البحث، ومحاولة الاجتهد الفكري، ولا نزعم بالتأكيد أننا نأقى في هذا الموضوع بشيء جديد، ولا نبالغ في مقاصد الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، وقدرنا - كبشر - أن نبدأ المحاولة الأولى التي تصيب أو تخيب، وكى توضع هذه التجربة للقراءة والفهم والتعميق والنقد بغرض تطويرها، وتوظيفها في عمليات التربية الروحية والمعرفية في زمن صعب يواجه جموع المؤمنين بالإسلام وتعاليمه وقيمه، والتأمل في المادة الإرشادية والمعرفية والروحية لهذه الوصيّة بمحتواها القيمية، وفهم موضوعه، وتحليل مادته، والاستفادة من معانيه في عمليات التوجيه والإرشاد للشخصية العبادية، واستثمارها كذلك في عملية (انضباطها) وسلامة تكوينها الإيجابي والعقائدي والمعرفي والسيكولوجي في هذا الزمن الصعب.



١. مبدأ التوبة وإعادة تعلم السلوك العبادي وممارسته.

ذكرت التوبة بلفظها، وحروفها الأصلية مرّة واحدة في سياق المقطع اللفظي الثاني الذي حدد فيه الإمام الباقر للفرد المؤمن وظيفته العبادية بعد سقوطه في انحرافات السلوك، والابتعاد عن منهج الله تعالى أو وقوعه في ذنوب ومعاصٍ، والتوبة في مفهومها الإسلامي عملية علاجية لانحرافات الفرد المسلم، ومحاولة عملية لتغيير واقع وحال الفرد من معاصيها وذنبها بحسنات وفضائل، وعادات السلوك العبادي المستحسن بها يتافق والتوكيل الشرعي للفرد.

فقد جاء في هذا المقطع قول الإمام محمد بن علي الباقر عليهما أفضل الصلاة والسلام، وبلغة مباشرة عن هذه العملية الجهادية المهمة: «إن المؤمن يعني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها، ويختلف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فيينعش الله فيتعش ويقبل الله عشرته فيتذكر ويفزع إلى التوبة، والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١).

إن نص الوصية يقرر أن التوبة، وهي مقترنة - كما هو ملحوظ - بانفعال الخوف من الله، ومحبته عز وجل، وبدافعية المعرفة وطلب التغيير، والخشية من السقوط الاجتماعي وضغوطاته، عامل محرك لتحرير النفس من ضغوطات الشهوة المحرمة، وما يصاحبها عادة من سلوك غير سوي، ورغبتها من جهة ثانية في إضفاء خصائص سلوكيّة جديدة تنقي الذات، وتقدمها للناس في صورة أفضل.

ويفهم من لفظة التوبة كما ورد ذلك في بعض كلمات نص الوصية أنها ثورة وجدانية

. (١) الأعراف: ٢٠١

وعقلية وسلوكية على الغفلة، وسالف الذنوب، وهي استجابة منطقية لتحرير النفس من أصفاد الذنوب وسجن الشهوات ورواسبها، ورغبة لتحرير الذات من غوايائل الانحراف والفساد الأخلاقي، وإنقادها من بحر الهمكى كما وصفها الإمام الباقر عليهما السلام في وصيته، ومن غرقها في الخضوع شبه التام لضغوطات الشهوة الفاسدة المحمرة، ويفترض في هذا الحال الذي تعيشه الذات أن نهاية التوبة هي حالة فرع حقيقي، ومخافة فعلية من الله سبحانه، ومحاولة للوصول إلى استبصار وزيادة في مستويات الخوف من الله لإنقاذ النفس، وتعزيز أقوى لورع الفرد واتقاء حارم الله سبحانه.

ويعود نص الوصية الارشادية إلى تأكيد إشارته بطريقة مباشرة، وغير مباشرة (للتوبة) كضرورة تربوية في الجزء الأخير من المقطع الثاني من نص وصية الإمام الباقر عليهما السلام، ويقدمها كمجاهدة نفسية، وضرورة من ضرورات الحياة الفردية، ويبيّن أهميتها في تعديل السلوك الفردي للذات من حال أسوأ إلى حال أفضل يكون أكثر قرباً من السلوك العبادي وعاداته، ولكن بمفردات جمل تحذيرية من الذنوب والمعاصي، وتحذير من التسويف بشأنها، والتواني فيها لا عذر فيه، والغفلة عنها، والرضا بحالة الذنوب والمعاصي، واستسلام المرء للموبقات وضغوطات، وحيث الوصية البارقة على بدء عملية التغيير النفسي والسلوكي، ومقاومة إشباع الشهوات المحمرة، والاستمرار في هذا النهج.

ولنقرأ الجمل التالية، وهي من مفردات الوصية الميمونة كإشارة للمعاصي وذنوب الفرد:

- «وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ».

- «إياك والرجاء الكاذب فإنه يوقعك في الخوف الصادق»؛ لأنَّ الفرد يكتفي



بهذا الرجاء، ولا يزين نفسه بصدق الأفعال.

- «إيّاك والتسويف، فإنَّه بحر يغرق فيه الْهَلْكَى، وإيّاك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيها لا عذر لك فيه، فإليه يلْجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم».

- «وادفع ذل الطمع بعز اليأس».

- «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها».

إنَّ التوبة مبدأً وجداً - معرفي موجه للسلوك وعمل الفرد في تجربته الجهادية الجديدة، وُيمَكِّنُ الفرد المؤمن من التحرك الميداني بثقة مع نفسه باتجاهين يصطدعاً في داخله، أحدهما يقاوم فيه التائب العوامل المعاوقة لتوبته كالتسويف والرجاء الكاذب والغفلة والتواني أو الركون إلى الأعذار، والخضوع لسالف الذنوب وضغوطاتها عليه، والاتجاه الآخر يدفعه نحو عملية تغيير نفسي وسلوكي، وتعديل إيجابي للسلوك، وإضافة الصفات العبادية والفضائل التي تزيّن نفسيَّة الفرد بصادق الأفعال، فينتظم سلوك الفرد المؤمن بعد غلبة الهوى باسترشاد العقل والعلم معاً، ويتحقق التعديل العبادي المراد، وترضي النفس ربَّها الله سبحانه عنها، ويشعر فيها الفرد بالرضا عن نفسه وأدائها.

ويلحظ أن بعض نصوص الوصية ومقاطعها اللفظية ربطت بين بعض عوامل إعاقة التغيير لدى الذات، وبين نتائج الإعاقة على الذات كارتباط تكون (التساوة القلب بالغفلة والاستمرار عليها)، و(هلاك الذات الغارقة في ذنوبها بعملية التسويف، والتواني بأعذار لا تسمن ولا تغني عن جوع عن فعل التوبة والقيام بها)، أمّا بعض جمل الوصية وعباراتها فتشدد على ضرورات تحرير النفس من قيودها وأصفاد الشهوة،

وأغلال وعوائق الذنوب وضعف طاتتها بطرائق عبادية مثل قول الإمام محمد الباقر عليهما السلام في جملة من وصاياته:

- «وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ».

- «واسترجم سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار، وتعرَّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء، والمناجاة في الظلم»، ويقصد دعاء الله وصلوة الليل، والاستغفار في أوقات هجعت فيه أعين الناس، وبقيت أنت وحيداً في مناجاته سبحانه وتعالى عسى أن يمسح عنك هموم ذنوبك وتبعتها.

- «وادفع ذلَّ الطمع بعَزِّ اليأس»، وبخاصة مطامع الشهوة ومطالبه التي تذلل الإنسان وتهينه كأن يتودد للمنحرفين بالحصول على فرصة سرقة أموال الناس، أو الدخول معهم في رشاوى فساد مع علمه بنواياهم في السيطرة عليه، أو مجامعة امرأة بالحرام، وهو يعلم أنها تتخذ من هذا العمل القبيح مستمسكاً لإذلاله، وفضحه، فالاستجابة لشهوة بطريق محَرَّم وغير سوي هي في حقيقتها عملية طمع داخلي مقيد يصاحب إحساس إذلال مريض.. علني أو خفي.

٢. مبدأ البحث عن اللذة وتجنب الألم.

زودنا الله سبحانه وتعالى تركيبتنا الآدمية بـ(قابلية مزدوجة لفعل الخير أو الشر)، ولكن منَّا علينا بنعمة أخرى تجعل الآدمي بقابلية فطرية يميل إلى طلب اللذة، وفي مقابل ذلك لديه رغبة، فطرية أيضاً بـ(تجنب كل ألم) يتحسسه، فهذا الإحساس بمظاهره فطري لا يختلف فيه عباد الله جميعهم، فكل فرد منَّا مساوٍ للأخر في البحث عن اللذة وتجنب الألم أو العقوبة أو ما يتهدد حياته، فالناس يطلبون في النهاية (اللذة) تريحهم، ويتجنبون الألم ويهربون منه، وإن كان الكثير منهم يطلب (اللذة) فلا يصل لها، ويحاول



(تجنب الألم) لكنه يقع فيه، ويتألم بلا خيار ذاتي أو مطلب منه.

وما نراه أن مفردات النص الإرشادي لهذه الوصية لم تغفل في بعض إشارات هذا المبدأ الفطري في تكويننا الداخلي، إذ تنطوي بعض جمل وعبارات هذه الوصية علنًا، أو بشكل مبطن، وفي سياقها اللفظي الداخلي على ميل لطلب الفرد منا اللذة، ويتجنب الألم، بل أن نصائح الإمام الباقر عليه السلام وارشاداته تحقق هذا المبدأ فعليًا وتشير إليه حتى وإن لم يدرك بعض قراء هذه الوصية ذلك في إطار فهمهم لهذا المبدأ (طلب اللذة والبحث عنها، وتجنب الألم والهروب منه).

فأهداف هذه الوصيّة الباقرية الكريمة تنطوي على مشاهد بحث عن اللذة، ومشاهد ميل لتجنب الألم، ففيها رغبة في محبة الله وطاعته، ومعرفته، وهذا تعبر حي ينطوي على طلب لذة تريح النفس عن همومها، وتميل النفس، وبرغبتها الفطرية الذاتية إلى البحث عن مخرج لتجنب الواقع في الألم الذي يوجعها، فتجهد النفس ذاتها في مواجهة الشهوات ومقاومتها من أجل تحقيق إشباع لمحبة الله، وتحقيق انتصار موضوعي تندوّقه النفس، وتتجنب في الوقت ذاته آلام المشكلات النفسية وغيرها الناجمة عنها، وعن ضغوطات الآثام والذنوب، وتسعى إلى تجنب العقوبات الإلهية، وتهديداته لنا بنار جهنم وشدة حرارتها على أجسامنا الضعيفة، هذا بوجه عام طلبها الأكبر (بحث عن لذة مقنعة ومرحية) تكمن في محبة الله وطاعته وعشقه، وفي الوقت نفسه يمكن بهذا الطريق تجنب الألم، والعقوبة، وبعد ذلك تتوزع في المساحة الكلية لنص الوصية مشاهد ومظاهر طلب اللذة وتجنب الأذى والألم.

لقد عبرَ الكائن الآدمي عن ميله للتفاعل مع هذا المبدأ بمظاهر كبرى وفرعية، فالفرد على سبيل المثال يود تحقيق توافق نفسي، والوصول إلى إشباع إحساسه بالسعادة، وب حاجته من الأمان والارتياح النفسي، ورغبته في الرضا الداخلي عن نفسه، وعن ربّه،

ومجتمعه، ومحيطة، وهذا فإن مفردات الوصية جملها وعباراتها تتحقق للفرد المؤمن بعض آماله كطلبه في إشباع (لذاته) التي يبحث عنها بقدر معين يناسب قدراته الذاتية، وتمنحه بعض القدرة على فعل الطاعات، وتجنبه المعاصي، وتجعله يميل بفطنته من كل مشاعر الاستياء الناجمة عن الآثام التي اقترفها، ويسعى بتركيبة الداخلية للتحرر من ضغوطات الذنب وإزاحتها من داخله النفسي ما أمكن، وتحجيف مستويات الشدة المرتبطة بحالات الصراع الداخلي وبحالات ومظاهر التوتر النفسي والتآزم الداخلي.

وإذا ما قدر للفرد المؤمن بتأثير مضامين هذه الوصية وتوجيهاتها المؤثرة عباديًّا أن يبدأ من داخله ثورة سلوكيَّة على ذنبه، ويظهر غلبة على هواه ومعاصيه، ويخضع نفسه تدريجيًّا لأحكام التكليف الشرعي وضوابطه، ويختلف كل الآثار التي ألحقت الضرر بشخصه، يكون الفرد المؤمن قد طلب (لذة القرب من الله)، ولذلة توافقه الشخصي مع نفسه، وطلب سعادته، وتجنب من ناحية ثانية الآلام والعقوبات الناجمة عن معاصي استطاع السير على نفسه بنحو مريح نسبيًّا، وتطويع عالمه الداخلي لتقبل الفضائل، والتجاوب الإيجابي مع الاستعدادات الخيرة.

ونتساءل.. أين يجد الفرد المؤمن بعض (لذته)، ويتجنب آلامه في النص الكريم؟

ذكرنا - هنا وهناك - إشارات كبرى لذلك، ونقف عند إشارات من هذه الوصيَّة فحسب، ونترك للقارئ فرصة تأمل غيرها، والاستماع لتحليلات الباحثين ورجالات الفكر بشأنها، فالوصيَّة مليئة بنماذج وأمثلة تطبيقية لمبدأ (البحث عن اللذة، وتجنب الوقوع في الأذى والألم).



١. النموذج الأول.

من ذلك ما ذكرناه من استخدام متكرر للموقف الذي يدعو فيه الإمام الباقر ﷺ لكف النفس عن السلوك الخاطئ، وإظهار استجابات معاملة بالمثل، ففي الاستجابة لكلام الإمام وتوجيهه لذلة داخلية لا يتحسّسها من يرتبط بعمق ولاء مع الإمام وقيمه، وكان بمثل هذا الموقف الإيجابي من الناحية العبادية قد تجنب فعلياً (ألم عقوبة مخالفته إمام مفترض الطاعة، ويجب الامتثال لأوامره ونواهيه)، ومقابل ذلك تجنب آلام مشكلات ناجمة عن آثام وذنوب ماثلة لسلوك الناس من ظلم أو تخوين أو تكذيب، وغير ذلك، وبروز حالات من عدم التوافق، ومشاعر القلق، والشعور بالتهديد، وهذا كله من مظاهر إيقاع النفس في الأذى بخلاف ما دعا إليه الإمام الباقر ﷺ.

٢. النموذج الثاني.

وفي دعوة الإمام للمؤمن بمجاهدة نفسه وكفها عن المحارم والآثام، والإشاع بطرائق محمرة، وتحقيق شيء معتبر من البصيرة ومخافة الله والمعرفة هو في حد ذاته (بحث عن لذة، بل ووصول إليها)، ومقابل ذلك نجد في حالة الانصياع التام أو الجزئي لهذه الشهوات (معصية، وآثاماًً جديدة تكون عادة مصحوبة بشحنات انجعالية، وألام نفسية، وعبرت الوصية عن ذلك على موقف (فشل) في تحقيق الغلبة على هوى النفس، وموقف صراع نفسي داخلي بين رغبتها في الانتصار على هوى النفس، وإحساسها بالعجز المؤقت، وهذا ما ينشأ عنه شعور (بالفشل)، وبعض التوتر والقلق، حتى ينعشه الله سبحانه بنصر مؤزر يجسم المواجهة مع النفس، ويطيح بآمال إبليس ووساوشه ونوازعه الشيطانية، والمهم في مثالنا هذا (تلذذ في لحظة الانتصار على الشهوات، وسعى الذات لتجنب الألم، وفشلنا في الخلاص المؤقت من آلام الشهوة، وإخفاقنا في تحقيق انتصار عليها).



٣. النموذج الثالث.

وفيه توصية الإمام الباقر عليه السلام الرشيدة بضرورة (التيقظ الذهني) وإدراك نتائج الأمور وعواقبها بتأمل وعقلانية نموذج ثالث يشعر فيه الكائن الآدمي بـ (اللذة الحلال) المقبولة من نظرة عبادية، ومقابل ذلك (تجنب الألم) وما يصاحبه من أذى، ويتمس ذلك بإبقاء النفس تحت مظلة الغفلة، وتبعية الهوى، وتقاذفه بمستقبل الكائن الآدمي، ويعبر هذا الموقف من هذا النموذج عن (معصية) بمعيار عبادي محض، (وألم) من منظور نفسي.

٤. النموذج الرابع.

ويمكن بنحو مجمل الإشارة إلى بعض اللذات في نص الوصيّة مثل (طاعة الله، كف النفس عن اتيان سلوك حرام، عدم معاملة الآخرين بالمثل، الحصول على ثواب مجِز من الله من غير تعب في بدن العبد، السيطرة على النفس بمخالفة هواها، غلبة الهوى، شكر الله، التيقظ الذهني، طلب العفو، التعرض لرحمة الله، الاسترشاد بالعلم، إجراءات ضبط السلوك لوقاية النفس من مخاطر الهوى، استبقاء خالص الأعمال ليوم الجزاء، إيثار القناعة، اتقاء الحرص، حلاوة الزهد بقصر الأمل، السيطرة على اليأس، تغيير واقع إعجاب الآدمي بنفسه بمعرفة النفس، راحة النفس، إهمام القلب، قلة الأخطاء، ترقيق القلب، ملء داخله بالحب والعواطف الجياشة، والصدق في أداء الأعمال، شدة التندم مداومة الحزن لتصفية سالف الذنوب، كثرة الاستغفار والذكر في الخلوات، حسن المراجعة، إبقاء عز النفس، تنمية بعد الهمة، المبادرة الإيجابية، المنافسة على أداء الأعمال العبادية) فجميع هذه الأعمال العبادية تصاحبها إحساسات باللذة الحلال المقبولة، والتوفيقية.



ونجد في مقابل الأمثلة السابقة يمكن تجنب المعاصي ومازقها، وتجنب حالات أخرى مصاحبة لها، فيتمكن الفرد من (تجنب الألم) كتجنب الفرد للغفلة، وتجنب التسويف، والابتعاد عن التواني فيها لا عذر للإنسان فيه، والتقاус عن كبح الذنوب، وإضعافها، ففي تجنب هذه المعاصي يمكن تخفيف آلام النفس، وربما تجنب عقوباتها، وغالباً ما تكون ذات طبيعة نفسية لاحتمال استمرار مشاعر القلق، وأحساس الإثم، وبقاء تأثيرات حالات الاستياء الناجمة عن وجود آثام في حياة الفرد، وضغوط مرتبطة بحالات من الصراع الداخلي وآثارها في نفسية الفرد، ويمكن للقارئ العزيز بعد عرض نماذج تطبيقية لهذا المبدأ أن يبذل جهداً أكبر للتتفتيش عن بعض المظاهر المعبرة عن طلب اللذة وتجنب الألم في سلوك الكائن الآدمي، وبخاصة الفرد المؤمن، ولن تضيق به عبارات هذه الوصية ولغتها.

٥. مبدأ الإثابة والعقوبة.

عادة يعقب أداء سلوك طيب، وتم بنجاح تقويته بمكافأة أو إثابة مجزية تشعر الكائن الآدمي بالرضا والارتياح والثقة بعطاء المربi والمرشد وعدالته، والمنطقى كذلك أنه إذا صدر سلوك مضاد ومخالف للأنظمة والقوانين والأعراف والقيم الدينية كالمعاصي على سبيل المثال، فشمة عقوبة تتضرر الفرد بصيغة قانونية بدنياه أو دينية في عالم الآخرة، وقد يتعرض لعقوبة سيكولوجية ناجمة عن الشعور بالإثم، وما صحبها من مشاعر استياء نجمت عن وقوع المعاصي أو مخالفـة القوانـين والسلـوك الـديـني أو الـاجـتمـاعـي، وبـقاء النـفـس مـسـرـحاً للـتنـاقـضـات وـصـراـعـات الدـاخـل مع قـيمـ الفـرد وـاتـجـاهـاته الإيجـابـية.

وتعرضنا فيها تقدم ميل الفرد فطرياً نحو طلب اللذة، وهي في سياقها الطبيعي بمثابة مثوبة ومكافأة منطقية يتغير الفرد الحصول عليها، ويعادل هذا الميل ميلاً آخر في داخله لـ (يتـجـبـ الألمـ) بالـابـتعـادـ عنـ مـصـادـرهـ كـأـرـتكـابـ المعـاصـيـ، أوـ الـمـخـالـفـاتـ، وهي

مرتبطة بالعقوبات المؤلمة، لذلك يجنب نفسه الابتعاد عن كل ما يسبب له ألمًا، وبذلك فالإثابة والعقوبة مرتبطة بمبدأ البحث عن اللذة وتجنب المعصية، وتحقيق العدالة في ضبط السلوك وترشيده.

وتبسيط الوصيَّة أمثلة متفرقة في نصها، وألوانًا من الإثابة والعقوبة، إمَّا فعلية أو التهديد باستعمالها، وكعادتنا في تحليل مظاهر كل مبدأ نحتاج لمثل هذه الأمثلة الدالة على التوجيه الإرشادي في نص هذه الوصيَّة، ولبيان بعض غواصتها وتفسيرها، وإثبات قدرة النص التربوي الإسلامي على فهم النفس البشرية والتعامل مع خصائصها بإيجابية قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وأنَّ العمل بالوصيَّة بأكملها وتنظيم قيمها الإيجابية على إدارة الذات بما يرضي الله يؤدي إلى الإثابة المجزية يتساوى ومقدار جهد كل فرد على حدة، وبعكس ذلك يترتب على عدم الانضباط بمفاهيم الوصيَّة ومحتوها المعرفي عقوبات دنيوية أو أخرى، وهذا لا يخفى على الفرد المؤمن، فالماء مرهون بعمله، وبمقدار المشقة فيه.

ومرَّ بنا في مقطع من النص بذكر مباشر للفكرة (الثواب) حينما حذر الإمام الباقر بلغة مباشرة، جابر الجعفي عليه رحمة الله، وكل مؤمن من السقوط الدنيوي والآخروي، حيث قال ﷺ فيما قيل في الفرد من أقوال ظالمة، وأهمية التفكير فيه لمعرفة نتائج العمل: «ثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك»، ولقد ارتبطت الإثابة في نص الوصيَّة بمظاهر أخرى غير مباشرة، وكلها ذات طابع عبادي، وبالتالي فالمكافأة والإثابة إما مصدرها إلهي في الآخرة أو مكافأة للنفس قريبة تحصل في الدنيا من الله تعالى أو من تقدير المجتمع، فيشعر الفرد المؤمن بشيء من السعادة والرضا والارتياح النفسي، فاستجابة المؤمن لوصيَّة الإمام في عدم رد العداوة بمثله هو في حد ذاته فرصة للإثابة الإلهية، وهو كذلك فرصة لحصول الفرد على راحة النفس لعدم مخالفة أوامر الإمام الباقر، وهي



بالتأكيد طاعة كاملة لله سبحانه، وشعور بالراحة والرضا لتجنب الفرد آلام الصراعات النفسية ومشكلات القلق وحالات الاستياء المتولدة عن معاصي وقبائح السلوك، وغير ذلك.

ويتكرر الحال في نجاح عملية المجاهدة النفسية لدى المؤمن، واستبصار النفس بالمعرفة السليمة التي تحول دون وقوعه في الذنوب ومشكلاتها، وكذلك في كل القواعد السلوكية الصحيحة التي حددتها الوصية، وحيث على العمل بها، فهي جمِيعاً مرتبطة بنتائج إيجابية، وبأنماط من الإثابة إماً في دنيا الفرد أو في آخرته، من الله سبحانه أو في صورة تقدير اجتماعي من الناس، وبالمقابل ترتبط العقوبات بأشكالها المختلفة بمعاصٍ، وذنوب وبمخالفات دينية متعددة أشارت الوصية الباقرية لبعضها، وأولَ هذه العقوبات ما ذكرته الوصية من سقوط اجتماعي (من أعين الناس)، وسقوط أقسى، وأكثر صعوبة أن لا يجد الأديمي رضاً من الله سبحانه وتعالى، فيسقط وزن عمله، ويذهب سدى لا قيمة له، سواء صحَّ ما قيل فيه من أفكار ومعتقدات أو كان على شكل وساوس وتخريصات واستفزازات عدوانية.

إن الوصيَّة ربطت بين تحذيراتها في نقد مواقف الفرد من التقاус عن مواجهة السلبيات والرذائل، وما ارتبط بها من عقوبات كالانغماس في الطمع لحد الذل، وخداع النفس بالرجاء الكاذب، والتسويف عن تغيير النفس، وتغيير رذائلها وقهر معاصيها، والغفلة، وقسوة القلب، والتواني، والتساهل مع سالف الذنب، واستهانة الفرد بذنبه حتى يقبل بالحالة التي يكون عليها ولا يغيرها، ولا يحسن من سلوكه، والرغبة في حب البقاء، وتفويت فرص التغيير واستغلالها في الخير، فالنتيجة المأمولَة هي الخسران، فجميع هذه الحالات المرضية (ميدان يجري لأهله بالخسران) كما بينت الوصية الباقرية في آخر جملة من نصها الراشد.

٥. مبدأ الفضل على الآخر.

لاتساوى الحياة في أشكال الاستجابات الصادرة عن أهلها من مختلف أصنافهم، وغالبها إما بالمثل أو أسوأ منها، ولكن الاستجابات المثلث نادرة كعملة الذهب في غابر الأيام، ولا تصدر إلا عن النادرين في تاريخ البشرية في خلقهم وإنسانيتهم، وقدّموا نماذج لا تنتهي من سمو أخلاقهم، ومن نصائحهم لأصحابهم، وكلها تسمو عن تصرفات الناس، وتجعل لهم دائمًا فضلاً على الغير، ومن شواهد التاريخ أن يجد بعض الأمويين وزعماء قريش أنفسهم مهزومين في قبضة النبي محمد عليه السلام، ويتسامي عليهم ويطلق سراحهم من أسرهم، ويعرفون بعد ذلك في التاريخ بـ(الطلقاء)، ويسيطر معاوية وجنته على الماء في حرثهم بصفين مع الإمام علي عليه السلام ويمنعونه عن جنده، ولما بسط علي عليه السلام وجيشه سيطرتهم على ماء الفرات سقوا جند معاوية^(١) وقد أوشكوا على اهلاك لنقص مائهم، ولم يعاملوهم بالمثل كما فعل معاوية وجنته، وللإمام الحسين عليه السلام أكثر من موقف في الفضل على غيره بخاصة أعداؤه، ونذكر أنه سقى بيده جمل على ابن طuan المحاري، وروى عليه السلام جند وخيل جماعة الحر بن يزيد الرياحي التميمي عند التقائهم بهم.

وتتابع سمو الخلق الرفيع في أدبيات وممارسات أئمة أهل البيت عليهما السلام، قال أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في توجيهه لنا وللمؤمنين، وبنص خارج عن الوصية الارشادية: «إن استطعت أن لا تعامل أحداً إلا ولد الفضل عليه فافعل»^(٢)، وجاء عنه عليه السلام قوله الكريم: «الغلبة بالخير فضيلة، وبالشر قبيحة»^(٣).

(١) اليعقوبي، أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٣٠.

(٢) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، ص ٢١٣، والعلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٨.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٧٢.



ويستفاد من الحديثين السابقين أنها يقران مبدأ (الفضل على الآخر) بالاستطاعة الذاتية، في التعامل مع الناس، وهو خيار ممكن، بل أنه قدر لا مناص عنه في بعض الأحيان بالرغم من أن أساليب التعامل تتنوع عادة في حياة الناس مع بعضهم، ولكن ثمة فرصة دائمةً للمتسمين منهم كي يستفيدوا من معاملاتهم، وباستثمار معنى الحديثين السابقين ومضمونها في حركة تعاملهم مع الغير، فقد تعاملوا مع الناس من خلال توجيهات الحديث بأنه يكون لفرد منهم دائمةً (الفضل على غيره) من الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فقد أوصى الإمام الباقر عليه السلام بالاستفادة من فرصة أن يكون للمرء الفضل على غيره، وهو سلوك جعله كلام الإمام محمد عليه السلام (فضيلة)، (وغلة بالخير)، أي باستخدام أدوات الخير ونواياه الحميدة كما نص عليه الحديث الثاني.

وقدّم نصوصية الإمام الباقر في مقطعه الأول مظهراً لهذا التفضيل الذي اعتاده أهل البيت عليه السلام على غيرهم، ورغبتهم أن يكون سلوكاً بين الناس، وغرضهم إشاعة الفضل ومظاهر الخير بينهم، وبسم نفس وبخلق رفيع، فمن المفترض بك مجازاة من يظلمك أو يجُوئُك أو يُكذبُك بالصمت أو بالخير كما ان بعض الناس يجازونه بالمثل غير ان اهل البيت عليه السلام اختاروا لهم ولأصحابهم أن يكون لهم الفضل في المعاملة حتى لو ظلموا، وأسيء لهم، فكان طلبه عليه السلام من جابر أن لا يظلم من ظلمه أو لا يخون من خانه أو يغصب على منْ كذبه مثلاً صادقاً لمضمون حديثه: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَعْاملْ أَحَدًا إِلَّا وَلَكَ الْفَضْلُ عَلَيْهِ فَافْعُلْ»، وقد أوصى عليه السلام بتوجيهه هذا أن يكون لصاحبه جابر الجعفي فضل المعاملة الحسنة على غيره، بترك ظلم غيره أو تخوينه أو الغصب منه ومعاملته بطيش وقسوة، وكما تقدم فهذه الدعوة تشجيع على سلوك تطبيقي، وهي على حقيقتها ليست موقفاً ذهنياً معزولاً عن مضمون قوله الآخر: «الغلبة بالخير فضيلة» بخاصة إن كنّا نملك أدوات القوة والقهر وإيقاع الأذى، وخلاف ذلك كما حدد الإمام

الباقر عليهما السلام بما معناه (إن نغلب بالشر فيكون عملنا قبيحاً وشريراً) وغير مستحسن يذكره الناس في عاب بينهم على مدى الدهر.

وكما تقدم، فالمثال الأخلاقي الرائع في هذا الموقف ليس مجرد توجيه، بل هو تشجيع للناس على السمو بأخلاقهم، والانتصار على عادات الشر بعادات الخير، وأن نغلب به، ونجعله في موازين الناس فضيلة لا تُحى من ذاكرتهم.

٦. مبدأ الستر وطلب الأمان:

من مبادئ تنظيم السلوك أن يطلب الإنسان الأمان لكيانه الذاتي، وأن يبحث عن ملجاً أو ما يشعره بالطمأنينة، يستر عليه عيوبه، وقبائحه، وسقطاته العلنية والمحفية لاسيما الأخلاقية، فالمفترض أن تشغل قضية الأمان تفكير الفرد في دنياه، وفي آخرته، ويكثر الاهتمام بها عسى أن يجد ما يريحه، ويبعث في نفسه الاطمئنان والسكينة، فالأمان مسألة فطرية مرکوزة في التكوين النفسي للكائن الآدمي، ولن يستطيع القيام بأدواره ووظائفه، وهو يشعر بالخطر، ويتهدهد القلق.

لم ترد مفردة الأمان في نص الوصيَّة الباقرية الكريمة، لكن وردت جمل وعبارات استبطتها هذه الوصيَّة تشير لهذه الحاجة الأمامية، بل وتضفي عليها ضرورة في تنظيم السلوك العبادي بنحو جعلها كمبدأ سلوكي مهم، وهناك مواقف لفظية في باطن وصيَّة الإمام الباقر عليهما السلام تعبير عن رغبة الأفراد في البحث عن أمنهم، وكل ما يدفع عن أنفسهم الخطر ومثيرات الخوف ومصادر في البيئة المحيطة بهم من مشكلات واضطرابات، وصراعات داخل كيانهم النفسي الذاتي، وقد نبه نص وصيَّة الإمام الباقر عليهما السلام إلى بعض مواطن طلب (الستر عن الذات) وهو مظهر أساسى لتحقيق أمنها، وستر عيوبها، ومقابل ذلك يحقق هذا إشباعاً لحاجة الأفراد في الأمان النفسي.



ويمكنا - بمتابعة النصوص القصيرة الفرعية الموزعة في باطن نص الوصية ومساحتها الكلية - أن نجد بعض مشاهد الرغبة في الاطمئنان التي يريد الإنسان وصول نفسه إليها، ولنقرأ بعض العبارات أو نتوقف عند بعض مفردات الوصية الشريفة، ونستنطق مدلولاتها الداخلية.

في المقطع الأول من الوصية يأمر الإمام الباقر ﷺ - على سبيل المثال - صاحبه جابر بن زيد الجعفي عليه الرحمة والرضوان بأن لا يرد على ظالميه أو مخونيه أو مكذبيه أو القادحين بظلم، ولا تخوين، ولا جزع، بل يحذر من السقوط من عين الله، وأعين الناس، ويستبطن هذا الموقف خطاً على أمن الذات بسقوطها الدنيوي (من أعين الناس)، وبسقوطها الأخروي (من عين الله)، ولكنه يطلب أمرين:

أ - كف سلوكه عن الاستجابات المحرمة لياخذ الإنسان ما يستحقه من ثواب الله، ويطمئن على نفسه من عداوة الآخرين وانتقامهم، واستمرار غطرستهم، بل في مقابل ذلك يسعى إلى إظهار سمو خلقه بطريقة الأضداد بتغيير الرذيلة بفضيلة من جنسها، وجميع مظاهر هذا الموقف كما نراها هي «تعابرات عن حالة رغبة في الأمان وستر الذات عن عيوبها، وقبائحها».

ب - والأمر الآخر هو التفكير فيما قيل فيه، فقد يكون قبحاً يستحق تعديله، فيطمئن على مصيره في الدنيا بعدم سقوطه من أعين الناس، ويعيث في الوقت نفسه شيئاً من الطمأنينة والسکينة بعالم الآخرة، فلا يسقطه الله تعالى من الوزن والاعتبار، وأهم من ذلك أنه إذا عرف أن ما قيل فيه ليس فيه كان ثوابه قدرًا إلهياً من غير تعب في بدنـه، وهذا في حد ذاته تحقيق لرغبته في الأمان النفسي، بل هذا غاية ما يريد من أمن على المصير.

وتتوزع في بعض جمل النص كلمات معبرة عن الخوف، وطلب الأمان مثل جمل: «ادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، وَتَوَقَّ مجازفة الهوى بدلاله العقل، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء»، فمواطن القلق والخوف وغيرها تتحدد في وجود ما أسمته الوصية بـ(حاضر الشر) وعظيم الغفلة، أمّا مواطن طلب الأمان فهي (ادفع عن نفسك حاضر الشر، وحاضر العلم، وشدة التيقظ، وصدق الخوف بالأعمال الصالحة، ووقاية النفس من مخاطر الهوى، والاستعداد ليوم الجزاء بخالص الأجزاء، وغير ذلك).

هذا مجرد مثال للتأمل استبطنته الوصيَّة، وتتقابل فيه كلمات، وجمل تعبر عن حالي (الخوف على الذات، والرغبة في داخل النفس بطلب الستر، وتحقيق طلب أمنها)، كما يستبطن نص الواقع مواقف عديدة تطلب فيها الذات المؤمنة تحقيق حالة من الأمان لمستقبلها، والتحذير من المخاوف المضادة بخاصة في عالمها بالأُخْرَة، ولا تحتاج الوصيَّة إلَّا إلى قدر من التأمل الذهني للحصول على رؤية موسعة في هذه المسألة تسمح بتكونين وجهة نظر معرفية موحدة ومتماسكة.

وتتجه جمل وعبارات من التركيبة اللغوية للنص، وهي من أشارت لمبدأ طلب الستر وأمن الذات، على تحقيق هذا المبدأ بطريقين أساسين، كلامها يتصل بالأخر ويحرك مساره في اتجاه الثاني ليلتقيا عند مصب تحقيق الإشباع (الكامل أو الجزئي) لرغبة الفرد المؤمن وحاجته في الأمان النفسي، وستر عيوب ذاته وفضائحها عن أنظار الناس وذمهم.

أولاً: الطريق الوقائي:

وأول طريق يعتمد المربi هو التربية الوقائية على قيم الإسلام وتعاليمه من أجل الاهتمام بالإنسان المؤمن، وتشكيل شخصيته العبادية، واجتمع في مشاهد من الوصية الإرشادية إشاراتها لواقف وقائمة ذات أولوية في العمل التربوي لشخصية المؤمن، ولحظنا هذا الجانب أو الطريق بينما في مشاهد مذكورة، وهي كذلك مجرد أمثلة، وقد يتسع غيرنا في تفصيلها، ومنها:

أ- في بعض العبارات كا في المثال السابق، وما ذكرناه من كف السلوك المحرام، وتجنب السقوط بحالته في الدنيا والآخرة، فجميع عباراتها حول وقاية الذات من مخاطر السقوط، والبحث عن مواطن آمنة، ومرجع نفسي لشخصية المؤمن.

ب- ويستوقفنا في الجانب الوقائي مشهد آخر من (حاجة الأفراد لطلب الستر للذات وتحقيق أمنها) ما طلبه الإمام محمد الباقر عليه السلام من جابر في المقطع الثاني كي يعرض نفسه على كتاب الله للتأكد والثبات عليه، وتبشر الذات بأمن (حالة الثبات) بناءً على قربها من كتاب الله عزّ وجل (القرآن الكريم)، وما تلاه مباشرة من مواجهة الفرد المؤمن لنفسه، بحثاً عن استبصار ومعرفة وأمن دنيوي وأخروي.

ج- وبعد ذلك نجد تتابعاً في مواعظ الوصيّة لنصح جابر، وكل المؤمنين تطالب تحت دفة البحث عن الأمان الآخروي بأن يستكثر الفرد لنفسه من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، وأن يستقل من نفسه كثير الطاعة إزراءً على نفسه، وتعريضاً للعفو، وأن يدفع عن نفسه حاضر الشر، وشدة التيقظ للتغلب على غفلته، والتحرز من إبليس وتحريضاته المستمرة على السوء واستمرار الغفلة، أداء الفرائض، ومخالفة

الهوى، واستبق خالص العمل ليوم الجزاء، وما تضمنته الوصية من وصايتها الوقائية المترفرفة في نصها الإرشادي، ثم تشابك الخطوات والأنشطة الوقائية في وصية الإمام الباقر عليه السلام، فيضمن الفرد لنفسه شيئاً (كثيراً أو قليلاً) من الأمان النفسي للذات، ويستر عنها العيوب والقبائح، وتشعر النفس بالراحة كما جاء في الوصية بتحقيق ما أسمته بالخوف الصادق).

د- ما قدمناه كان معززات في التربية الوقائية، ولكن هذه التربية تستخد兆 معززات سلبية وقائية، ولحظنا توجه النص إلى إثارة شعور الفرد المؤمن بالتحرز من إبليس بالخوف الصادق، ثم استخدام التحذير المباشر من عوامل سلبية مؤثرة على أداء الذات ويهدد رغبتها في تحقيق الأمان بمخاطر مثل: (الرجاء الكاذب، والتسويف، والغفلة، وقساوة القلب، والتوازي فيها لا عذر فيه، والثقة بغير المأمون، وتقويت الفرص والتفريط فيها، فهي كما قالت الوصية الكريمة في آخر جملها «ميدان يجري لأهله بالخسران».

ثانياً: الطريق العلاجي:

قد لا تنجح الذات في وقاية نفسها كما هو حال كثير من الناس، وتقع في سلسلة عيوب وسلبيات ورذائل وقبائح، فتكون لدى الفرد، كل على حدة، حاجة ذاتية إلى تعديل سلوكه، وتغيير أفكاره ومفاهيمه، وعلاج آفاته الذاتية بالفضائل، والقيم الصحيحة، والتجارب الجهادية الناجحة، وإرشادات خبراء التربية العبادية، وفي صدارتهم أئمة أهل البيت عليهما السلام، والاستعانة بمصادرهم المعرفية في تربية الإنسان وهدايته.

واختزنت الوصية الكريمة مشاهد تدرج في نطاق التغيير والتعديل، وطريق الناس لمعالجة أنفسهم، وتجلى بعض أمثلة هذه المشاهد في مواقف جهادية كمطالبة الفرد المؤمن



لمجاهدة نفسه، وتمكنه من تخلص نفسه من صراعاتها الداخلية بالفرز إلى التوبة وخفافة الله، وزيادةوعي المؤمن بصيرة، ومعرفة، ونجاحه في الاستبصار، وقهـر كل ما في نفسه من شهوات الانحراف، وتمثل مشاهد فرعية في مواطن من هذه الوصيـة، حيث مررت الوصيـة في بعض جملها على أهمية الطريق العلاجي في تحسين السلوك الفردي للمؤمن، وتعديل نظرته إلى نفسه.

ونضع كالعادة مواضع استشهاد بعض الجمل التي تدل على دفع المؤمنين لاستخدام طريق معالجة بعض أمراضنا السلوكية، ولنقرأ، في شكل أوامر بعض هذه الجمل التي تحدد بعض أمراض السلوك، وطريق علاجها مثل:

- «سد سبل العجب بمعرفة النفس».

- «واسترجع سالف الذنوب» تلك هي المشكلة التي تستجمع رواسب الذات، وتعوق حرية التعديل والعلاج، ولكن كيف تكون معالجتها، يتابع نص الوصيـة إرشاد جابر، وكل مؤمن لمعالجة هذه المشكلة بقوله: « بشدة الندم وكثرة الاستغفار، وتعرـض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم».

- ويذكر الإمام الباقر تنبـياً يغرق فيه كثير من الناس وهو استهانـتهم بالذنب، فتحدد عبارـته مشكلة استهانـة بعض الناس بذنوبـهم بما قال ﷺ: «ولا مصيبة كاستهانـتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها»، ثم يتبعـها بتوجـيه لتحفيـز الهمـة والإرادـة فيقول الإمام ﷺ: «ولا فضـيلة كالجهاد، ولا جـهاد كـمجاهـدة الهـوى»، و«أنـه لا شـرف كـبعد الـهمـة».

والمـلحوـظ أنـ هذه الجـمل والـعبارات اـتصفـت بما يـلي :

أ - إنها تضمنت تحديداً لنوع المشكلات التي تواجه الأفراد في حياتهم، ولطبيعة العلاج الذي تحتاجه النفس من أجل تعديل السلوك وتحسينه لتجنب مشكلات (إعجاب الفرد بنفسه، وسيطرة سالف ذنبه عليها، واستهانته بالذنوب التي تعصف بذاته، ورضاه بالحالة التي يكون عليها)، وهذا التحديد أول خطوات البرنامج العلاجي.

ب - ويلحظ في المفردات اللغوية هذه الجمل اقتران (المشكلات) بمعالجاتها وطرق التغلب عليها مثل معالجة العجب بمعرفة النفس، وسيطرة روابط النفس من ذنوب بسلسلة من الخطوات العلاجية كتفجير حالة الندم الشديد، واستكثار الاستغفار، وذكر الله في الخلوات، وطلب الرحمة والعفو الإلهي، وحسن مراجعة الذات والتفتيش عن أخطائها ورصدتها، والسعى إلى تعديلها، والاستعانة بخالص الأدعية ومناجاة الله في ظلم الليالي بالصلوات، وقراءة القرآن، كذلك اقتران مشكلة (ذل الطمع) بمعالجته بعز اليأس، وبُعد الهمَّة والإرادة، وقصر الأمل، وارتباط الاستهانة بالذنب ورضاء المرء بها، وبأدوات وطائق علاجها المتمثل بمجاهدة الهوى، والزهد وقصر الأمل، واستخدام نمط المقابلة بين أضداد السلوك، وأساليب أخرى.

ج - استبطنت هذه الوصايا الباقرية تشدداً في استمرار عملية (العلاج النفسي) وتعديل السلوك نحو أهدافه العبادية لمرحلة ما بعد وقوع التغيير الممكن، وتحقيق بعض التحسن الجزئي في السلوك، وعبارة «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها» تستثير وجданياً وعقلياً همة الفرد المذنب، وتحذره من الاستهانة بذنبه في لحظة وجودها أو بعد مجاهدة نفسه، وإحداث تغيير معقول، ولا يتم السيطرة على هذه المشكلة إلا بوعي المواجهة، وتتابع الاهتمام بها، والتصدي لكل مظاهر عودة الذنب، واعتبارها مصيبة كبرى ومعصية من الكبائر.



د - ويلاحظ في ذلك وضوح أهداف العملية العلاجية وهو طاعة الله وتحقيق حالات من الرضا النفسي الذي يحقق أمن الذات كما بسطنا القول في موقع من مبحثنا.

ه - تعادلت سياسة التوجيه في الوصية سواء في الجانب الوقائي أو العلاجي بين الدعوة إلى المبادرة الذاتية في انتهاز الفرص لبناء الجانب الوقائي للذات مثل قول الإمام الباقر عليه السلام لخابر: «وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس بعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرص، ولا إمكان كالآيام الخالية مع صحة الأبدان»، وكذلك توجيه الوصية للتحذير من إهدار فرصة التغيير، قالت الوصيّة: «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذل كذل الطمع، وإيّاك والتفريط عند إمكان الفرصة فإنّه ميدان يجري لأهله بالخسران»، كلا المقطعين يتضمنان دعوة للمبادرة الذاتية إدحهاهما في تقوية الجانب الوقائي، والآخر في المسارعة لاستئصال الجانب العلاجي.

٩. مبدأ الندم على الذنوب والموبقات والمعاصي:

يقدم الفرد على ذنبه في بعض الأحيان متلبداً في وجده، ويظل أحياناً، وتحت تأثير غفلته لأمد طويل في هذه الحالة، وتحول لمشكلة وجданية ومَرْضِيَّة في حياة المذنب، وتنقلب أوضاعه إلى حالات عميقة من التدهور والانحطاط، والانحراف الشديد الذي يدمر كيان الفرد بعد أن تحولت حاليه لمصيبة، وهذا تغيير رئيسي يكون أصعب من وصفه بمشكلة، لأنّه وصل من التبدل ما جعله لا يحس بالحاجة لتغيير حاله، بل ورضي بالحالة التي هو عليها من انحرافات وفساد وارتكاب ذنب، وهذا ما عنده الإمام الباقر عليه السلام في توجيهه للإنسان وهو يسكت عن خصوصه للذنوب وسيطرتها، فقال: «ولا مُصِيَّبة كاستهانتك بالذَّنْب، ورضاك بالحالة التي أنتَ عليها».

ولكن لحسن الحظ أنَّ حياتنا البشرية - بتفاصيلِ مجملة أو موسعة - لا تسير على نفس الرتابة والجمود الذهني والانفعالي، فقد تداخل الإنسان بوعي، أو بدونه هزة نفسية كبيرة وتوقفت ضميرة، وتحدث ندماً داخلياً على ما فعله، وما أضاعه من سنوات عمره في أفعال الحرام.

وثرَّ نوعان من النَّدم، وحالات الشعور بالاستياء الناجمة عن فعل الذنب، وما اقترفته يداه - لفترة مضت - من ذنوب وسبيئات ومعاصٍ، فتبداً نفس النادم بتحسُّن هذه الصحوة الوجданية الداخلية، وتحرك في داخل الكيان النفسي للإنسان مشاعر الندم، وتقابلها في الآن نفسه حركة من سالف الذنوب، وهي ما نسميه بـ(الرواسب النفسية)، وهي ناتجة عن ظروف تجارب انحراف سابقة مكَّنت الفرد من التفاعل مع بيئه الانحراف وارتكاب الذنوب، تظل آثارها فاعلة بعد صحوة الضمير، وتفجر مشاعر الندم بشدة أو بمستوى أقل، وتنصح الوصيَّة الباقيَة العبد المؤمن بالاستعانة (بشدة الندم وكثرة الاستغفار وطلب عفو الله ورحمته، وذكره في الخلوات) للاستقداء على هذه الحالة.

وسوف تحسُّم إرادة المؤمن صراعها مع الرواسب النفسية بداخل الإنسان، وسالف الذنوب باستخدام هذه القوى، وتوفيق من الله عزَّ وجلَّ، تقول هذه الوصيَّة في صيغة تكليف، وأمر شرعي: «واسترجع سالف الذنوب بشدَّة النَّدم وكثرة الاستغفار، وتعرض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة»، وتضمنت عملية المراجعة برنامجاً بوسائل وأدوات علاجية متداخلة، وإذا ما قرأنا أكثر من مقطع في وصيَّة الإمام الباقر عليهما السلام وخاصة في نهاية الجزء الثالث، وضعنا أيدينا على خطوات من البرنامج العلاجي، حيث يقول هذا المقطع: «يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعريضاً للعفو، وادفع عن نفسك



حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخاص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتَوَقَّ مجازفة الهوى بدلاله العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترداد العلم».

وقال في مقطع متصل بالمقطع السابق:

« واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سهل العجب بمعرفة النفس، وتخلاص إلى راحة النفس بصحبة التفويض، واطلب راحة البدن بإجمام القلب، وتخلاص على إيجام القلب بقلة الخطأ، وتعرّض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيّن لله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجّيل الانتقال، وإيّاك والتسويف فإنه بحر يغرق فيه الهملكي، وإيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتلواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخاص الدعاء والمناجاة في الظلم، وتخلاص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، وتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العز بإيمانه الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس بعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة».

أ - ندم سلبي، وعصابي:

وهذا النوع من الندم جزء من الحياة الإنسانية في ظروف غير سوية، وطبيعته

شهوية، بوعده الداخلية ذاتية لا تعبَر عن حرص موضوعي على مصلحة الفرد؛ لأنَّ نزعته الشهوية أسف على فوات ملذات عابرة لا تجلب للفرد السلم صحة نفسية، ولا توافقاً في كيانه، ولا تتحقق له تصحيحاً لعقيدة أو تعديل سلوك، ولا تغييراً في مشاعر وجاذبية ضارة.

ومثل هذا النوع يصبح داخله الوجوداني والذهني بصبغة غير سوية، ويحيط فيها الفرد آلامه على فوات شهوات ضائعة، أو خسارة إشباع نزوة ماجنة، أو تفريط في إمكان الحصول على فرصة دنيوية عابرة قد حُرمَ من اقتناصها أو حِيلَ بينه وبين اغتنامها، ولا يتربَ عن هذا النوع من الندم إلَّا قلق شهوي ذاتي، وموبوء بملذات الحرام، واللامبالاة الذهنية، وتبدل الوجودان، والأسف على فوات فرص إشباع متعة غير مشروعة، ومحرمة وليس ببريئة.

ولا نظن أن نص الوصيَّة قد قصد في مفرداته هذا النوع من الندم العصبي، والمريض، وهو ندم يصاحبه إحساس مَرْضي بالذلة والهوان، والاستهانة بـ(الذنب) التي ذكرتها جملة متأخرة في نص الوصيَّة الباقرية لإرشاد الناس وتوجيههم، كما لم يقصد متبدلاً انفعالياً بالحالة التي يكون عليها الفرد وهو في خضوع تام للشهوات المحرَّمة، وإسراف فيها، واستهانة بالذنب.

ب - الندم الموضوعي الصحي:

والندم الآخر إيجابي، وصحي و Sovi؛ لأنَّه يعبر بصدق وألم حقيقي عن حسرات ضائعة من عمر الفرد بعد ضياع فرص لأداء الأفضل من فرائض وعبادات، وفرص الخير؛ ولأنَّه يفجر في داخل الفرد قوة دافعة لتجاوز سلبيات الماضي، ورغبات قوية لتحرير النفس من أوضاع الشر، ومن أصفاد الشهوات المحرَّمة، ورواسبها القابعة في

نفسيته من ماضيه.

وما لا شك فيه أن تجربة (الانحراف) لا تسقط نهائياً بمجرد وجود رغبة داخلية بالثورة عليه، وبذل الجهد لتدمير آثاره، فما تسميه الوصيّة بـ(سالف الذنوب) يترك في نفسية الفرد روابتها المدمرة لأي حركة إيجابية أو تعوقها على أقل تقدير، ويعني استمرار وجود تأثيرات داخلية متصلة بهذه الرواسب النفسية، وبقاء نشاطها داخل الفرد وهو يخوض تجربة تغيير جديدة مضادة لواقع الحال في ماضيه، فتعمل هذه الرواسب وما يصاحبها على جذب الفرد نحو حياته ب الماضي متى وجدت فسحة أو فرصة لسحبه نحو ذاك الواقع والعودة إليه بأي مقدار قد يتزايد شيئاً فشيئاً.

بيد أن وصية الإمام الباقر عليه السلام، كسائر وصايا أئمة أهل البيت فهم يعززون فيها جهدهم الإرشادي في خدمة الفرد المؤمن وتنمية استجاباته للخير، وهي بالتأكيد قوى مضادة لتأثيرات الماضي الغارق في شهوات (الانحراف) ورواسبه النفسية، ويقدمون خطوات علاجية إماً بالتحذير حيناً، أو بإجراءات علاجية ومعالجات عملية حيناً آخر، فذكر مقطع سابق في الوصيّة حالة من الندم الصحي، وحضرت من التسويف والرجاء الكاذب بتحقق الخوف الصادق، ومن الغفلة، وقصارة القلب، والتواني عن عمل السلوك العبادي الصحيح بأعذار تختلق باستمرار، وفي ذلك يجد بعض النادمين ملاذهم، ولكن لا يصحح واقع الحال، ووضعت لمشاعر الندم معالجات، ويمكننا قراءة هذا المقطع من نص الوصيّة ومعرفة خطوات العلاج لتعديل السلوك الخاطئ، وغير العبادي، وتحرير النفس من قبضة رواسب النفس وهيمنة سالف الذنوب على حد تعبير الإمام الباقر عليه السلام في هذه المقطوع من نصوصيه:

«وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإياك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيّن الله عز وجل بالصدق في الأفعال، وتحبب إليه بتعجيل الانتقال،

وإياك والتسويف فإنه بحر يغرق فيه الهمجي، وإياك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإياك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فإليه يلجأ النادمون»، وقالت بعض الجمل في المقطع ذاته: « واسترجع سالف الذنب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم»، ثم نصح الإمام الباقر عليهما السلام بخطوات معززة بقوله: «وتعرّض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن».

فالندم بمعناه السُّوي بمثابة صحوة في ضمير الفرد، وحالة تيقظ ذهني لعقله، وذلك بعد تحذيره من السقوط في غفلة ثقيلة، وفي حالة تبلد لمشاعره الوجданية، وصرف طاقة ذهنه، وتفكيره فيها يضره، ولا يساعد على تطوير واقعه الشخصي، وليس هناك من مخرج سوى إحداث (هزة وجданية) شديدة الواقع تحتاج داخله، وتقطع صلة الفرد بهاisty أو تضعفها على الأقل، وتكون هذه الهزة بمستوى حالة (ندم شديدة) اقتربها الإمام الباقر عليهما السلام في وصيته، وما يعقبها من توفير حرارة شعورية، ووضع قواعد بناء تجربة تغيير عبادية لحياة فرد يريد أن يبدأ من جديد لبناء شخصيته على أنقاض ماضيه، وبحلاؤه ذكر الله، وسمو تعاليم شرعه عز وجل، وما لا شك فيه أن القارئ الحصيف يدرك معنى هذه الهزة، وما يصاحبها من رغبة في التغيير، ويفهم بعض ما اقترحته الوصيَّة المباركة لجعل حالة الندم فاعلة وإيجابية، وبرضا الله سبحانه.

وإذا كانت تجربة المؤمن في مواجهة نفسه تنجح بمحابية هواها وشهواتها، وبصراعته الوعي والمقاومة المستمر مع نفسه في محبة الله عز وجل، وبحاله الفزع إلى التوبة ومخافته، فيزداد بصيرة ومعرفة، ومحبة له سبحانه، فإنَّ تصفية ما أسمته الوصيَّة بـ(سالف الذنب) وإضعاف تأثير روابتها المعوقة، بل والمدمرة تحتاج إلى استخدام معززات لدعم التغيير في اتجاه رباني، كأن يستقل العبد المؤمن من نفسه كثير الطاعة لله، وإزراء



النفس على ما تفعله من محركات تغضب الله ولا تريح النفس، وكذلك تعرض العبد المؤمن للعفو والرحمة الإلهية، وشدة تيقظه الذهني، وصدق خوفه، واسترشاده بالعلم ودلالة العقل، وكثرة الاستغفار، وذكر الله في الخلوات، وبتجارب تدريبية إيجابية لترقيق القلب وتليين عواطفه الإنسانية بشدة الندم، واستمرار دوام الحزن على ما فات من عمر في ضياع فرص القرب من الله وقيم دينه، وتزيين النفس بصدق الأفعال، وحسن المراجعة، والاستعانة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم، وبعظم الشكر على نعم الله وألائه، وتوسله بعظيم الشكر بخوف زوال النعم، وغير ذلك مما اقترحته وصية الإمام

محمد بن علي الباصر.

١٠. مبدأ معرفة النفس.

يعد هذا المبدأ شرطاً أساسياً لنجاح عملية البناء العبادي للشخصية الإنسانية، وضرورة تربية تقدمية ومستمرة لضمان تحقق هذا المبدأ المعرفي، ووضوح آثاره في الواقع العملي إن كان على مستوى البناء الوقائي للذات، أو إعادة تعلم السلوك بطرائق علاجية، فالفرد المؤمن بهذا مبدأه في التربية الوقائية والعلاجية والإنهائية معًا.

ولن ننجح تجربة تعديل السلوك وتحسينه ما لم يتخذ لهذا المبدأ اعتباره الواقعي، وبذلك يجب منذ البداية حينما نبدأ في عملية تربية أنفسنا بالطريقة الوقائية أو حين نقع في العيوب والذنوب والسيئات وسقطات السلوك أن نعرف الفضائل لمواجهة الرذائل، وأن نعرف قدراتنا لمواجهة ضعفنا، وإدراك ما أتقناه من فكر وتعاليم وسلوك جيدة، وما لم نتمكن من إتقانه بعد، فيعمل بعد ذلك على ترسیخ التعلم المتقن وتقوية وجود الحسنات في شخصية المرء، ويقابل المهمة الأولى أداء مهمة ثانية تستكمل العملية التربوية بنحو أفضل وتقوم هذه المهمة على تصحيح الأخطاء والتناقضات، ويطلب ذلك معرفة الذات، ومنهج العمل، وكيفية الملاعنة بينهما في برامج تطبيقي فعال، ويتم

متابعته، وبدون غفلة، وإدراك أهمية ذلك كله في تنظيم سلوك الأفراد، سواء بربط المثيرات والاستجابات المناسبة مع بعضها، أم باستثمار معرفة أثر العمل، وما تعلمناه في تقوية الترابط بين المهمتين.

وتعرض نص الوصيَّة الباصرية إلى هذا المبدأ بأكثَر من إشارة في تركيبتها اللفظية، وكانت بعض الاشارات مباشرة مثل قول الإمام الباقر عليهما السلام في نصين قصيرين، وكلاهما بدلالة إيجابية يصب في تقوية فعالية هذا المبدأ في الحياة الوقائية للإنسان أو حياته العلاجية، ورد في أحد النصين: «ولا معرفة كم عرفتك بنفسك»، وهو يخاطب جابرًا وكل مؤمن يعني ب التربية شخصيته، ومجاهدة نفسه، في مواقف التربية الوقائية والإئمائية والعلاجية، ويستفاد من هذه الجملة العلنية وال المباشرة، تأكيد الإمام بأنَّ معرفتنا لنفسنا هي أسمى أشكال المعرفة لدى الكائن الآدمي.

ويمكن الاستفادة من المحتوى المعرفي للوصيَّة الباصرية بتأكيد الإمام عليهما السلام على العلاقة بين العلم والمعرفة وبين سلامَة القلب في حياة الكائن الآدمي، ومصطلح «سلامَة القلب» هو في حقيقته -وكما نرى- تعبر يعادل مصطلح (الصحة النفسية) المتداول في أدبيات علم النفس المعاصر، يقول النص في الجملة الثلاث التالية: «وأعلم أنه لا علم كطلب السلامَة، ولا سلامَة كسلامَة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى».

ويستفاد من مضمون هذه الجملة الثلاث بأنَّ قدرة الأفراد على تحقيق راحة في نفوسهم، وبلغ مستويات معقولة من الصحة النفسية أو ما أطلقت عليه مصطلح (سلامَة القلب) مرْبُوط بترزoid النفس بصفات عبادية مثل (أداء الفرائض) التي تتحقق بها وبكمال توجيهات الإمام الباقر عليهما السلام شيئاً من الاتزان النفسي والعقلي للفرد، وكذلك يتم تحقق (سلامَة القلب) بتحرير النفس من العوائق والعوامل المؤثرة على صيتها كالذنوب والمعاصي وأمراض السلوك، وهموم الحياة وضغوطاتها كالطمع وما يصاحبها من شعور



بـ(الذل) للعبد، وغفلة، وتبدل انفعالي، ومن خضوع للشر بضراره المميتة على النفس، وجزع ناجم عن قلق (الذم من الآخرين)، وإحساس بعض الأفراد بالفشل في مقاومة نزعات النفس وتأثير صراعاتها الداخلية، وهكذا تولد الصحة النفسية، ويتحقق الفرد سلامته (قلبه) بمعرفة عن الجانبيين (تربيه وقائية لتجنب الذات من الوقوع في المعاصي والمهالك، وتربيه علاجية تنتشلها من سطوة ذنوبها وسيئاتها).

ولكنَّ معرفة النفس كانت كما نعتقد مقصودة، لضرورتها التربوية، وواضحة في عبارات، وجمل ومقاطع لفظية غير مباشرة، ولكنَّها تعني تأكيدها بصورة غير مباشرة في بعض المواقف التي مررنا بها على عناية هذه الوصيَّة بمشاهد ذات أهميَّة من (معرفة النفس) وغرضها إرشاد الفرد المؤمن، ومساعدته على بناء ذاته، وتعديل سلوكها غير السوي، وإذا ما أعدنا النظر مرة أخرى في بعض المواقف المستمدَّة من نص الوصيَّة نجد أمامنا مشاهد ميدانية وعملية لا يستثمار ما نعرفه عن أنفسنا بالتفكير وغيره، وأخذ العبرة والعظة التربوية الازمة.

ففي المقطع الأول من نص الوصيَّة حَتَّى باقر العلم صاحبه (جابر الجعفي) فدعاه إلى إشغال نفسه بالتفكير في أقوال الناس لا في عداواتهم، قال الإمام الباقر عليه السلام جابر: «وفَكِّر فِيمَا قِيلَ فِيكَ»، وهو عملية تأمل ذهني تدرس أقوال الآخرين ودعاؤهم، بل وأكاذيبهم الاستفزازية والعدوانية، و تستنتاج منها، و بواسطتها (ما صحَّ منها، وما لم يصح)، ومعرفة الأثر التربوي لهذه المعرفة في إدراك نتيجة ثقيلة قد تكون سلبية بسقوط الفرد (من أعين الله) تبارك وتعالى، أو سقوط الذات (من أعين الناس) وتقديرهم الاجتماعي، وهذا يتضمن الخوف على الذات، والمبادرة العاجلة بتعديل السلوك، وطلب منه معرفة أنه إذا لم تصح أقوال النَّاس فيه فهذا يعني نتيجة آمنة، بـ(حصول المؤمن على ثواب) يكتسبه الفرد من غير أنْ يتعب بدنَه، وليس هذا المشهد إلَّا نموذجاً على توظيف

مبدأ (معرفة النفس) في الحصول على معرفة أسمى هي (معرفة الله سبحانه، وقرب العبد المؤمن منه).

ونعود مرة أخرى لوقف (المجاهدة النفسية) وصراع المؤمن مع نفسه وشهواتها حتى يتتعش، ويقيل الله عثرته بالذكر، واستبصار عقله ونفسه، وزيادتها معرفة، فهذه الإشارة هي مصداق لتأكيد نص الوصيَّة التربوية الارشادية، وهي متوقفة فعليًّا على معرفة الفرد بنفسه، وبقدراته وحسانته، وطرق معالجتها كما في قول الإمام الباقر (عليه السلام)، وهو يشير لمشكلة (إعجاب بعض الناس بأنفسهم)، وعلاجها (بطريقة وقائية) بمعرفة للسيطرة على هذه المشكلة ومضااعفاتها في سلوك الفرد، حيث ذكرت وصيته: «وَسُدْ سَبِيلَ الْعَجْبَ بِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ»، وتعني هنا أن يبادر الفرد بمعرفة نفسه ليعرف بعض عيوبها وأمراضها كالعجب قبل نشوئه فيها، ويتصدى لهذا المرض بأدوات إيمانية كـ(أداء العبادات والفرائض)، والتواضع وسائر القيم الأخلاقية، وتليين القلب وترقيقه، وشحن النفس بمشاعر الاحترام للآخرين، وليس نص هذه الوصيَّة إلَّا لتحقيق هذين الجانين في بنيان الشخصية العبادية في زمن جابر الجعفي، وما بعد زمانه إلى يومنا الحاضر.

وتؤحي لنا الوصيَّة الإرشادية في عدد من كلماتها ومفرداتها ومصطلحاتها بأهمية معرفة النفس واستثمارها في التربية وإصلاح النفوس، ومن ذلك مصطلحات (حاضر العلم، شدة التيقظ، دلالة العقل، استرشاد العلم، معرفة النفس، صحة التتفويض، قلة الخطأ، حسن المراجعة، نور اليقين، واستصغر الدنيا، ولا معصية كعدم العقل)، وكان غرض هذا الاستخدام هو تحقيق انتصار و(غلبة الذات على الهوى ونزواته ونوازعه) ومقابل ذلك تحقيق (سلامة القلب أو الصحة النفسية)، ويرتبط جميعها بمعرفة سليمة للنفس وخفائيها ومتعدد قوى البناء فيها، وثغراتها، وعوامل المهدم فيها، وتآزر هذه



القوى يساعد على توفير قدر معقول من الصحة النفسية أو (سلامة القلب)، وهي أعلى أشكال السلامة على حد تعبير وصية الإمام عليه السلام، إذ قال: «ولا سلامة كسلامة القلب» كما في بداية الجزء الرابع من وصيته.

إنَّ بعض ما ذكرناه باجتهدادنا في فهم المحتوى المعرفي للوصية مجرد نماذج مقتناة حسب نظرتنا المتواضعة في تفسير النص الإرشادي لوصية الإمام الباقر، ولكنه فهم يتبعني بناء ثقافة سيكولوجية يصب خيراً لها في الارتقاء بالإنسان وتطوير قدراته، وقواه الداخلية، ومن هذه القدرات قدرة الأفراد المؤمنين على كف السلوك المحرم في مواجهة من يسيء لهم، وقدراتهم على رد الغضب، والسيطرة عليه، وإمكانية التغيير نحو الأفضل، حتى يتم تحقيق حالة الاتزان النفسي والانفعالي، وسلامة القلب في نهاية الأمر بما يشعر فيه الأفراد المؤمنون بالسعادة والارتياح والرضا النفسي عن الله عز وجل أولاً، وبقدر آخر من الرضا عن أنفسهم وذواتهم ثانياً.

١١. مبدأ الترويح عن النفس وراحة القلب:

ولا يحتاج هذا المبدأ إلى شرح مطوي، فكل نفس، وبخاصة حين تملئ سامة، وتعباً وكآبة وهموماً تميل إلى الترويح عن نفسها بأدوات وأساليب معتبرة في ثقافة الشخص، ومتناسبة مع منظومة القيم التي عاش في كنفها، وأشبع هويته منها، فحياة الإنسان كانت في بعض الأزمنة بسيطة، لكن نفسية الإنسان تتجه للترويح، وكلما تراكمت تعقيدات الحياة عبر تراكم مشكلاتها، وثقلت صعوباتها، شعرت النفس بحاجة أكبر لعملية الترويج، وتفریغ المهموم من داخل النفوس، وطرد الضغوطات أو التقليل منها على أقل تقدير بأساليب عديدة، ولكنه يراد لعملية الترويج في نص وصية الإمام الباقر عليه السلام أن تتسم بطابع عبادي حلال، ومشروع، وغير عصابي، وأن تتهيأ النفس - سواء بخطوة استباقية او بتجربة تعديل سلوكي لاحقة - إلى مسعها في تحقيق حالة الرضا الداخلي،

وبعض مشاعر الارتياح النفسي، وتسكين معاناتها براحة ومنع غير محرمة؛ لأن النفس مثلها - كالجسد والعقل - تحتاج إلى الراحة، ورفع همومها، وضغوطات الحياة من داخلها، وإزاحة التوترات عن كاهل الأفراد ليستأنف نشاطه بعمل جيد، وبأدوات وطاقات، ونفسية جديدة قادرة على تحقيق أهداف المشرع التربوي الإسلامي، وتحقيق مطالب هذه الوصيَّة الكريمة.

ويمكننا الوقوف عند بعض المحطات التي تستهدف إحداث تغيير في النفس بالترويح، وبأنشطة قرية منها، ونستخدم - بالضرورة - بعض نصوص الوصيَّة، وجملها، وعباراتها في وصف (الترويح) كمبدأ في تنظيم سلوكنا، وفي تحسين أداء الأفراد، وتقوية طاقتهم، ونشاطاتهم سواء ما كان في نطاق الجانب العبادي، أو في جوانب حيوية من كيان الشخصية الإنسانية برفع الرتابة وحالة السامة، واستفراغ طاقات جديدة.

جاء في مقطع مكون من ثلاث جمل متراقبة، وتتآزر جميعها في ربط العلاقة بين راحة النفس وراحة البدن بإجمام القلب.. أي راحته، ومن ثم كان مضمونها بوجه عام تحقيق منافع إيجابية على الصحة النفسية والعقلية والبدنية للفرد من حيث رفع الكآبة والسامة، والملل عن النفس، وتنشيط قواها وطاقتها، ولتأمل بعض ما اختزنته الجمل الثلاث من معانٍ سيكولوجية، وحث على توفير الراحة للنفس والقلب والبدن معًا في كلام متصل مع بعضه، تقول جمل الوصيَّة الثلاث، والواقعة في منتصف الجزء الثاني من وصيَّة الإمام الباقر عليهما السلام: «وتحلَّص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجمام القلب، وتحلَّص إلى إجمام القلب بقلة الخطأ».

ونحتاج في هذا الصدد إلى تفسير قصير، ومبسط لمعنى مصطلحي (صحة التفويض، وإجمام القلب) اللذين وردَا في الجملتين الأولى والثانية، وتكرار (إجمام



القلب) في الثالثة، ومعرفة علاقتها بما يحقق راحة النفس، والترويح عنها.

وتقضي عملية فهم المعنى في الفقرة السابقة المكونة من جمل ثلاث، تفسيراً مبسطاً لمفهوم المصطلحين الأساسيين فيها، وهما مصطلحاً (صحة التفويض) و(إجمام القلب)، فالتفويض يراد به أنَّ الشخص يُوكِلُ المهمَّةَ، أو إدارة شؤون خاصة به إلى جهة معتبرة، وموثوقة، ويكاد يشعر المرء بهذا التفويض بقدرة هذه الجهة أو تلك على إدارة العمل، وحسن التقدير، والتصرف السليم، وتؤكد معاجم اللغة ومصادرها على هذا المعنى العام.

وتتقدم كما نلحظ مفردة (التفويض) مفردة سابقة هي لفظة (صحَّة) ليكونا معاً في مصطلح جامع باسم (صحَّة التفويض)، ومفاد هذا المصطلح أنَّه لا يكفي التفويض وحده، فالاكتفاء بعملية تفويض أمورنا إلى أحد هو في نظرنا عمل قاصر لا يبلغ بالعمل المفْوَض به إلى منتهائه، وهذا لا بُدَّ أن تكون عملية التفويض عملاً كاملاً، ومرهوناً بالسلامة وصحة موقفنا بتسليم المهمَّةَ أو شؤوننا في اختيار مَنْ فَوَّضَنَا إليه الأمر أو انجاز وأداء المُهمَّةَ الإرشادية، فإذا تكاملت عملية (التفويض) بسلامة وصحة اختيار المُفوَّض إليه، تكون قد تحققت (الراحة النفسية) بمعناها الكامل أو بمستوى مقبول بالحد الأدنى.

وباستنطاق مفردات وردت في نصوصية الإمام الباقر عليه السلام وهو يوجه إرشاداته لصاحبه جابر نجد أنَّ باقر العلم عليه السلام شدَّد على صحة تفويض أمورنا لمن نختاره في عملية تفويضنا له بثقة وأمانة واطمئنان، وللحظة بين طيَّات هذه الوصية إيكال عملية التفويض إلى قوى حاكمة، ورشيدة، ومؤثرة بإنجاحية، كالعقل، والعلم، والدين والقرآن، والضمير أو الوجدان الأخلاقي، وغير ذلك.

وتبرز في نصوص الوصيَّة الارشادية استخدام ألفاظ ومصطلحات (كاسترشاد العلم، ودلالة العقل) كدليل إثبات على أهمية حُسْن اختيارنا للمفهوم إلَيْهِ، وباتفاقان، وحسن التصرف، ووعي، وهذا ما فهمناه بارتياط (راحة النفس) بـ(صحة التفويض)، فهذا المصطلح يعني نجاحنا في تفويض أمورنا وإسنادها للقوى الحاكمة لنا برشد إسناد شؤوننا (للدين والقرآن والعقل والضمير الأخلاقي) كي تتحقق في الواقع (راحة النفس) بصحبة هذا التفويض القائم على إسناد أمورنا مثل هذه القوى الموثوقة بسلامتها، وصححة موقفها.

أمَّا إيجام القلب فيعني مفهومها في الإجمال (راحته)، أو ترك القلب ليرتاح، ويراد بالاجمال هنا (الراحة) كما في الأمثلة التي ساقها اللغويون لتفصير معنى (أَجَمَّ)، فمنْ أَجَمَّ قلبه -نفسه- يكون قد تركه، وأراحه، ولهذا قيل كأمثلة في بعض معاجم اللغة وقواميسها: (أَجَمَ الفارس فرسه، تركه ليستريح، وأَجَمَ لسانه، أي سكت عن الكلام واستراح، وأَجَمَ الرجل، سكت على غيظه، وأَجَمَ القلب، تركه في راحة).

ولانجد غرابة أن مطالبة الإمام الباقر عليهما السلام لجابر الجعفي بمنع صدور استجابات محَرَّمة ترد على الآخرين بمثيل ما عاملوه هي أحد أبواب تحقيق راحة للنفس، وصدتها بطريقة وقائية عن اجتياز هموم ناشئة عن مشكلات ترتبط بطبيعة الرد بالملائكة، فإذا ردَّ المرء على أقاويل الناس باستجابات عصبية تربَّ عندها بالتأكيد بروز مشكلات في حياة الفرد بنحو تحرُّمه من الراحة النفسية، وتزييده معاناة وقهراً وهموماً بدلاً من إزالتها أو تحفيف ضغوطاتها على نفسه، فالأمر بـ(كف النفس عن الرد بسلوك مماثل) هو أمر منطقي، بالإضافة إلى كونه حركة تعبير عن سمو أخلاقي، فامتناع الفرد عن الرد عليهم بعدوانية يعني أنه اختار (راحة نفسه) من كل الضغوطات التي تصاحب العداون، والعداون بمثله، وإبعاد نفسه عن العلاقات السيئة بينه وبين الآخرين؛ لأن لحظة الرد



تنتهي بوقت وزمن، لكن تبعاتها تظل بأثر رجعي لأمد طويل لسوء الحظ في حياة بعض الناس الحمقى.

وعبرَت جملة عن هذا المبدأ بصورة لفظية غير مباشرة، فالجملة في الجزء الثاني نصحت جابراً وكل مؤمن بأن يتوقى مجازفة هواه، وأن يسترشد في خطوهه الوقائية بالاهتداء بالعقل، والتخاذل كدليل عمل، والاسترشاد بالعلم، قالت الوصية: «وتَوَقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل» أو باسترداد العلم (لتحقيق نصر وغلبة الهوى والسيطرة على نزوات شهواته) وينطوي هذا الموقف على طلب إيجابي لراحة النفس، وتوفير راحة داخلية لها، فلفظة (تَوَقَّ) تعني التحرز والاحتياط، والبدء بأعمال صحيحة لمنع مخاطر الهوى من السيطرة على النفس، وتجنب المجازفة بمواجهة مخاطر تسبب للإنسان قلقاً، وتوترأً، وأضطراباً ناجماً عن خضوع الفرد لأهواء النفس وشهوتها.

وحينئذ لن يمكن الفرد المؤمن من تخلص نفسه من ضغوطات هذه المشاكل؛ لأنَّه فوَّض نفسه لشهوat ليست راشدة، ولكنَّه لو فوَّض أمره (العقل رشيد) أو (الأحكام دين صحيحة) فإن الناتج المنطقي حصوله على ما يخلصه من هذه الضغوطات المجهدة، وتمكن من الحصول على قسط مقبول على الأقل من (راحة النفس).

وهكذا فـ(راحة النفس) التي استهدفت تحقيقها وصية الإمام الباقر عليه السلام ليست بإزالة مسببات القلق، والتوتر، والتآزم الداخلي، والصراعات بين الفرد وقيمته، وشهوat نفسه، وإنما بتسلیم أمره لحاكم مُفْوَض، ورشيد في أحکامه ونظرته الصائبة في إدارة الصراع كـ(العقل، الدين والوجدان الأخلاقي)، وهي جميعاً تتعاون في تحقيق راحة النفس، وسلامة القلب بمستويات وفق ظروف متغيرة من فرد إلى فرد آخر.

١٣ . مبدأ التوازن النفسي وأثره في تنظيم سلوكنا:

قلنا في دراسة تربوية سيكولوجية سابقة أنَّه: «لو تصورنا حياتنا دائرة ارتسمت في داخلها مجموعة خطوط مستقيمة تلتقي في نقطة تعرف بالمركز، وتتباعد في أطرافها بدرجات متساوية، وتكون هذه الخطوط متتجاذبة نحو (المركز) بقوة واحدة، فإن الشخصية الإنسانية تمثل في نسيجها العام مجموعة قوى وعناصر تبدو في ظاهرها متناقضة، متعددة المسارات، لكن انتظامها على قوة ضبط متعادلة، لا تسمح بغلبة جانب على آخر يجعلها متوازنة».

فالتوازن معناه التقاء هذه القوى عند نقطة وسط تعادل بين الدفع والجذب، بين الماديَّات والمعنويَّات، بين الفردية والجماعية، بين قوى الجسم والعقل والروح، بين كافة العناصر المتعددة المكونة للذات البشرية، فالتوازن وضع هذه القوى في نقطة مركز توزع قدراتها الدافعة والجاذبة على جميع الجوانب في الكيان البشري بقوة تناسب طبيعة كل عنصر مكون للذات البشرية، فتتعادل في النشاط والفعالية والдинاميكية، وتعمل الجوانب المختلفة للشخصية المسلمة الملزمة بمنهج الله في انسجام، وتنظيم حركتها في اتجاه واحد، أنَّه -أي التوازن- يعني الجمع بين محسن الأطراف لمقابلتين دون عيوبها في نقطة التقاء^(١).

وبتأمل بعض عبارات الوصيَّة نلحظ أمثلة للتوازن، وندرك معه قدرته على تنظيم السلوك وحركته في اتجاه واحد لا تضارب فيه ولا تناقضات، ونضع أعيننا على مجلتين مكونتين من ثماني كلمات متقابلة اختزنت دعوة من الإمام محمد الباقر (ع) للتوازن في السلوك المقابل، قال الإمام الباقر لجابر: «يا جابر اغتنم من أهل زمانك خمساً:

(١) مدن، يوسف، بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي، ص ١٩٣.



- «إِنْ حَضَرْتَ لَمْ تَعْرُفْ، وَإِنْ غُبْتَ لَمْ تَفْتَقِدْ».

- «وَإِنْ مَدَحْتَ فَلَا تَفْرَحْ، وَإِنْ ذَمَّتَ فَلَا تَجْزَعْ».

المشهد الأول.

«إِنْ حَضَرْتَ لَمْ تَعْرُفْ، وَإِنْ غُبْتَ لَمْ تَفْتَقِدْ».

تنطوي الجملة الأولى من العبارة أعلاه على ميل فطري في تركيبتنا الأدميَّة للاجتماع الإنساني بالآخر، فالإنسان كما يقال (مدني بطبعه)، و(كائن اجتماعي بطبعه)، ويعبّر عن هذه الحالة الاجتماعية بموافق وصور عديدة كحضور مجالس الناس، ومناسباتهم، وصلواتهم الجماعية، وغير ذلك، بيد أنَّ نفسه تحفي في داخلها قدرة فطرية على أن لا يعرف في الوقت ذاته بين الجمع بداعف مثيرة تضفي عليه حب البروز، ويجره من الميل غير السوي إلى (حب البروز)، وبمقتضى هذه القدرة في تكوينه الفطري لا تستثيره رغبة مريضة في البروز بين الناس، ولا تطوقه دافعية شهوية للظهور بداعف مريضة، فتفسد عمله وتحبط أجره، ونظن أنَّ الإمام الباقر عليه السلام ربِّاً قدّص تحقيق توازن بين حضور الفرد بين الناس في مجالسهم بدون رغبات غير توافقية في البروز وحب الظهور، أي إنه يطلب برغبة خفية ثمن حضوره بالاهتمام به وتقديره اجتماعياً، ويكون عمله في الخير أقرب إلى مرض (الرياء) حينما يربط حضوره الاجتماعي بحب غير سوي في الظهور الاجتماعي.

وإذاً ما تمكن الفرد من فرض هذه المعادلة بين حضور اجتماعي معتبر، وبين قدرته على كبح شهوته في البروز المرضى، وحب الظهور يكون قد حلَّ حالة من الصراع الداخلي بين حاجتين يريد بالأولى إشباع رغبته في مؤانسة الآخرين، وبين رغبته الثانية إظهار ميوله في البروز وحب الظهور بنزعه شهوية ذاتية، ومتي نجح الفرد (المؤمن) في ضبط الشعور الداخلي لاجتماعاته بالناس وحضور مجالسهم، وسيطر على داخله

بنزعة موضوعية تهتم بإنجاز الأهداف العبادية، وتقديم العون للناس بلا رغبة في السيادة والبروز وحب الظهور يكون قد أنجز عملاً عبادياً متحرراً من شوائب الدنيا، وطهّر نواياه الداخلية من مرض الرياء. هذا عن الجملة الأولى من عباراته أما الجملة المقابلة فهي امتداد لهذا الميل الفطري للاجتماع بالغير، فهي تتحدث عن حضوره الحي وإن غاب جسده المادي: «إِنْ غُبْتَ لَمْ تَفْتَقِدْ»، فالغياب الجسدي يمكن لظروف يعيشها الإنسان، ولكن هذا الغياب البدني يُعوّضه المؤمن بالحضور المعنوي الذي تركه في نفوس الناس، فهم يذكروننه دائمًا في غيابه؛ لأنّه كان يخدمهم أو يظهر عواطفه في مودتهم، واستفراغ مشاعره الوجدانية لصالحهم، وهم يتحسّسون ذلك، فمتى غاب بيده حضر بينهم بقلبه وسلوكه وعلاقاته الطيبة.

وما لا شك فيه أن تحرر الفرد من شهواته في البروز والرياء وافتعال الزعامة يحبب الناس به، فلا يفتقد بينهم حين يغيب كما دلت على ذلك وصية الإمام الباقر (ع) بقوله: «إِنْ غُبْتَ لَمْ تَفْتَقِدْ»، ويرسخ هذا التحرر حالة توازن في نفسية الفرد بين حضوره بإيجابية تخلو من نوازع المرض، وبين غياب يفرض حضوره بنزعة إيجابية لا يشعر القوم فيها بغيابه؛ لأنّه نزع من أنفسهم كراهيته لتساميه عن حب البروز، ومشاعر الظهور والفوقة.

المشهد الثاني.

نلحظ بالدعوة المشهودة حالة من (التوازن الداخلي) في نفسية الإنسان وسلوكه قد استبطتها الجملتان السابقتان، فكلتا هما تختنان حالة توازن بين رغبيتين في داخل الفرد، تبدوان لنا كقوتين متعارضتين فقط، وهذا صحيح، لكن داخل النفس قوى تعادل بين الدفع والجذب تقودهما في نقطة التقاء بمنهج المعالجة بالأصداد، فيتحقق

قدر من التوازن الداخلي، وهذا يفتقده الأفراد في بعض الأحيان، ويترتب عليه سوء تكيف وعدم تكامل في دور الشخصية.

إنَّ الفرد يميل بتركيبته النفسية للمدح من الآخر، ويتحسُّن (لذَّة) في داخله، ويعقب هذا المدح انفعال يكون مصحوباً بلذَّة (إحساس بالارتياح النفسي)، ويتمثل في انفعال مريح، وحالة فرح واسحة وعلنية، ومقابل ذلك لا يميل الفرد -وبطبيعة كذلك- إلى ذم النَّاس له وتحقيرهم أياه، ويستنكف من هذا الفعل، ويعتبره إهانة وتحقيراً، وقد يصاحبه ضيق أو شعور بالقهر أو بالاشمئاز، والاستياء الناجم عن هذه الحالة الانفعالية، ويفقد الفرد حينئذ حالة التوازن في كليهما، وقد وجه الإمام الباقر جابر نحو عملية تحقيق تعادل بين رغبته في المدح، وعدم فرجه به، وبين رغبته في تجنب الذم، وعدم تحبسه بالقبح، تحسِّساً غير متوازن، ويصل إلى نقطة المهدوء، وهي مركز الالتقاء بين قوى تبدو متعارضة، ولكن بموافقت السمو الخلقي لدى الفرد تصل للتوازن، وتصاحبه لذَّة مريحة تفعل سحرها في داخله.

٤. مبدأ طلب العفو الإلهي:

كانت بعض جمل الوصية تُعدُّ أنها طَّافاً من السلوك المحرم (المعاصي والذنوب) كالظلم والخيانة والكذب والتکذيب، والذم والقبح في الآخرين، والغفلة، والتسويف، والتواني، والطمع، والجزع، وطيش الغضب، وخفي التزين (أي الدنس)، والحرص، والعجب بالنفس والاعتداء على الناس، والاستهانة بالذنب، وتفويت الفرص والتفریط فيها، وجميع هذه الحالات المرضية، والمعاصي ناشئة عن موافقة الإنسان لھوی نفسه، ود الواقع الشر فيها.

ويطلب هذا - كما في مضمون نص وصية الإمام محمد الباقر - فرعاً متجدداً

من النفس بالتنفس والتأثر بها، ومخافة الله سبحانه و عدم الاستمرار في الأفعال المحرّمة، وفي خضوع الفرد لتأثيراتها، وينطوي على رغبة (علنية أو خفية) في طلب عفو الله ورحمته وظلال لطفه، لكنَّ التعرض للعفو لا بد أن يكون مصحوباً بأعمال مشروعة لتصحيح سلوك الذات بتوبيتها، وكثرة الطاعات، ودفع نوازع الشر، وتحلصاً من الغفلة بشيء من تيقظ الذهن، وصدق الخوف، ووقاية النفس من مخاطر الهوى، وأداء الفرائض، والمسارعة في الأفعال الصالحة، وشدة الندم على ممارسة أفعال المعصية في أيّام سالفة، وبوسائل وأدوات أخرى كالشكّر وكثرة الاستغفار، وذكر الله في الخلوات، وحسن المراجعة، وخالص الأدعية يمكن أن تفتح النفس بباب (عفو الله) عن صاحبها، وتعرضها للرحمة وعفو الله عزّ وجلّ.

إن التعرض لعفو الله ليس أمنية في القلب، بل هو حركة وجدانية، وعقلية تطرق فيها نفسية الفرد كل الأبواب للوصول إلى العفو الإلهي، فهذه الخطوة هي فعلاً اعتراف صريح من الإنسان بالخطأ والخطيئة، وطلب في الوقت نفسه (للسلامة) في يوم لا ينفع فيه إلّا من أتى الله بقلب سليم، وهكذا فطلب العفو جهد لإعادة تنظيم السلوك بخاصة بعد إمكانية سقوط الذات في الأخطاء وفي بعض الرذائل، ومتى شعر الفرد بأنه نجح في تجاوز سقوطه حلَّ السلام والأمن النفسي في داخله، وخفَّ التأزم شيئاً فشيئاً حتى يستعيد الفرد اتزانه الانفعالي وتكيفه النفسي.

١٥ . مبدأ تكوين الاتجاه الإيجابي:

هذا المبدأ إن وظفناه بإيجابية أضحي بالنسبة للأفراد طاقة عمل متعددة في حياتهم، وإن أسناناً استخدامه تحول إلى معوق للحركة والنشاط كـ(خوف حاجز).

الحلقة التاسعة
المشكلات السلوكية
والحالات المرضية في وصيَّة الإمام الباقر

مقدمة

عرف الإنسان مشكلاته وأمراضه المتنوعة نفسية كانت أم جسدية وغيرها منذ بدء الخليقة، ومنذ بدء تفاعله على وجه الأرض، وارتبط بهذا التاريخ كذلك نشوء مبكر لمحاولات علاجية للسلوك بطرق متاحة عسى أن تجد حلولاً لهذه المشكلات والأمراض.

وظل مسار الحالات المرضية يأخذ بمرور الزمن اتجاهًا تصاعدياً كمَا وكيفًا، فقد تزايد عدد المصابين بالأمراض والاضطرابات النفسية، وتتنوعت على امتداد هذا التاريخ حالاتها الخفيفة والمعقدة حتى بلغت في هذا العصر وضعًا جعل منها مشكلة إنسانية كبرى تشغل بال العلماء والمفكرين وال فلاسفة، وأصبحت موضوعاً لعدد من العلوم والتخصصات والفلسفات، بل إن بعض هذه الفلسفات كالفلسفة الوجودية طالبت بتحويل الفلسفة اهتماماتهم من دراسة الوجود الطبيعي إلى دراسة الوجود الإنساني، وركزت على قضايا إنسانية أساسية ومهمة مثل قضية الحرية والمشكلات التي تهدد وجوده كالفقر والمجاعة والأوبئة والعنف وغيرها^(١).

وما لا شك فيه أن الإنسان بذل جهده منذ بدء تاريخ المرض النفسي في البحث عن تفسيرات وطرق علاجية، لكن هذه التفسيرات كانت - كما تبدو - أضعف وأقل سرعة من حركة نمو وانتشار الأمراض ذاتها، وقد أدى ذلك إلى تأخر واضح في حركة العلاج النفسي، رغم القفزات النوعية التي تحدثها عادة الأديان والدعوات

(١) مدن، يوسف، العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد، ص ٢٥ - ٢٦.

السماوية والحركات الاجتماعية الإنسانية بين حين وآخر»^(١).

وطالما أن الأمراض النفسية ومشكلات السلوك وحالاته المختلفة قديمة في تاريخ الإنسان، فشيوعها بين الناس متجرد كذلك منذ أمد بعيد، بل هي - كما يقول بعض الاختصاصيين - حالات مرضية شائعة أكثر مما يظن، وهي في زماننا أشد ضرراً من ضررها في الأزمنة سابقة السابقة لاشتداد زحمة الحياة وصعوباتها، ولضراوة حالات الصراع بمختلف أشكاله بين الناس والمرتبطة بها، وكذلك لازدياد مطالب الإنسان، وتعقد اهتمامات المجتمع.

وشاركت المصادر الإسلامية الأولى كالقرآن وكتب السنة النبوية وأحاديث المعصومين من العترة الطاهرة، والمصادر الثانوية ككتابات المسلمين وتراثهم الفكري في جعل الاهتمام بالتجيئات الإرشادية، والمعالجات الروحية والأخلاقية والمعرفية يتزايد منذ لحظة ظهور ديننا الإسلام، وقد اتسمت جهود هؤلاء العلماء بالدقابة والتركيز؛ وذلك لاختلازها من الآيات القرآنية وتفاسيرها ونصوص السنة وأحاديث الأئمة الاطهار ووصاياتهم وحكمتهم وخطبهم مصادر أساسية تستشهد بها تارة وتقتبس منها تارة أخرى، وظهرت هذه المحاولات مبكراً في تاريخ المسلمين، وتضمنت موضوعات متداخلة ذات صلة بواقع الإنسان ومشكلاته وأمراضه، والحالات التي تحتاج إلى مراقبة إرشادية وقائية وعلاجاً.

وهذه الوصيّة الخالدة التي نقوم بدراسة أحد أهم موضوعاتها هي فعلياً إحدى أدوات المشرع التربوي الإسلامي في الاهتمام بالإنسان، وقضايا تربيته وتنمية قدراته، والعناية بمشكلاته الفكرية والوجدانية والسلوكية، ومعالجتها ما أمكن بفكر إرشادي إنماجي تضمن معه الجانبيين (الوقائي والعلاجي) وقد طفتنا بعدد منها، ونتوقف هنا وفي

(١) مدن، يوسف، مصدر سابق، ص ٢٦.

هذا الفصل عن بعض المشكلات السلوكية والحالات المرضية التي رصدناها في طي مفرداتها وتركيبتها اللغوية ومحتوها المعرفي، وهي - كما كنَّا نقول - رؤية اجتهادية، ولا ينبغي أن تخرج عن ذلك حتى لا نلزم أحداً بأمور قصدها الإمام الباقر عليه السلام في وصيته الارشادية أو لم يقصدها، فإنَّ أصينا بعض القول، فالحمد لله عز وجل حمدًا كثيراً، وإن أخطأنا فمردود علينا وحذنا.

من هو المريض النفسي؟

نحاول - بادئ ذي بدء - وضع توصيف أولي، ومجمل للمرض النفسي، واستباكه أحياناً بمصطلحي (المشكلات السلوكية، والحالات المَرِضِيَّة)، وهم - كما نعتقد - أنساب في موضوع دراستنا من مصطلح (المرض النفسي) لا لعدم علميته، بل لأننا نرى في المصطلحين الأوليين أقل حساسيةً افعالية؛ ولأننا أقرب في نظرتنا للأخلاق، لصطلاحات وعبارات علم النفس المَرِضِي أو الأكلينيكي والعيادي، ومع ذلك نحن مضطرون لوضع مفهوم عام لمعنى المرض النفسي.

المرض النفسي، وجمعه عند اللغويين والمتخصصين (أمراض نفسية)، وكما ذكرنا أن نشأته قديمة في تاريخ الإنسان، ويسمى لدى المشتغلين في علم النفس بـ (المرض العصبي) أحياناً، أو بلفظة (العصاب)، في بعض التعبيرات السيكولوجية، أمّا الأمراض النفسية بجمعها فتعرف كذلك في أدبيات هذا العلم بـ (الأمراض العصبية)، وجرت استخدامات الباحثين وخاصة في علم العيادي أو الأكلينيكي، وهو يتم بالأمراض على تطابق معنى التسميتين (الأمراض النفسية والأمراض العصبية)، فإذا قيل أحدهما يعني به الآخر، وسميت بالأمراض النفسية لأنها ترجع عادة إلى أسباب نفسية بحثة لا أساس عضوي لها، ونقصد أن لا علاقة للمرض النفسي بأسباب عضوية أو جسمية



محضة، بل سببها عامل نفسي كالخوف والجزع والقلق والطمع، وإعجاب الفرد بنفسه، وسرعة غضبه وطشه، وإفراطه في الانفعال الغاضب واستجاباته.

ويستطيع العصابي أو المريض النفسي إدراك حاليته النفسية التي يعيش ظروفها، ويشعر بناوحي الشذوذ والقصور في نفسه، ومدى حاجته إلى الخلاص من الأعراض المصاحبة للمرض كالخوف والجزع والقلق والتوهם، والبالغة في الشك، والإفراط فيه بنحو يكاد يكون قريباً من الوسواس، ولكنه -أي المريض- قد يعجز عن القيام بمتطلبات حياته الفردية اليومية بدرجة معينة.

والمرض النفسي بإيجاز هو (خلل في أداء النفس لوظائفها الطبيعية والمعتادة اليومية)، وقيل في بعض التعريفات (اضطراب وظيفي في الشخصية)، وأسبابه نفسية بحثة، ولا يؤدي بالضرورة إلى اضطرابات حادة، وقوية في التفكير والإدراك، بنحو يجعل صاحبه عاجزاً عن التمييز بين الواقع والخيال كما هو حال المريض الذهني، وإذا ما ازدادت درجة المرض واشتدت، واقتربت من أعلى مستويات الشدة، يمكن أن تتحول الحالة المرضية الخفيفة لـ(مرض عقلي) يترك بصمات جديدة أكثر تعقيداً على المصاب، وهذا ليس موضوع بحثنا.

هذا بوجه عام - وبنظرنا المتواضعه - مفهومنا المجمل للمرض النفسي، وقد يتشابك مع بعض المشكلات السلوكية ويتدخل مع بعض الحالات المرضية كاستهانة الشخص بذنبه، أو عيشه في ظروف (كذلك طمعه أو إعجابه بنفسه أو تحت تأثير قساوة قلبه وتبلده فتصدر عنه استجابات عدوانية أي العداون على الآخر) أو استجابة مازوخية (وهي الرغبة في تعذيب الذات كتحقيق نفسه وازرائها، والرغبة في إذلالها بخنواع وطوعية)، ولكننا آثرنا استخدام مصطلح (مشكلة سلوكية) على بعض ما سنمر عليه في البحث من استخدام مصطلح (مشكلات سلوكية) أو مصطلح (الحالة

المرضية) على مظاهر سلوكية مريضة أخرى، فاستعمال مصطلح المرض النفسي ينطوي على حساسية انتفاعية لدى بعض الناس تتفاوت بينهم في الحفَّة والشُدَّة، لذلك رأينا من المستحسن استعمال مصطلحجي (مشكلات سلوكية) و(حالات مَرَضِيَّة) كعنوان رئيسي لهذا البحث، مع احتمال التلفظ في بعض الأحيان بمصطلح (مرض نفسي).

كيف تنشأ المشكلة السلوكية كحالة مَرَضِيَّة؟

يولد الإنسان بقابلية للتفاعل مع المؤثرات السيئة والخيرة على حد سواء، وهذا مدخل للسَّواء، واللَا سَواء في شخصية الإنسان، وتأتي الخبرات المؤلمة والاحباطات الشديدة المتراكمة وضغوطات الحياة، والصدمات الانفعالية أو سوء توافق الفرد نفسياً، واجتماعياً مع غيره من الناس داخل بيئته الاجتماعية لتكون أسباباً لظهور المشكلات السلوكية؛ لأنَّ ذلك يؤدي هذا الحال إلى إعاقة توافقه النفسي، وإعاقة ممارسة حياته السُّوَيَّة كتعرضه لألوان من الصراعات والإحباط المستمر والحرمان، وصدمات انفعالية.

ويتولد عن تأثيرات الخبرات المؤلمة، والصدمات الانفعالية وسوء التوافقات النفسية والاجتماعية نشوء بعض المشكلات السلوكية أو بروز حالات مرضية في سلوك الأفراد كما ظهر ذلك في طائفة من المشكلات المستخلصة من نص الوصيَّة مثل استهانة الفرد بذنبه، وضعفه أمام رواسب نفسه، وسالف ذنبه، وتسويقه في التخلص من معاصيه في الماضي، والتواني فيما لا عذر له فيه، واحتراق الأعذار لإبطاء التغيير، والاستسلام بدرجة ما للهوى وشهواته، والطمع إلى درجة (إذلال نفسه) تحت مطارق مطامعه وشهواته.

رصد المشكلات السلوكية والسياسات المرامية:

لقد اقتادنا بعض التأمل الذهني في المادة اللغظية الارشادية لنص الوصيّة إلى التعرّف على عدد محدود من المشكلات والحالات المرضية لدى الكائن الآدمي، ويعود سبب معرفتنا بهذا العدد من المشكلات والحالات المرضية إلى أن الوصيّة لم تُقدّم من قبل الإمام الباقر عليه السلام لصاحبـه جابر بن يزيد الجعفي كدراسة المشكلات السلوكيّة من أجل التكامل، وإنما تطلّبت الوصيّة المرور بعدد من الحالات المرضية ورصد بعض المشكلات التي يعاني منها الإنسان المسلم، وحدّدنا عددها بـ (عشرين حالة مرضيّة) متفاوتة في قوتها وشدتها.

ومع محدودية عملية رصدنا وتشخيصنا لأهم مشكلات السلوك وأمراضه الظاهرة في مواضع متفرقة من النص إلّا أنَّ هذه المشكلات والحالات المرضية تتنوع إلى حد ما، وتفاوت درجات كل منها من حيث شدتها، ودرجة خفتها، فقصاوة القلب على سبيل المثال حالة مرضية أقل من الشدة، والتعقيد والصعوبات إذا ما صدرت عن صاحبه أعمال ضد القانون، ويعاقب عليها الدين والقانون معًا، بينما يحتمل أن يكون الرجاء الكاذب وخداع الذات كمشكلة سلوكيَّة نبهت إليها الوصيَّة الباقيَة مرضًا أقل حدة وأخف شدة من قساوة القلب وجموه عاطفيًا، أو أقل حدةً من الاستهانة بالذنب ومضاعفاته في الحركة اليوميَّة للفرد، أو معصية (حب البقاء) لاقتراف الجرائم والاستمتاع بالملذات دونها هدف عبادي، فالمشكلة الأخيرة بحسب التعبير والوصف الباقيَة أشد العاصي شدة لقول نص الوصيَّة: «ولَا معصية كحب البقاء»، ويعني حب الإنسان للبقاء في هذه الدنيا الدينيَّة مع البعد عن الله ومنهجه وتشريعه.

و هذا التمييز في درجة الشدة والخلفة في المثال السابق هو مجرد وجهة نظر ذاتية قد تكون موفقة في بعض جوانبها، و مخطئة في جوانب أخرى.





قائمة للمشكلات والحالات المرضية:

لقد تعرفنا على مشكلات السلوك وحالاته المرضية المختلفة، ويمكننا الآن وضع قائمة مصغرة من المشكلات السلوكية، والحالات المرضية التي تعتبر بمثابة مشكلات سلوكية في حياة الكائن الآدمي بخاصة الفرد المؤمن.

١. استهانة الفرد المؤمن بذنبه، ورضاه بالحالة التي يكون عليها.
٢. مشكلة (ذل الطمع) والحرص.
٣. إزراء النفس -بمعنى تحقيركها- بنزعة حقيقية لا مفتعلة.
٤. غرور النفس.
٥. الغفلة عن مراقبة أفعال النفس.
٦. الرجاء الكاذب (وخداع النفس وتضليلها) بالأمور الخادعة الظاهرية.
٧. التسويف، والتواني، واختلاق الأعذار لإبطاء التوبة أو تصحيح السلوك الخاطئ.
٨. عودة (سالف الذنوب) واستئناف رواسب النفس عودتها من جديد كضغوط.
٩. قساوة القلب، وفقر القلب.
١٠. موافقة الهوى والانصياع التام أو الجزئي لشهوات النفس.
١١. عدم التعقل وطبيشه وحماقته وسوء التصرف.
١٢. معصية حب البقاء.
١٣. استكثار قليل الطاعة.



١٤. مشكلة الدنس أو كما تسمى بـ (خفي الرّين).
١٥. مشكلة السلوك الشير والاعتياد عليه بإلحاح شديد.
١٦. مشكلة الإفراط في الغضب.
١٧. الثقة بغير المؤمن.
١٨. مشكلة تفويت فرص الخير وعدم الاستفادة من المبادرة للخير.
١٩. مشكلة قلة الخوف من الله لقوله ﷺ: «ولا قلة يقين كفقد الخوف».
٢٠. مشكلة أنهاط السلوك العدواني مثل (ظلم الناس، تخوينهم، تكذيبهم، ذمهم والقدح فيهم وما يصاحب ذلك من حساسيات انتفالية، وكذلك العداون اللفظي).

تصنيف المشكلات السلوكية والحالات المرضية:

قمنا بعد رصد هذه المشكلات كحالات مرضية بتوزيعها وتصنيفها ضمن مجالات خمسة، مع اعترافنا بحالة التداخل والتشابك بينها، وكان غرضنا من تصنيف أنهاط من السلوك الّراضي لدى الإنسان في نصوصية الإمام الباقر **ع** أمران هما:

أ - حصر بعض المشكلات السلوكية التي وجدنا ما يلفت النظر إليها ويفتح أذهان بعض الباحثين للتأمل فيها.

ب - فرز وتسهيل دراسة هذه المشكلات السلوكية في نصوصية الكريمة.

ويمكن توزيع هذه المشكلات على انفراد، وتصنيفها لواحد من المجالات التي تتكون منها الشخصية البشرية كتصنيف مشكلة معينة مثل (حب البقاء) كمعصية روحية، ولكنني وجدت كذلك تجميعها ما نراه متشاربًاً من هذه المشكلات السلوكية



والمرضية في مجموعات صغيرة، وقد رتب توزيعها لمجموعات كما في الجدول التالي:

الرقم	نوع المشكلة	مجال تصنيفها
١	الاستهانة بالذنب، الرضا به، سالف الذنب، موافقة الموى، معصية حب البقاء، استكثار قليل الطاعة، الذنب (حفي الرين)، مشكلة قلة الخوف من الله سبحانه وتعالي.	مشكلات روحية، ونفسية
٢	ذل الطمع، الغرور، إزراء النفس، عجب النفس، أنهاط السلوك العدواني باستجابات متعددة أخرى.	مشكلات نفسية، وخلقية
٣	الغفلة، الرجاء الكاذب (خداع النفس)، طيش العقل وحماته.	مشكلات عقلية، ونفسية عقلية
٤	مشكلة قساوة القلب، فقر القلب، مشكلة الغضب، مشكلة الثقة بغير المأمون.	مشكلات وجودانية، ونفسية واجتماعية.
٥	مشكلة إلحاح الشر على النفس (وهي مشكلة الاستجابة لفعل الشر بالتعود عليه).	مشكلة نفسية وخلقية
٦	مشكلة تقوية فرص الخير، وعدم اغتنام المبادرات الخيرة.	مشكلات نفسية وخلقية.

دراسة مشكلة (الاستهانة بالذنب).. انموذج افتراضي:

بعد حصرنا لهذه المشكلة كواحدة من أهم الحالات المرضية التي نبهت الوصية إليها في باطنها اللغطي والمعرفي، وقمنا (اجتهاداً لا غير) بتحديد نوع المجال الذي تُدرج تحت مظلته، يمكننا الآن عرضها ك(انموذج) تطبيقي، للقارئ الكريم، وتوجيهه بعض

الباحثين الصغار، والمبتدئين لدراسة المشكلات المرَضيَّة، وإخضاعها لخطوات البحث المنهجي، وضبط الحركة بها وفق قواعد علمية كما في تدرج النص القرآني بمشكلة الاعتقاد الخاطئ بـ(الإله والخلق الحقيقى) في الآيات القرآنية من سورة الأنعام رقم (٧٤ - ٨٠)، وعرضنا نموذج قرآنى في تربية العقل الإنساني على قواعد التفكير العلمي السليم^(١) ومنهجيته السليمة.

إنَّ المثال القرآني السابق جمع مراحل التفكير وخطواته الأربع في نص موحد من آيات كريمة متتابعة، وهي (مرحلة الإحساس بالمشكلة وتحديدها، ومرحلة صياغة الفرضيات، ومرحلة اختبار هذه الفرضيات والتحقق من سلامتها، ومرحلة معرفة الحقيقة، وتنفيذ الإجراءات العملية لمواجهة المشكلات وحلها)^(٢)، وأعانتنا القرآن على ذلك، بينما نجد في معالجتنا لمشكلة الاستهانة بذنبينا وغيرها صعوبة في صياغة خطوات معالجتها بالقواعد العلمية القرآنية ذاتها، ومع ذلك فعقولنا قادرة على الاستفادة من المثال القرآني بكيفية التصرف مع هذه القضية وغيرها بالمنهجية ذاتها.

ولقد جمعنا في هذا المثال خطوات هذا المنهج ومراحله التي يمكن الاستفادة منها في معالجة (مشاكلنا السلوكية والحالات المرضية) في نص وصية الإمام الباقر وفي نصوص مختلفة له وللأئمة الطاهرين، وتنظيم خطوات المعالجة على أساسها، فالقرآن أعانتنا على التأمل في الانموذج والعمل به، وبقي في ميدان (واقعنا النفسي والاجتماعي) فرصة التأمل الذهني، وأن نتفكر ونؤسس لنهاية منهج عمل يقودنا لنتائج مماثلة، وإذا ما أخذتنا هذه الحالة المرَضيَّة كمشكلة سلوكية وجدنا أنه بإمكاننا السير بها وفق خطوات منهجية تؤدي إلى نتائج إيجابية بعد معرفة الحقيقة، والحصول على خطوات علاجية ثم العمل

(١) مدن، يوسف، التعليم والتعلم في النظرية التربوية الإسلامية، ص ٤٧٢ - ٤٧٤.

(٢) مدن، يوسف، مصدر سابق، ص ٤٧٢ - ٤٧٤.



بها على أنفسنا، وهذه الخطوات هي كما يأتي:

الخطوة الأولى: تحديد نوع المشكلة وهي (الاستهانة بالذنب) لدى الكائن الآدمي:

وهي ما تعرف في البحث العلمي بمرحلة الإحساس بالمشكلة، وتكون إماً بتنبيه من الآخرين أو أنه يدرك حالته في الاستخفاف بمعاصيه وذنبه واستمراره فيها بدون تغيير فعلي، ويتم في الخطوة (تحديد السلوك المستهدف المراد تعديله أو إزالته) كسلوكنا المستخف بالذنوب والمعاصي، ومن الضروري أن يقوم الفرد المؤمن بالتعرف على مشكلته، وقد يعتمد الفرد المؤمن على نفسه في هذا التحديد أو يستعين بمرشد أو مربٌ أو عالم أخلاقي أو أصدقاء راشدين.

الخطوة الثانية: جمع معلومات عن المشكلة:

وعادة ما يبدأ فيها الفرد المؤمن المستهدف بتغيير هذه المشكلة (الاستهانة بالذنوب) في جمع معلوماته عنها باللحظة والمراقبة اليومية للذات ولسلوكها أو بأدوات أخرى، وأحياناً تكون هذه المعلومات متوافرة، ويعلم بها في كيانه من قبل.

الخطوة الثالثة: صياغة فرضيات المشكلة:

وتعني تحديد الأسباب المفترضة لنشأتها وظهورها في حياة الفرد من أجل تفسيرها، وبالتالي لا نلزم أحداً باعتماد صياغة محددة لفرضيات، فهي صياغة مفتوحة للأشخاص المعينين ومرشديهم، ونقترح أن تكون الفرضيات على النحو التالي:

أ - افتراض أن هناك علاقة مترابطة بين حالة (الاستهانة بالذنوب) وضعف شخصيته، وتدني مستوى وعيه الديني.

ب - قد تعود أسباب استمرار هذه المشكلة (الاستهانة بالذنوب) إلى تأثير المحيط



التربوي وسوء التوجيه الأسري والاجتماعي والشخصي.

ج - إن المحيط التربوي للفرد قد ساعد على تنشيط قابلية الفرد على الانحراف.

د - ثمة علاقة بين استخفاف الأفراد بذنوبهم وضغوطات العمل، وإغراءاته المادية والدينية.

ه - إنه قد تبقى حالة (الاستخفاف بالذنوب) قائمة في سلوك الشخص بسبب تأثيرات روابسه النفسية السابقة التي أسمته الوصية بـ(سالف الذنوب).

تلك فرضيات، قد تصاغ من قبل علماء مقتدرین أو مرشدین بنحو أكثر دقة، ولكن المهم لصاحب المشكلة أن يتعلم معالجة مشكلته بطرق وقواعد من التفكير العلمي الها�د الذي ينتهي به إلى نتائج مفيدة، وتشعره بالارتياح النفسي، وحل مشكلته.

الخطوة الرابعة: معرفة تحديد الإجراءات العلاجية وحل المشكلة (تعديل السلوك):

بعد التحقق من صحة الفرضيات المسؤولة عن استمرار مشكلته، وحذف الفرضيات التي لا علاقة لها بالمشكلة فينتقل المرء إلى هذه المرحلة المهمة بمعرفة الحقيقة، والبحث عن حل المشكلة وتغيير البيئة النفسية والفكرية التي يعيش فيها الفرد، ويكون ذلك بتحديد دقيق لإجراءات المعالجة (بتعلم ذاتي أو استعانة بمربي)، وتصميم خطة العمل بمساعدة مرشد نفسي، عالم أخلاقي، ويفبدأ تنفيذ هذه الخطة في العلاج السلوكي، ويراقب نشاطه، وما صدر عنه من تغيير، ويعززه بإجراءات تربوية مضادة لما كان يعزز مشكلته في الاستخفاف بذنبه.

ويمكن أن تكون الخطة العلاجية منظمة تحفظ في ملف، أو صحيفة، او كتاب او سجل تراكمي كما أمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وتضم في طياتها: (أهدافاً، ومصادر مادية وبشرية، وتحديد وقت زمني، وأنشطة وإجراءات عبادية، وفحصاً



لنتائج العمل .. ما أنجز وما لم ينجز).

وقد اقترحت وصيَّة الإمام الباقر عليه السلام إجراءات عملية يمكن الاستفادة منها مثل بدء التوبة، وشدة التيقظ، والصدق في الخوف من الله، والاسترشاد بالعقل والعلم، والقيم الأخلاقية، ومقاومة التسويف والتواني، وتجنب اختلاق أعذار ضعف واهية، وكثرة الاستغفار، وكثرة الذكر في خلوات الفرد المؤمن بنفسه، واستخدام الندم الواعي، وحسن مراجعة أفعال الذات، وطلب الرحمة والعفو الإلهي، ومارسة خالص الأدعية والمناجاة في الظلم، وقهْر ذل النفس الناجم عن إشباع حرم للشهوات، وعزل الفرد المؤمن نفسه عن بيئات الانحراف التي تشجعه على الاستمرار في انحرافه، وتعلم أساليب التحرر من سطوة الذنوب وتحكمها كالصلة والصوم، والانتقال إلى التكيف الجديد مع بيئات عبادية كحضور مجالس الذكر، وجلسات العلماء ومرافقه أصدقاء مستقيمين، وتنفيذ ملخص مطالب الوصيَّة، ثم متابعة فترة ما بعد الإصلاح بشكل جاد لا كسل فيه.

تلك مجرد تجربة لمواجهة المشكلات، وللفرد أن يستعين بمن يثق فيه ويمكنه من الثورة على مشكلاته، وتغيير سلبيات ذاته ورذائلها بفضائل الخير وقيمته وعاداته الحسنة التي يقرها الدين، والعقل الإنساني ويرشده إليها أهل العلم والخبرة والصلاح، ويمكن أن يصمم خططاً مواجهة تناسب وضعه وتستلهم نصائح الإمام الباقر عليه السلام وأقوال النبي صلوات الله عليه وآله، وأحاديث المعصومين من آلِه، وعترته الكريمة المطهرة.



خطوات رصد المشكلات وعلاجها :

بعد كلامنا عن المشكلات السلوكية وحالاتها المرضية ورصدها وتصنيفها، وكيف يمكن استخدام المنهج العلمي في دراستها، نضع أهم الأفكار الرئيسية المستخلصة من نص الوصية، فقد لحظنا - كما تقدم قولنا - في باطن هذه الوصية المباركة، تحديدها بعض مشكلات السلوك، والحالات المرضية في حياة الفرد المؤمن، وفي سلوكه وفكرة ومشاعره.

وأهم الملاحظات المجملة، المستخلصة هي ما يأتي:

١. إن النص يذكر نوع المشكلة، ويحددها باللحظة والرصد، وذلك لمساعدة المؤمن على المعالجة وتقديم حلول لإصلاحها.
٢. وأحياناً نجد في ألفاظ الوصية توصيفاً توضيحاً مركزاً.
٣. وبعض الأحيان يمكن رصد بعض الأسباب التي ترتبط بها بعض المشكلات، وعوامل مؤثرة في نموها وتراكمها، وتحتاج إلى بعض البيان والتفسير.
٤. ونجد في النص كذلك تحريراً إيجابياً - هنا وهناك - للفرد المؤمن لإثارة وتحريك دوافع الفرد وبواعته الداخلية لمواجهتها، أو باتجاه الاستفادة من القوى الخيرة في طبيعتنا وفي دين الله الإسلام، والعقل وقدراته كالعلم والتفكير لتنمية وتعزيز عادات السلوك الحسن المواقف للنظرية العبادية الإسلامية.
٥. حاولت الوصية بطرق مباشرة، وبأساليب متباعدة حيناً آخر تقديم حلول علاجية مهندية بالنظرة الارشادية التي أثارتها وصية الإمام الباقر، ومنها على سبيل المثال طرق معالجة السلوك بأضداده (علاج الرذائل بالفضائل)، وكثرة الاستغفار وذكر الله في الخلوات، وتوظيف القيم الأخلاقية وغير ذلك.

٦. إن جميع صيغ العلاج الإرشادي التي قدمتها الوصيَّة مستمدَّة من الرؤية العبادية للشرع التربوي الإسلامي، وأُمَّا خوذة من مصادره الأساسية بخاصة القرآن الكريم، والعترة، وخبرة الإمام محمد بن علي الباقر، وهو مثل أمين للقرآن الكريم، ولائمة العترة النبوية الطاهرة معاً، وكذلك اجتهادات العلماء وخبراتهم العلمية والعملية.

العوامل المؤثرة في المشكلات السلوكية وحالاتها المرضية (سلباً وإيجاباً) :

لم يولد الكائن الآدمي، مؤمناً وغير مؤمن، بمشكلات قائمة فعلياً في حياته، بل تفاعلت قابليته للشر مع مجموعة عوامل فبدأت تظهر سلوكيات تفاقمت حتى تراكمت فتكونت بعض المشكلات السلوكية، وأخذ بعضها طابعاً مرضياً، وكان ظهور هذه المشكلات بتأثير عوامل سلبية عرفتها حياة الأفراد، وكذلك اختزن كل فرد منها في داخله (قابلية للخير)، وبحكمة إلهيَّة، وجعلها جُزءاً من فطرتنا وتكونينا البيولوجي والفلسجي والنفسي.

وظهرت محاولات معبرة عن هذا الإلهام والاستعداد الفطري الكامن في تركيبتنا الداخلية لتنمية هذا الاستعداد، ومن ذلك اجتهادات علماء الأخلاق وعلماء السلوك، ومن قبلهما الدين وتشريعته وأحكامه الضابطة، فكما كانت هناك عوامل سلبية تسبيبت في ظهور تدريجي لل المشكلات السلوكية في حياة الأفراد، كذلك انطبعت في كياننا الفطري عوامل خير مهمتها مساعدة الأفراد على علاج مشاكلهم وصياغة خطوات عملية للتخلص من آثارها السالبة.

ولهذا فإنَّ ما نقصده بالعوامل المسبِّبة هو كل ما ساعد على بروز بعض المشكلات السلوكية بطبع مرضي، وساعد بتأثير سلبي على نموها في حياة الأفراد، وقابل ذلك من



جهة ثانية وجود عوامل إيجابية في نص الوصيّة قد ساعدت على اقتراح حلول علاجية للمشكلات وللتغلب عليها، وقد تضمنت الوصيّة تقابلاً في تأثير العوامل السلبية على ظهور مشكلات وحالات مَرْضِيَّة، والعوامل الإيجابية المضادة، وهي عوامل مساعدة للذات على وضع حلول علاجية لمشكلاتها، والسيطرة على حالاتها المرضية أو التقليل من آثارها على أقل تقدير.

وبذلك تم تقسيم العوامل المؤثرة في المشكلات السلوكية وحالاتها المرضية (سلباً وإيجاباً) إلى نوعين أساسيين، وكل واحد منها تتفرع عنه عوامل فرعية، وهي:

- العوامل المسبيبة لنشأة المشكلات وحالاتها المرضية.

- والعوامل الإيجابية المساعدة على علاج المشكلات السلوكية.

أولاً: عوامل تكوين مشكلات السلوك وأمراضه:

اعتاد علماء السلوك تفسير نشوء وتكوين السلوك الإنساني في طابعه السلبي والإيجابي بتأثير عاملين أساسيين هما (الوراثة والبيئة) فكلاهما يأخذ نسبة من التأثير في نمو هذه الظاهرة الإنسانية، وهو العاملان اللذان تتدخل تفاعلاتهما، ويتسربان بقسمة مشتركة أحياناً، وبنسب غير متعادلة أحياناً أخرى في بروز حالات من السلوك السوي، والعصابي أو المَرْضِي، فكل سلوك إنساني هو نتاج تفاعل مشترك ومتدخل للعاملين المذكورين، ولا يخرج عن تأثيرهما كل أنماط السلوك المذكورة في نصوص وصيّة الإمام الباقر عليه السلام، وكل حديث عن السلوك البشري.

وسيكون حديثنا بإيجاز شديد حول تأثير عامل الوراثة والبيئة في تفسير وظهور النشاط الإنساني بمختلف أشكاله إنْ كان سبباً في بروز المشكلات السلوك المَرْضِي.

أو كان في كيفية علاجها، مع التأكيد مرَّةً أخرى على أن اهتمامات نص الوصية ليس معنِّياً بالحديث المباشر عن تأثير عامل الوراثة والبيئة في نمو السلوك بظواهره السلبية والإيجابية، بيد أننا نلمح إشاراتهما، أو نفهم أنَّ ما ذكرته الوصية من أنها ط سلوكية لا يخرج عن نطاق تأثيرهما المشترك والمتدخل.

أولاً: عامل الوراثة.

ونتساءل، ونحن في هذا الموضع من البحث، هل هناك في نص الوصيَّة إشارات وراثية؟

والإجابة – بادئ ذي بدء – وبوجه عام أن الإشارات المعنِّية عن العنصر الوراثي لم يأتِ لها ذكر مباشر، ولم نجد لها ألفاظاً واضحة، تدل عليها، وهي بذلك لا تحتاج إلى ضبط وتفسير واستخلاص نتائج، ولقد نظرنا إلى متن هذه الوصية ومفرداتها اللغوية، وبنظرة غير مباشرة، وبصورنا المعرفي فوجدنا أنه لم ترد علينا في نص الوصيَّة إشارة علنية لهذا العامل في شأن الأمراض والمشكلات السلوكية، ولحظنا أنَّ مفردات الوصية كما هو واضح تميل إلى تغليب الأثر البيئي، فكل الحالات المرضية ومشكلات السلوك لدى الفرد المؤمن مربوطة بعوامل بيئية ونفسية وضعف في الوعي المعرفي بخاصة في الجانب الروحي والديني والاجتماعي والأخلاقي.

وبالرغم من ذلك فوصية الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ لم تخلُ – ولو بطريقة غير مباشرة – من الإشارة العابرة إلى وجود قوى فطرية تكون مؤثرة عادة في تكوين السلوك الإنساني ونموه أو في مجال إعاقته، وهي مع ذلك تعتبر من القوى المؤثرة، وبنسبة وراثية كبيرة، وإن لم تذكر الوصية ذلك بلفظ مباشر، وبالفاظ متداولة في ثقافتنا التربوية المعاصرة، وقد دخلنا إلى هذه الإشارات الدالة على أثر الجانب الوراثي من



خلال ما ذكرناه سابقاً من وجود مكونات فطرية أساسية في التركيبة الإلهية للكائن الآدمي، وتتضح في أدوار هذه القوى ذات الأصل الفطري الوراثي، وهي مكونات يلعب فيها العامل الوراثي بنسبة واضحة، ومؤثرة في السلوك وظواهره الصحيحة أو أمراضه.

ومن أهم مظاهر هذه القوى الفطرية لدى الإنسان:

١. العقل الإنساني وأصله الوراثي - الفطري:

من القوى ذات الأصل الوراثي الفطري العقل المذكور مراراً في نصوص الوصية الباصرية، وقد ذكرت بلفظه الصريح أربع مرات على الأقل بلفظة (العقل)، وهو وجود فطري بأصل وراثي، وارتبطت الإشارة للعقل في الوصية بمواجهة قوة (هوى النفس)، وباستخدام مصطلحات مهمة مثل (دلالة العقل) في إحدى جمل الوصية، وباستخدام اللفظ مجرداً من (ال) التعريف بحسب مواضع الاستخدام في الجمل مثل قول الإمام محمد بن علي الباصر عليه السلام: «ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين» وفي جملة أخرى قوله: «ولا عقل كمخالفه الهوى»، وذلك في إشارة لتعطيل العقل ووظيفته في الرصد والتشخيص والتدريب العقلي على تنمية القدرات كالذكرا والحفظ، والتصور والتحليل وغيرها وسائر العمليات الذهنية في الجملتين الأوليين، وفي إشارة ثانية للدور الإيجابي للعقل وقدراته المتعددة في مواجهة (هوى النفس وشهواتها) كما في الجملة الثانية: «ولا عقل كمخالفه الهوى».

ولحظنا كذلك أكثر من إشارة للعقل من خلال ذكر وظيفته العامة، وبعض قدراته وطراهقه مثل قول الإمام الباصر عليه السلام لخابر الجعفي: «وفَكِّرْ فِيمَا قِيلَ فِيكَ» كإشارة إلى وظيفة العقل والتفكير ذاتها التي يقوم بها، وكذلك إشارته لدوره في الوعي والتمييز

بين الحق والباطل كقوله: «وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ»، واستخدام مفردات لفظية ك (استرشاد العلم، ومعرفة النفس، ومعرفتها كمعرفتك نفسك، وحسن المراجعة)، فجميع هذه المصطلحات تعبر عن مظاهر وقدرات عقلية تنمو وتكثر، وتحول إلى تجارب وخبرات يتم الاستفادة منها في حركة الفرد وتفاعله الاجتماعي والشخصي، وفي مواقف متعددة من حياته اليومية.

ان العقل - وكما قلنا من قبل - في النصوص الدالة عليه ينقسم الى نوعين، وراثي، وفطري، وبنسبة او درجة معينة :

أ- الذكاء الفطري، وهو قدرة عقلية عامة، ويولد الفرد مزوداً به، ويسميه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب ﷺ بـ (عقل بالطبع) أو (عقل مطبوع)، أو (عقل ولادة)، وهذا النوع من العقل أو الذكاء العقلي قد يمكّن الفرد من تطوير قدراته حينما يؤدي وظائفه الذهنية بطريقة صحيحة، ويساعد على تكوين نباذج ناضجة، وسوية من الشخصية الإيمانية والعبادية، ولكن إن لم يؤدِّ وظائفه كما يرام له فقد يتسبب التدهور العقلي (كوجود نسبة تخلف عقلي وراثي مثلاً أو عدم تعلم وتدريب وتنمية للقدرات العقلية أصلاً) في بروز مشكلات سلوكية وحالات مرضية في حياة الأفراد، تؤثر على وظائفهم النفسية.

ب- نوع آخر من العقل الفطري يتکع كذلك على نسبة وراثية وجهود تربوية واجتماعية وعمليات تدريب، ويسميه الإمام علي ﷺ بـ (عقل إفادة)، و(عقل التجربة)، و(العقل المسموع)، وينمو بالتدریب العقلي التربوي المنظم، ويزيد قدرات الفرد في مجالات متعددة، وبالرغم من دائنته الاجتماعية والتربوية فلا يمكن عزله عن أصله الوراثي - الفطري، بالإضافة إلى طابعه التربوي الموجه والهادف، وهو إما أن يأخذ دور مساعد في تنمية شخصيات الأفراد أو إعاقةهم بمشكلات نفسية وأخطاء



سلوكيّة، ولم تذكر وصية الإمام الباقر ﷺ إشارات توضح العلاقة بين بروز هذه المشكلات المذكورة في نصها، وتأثير عامل عقلي وراثي، وباختصار تبدأ المشكلات السلوكية، وبطابع مرضي يهدد مصير الشخصية ومستقبلها إذا ما تخلى العقل لسبب معين عن أداء بعض أدواره، وتكون الأمور بخلاف ذلك أو بوضع أفضل عندما يقوم العقل بوظائفه وتنمية القدرات العقلية للأفراد، بنحو يساعد على حل مشكلات السلوك.

٢. وجود (القابلية الوراثية) في تركيبة الكائن الأدمي.

ما اصطلاح عليه في بعض الدراسات بـ(القابلية الوراثية للخير والشر)، أو (القابلية بالقوة والاستعداد)، ولا يعني تزويد الإنسان بهذه القابلية والاستعدادات الداخلية أن الإنسان يولد بسلوك شرير فعلي، أو يولد بأفعال الخير، فهو - بكليهما - مزود بهما في تركيبته قبل أن يرعاه المجتمع أو تعده التربية بمختلف أشكالها، و اختيار تنمية هذا أو ذاك من صنع عمله، فالقابلية هي مجرد استعدادات داخلية تهيئ الفرد فيها بعد ولادته لـ(فعل الشر) أو لـ(فعل الخير) بحسب نوع التوجيه الذي يساعد على تحقيق هذا النوع من السلوك الإنساني أو تحقيق النوع الآخر المقابل له، وهذا ما يسميه النص القرآني من سورة الشمس بـ(إلهامَيَّ الخير والشر) في تركيتنا الآدميَّة كما حدّدته الآية القرآنية الكريمة في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، ثم يسند النص القرآني مسؤولية إنهاء الخير للإنسان وإرادته، أو إظهار السلوك الشرير لإرادة الإنسان نفسه فقالت آياتان قرآنیتان: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّا هَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا».

ويلاحظ في ذلك أمور ثلاثة:

١. الإلهام الإلهي بـ(الخير والشر) هو فطري، ووراثي، وجعلها الله سبحانه



كاستعدادين مركوزين في كياننا الفطري، وفي داخل تكويننا الأدمني للعمل على استقبال المثيرات الخارجية والتفاعل معها، وهذا يعني أنَّ وجود الأصل لكتلها (وراثي، فطري)، وهما معروfan في منطق وقول الفلسفه، وبعض علماء الأخلاق بـ(القوة) الممكنة لا من الناحية الوراثية قائمان (بالفعل).

٢. إنَّ (التزكية والتدعية) هما فعلان تسند المسئولية عنهم للإنسان، ويربطان في أمر وجودهما اللاحق لفعل حقيقي في (إرادة الإنسان) وليس نشأتها بوجود القابلية أو الإلهامية بطبيعة حيادية مزدوجة من خير وشر، فالإنسان - بأية عقيدة دينية أو فلسفة اجتماعية وسياسية - هو المُنشئ الحقيقي لها في سلوكه الشخصي اليومي، وهو الذي بإرادته اختار أن (يزكي نفسه) لتفلح، وهو الذي، وإرادته (يدرسها فتخييب)، ويعني ذلك أنه بعد التزكية والتدعية يكون الإنسان مسؤولاً عن هويَّة أفعاله، وتكون نتائجها محسوبة له أو عليه بمنطق الجزاء الديني.

٣. تكون مسؤوليات الأفراد في صنع أفعالهم خيراً وشراً واضحة بربط المقدمات بالنتائج، فإنْ كانت مسؤولية الاختيار خاطئة، وأدت إلى مشكلات (كأداء) أو بدرجات متفاوتة من الخفة والشدة والقوة، فَهُم أو المربون القائمون على تربيتهم المسؤولون عن نشأتها مسؤولية كاملة، وقد يكون الأمر بخلاف ذلك إنْ اقتاد هذا الاختيار إلى قرار سليم بـ(فعل الخير) لنتائج طيبة وإنجذابية، فتحققت لهم السعادة والراحة والطمأنينة.

أمثلة تطبيقية من نص الوصيَّةِ عن هذه القاعدة (الفطرية التربوية):

وما أكَّدَتْ عليه الوصيَّةِ ربطها بين قابلية الانحراف والشر، وهي - كما قلنا - استعداد داخلي بالقوة لا بالفعل، ونمو مشكلاته المُرْضِيَّة، وقد فعلت مع عنصر (الخير) نفسه كاستعداد فطري حينما ربطت بين عاداته الكريمة، وفضائله بأسباب التربية



السليمة كالقيم، ومثال ذلك التوجيه الباقري بأنَّه يمكن (انتقاء الحرص)، وهو الطمع وشره الإنسان في التشهي، وطلب الشهوات بـ(القناعة)، وقطع أسباب الظماء بِبُرْد اليأس، وراحة النفس بصحبة التفويض وكثرة الاستغفار، وترقيق القلب بكثرة (ذكر الله سبحانه في الخلوات)، وفي العلاقات الاجتماعية العلنية.

وفي قابل ذلك ثمة ربط بين قابلية أنفسنا للشر والفساد والانحراف، وبين ظهور أنماط من الأفكار الشيطانية، وأشكال من الاستجابات الشريرة في حياة الأفراد لدى الكائن الآدمي، ونذكر من هذا الربط المؤكّد ما ورد في نصوص الوصيَّة الباقرية الكريمة بربط محمل حينما جاء في نهاية المقطع الثاني أو (الفقرة الثانية) منها قوله ﷺ: «إِيَّاكَ وَالثَّقَةَ بِغَيْرِ الْمَأْمُونِ، فَإِنَّ لِلشَّرِّ ضِرَّاً وَكَضَّراً وَالغَذَاءَ»، ونلاحظ من هذه الجملة ما يأتي:

١. إن الشر جزء من تكويننا الإنساني باعتباره مجرد استعداد كامن ينمو في محيطنا الاجتماعي والتربوي، ويتجلى بالأفعال الشريرة، ويبقى كامناً إذا ما رجحنا الانحياز للخير.

٢. إن للأصل أصلاً وراثياً كالأصل الوراثي للغذاء، فالإحساس بالجوع، وهو في أصله فطري وراثي يعد حالة فسلجية لها علاقة بنقص الإشباع من الطعام والشراب، لكن نوعية الإشباع واختيار أنواع الأطعمة والأشربة من أفعالنا لإشباع هاتين الحاجتين.

٣. تشير كلمة (ضرّاً) ونسبة لها للشر لتمثيل قوتها مع قوة ضرّاً وضرّاً (الغذاء، والمزاد) من ذلك أن للشر قوة تعود واعتياضاً به مثل قوة التعود على طلب إشباع الغذاء، فالشر يلح على النفس بعد الاعتياد على فعله باستجابات شديدة الإلحاح، كالإلحاح الشديد الناتج عن تعودنا على إشباع حاجتنا من الغذاء.

٤. كان الغرض من التنبية بضرّاً الشر والغذاء وتماثلها في قوة التعود عليهما، وفي



إلا حاهمَا على النفس هو تحذير المؤمن من (الثقة بغير المؤمن) به.

واستمرت الوصية في تقديم نصائحها للربط بين بعض الأخطاء السلوكية وبعض المشكلات، ومن ذلك ما جاء في الوصية في بعض جملها وعباراتها: «وتحرَّز من إبليس بالخوف الصادق، وإيَّاكُ الرجاء الكاذب فَإِنَّهُ يوْقَعُكَ في الْخُوفِ الصَّادِقِ»، وتظن أنك في المسار العبادي الصحيح، بينما هذا الرجاء الكاذب يؤدي إلى خداع النفس وتضليلها دون أن تحس، وتهماها بالاستقامة والصواب وأنت تحسبه هو (الخوف الصادق) من الله عزَّ وجلَّ، لهذا طالبت الوصية جابرًا الجعفي، وكل فرد مؤمن بأن يتزين لله عزَّ وجلَّ بـ«الصدق في الأعمال»، وأن يستيقن لنفسه «خالص الأعمال ليوم الجزاء».

وقوله كذلك: «إيَّاكُ والتسويف فَإِنَّهُ بحرٌ يغرق فيه الْهَلْكَى، وإيَّاكُ والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب، وإيَّاكُ والتواني فيها لا عذر لك فيه، فإليه يلْجأ النادمون، واسترجع سالف الذنب بشدَّة الندم وكثرة الاستغفار» وغير ذلك من الأساليب العبادية، وكذلك نجد هذا الربط بين قابلية الشر وظهور بعض أنماط السلوك الشرير والمنحرف كقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه وعلى آبائه أزكي السلام والصلوات في نهاية الفقرة الأخيرة من نصوصه: «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها»، فتعني أن (قابلية الانحراف) لدى الإنسان المستخف بذنبه وتهاونه بمعاصيه ما تزال مُفعَّلةً، ونشطة بطريقة سلبية، وأنَّ الشهوة فاعلة بأنواعها المشروعة، وبأصنافها المُحرَّمة؛ لأنَّ النفس الأمَّارة بالسوء، وهو جزء من الرصيد الداخلي الذي يستقطب الشر ويدفعه للظهور، ما تزال تحكم السلوك لدى الإنسان وتوجهه بنزاعاتها وأفكارها الشيطانية والمريضة.

ثانياً: العامل البيئي:

ويبدو في مظاهرین هما (الخبرات المؤلمة، والإهمال والتقصیر الذاتي للفرد).

١. الخبرات المؤلمة:

ويتمثل هذا العامل بوضوح -كأثر للعامل البيئي- وحصره في نص الوصية بعدد من الخبرات المؤلمة والصدمات الانفعالية وإشارتها للعلاقة بينها وبين مشكلات سلوکیة، وتأثيراتها على الشخصية، وقد تكون هذه المشكلات ناتجة عن هذه الخبرات المؤلمة وضغوطاتها، وما قد يترتب عن ذلك من حدوث صدمات انفعالية تسبب لبعض الأفراد اضطرابات نفسية وعائلية واجتماعية للفرد، أو وقوع خلل وظيفي في أداء النفس لديهم.

إن الشخص قد تمر عليه مواقف مؤلمة تترك بصماتها في تكوينه النفسي، وتكون مفتاحاً لحدوث اضطراب وظيفي في أداء الفرد وخلل جلي في نشاطه النفسي لا العقلي، ومن أمثلة ذلك مروره بتجارب الصراع النفسي كما في التوبية وعملية مجاهدة النفس، وكذلك الحرمان من إشباع حاجات معينة، ووقوعه تحت براثن الإحباط من تحقيق أهدافه في الحياة، ثم فشله في الحصول على مطالبه الآنية العاجلة أو الآجلة، ثم وقوعه في حالة مرضية، فتؤدي هذه المواقف كالتجارب المؤلمة إلى ظهور بعض المشكلات السلوكية المرّضية، ويدرك الأفراد وجود مثل هذه المواقف الإحباطية المؤثرة سلباً على الصحة النفسية للفرد المؤمن.

وإذا ما توقفنا عند بعض المواقف، والمفردات اللغوية في نص الوصية يتبيّن لنا أنها تجرب تتصف بالألم والصدمات الانفعالية الفاشلة أحياناً، ومن الخبرات الاستفزازية المؤلمة التي قد تتسبّب في مرور الفرد بخبرات صادمة في بعض المثيرات النفسية

الاجتماعية كالاستفزازات العدوانية في التعامل اليومي بين الأفراد مثل (ظلم البعض للآخرين، وتخوين الناس، وتكذيبهم، والبالغة في ذمهم والقدح في أعراضهم).

وقد نبهَ الإمام الباقر -كما علمت- مراراً صاحبه جابرًا، وكل فرد مؤمن إلى طريقة التعامل السوي والأمثل، والأسلوب الأنسب في الرد على مثيري هذه الاستفزازات تجنبًا لظهور أية حساسية انفعالية، ودفعاً للشر عن النفس بحاضر العلم، وتدربياً للفرد على عملية أخلاقية كالتحلُّم، وضبط السلوك الانفعالي، وتجسيداً للسمو الأخلاقي في أخلاقيات الفرد المؤمن، وهذا كله يمنع من بروز اضطرابات أو خلل في أداء النفس وبعض وظائفها كظهور إحساس بالذنب، ومشاعر النقص وحطة الذات، والرغبة في العداون، وهكذا.

وعرضت الوصية في بعض جملها أمثلة على احتمال مواجهة الفرد المؤمن للخبرات المؤلمة، وحدوث صدمات انفعالية حادة، فقد حذرَت الوصية من تجاهل ما يقوله البعض في غيره، ودعا الإمام الباقر صاحبه جابرًا، وكل من يواجه مثيرات لفظية عدوانية إلى أن يتأملها، ويفكر فيما قيل فيه ومعرفة مدى سلامته هذه الأفوايل وخطئها، كي يتتجنب وقوعه في خبرة مؤلمة حادة أو صدمة نفسية شديدة القوة، وتمثل في سقوط الفرد من أعين الناس، وربما في صدمة أشد وهي سقوطه من عين الله سبحانه وتعالى، وما لا شك فيه أن تحقق هذا الأمر يسبب بالتأكيد تجربة إحباطية ثقيلة، ويعبر عن وجود خلل وظيفي كبير في شخصية الفرد.

وعبرت الوصية عن هذه الصدمة الشديدة بجملة تثير الانتباه بقوة وشدة، فقال الإمام الباقر في توجيهه صاحبه جابر: «فسقطك من عين الله جلَّ وعز عند غضبك من الحق، أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس»، ولكن من جهة ثانية قابلت الوصية بين هاتين الخبرتين المؤلمتين على الفرد المؤمن، وبين نتيجة



سيكولوجية (مخالفة ومضادة) لهذا الحال بقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام لجابر بن يزيد الجعفي رحمه الله تعالى: «إِنْ كُنْتَ عَلَىٰ خَلْفِ مَا قِيلَ فِيكَ، فَثَوَابُ اكْتَسِبْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَبَّبَ بِدُنْكٍ».

وتضيي وصية الإمام الباقر عليه السلام في ذكر بعض إشاراتها لبعض المواقف والخبرات المؤلمة والصادمة في نصها، وقد توزعت في متنها، وبين فقراتها الرئيسية، وتركيبتها اللفظية مثلما جاء في كلمات الوصيّة بأن المؤمن معني بمجاهدة نفسه، وتعرضها التجارب صراع داخلي بين العقل والهوى (شهوات النفس)، فمرة يغلبها، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها، وتنطوي هذه التجربة بكل تأكيد على جملة من الإحساسات المتناقضة، ومنها شعور الفرد بالفشل، وتصميمه على مواجهة شهوات النفس، وفشل آخر حتى ينجر الفرد المؤمن في تحقيق هدفه كما أفادت الوصيّة، ولكن قد تأتي التنتائج معاكسة، فيستمر الفشل في واقع التجارب الفردية وهو يخوض معاركه مع شهوات النفس، وت تكون خبرات إحباطيّة مؤلمة وصادمة، ومنها يتسلل إلى داخل نفس الفرد مشاعر مرضيّة تفتّك بنفسيته أو تسبب خبرات مؤلمة ومعوقة لنشاطه النفسي.

وتنشر الوصيّة الباركة تنبیهاتها لوجود معوقات نفسية فعلية قد تنمو تدريجياً في إحداث اضطرابات نفسية واعتلال في أداء النفس واستمرار تأثيرها، فيحدّر نص الوصيّة من ظواهر التسويف، والتواني واحتلاق الأعذار فيها لا عذر للإنسان فيه، وسوء الحذر من النزعات الشيطانية، ومن الرجال الذي يصنع بعض التوهمات النفسية الكاذبة، وتأثيرات الغفلة، وذل طمع النفس، وسالف الذنوب، والعودة إلى موافقة الهوى وأتباع نزعاته، والاستهانة بالذنب ورضا الفرد بهذا الحال، وتلك أعظم المصائب فهذه جميعاً خبرات سيئة محبطه لا يستبعد أن تؤثر على نفسيّات الأفراد وتعوق وظائفهم، وتتسبب في ظهور مشكلات سلوكيّة بطبع مرضي.

٢. الإهمال والتقصير الذاتي للفرد في مواجهة انحرافات السلوك:

هذا العامل يجسد الآثار الناجمة عن المشكلات الناجمة عن إهمال الأفراد في أداء مسؤولياتهم، وتصورهم الذاتي في العمل على تطوير قدراتهم وتنمية صفاتهم الشخصية، وأعطت الوصيَّة تفسيرًا في أكثر من موقف يعبر عن الإهمال والتقصير الذاتي جهلاً أو بتعتمد أو استنكاف الفرد بصفته عن معرفة الصواب، واستكباره مثلاً على استلهام أي توجيه إيجابي للسلوك في مساراته الصحيحة.

ولنأخذ من باطن نص الوصيَّة جملتين تعبان عن الدور السلبي لهذا العامل في ظهور مشكلات سلوكيَّة، وظهور حالات مرضيَّة، قال الإمام الباقر عليه السلام في إحدى جملِه: «وتحرَّز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ»، وتبدو هذه الجملة كخطوة وقائية لحماية الذات من تأثيرات الغفلة في إخلاص العمل لله سبحانه، حيث طالب هذه الجملة بأن يكون الفرد (يقطاً) وبدرجة انتباه عالية كي لا يقع فيما أسماه النص بـ(عظيم الغفلة)، وتشير هذه الجملة إلى التنبيه إلى خطورة الدور السلبي لغفلة الإنسان عن القيام بمسؤولياته في ضمان ضبط (الإخلاص في العمل) الله من أثر غفلة القلب، وتعطيل وعي الإنسان المؤمن بنظافة وتوافر شرط (الإخلاص في العمل لله) من أثر الغفلة، وتنتهي من الشوائب الدنيوية المحتضنة والدينية حتى لا تُفسد (نوايا القلب وتوجهاته العبادية) الله تعالى بسبب الغفلة المعتادة في حياة الناس.

وما لاحظناه أن النص في لغته المجملة وضع معادلة يجب الانتباه إليها وهي أنَّ (الغفلة والتيقظ) بدرجة شديدة، فأحدهما (عظيم الغفلة)، والآخر ينبغي أن يكون (شديد التيقظ)، وتفترض الوصيَّة معادلة تتکافأ فيها على الأقل أن يكون التيقظ الذهني بدرجة عالية في مواجهة غفلة قوية وشديدة، وكأن الإمام الباقر عليه السلام يذهب إلى القول بأن قوة شديدة من الغفلة تحتاج إلى شدة تيقظ ذهني، وتطلب وعيًا كبيرًا ويقظة



عقلية كبيرة تعطل شدة الغفلة أو تضعف تأثيراتها على تخلص العمل من شوائب الدنيا وأوضارها السيئة، ويعبر هذا التكافؤ على الأقل عن أمل الإمام الباقر عليه السلام بالتعادل في حده الأدنى بين قوتي (الغفلة والتيقظ)، إن لم تكن الغلبة للثانية عن ضرورةبقاء الوعي العبادي والذهني مستمراً وحاضرًا ونشطًا في حماية الأعمال العبادية من أدران الدنيا.

وتنتقد وصية الإمام محمد بن علي عليه السلام في مثال آخر تفاسع الإنسان وتخاذله وتقصيره في القيام بمسؤولياته وأداء وظيفته العبادية، وتسبب هذا الإهمال في إضعاف إرادة الفرد المؤمن نفسه كما تؤكد ذلك هذه الوصية التي بينت في مجلتين متصلتين، وهي تستثير إرادته ودواجهه الداخلية: «ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها».

ولأنود الإطالة في شرح دلالة هذا القول لوضوحه أولاً، وإسناده لمسؤولية الفرد في استمرار هذه المعصية باستهانته بذنبه واستخفافه بمعاصيه، وقبوله المذلل لحالته السيئة ثانياً، وأيضاً كسله عن تغيير واقع الانحراف السلوكي والفكري في شخصيته من الأسوأ إلى ما هو أفضل ثالثاً، رغبة منه في تجاهل مخاطر هذه الاستهانة بذنبه وعدم مبالاته بتائجها السيئة.

ثانياً: عوامل مساعدة في علاج أمراض السلوك ومشكلاته:

تنوعت في نصوص وصية الإمام الباقر عليه السلام العوامل المساعدة على علاج مشكلات السلوك وحالاته المرضية كما أراد المشرع التربوي الإسلامي في التربية الذاتية للأفراد، وأوضحنا ذلك في أكثر من فصل كال حاجات والقيم الإرشادية، ومبادئ التوجيه الإرشادي، والأساليب العلاجية للذات في وصية الإمام محمد بن علي عليه السلام.



ومن هذه الأساليب كف الاستجابة العدوانية عن الآخرين، ومجاهدة النفس، والقيم الارشادية مثل الشكر، وكثرة الطاعة والذكر والاستغفار، وشدة التيقظ وصدق الخوف، والاسترشاد بالعلم، واجمام القلب، وتزيين النفس بالصدق في الأعمال، والتوبة وشدة الندم وحسن مراجعة الذات في فكرها وسلوكها ومشاعرها، وأداء الفرائض اليومية، وغير اليومية، وعدد آخر من الأساليب والطرائق الوقائية والعلاجية التي اقترحتها الوصيَّة من أجل تنمية شخصية الإنسان المؤمن وصقل صفاتها الأساسية في جوانبها المختلفة.

الحلقة العاشرة

الأساليب الإرشادية - العلاجية في وصية الإمام الباقر عليه السلام ودورها في

تنظيم السلوك العبادي

مقدمة

بعد رحلة طويلة، ومتعدة من البحث عن مضامين هذه الوصيّة الخالدة، تحدثنا فيها -كوثيقة تربوية إرشادية مهمّة في فكر الإمام الباقر عليه السلام- عن بعض الأبحاث التي نراها متصلة بموضوع موحد النزعة المعرفية، وهو (النزعة الارشادية وبناء نسق الشخصية العباديّة)، وقمنا -لإنجاز هذه الدراسة- بكتابه تصوريّة عن عدد من الموضوعات السيكولوجية، والأخلاقية والمعرفية التي تلتقي في وحدة معرفية لموضوع واحد هو ما تصورناه من وجود علاقة بين مجموعة القواعد الإرشادية وبناء نسق للشخصية العباديّة بمحددات المشروع التربوي الإسلامي، حيث تناولنا في محطات سابقة أحاديث متربطة عن النزعة الإرشادية وجوانبها في وصيّة الإمام محمد بن علي عليه السلام، كالحديث عن مفهوم السلوك ومكوناته وشروط حديثه.

وأشرنا إلى بعض مشكلات السلوك الإنساني وأمراضه وعن مجموعة الانفعالات النفسيّة في النص، والعوامل المؤثرة في الاتزان الانفعالي والنفسي، وتطرقنا في فصل مستقل إلى الحاجات والقيم الإرشادية، وعلاقتها بالاتزان النفسي، ثم بحثنا كذلك المبادئ الإرشادية الضابطة للسلوك والوجه لمساراته في حياة الكائن الأدمي المؤمن، ونحاول في هذا الفصل بحث عدد من أساليب العلاج الإرشادي التي نعتقد أنها أدركناها في نص الوصيّة بتأملنا الذهني القاصر.

وما لا شك فيه أنَّ البحث عن مشكلات السلوك وأمراضه حتى لو كان متفرقاً في مواضع من هذه الدراسة فإنَّ المنطق يستوجب استكمال الحديث عنه بالحديث عن أهم



الأساليب الارشادية - العلاجية، فمهمة (المرشد) تقديم خدمته للمسترشد ومساعدته بتقديم المشورة، والمساعدة النفسية بما يعينه على تجاوز بعض مشكلاته الذاتية.

ونعتقد أن هذه الأساليب مأخوذة من النظرة الإرشادية التي احتوتها وصية الإمام الباقر، وهي مستمدّة من وجهة نظر المشرع التربوي الإسلامي، ومهمتها بناء نسق لشخصية عبادية مسلمة، أو على الأقل بذل ما أمكننا من جهود لإعادة الذات المسلمة إلى وضعها السابق بالخروج من حياة الانحراف والفساد وتقليل آثاره النفسية والسلوكية والاجتماعية، وأهم من ذلك تأمين مستقبله المثيري بعالم الآخرة، وتوظيف الأساليب الارشادية في الوصول لهذه النتيجة الآمنة بإذنه تعالى.

ويمكن تقسيم أساليب العلاج الإرشادي لاستكمال نسق النظرية الإرشادية في وصية الإمام الباقر إلى نموذجين أساسين، وسيتفرع عنها أساليب فرعية قد تم إدراجها ضمن النموذجين، وسيتم توزيع بعضها في أحد النموذجين، وسيدرج بعضها الآخر في دائرة النموذج الآخر، وهذا النموذجان هما:

- النموذج الأول: ويركز على أساليب ذات طبيعة عقلية وإدراكية ومعرفية.
- والنماذج الثاني: وتبدو فيه - كما نعتقد - أساليب يغلب عليها الطابع الروحي - الأخلاقي.

أولاً: الأساليب العلاجية ذات الطبيعة العقلية والإدراكية والمعرفية.

وتفرع عنه كما تصورناه بعض الأساليب التي لفت الوصية أنظارنا إليها، وكتبنا بنظرة اجتهادية عنها، ومنها ما يأتي:



١. عرض موقف الذات على القرآن:

القرآن لدى جميع فرق المسلمين المصدر الأول للتشريع عندهم، وهو بالنسبة إليهم كلمة الحسم، والفصل الحكيم إذا ما اختلفوا حول قضية ما من قضايا حياتهم التي لا ينقطع فيها اختلافهم، ولا جدتهم، فإذا ما وقعوا في جدل أو اختلاف رأي حول قضية معينة لاذوا بالقرآن يتغرون حكمه الفاصل تأييداً أو معارضته، وامثلوا لأوامره ونواهيه، فالقرآن حكم الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

ومن المنطقي أن يحيى أبو جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام صاحبه الكريم جابر بن يزيد الجعفي -كأي مسلم مكلَّف- إلى التركيز على أهمية القرآن كحكم فصل بين كل ما هو حق، وما هو باطل، وأن يدعوه إلى عرض نفسه على كتاب الله ليعرف حال ذاته، ويدرك مدىقربه والبعد منه، قال الإمام الباقر في وصيته لجابر الجعفي، وهو يشير إلى دور القرآن كحم فصل يريح كل مسلم ويطمئنه على نفسه في الدنيا والآخرة:

«وأعلم بأنك لا تكون لنا ولِيَا حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك، وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيلاً زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فأثبت وأبشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فهذا الذي يغرك من نفسك».

ويلحظ في هذا المقطع من نص وصيَّة الإمام محمد الباقر عليهما السلام تنبيهه الحاسم لجابر الجعفي بقضية هي مألوفة في الواقع الإنساني وفي حياتهم العادية، فمنهم من يصف جابرًا كـ(رجل سوء) ويحزنه ذلك في قاعدة الاستجابات السلوكية المألوفة، ومنهم من يصفه عليه الرحمة بـ(رجل صالح) فيسره ذلك ويأنس بهذا الوصف ويرتاح



له ويغمره بالسعادة الكاذبة، لكنَّ منطق النص -كما نفهمه من كلام الإمام الباقر عليه السلام- يركز على معيار مهم ينبغي الالتفات إليه وهو مدى تطابق أنفسنا مع حكم القرآن أو بعْدِها عنه، وهذا لفت نظر صاحبه جابر إلى عدم الاكتتراث لهذه الاوصاف التي يوصف بها، ويدعوه -بكل صراحة- بأن لا يحزن لوصفهم إِيَّاه بـ«رجل سوء»، ولا يفرح بوصفهم إِيَّاه بـ«رجل صالح»، ففي هذا غرور يلحق الأذى بالنفس، ويفوت الفرصة على المؤمن من معرفة ذاته، والاطمئنان على مصيره بناءً على مدى (قربه أو بُعْدِه) من أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه.

الاعتماد على وصف الناس للذات بالسوء والصلاح هو معيار ذاتي، وقد يكون شهويًاً منحرفًاً، وبعيدًاً عن السلام، لذلك طالبت وصية الإمام الباقر عليه السلام بأن يعرض جابر، وكل مؤمن نفسه على ما في كتاب الله، كمعيار فصل بين ما هو صحيح، وما هو خاطئ، فهذا الكتاب الإلهي ناطق بأوامر الله ونواهيه، وهو المعيار الموضوعي الذي يحتاجه المؤمنون في الحكم على أفعالهم ومدى صحتها أو انحرافها عن الحق.

فالوصية ذكرت - بالنسبة للفرد المسلم - حاجة مرجعية (معرفياً وعقائدياً وروحياً) وذكرت هذه الوصية أهمية القرآن في فرز الحقائق عن حالات الفساد والانحراف والباطل، فوصف الناس جابر بن يزيد الجعفي أو غيره من الناس بـ«رجل سوء أو صلاح لا يخلو من الحكم العاطفي المنحاز»، ولا يبرأ من التحيز الذاتي، والأهواء الشخصية، لذلك قرر الإمام الباقر عليه السلام اعتماد القرآن مرجعاً موضوعياً، وحكمًا دقيقاً، ومسنداً مهماً في الفصل السليم بين ما توافق عليه الناس أو اختلقوها من حق أو باطل.

وبالتأمل في محتوى ما ذكرته الوصية من ضرورة اعتماد القرآن كمرجع علمي، وحكم موضوعي دقيق وفاضل نجد ما يأتي:



أ- النقد الباقي لوصف الناس لأحدهم كجابر أو غيره بالسوء أو الصلاح، وبلا معيار سليم، واعتمادهم على معيار ذاتي، وخاضع للعواطف، ولا علاقة له بالقرآن.

ب- إن هذا الوصف بجابر، وغيره من المؤمنين بـ(السوء أو الصلاح) ينشأ عنه بالضرورة حالة وجدانية، إماً (حزن) لوصفهم إياه بالرجل السوء، أو بـ(السرور والفرح)، وهي حالة إيجابية مضادة لوصفهم له بالرجل الصالح، وغثرة بذلك والاطمئنان لهذا الوصف دونها التأكيد من مصداقية هذا الوصف وسلامته، وقربه من المنطق القرآني.

ج- تأكيد الإمام الباقر عليهما السلام في مقابل نقد المعيار الشهوي والذاتي السابق على معيار آخر يتسم بالموضوعية والصحة والسلامة، والتبيّنة المنطقية المؤكدة القادره على فحص الذات بموضوعية وفرز ما هو صحيح فيها وما هو خاطئ، لهذا قال عليهما السلام في تحديد المعيار الصحيح والبدليل: «ولكن اعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيلاً زاهداً في تزهيدك، راغباً في ترغيبك، خائفاً من تخويفك فأثبت وأبشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن، فهذا الذي يغيرك من نفسك».

د- إن عرض النفس على كتاب الله (القرآن) يكشف عن حالة ذهنية ووجدانية من التفاعل معه، وكشف قرب الذات وبعدها من خلال:

1. الحكم بـ(المعيار موضوعي) هو أن يسلك الفرد المؤمن في حياته سبيل الله، وبسبيل قرآن المجيد، ومعرفة تطابق رغبة الفرد فيها يريده القرآن (ويعني تطابق رغبة الفرد في تنفيذ أوامره)، ومقابل ذلك تطابق النفس في زهد كل ما زهد منه القرآن (أي رغبة الذات في تجنب كل ما يريد منها القرآن تجنبه والزهد فيه) لضرره على أنفسنا، لذلك جاء في الوصيَّة: «إن كنت سالكاً سبيلاً زاهداً في تزهيدك، راغباً في ترغيبك، خائفاً من



تحويقه»، وقابل هذه الحالة قول آخر هو: «إِنْ كُنْتَ مُبَايِنًا لِّلْقُرْآنِ، فَهَذَا الَّذِي يُغْرِكُ مِنْ نَفْسِكَ»، أي قابل هذا المعيار الموضوعي بين طاعتنا لله من خلال الالتزام بمبادئ القرآن وتصوراته العقائدية والوجданية والخلقية، وبين معصيتنا له، فتعرف الذات بشيء من الثقة أنها تسلك سبيل القرآن أو أنها باينته وافترقت عنه، وهذا وحده يجعل الذات على الاستزادة من العمل بل استقلال كثير الطاعة) كما جاء في نصيحة الإمام الباقر لجابر أو التفكير الجاد في تغيير سلوك الذات للاقتراب من القرآن ومنهج الله سبحانه، أو في مقابل ذلك زيادة تعاستها بمزيد من الابتعاد عنه إذا ما ازورت النفس وسلكت مزيداً من المباهنة بينها وبين القرآن.

٢. ربط المعيار الموضوعي بكلم مرجعي رصين بين حالي (طاعة القرآن، ومباهنته أو معصيته) و نتيجتها، «إِنْ كُنْتَ سَالِكًا سَبِيلَهُ زَاهِدًا فِي تَزْهِيدِهِ، راغِبًا فِي تَرْغِيَهِ، خائِفًا مِنْ تَحْوِيقِهِ فَأَثْبِتْ عَلَيْهِ» يا جابر، ويَا أي مؤمن، وفوق ذلك هناك نتيجة طيبة بالآخرة، لهذا قالت الوصية لجابر «وَأَبْشِرْ»، أي توقع وأبشر ثواب الله وجنته، ذلك هو الجزء الإيجابي والمعزز بالخير لصالكي القرآن ومطبقي تعاليمه، والت نتيجة المضادة لهذه الحالة الإيمانية السليمة هي مباهنة الفرد للقرآن وعدم سلوكه لتعاليمه، وغروره باطمئنان لأحكام الناس وتحيزهم دون حكم صحيح، وتكون النتيجة غروراً وشعوراً غير صادق، وقريباً من رجاء كاذب، بل هو فعلًا كذلك، وهذا الكشف لواقع الذات ومعرفة قرها أو بعدها من القرآن نتائج تربوية يدركها كل مؤمن من اطمئنان بالدنيا، وشعور بالأمن على مصيره في الآخرة.

٢. علاج أخطاء الذات بالتفكير الهدف والتفكير الموجه:

هو تحويل قدرات العقل وتفعيلها بأنشطة وأمال تأملية وذهنية، وبواسطة عملية



التفكير في المثيرات داخل الذات وخارجها، في أخطائها وفي أفعالها السوية يتم فحص المعرفة لدى الفرد، والتمييز بين أنماط السلوك المقبولة شرعاً، وغير المقبولة، وهو فرصة لتقدير سلوك الذات وأفكارها ومشاعرها في حركتها اليومية، وما لحظناه أن الوصية الباصرية كوسيلة وضرورة تربوية قدمت نصائحها في أكثر من موقف يدعو للتأمل.

كان أول موقف دعت فيه الوصية للتفكير نصيحة الإمام (ع) لصاحبها جابر بأن لا يستجيب بانفعالات غير سوية، وبغير اتزان، وطلب منه أن يكف عن ظلم الآخرين إن ظلموه، ولا يخونهم إن خانوه، ويمنع نفسه من الغضب متى كذبوا، ويكون سلوكه الشخصي هادئاً منضبطاً، وفي حالة وجданية متزنة إذا ما استفزوه بذم ونقد وحساسية، ولا يجد نفسه فرحاً أكثر من اللازم إذا ما مدحوه، والمهم في هذا الموقف أن يستبدل انفعالاته غير الصحيحة المعتادة في سلوك كثير من الأفراد أن يفكر فيما قيل فيه من قبل الناس، ودعاه (ع) لتوظيف قدراته العقلية، وما ينشأ عن تفكيره في تحقيق أهدافه كمكلف شرعاً، ويكون على قدر المسؤولية بتقديم انموذج للشخص المؤمن الناجح في أداء وظيفته العبادية، والقادر على تحقيق الازان الانفعالي والنفسي مع الآخرين، ويسمو في أخلاقياته العبادية، كالحلم، وإظهار القدرة على ضبط النفس انفعالياً في مثل هذه المواقف، والتصرف كشخص يسعى إلى تعديل سلوك الناس، وتقوية سلوكه الذاتي المرغوب إن احتاج للتشييد والترسيخ، ومضادة السلوك السيء بسلوك عبادي نبيل، وتحويل الرذائل إلى فضائل، وتلك فرصة تمنحها الوصية للمؤمنين.

ويمكن للباحث، والقارئ الذكي أن يتفحص مظاهر الدعوة إلى التفكير في أوضاع الذات والانتباه إليها في أكثر من موضع بالنص الكريم، فهناك دعوته الصريحة إلى جابر الجعفي بالتفكير فيما قيل فيه كما تقدم، وتأمل افتراءاتهم باستجابات عبادية سليمة تم إتيانها بتفكير وتأمل ذهني كما جاء في أول النص، وهناك موقف آخر يطلب فيه من



الذات أن تعرض نفسها على كتاب الله لكتاب معرفة عن حال الذات وأوضاعها، والعلم بما هي عليه من حق أو باطل، وكذلك تنبية النص للفرد المؤمن بضرورة الالتزام بشدة التيقظ والانتباه الدقيق، ومراقبة واقع الذات بدلاً من الاستمرار في إبقاء الذات على غفلتها وسذاجتها، ولمدة تطول أو تقصير بحسب اختلاف الأفراد، وهذا -بكل تأكيد- مشهد ذهني تراجع فيه الذات واقعها وتعدله وتحسنها.

وثمة إشارة كذلك إلى استخدام أدوات تطوير للذات وتقويم سلوكها وفكيرها مثل دعوة النص إلى استخدام حسن المراجعة، والاستعانة بها في مواجهة ضغوطات ما أسماه النص بـ(سالف الذنوب)، وشددت الوصية على استخدام الأساليب التي تسمح بتجاوز آثار هذه الذنوب في النفس، باستخدام طرائق تعبير وجاذبية مثل شدة الندم، والأدعية وغيرها لتحليل السلوك، وبهذا يتم التعرف على بعض أمراض السلوك لدى الذات.

وأيضاً مظهر عقلي معبر عن حالة تفكير، حيث تنطوي حركة التوبة وإفرازاتها التنويرية، وما يترتب عنده من فرعة وجاذبية داخلية، وحركة نحو مزيد من الاستبصار الذهني للذات نتيجة معرفة ذهنية لواقع الذات في سابقتها، وفي لاحقها، ونجاح الفرد المؤمن في مواجهة مشكلاته خلال فترة التوبة، وتغيير سلوكها، وهذا يحتاج إلى جهد عقلي، إضافة إلى جهد روحي ونفسي.

وتحت مواقف للتفكير والتأمل متفرقة في مواضع من النص، و تستبطنهما الوصية، فكل أعمال الذات موصولة إما بخيط الشهوات المرضية، وزوائدها المنفلته، وهي نوازع ذاتية غير منضبطة، أو أنها موصولة بالعقل وقدراته من الفكر والعلم والأنشطة الذهنية الأخرى، وبذلك فخيارات الذات واقع بين البقاء تحت سيطرة الشهوات أو استثمار نتائج التفكير في تحقيق إيجابيات للذات كتنمية قدراتها، وتعديل أفكار الفرد ومشاعره،



وسلوكيه، وللحظ كذلك دعوة غير مباشرة في نص الوصيَّة للفرد المؤمن بفحص معارفه، ونقد سلوكيه، ويتبين لنا ذلك بأكثر من موقف، وجميعها شواهد على عملية التفكير تأكيداً على أهميتها في حياة الأشخاص.

فالتفكير والتفكر وسيلة الإنسان لتفعيل قدرات عقله، وتسخير علمه وخبراته العلمية، في فحص ذاته، وإنصاجها، وتطویر قدراتها، والوصول بها إلى أعلى حد ممكن من زيادة كفاءتها، وهي تواجه حركة الحياة من إحباطات وتحديات، واجتهادات لطلب المزيد من النمو والتقدم، ومن الصعوبة بمكان أن ينجح الكائن الآدمي في إحداث أي نسبة تعديل في سلوك الذات بدون استئثار نعم الله عز وجل، وفي صدارتها قدراته العقلية التي زوَّدَه الله بها، فعمليات التفكير والتفكير تربط بنحو كامل بين قدرات العقل الفطري، أي ربط بين قدرة الذكاء الفطري وما اتصل به، وبين خبراته العلمية التي تولدت عن نسبة الذكاء الحقيقية عند الإنسان المُكَلَّف.

٣. تغيير أخطاء الذات بطريقة النقد الذاتي:

بطبيعتنا البشرية، وما تطويه من عيوب، ونقائص، واستعداد داخلي لفعل الأخطاء تميل الذات البشرية - تحت تأثير هذا الاستعداد الكامن - إلى عمل النقائص، وعمل السلبيات، وإثيان القبائح، بل وفضائح السلوك بما فيها من ذنوب ومعاصٍ ورذائل، ومررت الوصيَّة على نماذج من هذه الأفعال، والمعاصي، والذنوب، والاستهانة بها، وقبول الإنسان بحالته المَرْضِيَّة المُزْرِية، وما لا شك فيه أن هذا الواقع الفاسد يستوجب التغيير، وإعادة النظر فيما تفعله الذات من عيوب قاتلة، بتوبة، واستغفار، وكثرة الذكر وشدة الندم، وأداء الفرائض، وغير ذلك، وتقوم مراجعة الذات بأساليب متعددة ومنها (نقد الذات، وسلوكيها، و المعارفها)، ومع مساحته المحدودة في النص إلَّا أَنَّه يمكن كشف بعض مواضع استخدام هذا الأسلوب، وهو في المقام ذات طبيعة معرفية نقدية



وإدراكية.

وقد لحظنا في نص الوصيّة أكثر من مثال عن مواطن النقد لسلوك الذات، وتكتشف الذات عن هذه الطريقة المعرفية مواضع الخلل، وكيفية علاجها أو تصحيحها، وتقليلها على الأقل، وهو مفتاح تحقق حالة طبيعية ومحنة من (إجمام القلب) كما في هذه الوصيّة، وأمامنا - كما نستقرئ - مثالان واضحان يدفعان عقل الباحث، والقارئ الأريب إلى القراءة الناقدة لفكرة الذات وسلوكها، فكلاهما يخترنان نقداً للذات، وتوجيههاً لها نحو الثورة على الذات، وهم ما يأتي:

المثال الأول: (نقد الأفراد المستهينين بالذنب):

قبل أن تنهي الوصيّة حديثها الإرشادي لجابر بن يزيد الجعفي، وجهت كلماتها إلى الفرد المؤمن، وانتقدته على استهانته بالذنب، وقبوله حاليه التي كان عليها وهو يستمر في ارتكاب ذنبه بلا توقف، واعتبرت الوصيّة استهانة الفرد بذنبه، ورضاه بواقع (الحال) للذنب مصيبة لا مثيل لها، ولهذا جاء في مقطع من نص الوصيّة، وهو يخاطب جابر الجعفي آنَّه: «لا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها»، ثم جاء في جملة لاحقة لها: «ولَا معصية كحب البقاء» بعيداً عن قرب الذات من الله سبحانه وتعالى، وطاعته وعبادته.

وكان غرض نص الوصيّة كما يبدو لنا من نقد الذات في استخفافها بمعاصي، واستهانتها بالذنوب، وقبولاً لها المخزي بحالة الذنب واستمرار بصماتها على الفرد هو إحداث صدمة في ذهنية المرء ليستيقظ من غفلته، ويتمرد على واقع خضوعه المُذلّ لسيطرة الذنوب وضغوط الشهوات، وإحداث هَزَّة في ذهنية الفرد ووجданه بأن يتمرد على حالة المُخْزِيَّة التي ارتضى فيها (الاستخفاف بذنبه) واستهانته بمعاصيه.

والمثال الثاني:

إِزْرَاءُ النَّفْسِ وَتَحْقِيرُ تَرْفِعِهَا وَاسْتِعْلَائِهَا.

جاء في الوصيَّة في توجيهه تربوي مفيد من الإمام الباقر يا جابر: «استقلل من نفسك كثير الطاعة لله.. إِزْرَاءً عَلَى النَّفْسِ»، والمفهوم العام والمجمل لهذه الكلمات أنَّك يا جابر، وأنَّك يا أي مؤمن مخلص (لا تستكثر من نفسك الطاعة لله أبداً)، بل استقلل كثير الطاعة، واعتبرها عملاً تعبدياً قليلاً، ولا يضاهي -مهما عظمت عبادتك- عظمة الله وما أسبغه عليك من آلاء نعمه.

ويستفاد من لفظة (الإِزْرَاء) احتمالان، وكلاهما ذو طبيعة عقلية ومعرفية وإدراكية، ويعَبِّران عن عملية نقد فكري بغرض إحداث تغيير سلوكي، وتعديل إيجابي في كيان الشخصية، والاحتمالان مجرد تفسير اجتهادي، ولا نراه قد بلغ درجة الجزم واليقين، وهما:

أ - الإِزْرَاءُ لِلنَّفْسِ.

ويعني أنَّ الفرد عاب على نفسه أو عاتبها على فعل خاطئ، أو تهاونها في أعمال الطاعة، وهذا الإِزْرَاء هو في حقيقته وعي بخطأ، وسعى عقلي لتصحيح هذا الخطأ أو ذاك الفعل المشين، فعندما يرى العقل تراجع الذات عن أعمال الطاعات استجابة لضغط شهوات المرء كاستكثارها عمل القليل من الطاعات، أو في مقابل ذلك لا تستكثر النفس قليلاً (الطاعة).

ومع ذلك تتعرض بهذا الاستكثار إلى طلب (عفو الله) وهي مقصورة بالنظر إلى أعمالها من قليل الطاعات على أنها كثيرة، وقد جاء في جملة من نص الوصيَّة وهي تحدث على استقلال (كثير الطاعة) لله: يا جابر «وَاسْتِقلَّ مِنْ نَفْسِكَ كَثِيرُ الطَّاعَةِ إِزْرَاءً



على النفس، وتعرضاً للعفو»، وهدف هذا التقليل هو دفع الذات للإكثار من أعمال الطاعات لله سبحانه وزيادة نشاطها العبادي المخلص تقرباً إليه عز وجل، وينطوي هذا الموقف على نقد عملي للذات ودفاعها.

ب - الاحتمال الآخر للإزراء:

يتحمل - كما ورد في بعض المصادر - أنَّ الإزراء يعني افتعال تحقييرها بغرض نقتدها عن كل تهاون في الطاعات لله وعبادته، فتعنف بالنقد وشدة العتاب، والتركيز على تحقيير غفلتها، وغروورها بالعجب بنفسها، وتسويفها واحتراق الأعذار، واستكثارها طاعة الله بأعمال قليلة، وتقبل (ذل المعصية)، والسيئات التي تثير في نفسية الفرد الاشمئاز والتقزز.

ومن المؤكد أن الإزراء هو أقرب لافتعال التحقيير، وليس ممارسة تحقييرها على وجه حقيقي؛ لأن الله سبحانه كَرَّم بني آدم، وحرَّم أية ممارسة تحط من كرامة الإنسان، ولا يجوز حتى لصاحب هذه النفس أن يحيط من كرامته بأي مسوغ، ولكنَّ بعض الراغبين من المتهجدين في الإكثار من طاعة الله يقومون بتحذير(أنفسهم) من التخاذل عن طاعة الله، فيلجؤون إلى معايرة أنفسهم بتقليل الطاعة دفعاً منهم لها على زيادة نشاطها العبادي، فيكون الإزراء على نحو مفتعل ليدفع الذات إلى عمل الطاعات لا بغرض تحقييرها على وجه حقيقي كما يفعل بعض الرهبان من غير المسلمين.

٤ . مبدأ التحذير من مشكلات تعديل السلوك بنظرية عبادية:

إذا كانت الأوامر الشرعية - بالمنظور التربوي - هي معززات إيجابية، وهي ذات طبيعة عقلية وإدراكية، فإن التحذيرات هي شكل للمعorzات السلبية، وتدخل



التحذيرات مع النواهي ضمن تقوية المعززات بوجه عام لدفع النفس عن الاستجابة لسلوك خاطئ، وغير توافقي، وذلك ليساند المعزز الإيجابي في مواجهة المثيرات السلبية، وقد استخدم الإمام الباقر عليهما السلام وصيته لجابر الجعفي لغة التحذير بلفظ واضح أكثر من مرة في نص هذه الوصيَّة، ونعيد للقارئ الكريم بعض الكلمات لوضع اليد على أسلوب التحذير والمنع) وهما:

١. أسلوب مباشر في تحذير الفرد من السلوك الخاطئ كقول الإمام الباقر عليهما السلام لجابر: إِيَّاكُمْ وَالْكَثَارُ مِنَ التَّحْذِيرِ، وَنَصَّتُ الْوَصِيَّةُ عَلَى هَذَا الْاسْتِخْدَامِ فِي جَمْلَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ شَكَلَتْ تَحْذِيرَاتٍ لَحْثَ الْفَرَدِ عَلَى الْمَسَاعِدَةِ فِي الْعَمَلِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ مُحَمَّدُ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِيَّاكُمْ وَالرَّجَاءِ الْكَاذِبِ، إِيَّاكُمْ وَالْتَّسْوِيفِ، إِيَّاكُمْ وَالْغَفْلَةِ، إِيَّاكُمْ وَالْتَّوَانِي فِيهَا لَا عَذْرٌ لَكُمْ فِيهَا، إِيَّاكُمْ وَالثَّقَةِ بِغَيْرِ الْمَأْمُونِ فَإِنَّ لِلشَّرِّ ضَرَاوَةً كَضَرَاوَةِ الْغَذَاءِ، إِيَّاكُمْ وَالْتَّفْرِيطِ عَنْ إِمْكَانِ الْفَرْصَةِ»، فَهَذِهِ الْجَمْلَةُ وَمَفْرَدَاتُهَا بِمَثَابَةِ قُوَّةٍ مُسَبِّقةٍ لِإِثْرَةِ الشَّعُورِ، وَتَنْبِيهِ الْأَذْهَانِ، وَهِيَ نَشَاطٌ دَافِعِيٌّ، وَتَحْفيِزِيٌّ تَدْفَعُ الْفَرَدَ نَحْوَ الْمَسَارِعَةِ فِي الْعَمَلِ.
٢. أسلوب آخر تم فيه استخدام (لا) الناهية، وتكرر هذا الأسلوب أكثر من مرة، وتدرج صيغة كف النفس عن السلوك المأثم في رد العدوان بمثله ضمن هذا الأسلوب، وهذه الطريقة في النهي وإن يظهر منها تحذير مباشر وعلني كالسابق، إلا أن طبيعة النهي تنطوي على تحذير فعلي بمخاطر غير مكشوفة، ولكنها تترك آثارها المختلفة على الشخصية المسلمة، ودليلنا في ذلك أنه بعد مطالبة الإمام الباقر عليهما السلام بوقف الاستجابات المحرمة، والسمو عنها تبعتها دعوة صريحة بالتفكير فيما قيل في الفرد، وارتباط هذه الأقوال بتحذير من الإمام لجابر، وكل مؤمن من السقوط مرتين (من عين الله سبحانه مرة، ومن أعين الناس مرة ثانية).

لذلك فالتحذير بصيغته بلفظي (إِيَّاكُمْ وَالْكَثَارُ مِنَ التَّحْذِيرِ)، يدفع عقولنا، وإرادتنا،



ونشاطنا الذاتي إلى العمل على الخلاص من عيوبنا، والحذر مما يعوق رغباتنا في الوصول إلى أهدافنا العبادية، وتهيئة أنفسنا للتربية على عادات السلوك الإيجابي والعبادي المرغوب، وهو جهد يتطلب منا عملية تنظيم السلوك بمكوناته الأساسية لتصب جميعها كوحدة سلوكية في نهر واحد يتلقى فيها المؤمن تربية جيدة لشخصيته، ويكتسب فيها قيماً وعادات وأفكاراً ومشاعر تجتمع فيها نسميه بـ(الشخصية العبادية)، وهكذا فالتحذير بصيغة (إياك) أو بـ(لا الناهية) بمثابة قوة دافعة تحرك الأفراد بمساندة معززات إيجابية، وتلتزم معها، فيؤدي هذا التآزر إلى تكوين الصيغة العبادية والإيجابية للشخصية الإنسانية، ولو في حدتها الأدنى.

٥. التوجيه ونصح الذات:

ويراد بهذا المبدأ عملية توجيه عقلي وديني للفرد ونفسه كما في نص هذه الوصية لجابر بأكمليها، ومن بعده جموع الأفراد المؤمنين، ويصاحبها جهد منظم بإسداء النصائح والمواعظ للذات من الآخر كحال الإمام الباقر عليه السلام مع صاحبه جابر ونحن بغرض تسديد السلوك وتصحيحه، وحمايتها إمّا بطريقة وقائية أو علاجية مما يتهددها من المخاطر التي تواجهها حاضراً أو المحتملة لاحقاً، فالتجيئ والنصائح عملية استشارة للمخاطر، واستعانته بخبرة عالم بالنفس وخفاياها، واسترشاد بطريقة تفكيره بحثاً عن خارج حل المشكلات عند الأفراد، أو اتقاء وقوعهم في مشاكل شخصية واجتماعية وغيرها، أو استفادة من تجربة هذا المربى المرشد في الوصول إلى مستويات متقدمة من عمليات الضبط السلوكي، وتحقيق الاتزان الانفعالي والنفسي الذي يرتبط بهذه التجربة التوجيهية، ويترك وراءه آثاراً إيجابية، وبصمات خيرة على نفسية الإنسان، وعلى علاقاته بنفسه والآخرين، وأهم من ذلك كله تحقيق مستوى عالٍ من رضا الله عن الفرد في



علاقات عبادية سامية.

فنص هذه الوصية المباركة - وكما أشرنا - نصيحة كبرى وقيمة يستفاد من جملها وعباراتها ومقاطعها اللغوية والمعرفية في تكوين مفاهيم سليمة، وممارسة سلوكيات يرتضيها رب العباد، وتؤدي في نهاية الأمر إلى بناء شخصية مؤمنة، وتحقيق حالات من الرضا النفسي عن الله، وعن رضا الفرد عن نفسه وسعادة ذاته، والشعور بالارتياح عن توافقها السوي، وأن أي تأمل في كل مفرداتها أو بعضها سواء في العبارات الوقائية أو العلاجية أو الإنمائية يعزز هذا الاعتقاد، وأنها مجموعة وصايا ونصائح وتوجيهات لسعادة المرء قد أسدتها الإمام الباقر عليهما السلام جميعاً، وليس لصاحبها جابر فقط، من أجل صناعة الإنسان السعيد العابد لله، الإيجابي بين الناس.

بيد أننا كالعادة في إعداد موضوع هذه الدراسة من نص الوصية نتلمس بعض الأمثلة والمصاديق المؤيدة لما نعتقد، ففي المقاطع الأربع التي تكونت منها الوصيَّة الإرشادية تجلّي مبدأ التوجيه والنصح المخلص للأمين من الإمام محمد بن علي الباقر بن رسول الله صلى الله عليهم، وكان من الصعب إعادة كل مقاطع هذه الوصية وكتابتها كامثلة، وهي موضوعة بنصها الكامل في مدخل الدراسة، واستوجب فقط تأييد هذا المبدأ بشواهد من باطن النص للتمثيل فقط، وقد مررنا بشواهد على ذلك في مواضع متفرقة من هذه الدراسة.

لقد ذكرنا أكثر من مرة توجيه الإمام جابرًا لكف سلوكه عن الاستجابة بالمثل في الرد على مظالم الآخرين وخياناتهم واستفزازهم له في تكذيبهم إياه، وأن يكون له فضل عليهم، وعدم مجاراتهم في سقوطهم الأخلاقي، وحثه في مقابل ذلك على التفكير فيها قيل فيه واتخاذ العبرة والعضة من ذلك، ثم عرض نص الوصية في أماكن متفرقة منها سلسلة من النصائح والمواعظ، ونماذج متنوعة من التوجيهات والإرشادات على مستويات



عديدة، وبمفردات وجمل متداخلة استبطنها الوصية على امتداد نصها، وأجزائها الأربعة المتصلة مع بعضها، وتضمنت عملية توجيه ونصح الآخر تنبيه ذهن الفرد عن الإتيان بأعمال سيئة، وتحذيره من الانغماس في ممارسة ظواهر سلوكية، وضرورة اتقاء عاقيها، ونتائجها الخطرة على نمو الذات في اتجاه عبادي.

وكانَت لغة النصائح والتوجيهات توازن بين التعزيز الإيجابي والسلبي في شكل أوامر ونواهٍ وتحذيرات كقوله في الجزء الثالث من نص الوصيّة:

«يا جابر: استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعريضاً للغفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوقّع مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة، واستجلب حلوة الرزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس...».

ثم في عمليات تعزيز سلبي بدا في أوامر حيناً، ونواهٍ وتحذيرات حيناً آخر كالمنع عن عمل أفعال، وتحذيرات من ظواهر معوقة لنمو النفس عبادياً، ومن ذلك (لا تظلم، لا تخن، لا تجزع، وإياك والتسويف، إياك والغفلة، إياك والتواني فيها لا عذر لك فيه، إياك والثقة بغير المؤمن، إياك والتفريط في الفرص وتفويتها، ثم تحذير الإمام الباقر  جابر، وللفرد المؤمن من أن للشر ضراوة كضراوة الغذاء، ويعني ذلك أن للشر عادات ملحة وشديدة الإلحاح كإلحاح عاداتنا في طلب الغذاء، والإقبال على المأكولات والشرب.



ويستفاد من توازنات التوجيه بشقيها الإيجابي والسلبي بلغتنا نحن المهتمين بعلم النفس وإرشاداته حرص الإمام الباقر كمربي ومرشد وموجه على تحقيق خطوات تجميع بين إجراءات معززة بطريقة إيجابية، وبين إجراءات معززة ومماثلة لسلوك الذات بنحو سلبي تكفل فيها الذات سلوكها عن القيام باستجابات لا تسمو بها كما في المقطع الأول من الوصية، وبلغة مباشرة نجد في إجراءات النصح والتوجيه والإرشاد توجيهًا نحو (إشباع مبدأ اللذة) وتحقيقه، ويقابل ذلك أيضًا حركة صوب تحقيق حالة (تجنب الألم)، وكأن الجنة تقول في آن (اعملوا لتذهبوا إلى الجنة) بإجراءات عملية وعبادية محددة وردت في نص الوصية، وتقول في الوقت نفسه (امتنعوا عن عمل المحرم كي لا تذهبوا إلى النار)، وبهذه النصائح والمواعظ، يتنظم سلوك الأفراد في اتجاه سوي، فيساعد ذلك على تنمية شخصيتهم العبادية، ويميزها بسمات وصفات وخصائص إيمانية وعبادية تتفق مع وجهة المشرع التربوي الإسلامي، وهذا ما ابتغاه الإمام الباقر عليهما السلام من هذا التوجيه.

٦. مبدأ المعالجة السلوكيَّة بالأَضدَاد:

نعيش حياتنا الشخصية بطبيعة مزدوجة، وبقوى حيادية، فالناس على مختلف أجناسهم ولدوا بقابلية وراثية تنطوي على استعداد لفعل الخير، واستعداد مقابل لفعل الشر، وتضمنت وصيَّة الإمام الباقر عليهما السلام حالات من تقابل السلوك في حياة البشر بلا استثناء، مؤمنين ومن مذاهب شتى، ففي كل فرد توجد لديه قابلية للخير وفي نفس الوقت توجد لديه قابلية للشر، وقد استهدف الإمام الباقر عليهما السلام وصيَّته بث قيم الخير لمواجهة رذائل الشر واستجاباته العصبية الساقطة، وكان توجيهه لجابر بن زيد الجعفري بأن يكف عن معاملة المسيئين بمثل ما فعلوا ليس لينصر قيم الخير فحسب، بل ويقابل



الشر بردود أفعال طيبة، تنطوي على سمو أخلاقي، عسى أن تحدث تغييرًا وجданياً داخلياً يحس فيه المسيطر بخطئه، ويسارع في تعديل مفاهيمه وأفكاره وسلوكيه.

لم تتوقف وصية الإمام الباقر عليه السلام عند سمو النفس في مقابل انحطاط السلوك لدى الآخرين بل يعرض نفسه على كتاب الله عز وجل، ويتأكد من نفسه إن كان سالكاً سبيلاً، زاهداً في تزهيد، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تحريفه، فعليه أن يثبت ويُشرّب نتائج الخير، ولن يضره ما قيل فيه، وإن كان مبائناً للقرآن، فماذا الذي يُغرّك من نفسك، ويعني ما الذي يغريه في نفسه حتى تتجاوز معايير الحق، وبمقابلة الموقفين يدرك موقعه قريباً من الحق أو داخلاً في دائرة الباطل، وبهذا التقابل يسمو موقفه في الحق، ويحيط عمل المبطلين.

وثمة مواقف متقابلة تعرف ب مقابلة السلوك، وتدرك علاجياً بطريقة الأضداد^(١)، ونتلمس كيفية معالجة الرذائل بالفضائل من جنسها، ونرى في بعض الجمل السلوکية تقابلًا بين ضد إيجابي وضد سلبي، وتغييرًا للأضداد السالبة بأضداد إيجابية، ولنقرأ مثلاً عبارات وردت في نص الوصيّة الارشادية للإمام محمد بن علي عليه السلام:

- «اقطع أسباب الطمع بِرَدِيَّس». -
- «واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار، وتعرض للرحمه وعفو الله بحسن المراجعة». -
- «واطلب بقاء العز بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز

(١) لمعرفة تفصيلية لطريقة (العلاج بأضداد السلوك) يمكن للقارئ الكريم الاطلاع على كتابنا (العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد) بفصوله التسعة، وقد أعددناه منذ سنوات كدراسة تربوية تحليلية في ضوء ما أسميناها بـسيكلولوجية الأخلاق، ونفق القيم العبادية وبخاصة فصوله السبعة الأولى.



اليأس ببعد الهمَّة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل».

- وفي مقطع كف السلوك عن مظالم الغير نجد مثالاً لممارسة السلوك وتعديلاته بهذه الطريقة، فهذا الجزء من نص الوصيَّة يعالج ظلم الغير لنا بالعدالة، وتخوينهم لنا بالأمانة إليهم، وتكذيبهم بالإحسان لهم، وهكذا.

٧. مبدأ معرفة نتائج العمل وأثره:

هو مبدأ العضة والاعتبار، إذ يحتاج كل امرئ منَّا، وهو يقوم بعمله، معرفة نتيجة ما يقوم به، ويدرك نتيجة جهده، فإذا كان يقوم بالتعلم على سبيل المثال، فيمكنه معرفة نتيجة ما تعلمه، ما أتقنه، ما يحتاج إلى مزيد من الدرس والتعلم، والإتقان، وما لم يتلقنه فيكون ذلك دافعاً ذاتياً لمزيد من النشاط، والاسترشاد بالعلم، ومعرفة ما كان يجهله، وما يزال، ويبحث عن طرق التغلب على فشله، ومقدار نجاحه، وهذا المبدأ -مبدأ معرفة المرء لنتائج عمله -مبدأ حيوي في العمل الإرشادي، بل طبيعة هذا المبدأ إرشادية، وبه يعرف المرء عن عمله، تعلمه، نشاطه ما يمكن أن يتحرك به نحو الأفضل، ومعالجة الناقص في نشاطه، وعن طريقه يتم تطوير قدراته والارتقاء بها.

وما يلفت نظرنا فعلاً في نص وصيَّة الإمام الباقر عليهما السلام تأكيدها في أكثر من موقف على إشارتها لهذا المبدأ، وتشدد بعض عباراتها على ضرورة معرفة الأفراد نتائج أعمالهم، ما تعلموه، وما أتقنوه، وما لم يتعلموا أو يتقنون، تمهيداً لاتخاذ اللازم بغض النظر تطوير قدرات الذات، وإحداث التغيير الايجابي نحو الأفضل، وبأي مقدار نسبي.

لند أول الأمر إلى مثالنا الذي كررناه مراراً، وأكدنا فيه بحسب نص الوصيَّة أن الإمام طلب من جابر كف مقابلة سلوك الآخرين العدواني تجاهه بسلوك عدواني مثله،



ويلحقه الإمام الباقر بتوجيه مباشر، ويأمره بأن يفكر بها قيل فيه، ويتعرف على نتائج ما فكر فيه، أي عرف نتائج عمله من عمليات التفكير والتأمل الذهني، ويقارن الأمور في موقفه التأملي بين صحة ما قيل، وزيف ما قيل عنه، وهذا مشهد على معرفة الأفراد، ومنهم جابر الجعفي، بضرورة نتائج العمل الذهني، والتأمل في مسأله (السقوط من عين، وأعين الناس أو تحصيل الشواب).

ويستبطن هذا الموقف ضرورة تربوية معززة بمبدأ ارشادي هو أنه بعد عملية التأمل والتفكير قد عرف المرء ما قيل فيه من صحة أو خطأ، وتبين له في الوقت نفسه إن كان وضعه الشخصي على (خلاف ما قيل فيه) أو (صحة أقوالهم في ذاته).

وفي موقف (المجاهدة النفسية) التي أُمِرَ بها الفرد المؤمن في مواجهة شهواته، يجد نفسه في تطبيق فعلي لهذا المبدأ، فالمقطع اللغطي يحدد صراغاً فعلياً بين الفرد ونفسه، ويتحدد أكثر من نتيجة للفعل بشكل متتابع، ولو على أكثر من مرحلة:

أ- فمرة يقيم أودها واعوجاجها، ويخالف هواها في محبة الله (وهذا مشهد لمعرفة المرء نتيجة عمله، والمقصود به صراعه مع شهواته).

ب- ومرة كما يقول هذا المقطع: «تصرعه نفسه، فيتبع هواها فيتعشه الله فيتعشن، ويقيل الله عشرته فيذكر، ويفزع إلى التوبة والمخافة، فيزداد بصيرة ومعرفة».

وبالتأكيد يتحدد موقف الفرد وكيفية فعله، وهو على علم ومعرفة بنتيجة ما يفعل، فيتوقف في مسألة نفسه عن مواطن الفشل، ويتدارك فوارط عمله وتقصيره هنا وهناك، وينطلق واثقاً بعد أن نجح في الانتصار على شهوات نفسه، ويتقوى بإرادته الذاتية على السيطرة عليها، ويصل إلى مبتغاه من إتقان العمل، ومن المؤكد أن الفرد في أي تجربة جهادية، وفي مواقف أخرى من حياته يحتاج لمعرفة ما أتقنه، وما أخفق فيه،



فيرفع من مستوى كفاءته، ونضجه وتطوره قدراته.

ثانياً: أساليب العلاج الإرشادي ذات الطابع الروحي - الأخلاقي:

واستخرجنا بنظرة اجتهادية مجموعة من الأساليب البارزة في نص الوصيَّةِ الباصرية الكريمة، ومنها الأساليب التالية:

١. العلاج الإرشادي بكثرة الذكر في الخلوات:

تعرضت وصيَّةُ أبي جعفر الإمام محمد بن علي عليهما السلام في الفقرة الثالثة من نص وصيَّته لاستخدام ما أسمته بـ(كثرة الذكر في الخلوات) في مجال التربية الوجدانية التي تركز على رقة القلب وإثراء نشاط الإنسان بالعواطف الحية الإيجابية كالحب والحنان والعطف، وقد تضمن المحتوى اللغوي والمعرفي للوصيَّةِ أساليب متعددة لـ(ذكر الله) تعالى في نص الوصيَّةِ سواء كان في خلوة أم في العلن.. مثل إشاراتها لاستكثار قليل الرزق، وشكر الله، واستقلال كثير الطاعة، وشدة اليقظة الذهنية، واستحضار الخوف الصادق من الله، مقاومة الهوى، الاسترشاد بالعقل والعلم، العمل بالقيم كالزهد والقناعة وقصر الأمل، والصدق، والعدالة، وعز اليأس، وشدة الندم، كثرة الاستغفار، طلب عفو الله والتعرض لرحمته تعالى، وممارسة الأدعية والمناجاة في الظلم، والتسلل إلى الله، وأداء الفرائض، ورد الغضب، ودفع الانتقام من الناس، ومجاهدة النفس بالتوبَة وبغيرها من الاعمال العبادية.

وفي الجملة المذكورة مقابلة بين مشهدين أحدهما علني يربط بين ليونة القلب ورقته وترقيق عواطفه وسموه الوجداني، وبين كثرة الذكر لله في الخلوات، والمشهد الآخر خفي، ومضاد للحالة الأولى، ويربط هذا المشهد بين قساوة القلب غياب ذكر الله في



الخلوات وغيرها، ولا خيار لدى الفرد بين هذين النمطين المتقابلين سوى المفاضلة بينهما، و اختيار الأفضل منها للفرد المؤمن، فإما أن يختار (رقة القلب) ويتم تنميته بكثرة الذكر في الخلوات، وهو الخيار الأنسب له، أو يتخلّى عن ممارسة ذكر الله فيخسر هذه الرقة، وتظهر عليه آثار (القسوة في قلبه) وانعكاساتها عليه في حركة الحياة وعلاقاته بالناس، بل مع نفسه أحياناً.

وقد اقترح الإمام الباقر استخدام هذه الطريقة في التربية العاطفية ضمن سلسلة من نصائحه، فذكر هذه النصيحة بصيغة الأمر الإيجابي، أي بتعزيز موجب للسلوك الإيماني، وقال: «وتَعَرَّضْ لِرِقَّةِ الْقَلْبِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ فِي الْخَلْوَاتِ».

كما نتصور - وهذا اجتهد في فهم الجملة السابقة - بأنّها تتكون من أجزاء متصلة مع بعضها تؤدي في نهاية الأمر إلى تكوين سلوك إيجابي يلتقي مع النظرة العبادية للمشروع التربوي الإسلامي، ونذكر هذه الأجزاء المتحركة في هذا الاتجاه كما يأتي:

أ- صيغة توجيه:

وتتأرجح عادة صيغ النصائح والمواعظ لدى الإمام الباقر إما (بالأمر أو النهي)، لكنها في هذه الجملة تبدو بصيغة «أمر» ظاهرة في الفعل (وتَعَرَّضْ)، فهذه الكلمة، وهي فعل أمر ي العمل على إثارة دوافع السلوك وتنشيطها لدى الكائن الآدمي، وتكون بمثابة قوة دفع وتحريك داخلية، و تعمل كـ (مثير أو منبه حسي) في البحث عن إشباع، فيتبع ذلك بالضرورة ظهور استجابة سلوكية إيجابية تحقق هذا الإشباع، وتساعد الفرد المؤمن على بناء شخصيته العبادية، وتكون هذه الاستجابات واضحة في (كثرة الذكر) لله سبحانه وتعالى التي تتسبب بتكرار عملية ذكر في تكوين حالة متقدمة من (رقة القلب).

ب- طريقة عمل:

وتحتزن هذه الجملة ما ذكرناه -طريقة عمل- وهي ممارسة منهجية تربوية في تعديل جانب مهم من الجانب العبادي للذات المؤمنة، وتحددت صيغتها بـ(كثرة الذكر لله عزَّ وجل) في الخلوات دون تحديد بالليل أو بالنهار، ولكن غالباً تتم الخلوة في فسحة الزمان المتصلة إما ليلاً أو نهاراً، وبخاصة الليل لانشغال الناس بأعمالهم في النهار، كما أن غالباً أوقات الفراغ عندهم هي بالليل، وتتاح لهم الخلوات بأنفسهم، ولا يقصد بالخلوة مجرد تفرغ الفرد المؤمن في وقت محدد، وإطلاق الفاظ يسميه البعض (القلقة لسان)، بل ترتكز صيغ الخلوات على ممارسة هادفة ومنظمة، ومحظوظ لها بمجموعة برامج روحية، وبأشكال من الممارسات والفعاليات الإيمانية التي تحقق الهدف العبادي بترسيخ العلاقة مع الله كالصلوات، والتواfal ، وقراءة الكتاب (القرآن)، والأدعية المختلفة، والكتب التربوية الإيمانية الهدافة، وإعداد برامج عمل منتظمة، وعصيرية كذلك لضبط حركة (الذات) على سلوك إيماني يرضي الله عزَّ وجل، ويشعر فيه المؤمن بمتعة التغيير الإلهي في داخل كيانه، ويتذوق حلاوة الأنس في خلوته مع الله.

وتعمل جملة «وتعرَّض لرقة القلب بكثرة الذكر» على تحريك الداخِل الإنساني باستشارة دافعية الفرد في اتجاه إيجابي يصقل الجانب الوجداني للقلب الإنساني بترقيق مشاعره، وصبغها بالإيجابية، ودفعاً في اتجاه معاكس لما أسمته الوصيَّة بـ(قسوة القلب)، (وفقر القلب)، يعني خلوه من الرحمة والحب والعطف على الآخرين، واستبداله بحالة من (ترقيق القلب) كخيار إنساني يلتقي مع أداء الوظيفة العبادية لصاحب القلب، ومع الأهداف العبادية للفرد المؤمن، فيتم تفعيل مشاعر الود والمحبة والتفاعل الحي معهم.

ج- الهدف المراد تحقيقه:



وهو - بالمعنى المتداول في أدبيات علم النفس ومصادر علم النفس - سلوك يراد تحقيقه كما ذكرنا، ويراد نيله بأفعال ومارسات سلوكيّة، فالمُدْفَع هو السلوك المرجو الوصول إليه سواء كان هذا المُدْفَع (سامياً أم منحطًا)، ولكن في سياق هذه الجملة كان بصورة مثل، صورة سمو إنساني، ويبدو هذا المُدْفَع في ظاهره حركة منطلقة من داخل الكائن الآدمي، وأملاً نشطاً لتحقيق هدف دنيوي خاص بدنياه وكيانه الذاتي وهو كما جاء في الوصيّة (رقّة القلب)، وتجنيبه القساوة، والتبلد الوجداني، وهدف آخر يتحقق فيه رضا الله لارتباطه بعمليات ذكر الله ومداومته على عبادته سراً وعلناً.

فالجملة السابقة القائلة: «وتعرّض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات» حسمت أي جدل حول نمط المُدْفَع، إذ حددت نوعية المُدْفَع وهو «ترقيق مشاعر القلب» وتحريك المشاعر، وإضفاء طابع الحب والحنان والعطف والرقة عليه، وطالبت بأن يكون قادرًا على التفاعل العاطفي النقي مع الآخرين ومع قضاياهم، فهذا المُدْفَع هو بكل وضوح (هدف وجداني)، ولكن بحسب مطالب الوصيّة خيار عقلاني، وعبادي يتربّ عليه جزاء في الدنيا والآخرة.

د- النتيجة الإيجابية:

وتتمثل في حصول الفرد على لذة الذكر وتمتعها بالليل والنهار، وتحقيق الأجر الإلهي، وتغير علاقات الفرد بالآخرين بنحو إيجابي، وتقدير الناس للمختلي بنفسه للعبادة، والذاكر لله، والمُفرغ حبه وعطافه وحناته على الناس بأعمال يلمسون آثارها حيّة بين ظهريّاتهم، وتأيد هذا التحول الإيجابي والمنطقي جملة أخرى لاحقة للجملة السابقة، وهي قول الإمام الباقر عليه السلام: « واستجلب نور القلب بدؤام الحزن »، إذ تُحظى النفس بعد النجاح في هذه التجربة الروحية والوجدانية المتسامية بحالة من (الغنى النفسي) الذي وعدت به الوصيّة في قوتها بالفقرة الرابعة والأخيرة: « ولا غنى كغنى



النَّفْس»، وتوفيقها بـ(ترقيق القلب بالحب والعطف والسمو، وتقدير الناس لصاحب هذا القلب، وأجر الله له)، وهو في اعتقادنا (أثمن مظاهر الغنى للنفس) التي أشارت إليها الوصية المباركة.

وما هي النتائج الملحوظة بعد نجاح التدريب العبادي للإنسان المؤمن بذكر الله في الخلوات؟

إذا ما نجحت طريقة الذكر في الخلوات، وهي ستكون ناجعة - إنْ خَلُصَتْ نوايا العبد المؤمن - بتحقيق المهد المحدد المذكور في سياق الوصية، وهو هدف وجداً نادى كما تقدم القول، وتجسد في حقائق سلوكية عبرت عن نفسها في تحقيق أهداف عبادية انعكست خيراً على تكوين نسق إيجابي للشخصية، وجميعها تعتبر نتائج ساطعة لمارسة عملية الذكر بالخلوات وغيرها على مستوى العلاقة مع الله، ومع الآخر، وعلى مستوى علاقة الذات بنفسها.

وأول نتائج عملية (كثرة الذكر في الخلوات) الله سبحانه:

1. ينتهي هذا العمل العبادي القوي بعماره القلب الإنساني لفرد المؤمن، وتكون حياته عامرة بذكر الله وبحب الناس، ورقة مشاعره الوجدانية.
2. تربى الشخصية في خلواتها، كما في علنها، على الورع عن محارم الله في السر، وأن هذه النتيجة تقتاد الشخصية المؤمنة بالضرورة على مطابقة ظاهرها باطنها، فيتساوى ورع المرء في السر والعلن، وتغلب بذلك على الفجوة الفاصلة بين ظاهره وباطنه، وخرج من دائرة: «من كان ظاهره أرجح من باطنـه خفـَّ ميزانه»^(١) على حد تعبير الإمام الباقر عليهما السلام أو على الأقل ابتعد عن هذه الدائرة وخفف من آلام مخاطرها.

(١) الحراني، الحسن بن علي بن شعبة، تحف العقول، ص ٢١٤، وبحار الأنوار، للمجلسي، ج ٧٥، ص ١٧٣، وأيضاً، ص ١٨٨.



٣. يتغلب الفرد المؤمن (إن كان مبتلى بجمود عواطفه) على هذه المعضلة بالتحرر الكامل أو الجزئي من جمود وجداه، وبالتحغل على تبلده الانفعالي والعاطفي، وتحويله (تساوة قلبه إلى رقة إيجابية في مشاعره) يحب فيها الناس، ويحبونه ويعطفون عليهم ويبادلونه رقة المشاعر وإفراطها في مسارات تعزيز الروابط بينه وبينهم، وهذا كله انعكاسات طيبة على مستوى الرضا الإلهي، ورضا الفرد عن نفسه.
٤. يكون غلبه على قساوة قلبه بغلبة الخير في نفسه، وتحويل عاداته السلبية لعادات عبادية سوية ومرغوبة، بحيث تكون «الغلبة بالخير فضيلة»^(١) كما قال الإمام الباقر
- في حديث له، وتسمى إنسانيته، وتخلاص مودته للمؤمنين.
٥. يكتشف الفرد المؤمن من خلال عمليات ذكر الله وترقيق مشاعره الوجدانية قدراته الذاتية المُعَيَّنة في مواجهة رواسب النفس، وما أسمته الوصية بـ(سالف الذنوب) سواء باستخدام أساليب (شدة الندم أم كثرة الاستغفار، أم تعرضه لرحمة الله وعفوه، كما تضعف حالة الصراع الضاغطة بين الشهوة والعقل بسيطرة الأخير، ويتقليل أخطاء الفرد)، فيشعر الفرد بالارتياح الداخلي، وخلاصه إلى راحة النفس واجهام القلب.

٢. التربية العلاجية الإرشادية بأداء الفرائض :

يدخل في إطار العلاجات الإرشادية استخدام طريقة التربية بـ(أداء الفرائض) التعبدية وغيرها، وبنحو يومي، ونظام محدد من التوقيت، وللحظة أن الوصية الكريمة ذكرت أشكالاً من الطاعة لله في مجالات السلوك العبادي كدعوة الإمام الباقر

للتحلّم، والثبات الانفعالي، وكف النفس عن السلوك المحرم، والثبات أمام عدوانية

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٨ .



الغير، والتفكير، ومجاهدة النفس، وتدريب النفس على ممارسة الطاعات بعد تخلصها من المعاصي والذنوب، وتنمية مشاعر صدق الخوف، وتدريبه على مغالبة الهوى، وكثرة الاستغفار، والذكر بالخلوات، والإقبال المخلص على قراءة الأدعية والمناجاة في الظل، وغير ذلك من أشكال السلوك العبادي واستجاباته المتعددة.

ولقد ذكرت وصيَّة الإمام الباقر عليهما السلام لفظة (الطاعة)، وقررتها أكثر من مرة بحسب طبيعتها، وطبيعة كل موقف، ومن ذلك قوله عليهما السلام: «يا جابر: استقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس» وعاد النص إلى استخدام اللفظة ذاتها بمقطع صغير من جملة مماثلة وبين نفس ألفاظها مثل قوله عليهما السلام لصاحبه جابر: «وتخلص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق، واستقلال كثير الطاعة» وهو استخدام محمود لتعزيز الدعوة إلى ممارسة سلوك عبادي مرغوب هو الإكثار من طاعة الله سبحانه.

بيد أنَّ جملة في الفقرة الأخيرة من نص الوصيَّة صاغها الإمام الباقر عليهما السلام بكلمات أربع واصحات المعنى، وخالفية من الالتباس والغموض، وهو قوله عليهما السلام: «ولا طاعة كأداء الفرائض» دون تحديد مباشر باسمها.

والمعنى المستفاد في الجملة السابقة «ولا طاعة كأداء الفرائض» أنه يفهم منه تنبئه عليهما السلام لأفضل أشكال الطاعات الربَّانية، وهي - كما هي واضحة - تشجيع الفرد المؤمن على أداء الفرائض اليومية، ويتحمل غيرها دون تحديد لشكل عبادي معين كالصلوات، وإن كانت الفرائض التعبدية اليومية في مقدمتها بكل تأكيد، فالفرائض بمعناها الشمولي لا تقتصر على أداء الفرائض اليومية دون غيرها، فكل عمل عبادي من الفرائض اليومية ومن غيرها كأداء الحقوق المالية وفرضية «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ومجاهدة الظالمين، يمثل - بالنسبة للفرد المؤمن - أداة فعالة للتربية والبناء الروحي والمعاريض والأخلاقي.



ومع تأكيد فهمنا على المعنى الواسع لمفهوم الفرائض كالصلوات اليومية، والنوافل، والضرائب المالية كالزكوات والخمس والصدقات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخدمات التطوع الاجتماعي والإرشادي، فإنها في نظرنا فرائض معنية بقول الإمام الباقر عليه السلام، ولها دور عملي في التربية وطاعة الله سبحانه، وتعديل السلوك بها يتفق والنظرة العبادية السوية للمشروع التربوي الإسلامي، فالعبادات اليومية كالصلاحة على سبيل المثال توفر للفرد الإحساس بالأمن، وتعيينه على مغالبة المنكر، والانتهاء من فعل الغواحسن، وتؤدي فريضة الصيام إلى المساواة بين جميع المسلمين، وتتساوى مشاعرهم الوجданية في الجوع وسائر النتائج التعبدية المترتبة على صوم الشهر الكريم، فصوم النفس الإنسانية عن الآثام كصومها عن الطعام، وهكذا كل فريضة عبادية^(١) لها نتائجها السيكولوجية التي يصب خيرها في مصلحة بناء الانموذج العبادي للشخصية المؤمنة.

٣. العلاج الإرشادي والتربية بالمارسة والمواقف العملية:

هو أحد أساليب تربية الذات وتقويم أدائها بمعايير المحددات الشرعية الإسلامية، ويراد بهذا الأسلوب أن الفرد المؤمن وهو يسعى إلى إعادة تربية نفسه أن يضعها في مواقف تغييرية عملية أو مواقف تعديل سلوك فعلية، ويخضعها لقواعد السلوك التي يريد لها المشرع التربوي الإسلامي ليتم التغيير في مجراه الطبيعي، فلا تكفي لقلقة اللسان، وتردد الأماني لتحقيق التغيير العبادي المطلوب، وإنما يبدأ الفرد الصيام أو الصلاة أو تصحيح أخطائه بالصلة بمواصفات عملية، والدخول فيها بأداء وتنفيذ يجعل الفكرة والشعور حركة عبادية، واقعية.

(١) انظر ما كتبناه في دراسة تربوية سابقة لنا، وتحت عنوان فرعى (العبادة وتكوين استجابة سلوكية مضادة سوية) من كتابنا (العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد)، ص ١٠٤



وقد تكون المواقف العملية التي تساعد على التربية الوقائية أو العلاجية متعددة، بيد أننا سنشير لموقف تربوية ثلاثة يمكن استخدامها كموقف تربوية عملية، واقعية تساعد على إنجاح عملية التغيير العبادي بجهود إرشادية صحيحة، وكيف يفهم القارئ الكريم معنى مقصودنا بال التربية العملية نستعين بالأمثلة الثلاثة المتقدمة، وكدلالة على إشارة نص الوصيَّة لهذا النمط التربوي أو الأسلوب العلاجي في نص الوصيَّة الخالدة.

١. المثال الأول:

يذكر النص في مدخله، وفي العبارة الثانية تقريباً نصيحة من الإمام الباقر لصاحبه جابر بقوله الكريم: «إِنْ ظلمتْ فَلَا تُظْلَمْ، وَإِنْ خَانُوكْ فَلَا تُخَانَ، وَإِنْ كُذَبْتْ فَلَا تُغَضَّبْ، وَإِنْ مَدْحَتْ فَلَا تُفْرَحْ، وَإِنْ ذَمَتْ فَلَا تُجَزَّعْ». .

هذه النصيحة تحتاج إلى تنفيذ عملي، فلا يكفي الاستماع لها والتغني بحكمتها، فالمهم في الأمر تفيذهما والعمل بها في حركة الواقع الاجتماعي، واستشارتها في موقف فعلي وقائم في العلاقات الاجتماعية بين جابر وأي مؤمن، وآخرين يعملون على استفزازه أو أنهم يخطئون بحقه فيكذبونه أو يظلمونه أو يخونونه، أو يكيلون له ذمًا يؤذيه، فالردد هو موقف عملي بأية استجابة، فإن كان سباباً وشتائم وقبح قول فالاستجابة عملية ولكنها بشر ماثل، وبالرد على عدوان بمثله، وهذا لم تتصح به الوصيَّة، وبقيت أمم المؤمن صيغة استجابة سلوكيَّة مثل تسمو بالنفس عن انحرافات الناس وعدوانيتهم، وهي فعلياً لا تكون إلا في موقف عملي يرتفع بأخلاقيات الفرد، وتضعه في موقف ضبط انفعالي وسلوكي، والتزام تام بالتحلُّم والسيطرة على ظهور الانفعالات، فيكيف الفرد نفسه عن مقابلة أذى الناس بأذى مثله، فيكون المبتدئ والرادر بمسمى واحد من قبائح الكلام.

ويتعلم الشخص المؤمن من هذا الموقف العملي كيفية ضبط سلوكه الذاتي، وكيفية

التحكم في انفعالاته وإخضاعها لمنطق العقل وأخلاقيات الدين، وفن العلاقات مع الآخرين، ثم يوجه سلوكه واستجاباته العملية نحو أهداف عبادية سامية، وقبله كان جده أمير المؤمنين يأمر الناس بالتحلم، والتشبه بأفعال الحلماء، فقال ﷺ بما لفظه: «إن لم تكن حليماً.. فتحلم»^(١)، فإنه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم»، وقوله كذلك: «وَضَادُوا الْغَضْبَ بِالْحَلْمِ»^(٢) أي بكظم الغيظ وتدریب النفس على التحلّم، وهي فرصة من واقع الحياة، ونعني أن يستفيد المرء من موقف الاستفزاز العدواني للتدرّب على تنفيذ واحترام قيم الفضيلة، والانتصار للخير بالخير، وفي نص خارج عن نصوص الوصية أوصى الإمام الباقر عليه السلام أن تكون الغلبة بالخير لا بالشر، فقال عليه السلام: «الغلبة بالخير فضيلة، وبالشر قبيحة»^(٣).

٢. ومثل آخر تطبيقي قد مررنا عليه كأحد أساليب إعادة التربية والتدريب بمواصفات عملية وهو حثه عليه السلام جابرًا وكل مؤمن بأنه: «لا طاعة كأدء الفرائض» وجميع هذه الفرائض وفي مجالاتها المتعددة تحتاج إلى نشاط عملي، ونزع سلوكه يساعد على التربية العملية للذات، وبمواصفات عملية، فلا يتعلم المرء صلاة بحفظ الآيات والأذكار وكيفية حركات الصلاة وإن كان ذلك مفيدةً، وإنما بممارسة عملية، ولا يصوم إلا بالجوع والامتناع عن شهوات البطن وأثام اللسان والتفكير، ويتعلم الفوارق بين حال الجائع والشبعان، وتحسّن حالته الوج다انية والفلسفية والأخلاقية، ولا يقال له إنه حاج بدون زيارة بيت الله الحرام ومارسة شعائر فريضة الحج في واقع عملي بأرض مقدسة، وبأنشطة السعي والطواف وحلق وقص الشعر ورمي الجمرات وغيرها من

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص ٥٠٣ .

(٢) ريشيري، محمد، ميزان الحكم، ج ٧، ص ٢٣٩ .

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٨ .



شعار هذه الفريضة، وكذلك تؤدي الزكوات والضرائب المالية الشرعية بالأداء الفعلي وتسليمها للجهة المعنية، وهكذا فالطاعات تتطلب الأداء العملي للفرائض بمختلف أشكالها وصنوفها في الحياة الروحية للمسلم.

٣. ومواقف عبادية عملية في مجال الأخلاق والسلوك كالزهد والصدق والقناعة، وضبط النفس بالتحلُّم وتحمل الشدائِد والصدَمات العاطفية، والثبات النفسي والعاطفي في مواجهة استفزازات الناس وظلمهم، كقيم العدل، والإنصاف، والأمانة، والشُّكر وقصر الأمل، والرحمة، والعفو، والعز، واليقين، والطاعة، ومجاهدة النفس والفرع إلى التوبة المخلصية لله سبحانه، فجميعها لا تكون مقبولة بمحدثات المشرع التربوي الإسلامي ومعاييره إلَّا بعمل، وتطبيقات واقعية ملحوظة تحمل الناس أنفسهم على وصف ذوي الأخلاق بها، بل ونلحظ في الوصيَّة أوامر بتنفيذها مثل (انزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، واستجلب حلاوة الرزْهَد بقصر الأمل، وقطع أسباب الطمع بِرْدُ اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، ولا قوَّةَ كَرَدُ الغضب)، ولا يمكن دفع حاضر الشر بدون استجلاب حاضر العلم، وهكذا ترد الرذائل بفضائل من اضدادها.

ومن الصعوبة أن يتصر على شهواته وأمراضه السلوكية بالتمني، وبدون معرفة جادة بالنفس وخفاياها، وبدون ممارسة الذكر وكثرة في الخلوات من أجل ترقيق قلبه بأنشطة عملية كالآدعية وصلوات الليل والخشوع، وممارسة كل شيء يساعد على التخلص من قساوة القلب، وتبلي وجدانه الأخلاقي، ولا يميت الطمع في نفسه وما يترتب عنه من مذلة وتحقير وضعف ومهانة إلَّا بِرْدُ اليأس، وهو الشعور العملي الحي المضاد بعز اليأس بما في أيدي الناس، وتدوُق حلاوة الكرامة بدلاً من استجداء الناس، وإراقة ماء وجهه لهم، فالماء - إذن - محتاج لتجارب عملية متواصلة يخوضها بنفسه كي يتعلم ويعبد الله ويتذوق حلاوتها.. بالتعلم القائم، وبالأداء الفعلي، وبالممارسة العملية.



كما أن الفرد من جهة أخرى.. كيف له أن يتخلص من (استهانته بالذنب) التي حذرت منه الوصية، ويغلب على حالة رضاه بهذا الواقع المزري، الموبوء بمفارقة المعاصي بدون ممارسة عملية يتصدى فيها واقعاً للانحراف ومتاعبه، وفي الميدان العملي، فالخلاص من معصية الاستخفاف بالذنب، والتعبير الإيجابي عن عدم رضاه بحالة الخزي والعار المصاحبة لهذه الحالة يتطلب الثورة والتمرد وبده التغيير وخوض تجارب جهادية مع شهوات النفس وانحرافاتها ومواطن الخلل والفساد في داخلها، وقد نبهت الوصية إلى أنه (لا فضيلة كالجهاد) وتحدد لهذا الجهد شرفه بـ (مجاهدة الهوى) ومخالفته، فقال الإمام في وصيته لجابر: «ولا عقل كمخالفه الهوى، ولا جهاد كمجاهدة الهوى»، وكما تقدم فجميعها موافق تغيير عملية فعلية تنقل الذات من واقع آثامها إلى الاستقامة على الحق، ورشد العقل والسلوك، والرضا عن أفعال الذات بما يرضي الله سبحانه وتعالى، ويتمثل فيها الفرد المؤمن أحكماته الشرعية المتعددة في أعمال تعبدية.

٤. إعادة التربية العلاجية بالقيم الأخلاقية:

ذكرنا في السياق اللغطي والمعرفي للنص بعض القيم العبادية، مثل الزهد والصدق والقناعة، وضبط النفس بالتحلّم وتحمل الشدائـد والصدـمات العاطـفـية، والثبات النفسي والعاطفي في مواجهة استفزـازـات الناس وظلمـهمـ، كـقيـمـ العـدـلـ، والأـمـانـ، والـشـكـرـ وـقـصـرـ الأـمـلـ، والـرـحـمةـ، والـعـفـوـ، والـعـزـ، والـيـقـينـ، والـطـاعـةـ.



٥. أسلوب التسامي الأخلاقي وعدم استخدام المعاملة بالمثل:

تعوّد الناس إثارة بعضهم في حياتهم اليومية، فقد ألفوا تنوعاً في استجاباتهم، وقد تكون بعض هذه الاستجابات متماثلة بعينها، وهذه حال كثير من الناس، فالظلم يرد عليه بظلم مثله أو أقسى، ومن خون غيره خونوه، بل وزادوا عليه بافتراءاتهم، ومن كذب الناس ردوا عليه بغضب تتفاوت قوته باختلاف الأفراد، بل أن بعضهم تنحط استجاباتهم بأسوأ من قوة الإثارة الانفعالية، وهذه الاستجابات شائعة على مدار زمان في سلوكات الكثير من الناس.

أمّا أئمة أهل البيت ﷺ فلا تحظى ردود أفعال الناس، بخاصة المخططة منها، بالرضا، وقد نهت وصيّة الإمام محمد الباقر ع عن معاملة الغير بنفس أفعالهم، بل كانت دعوته محاولة للتفكير فيما قيل للفرد، هل هي صحيحة فتستوجب التعديل، وإن كانت كذباً وتلفيقاً فجزاؤه الثواب الإلهي كما وعد الإمام الباقر ع، فجميع استجابات الناس مع بعضهم إمّا لكونها محرّمة أو أنها لا تحمل تدنياً أخلاقياً، أو خالية من الدوافع والبواعث النظيفة التي تشجع على تجاوز ما هو «سيء» بردود فعل أفضل وأسمى أخلاقياً وإنسانياً، ودينياً.

ولقد نهى الإمام الباقر ع عن كل أشكال الاستجابات التي لا تسمو بسلوك الإنسان وتعلي من قدره الشخصي كما في استجابات الحمقى، ومررنا مراراً بموقف التوجيه الإرشادي للإمام الباقر ع لصاحبـه جابر الجعفي، ومطالبه بكشف سلوكه عن الاستجابات وردود الفعل المماثلة مع ذوي المظلوم، والاهانات المحرّقة لرغبة من الإمام الباقر ع في تعديل سلوك هؤلاء المحرقين، ومعاملتهم بسلوك أمثل بغرض تعديل سلوكـهم بما يتفق والنظرـة التربوية والأخلاقـية والعباديـة للمشـروع الإسلامي، وكـي لا يتـعود المؤمنـ على استـجابـاتـ الحـمقـيـ وأـفـاعـلـهمـ، وردـودـ أـفـاعـلـهمـ السـيـئـةـ، فيـاخـلـهـ القـلقـ،



وعلل السلوك، والاضطرابات ومشاعر الحطة ودناءة الذات، والنظر للناس باستعلاء واستكبار.

كما أن غاية موقف الإمام الباقر تربوية في المقام الأول، وتستهدف أن يشعر ذورو السلوك الأحق بمساوي ما فعلوه، وأن يتحسسو بعض الخجل في أنفسهم، ويتعلموا درساً في السلوك الخلقي الأمثل، ويدربوا أنفسهم على معالجة رذائلهم بفضائل الخير، وهي أكثر سمواً، وبتحقيق راحة للنفس، وبنحو أقدر على الترويح عن الإنسان واجماع قلبه، وهذا بالتأكيد ما شددت عليه الوصية، وإن لم تذكر ذلك بالفاظ مباشرة، ولكن لكونها ما قيل في الإنسان بإمكانية حالي (سقوط الفرد من عين الله، وأعين الناس) تفيد بالتفكير والتأمل والتعلم التربوي المستمر بعد معرفة الفرد نتائج عمله.

مصادر الكتاب ومراجعه

١. كتاب الإمام الباقي، بدون ذكر لاسم المؤلف، دراسة أعدتها دار التوحيد للتأليف، العدد السابع من سلسلة (أهل البيت ﷺ)، دولة الكويت، الصفا، الطبعة الثانية، سنة الطبع (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م).
٢. نور الأبصار في مواليد الأئمة الأطهار، تأليف جمع من العلماء. ولادة الإمام الباقي، السيد محمد حسين الطالقاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ونشرات مكتبة العلوم العامة، المنامة، البحرين، الطبعة الثانية، سنة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).
٣. الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، علي بن محمد بن أحمد ابن الصباغ، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة الطباعة (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م).
٤. تذكرة الخواص، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن فرغلي بن عبد الله البغدادي (سبط بن الجوزي)، مؤسسة أهل البيت ﷺ، بيروت، لبنان، طبعة سنة (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).
٥. كشف الغمة في معرفة الأئمة، العلامة المحقق أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، لبنان، طبعة سنة (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).
٦. ذخائر العقبى في مناقب ذوى القربى، تأليف العلامه الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله الطبرى، مؤسسة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة سنة (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).
٧. كتاب تاريخ العقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح العقوبي



- البغدادي، تعلیق وتحقيق خلیل المنصور، مؤسسة العطّار الثقافية، النجف، العراق، الطبعة الأولى، سنة الطبع، (١٣٧٨ ش - ١٤٢٩ هـ).
٨. تحف العقول عن آل الرسول، الشيخ أبو محمد (الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الخامسة، سنة الطبع (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م).
٩. كلمة الإمام الباقر، المجلد الأول، والثاني، موسوعة الكلمة، تأليف: السيد حسن الشيرازي، من إصدارات هيئة محمد الأمين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطبع (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).
١٠. الإمام الباقر: السيد مهدي آية الله، ترجمة: كمال السَّيِّد، العدد السابع من سلسلة (المعصومين)، مؤسسة أنصاريان، مدينة قم، إيران، بدون تاريخ.
١١. درر البحار في سيرة النبي وآل الأطهار، كمال السَّيِّد، (عباس حسن الموسوي)، الناشر مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، طبعة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
١٢. كتاب الوفيات، الشيخ حسين بن محمد آل عصفور الدراري البحرياني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).
١٣. الأئمة الاثنا عشر أو الشذرات الذهبية، شمس الدين محمد بن طولون، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، طبعة عام (١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م).
١٤. حياة الإمام الباقر، للعلامة باقر شريف القرشي.
١٥. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، محيي الدين محمد بن يعقوب، مراجعة أنس محمد الشامي، وذكرية جابر أحمد، دار الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة الطباعة (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م).
١٦. معجم (لسان العرب)، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم ابن

- علي، طبعة دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، بدون تاريخ.
١٧. مختار الصحاح، الرازي، الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، طبعة مدققة، اخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة عام ١٩٨٦ م.
١٨. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، تحقيق ومراجعة محمد محمد ثامر، وأنس الشامي، وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، سنة الطبع (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م).
١٩. كتاب، (مجموعة وفيات الأئمة)، مراجع من العلماء الأعلام، طبعة جديدة ومنقحة ومصححة، الناشر: انتشارات الشريف الرضي، مدينة قم، إيران، الطبعة الأولى، سنة الطبع (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م).
٢٠. كتاب، دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).
٢١. كتاب إسعاف الراغبين، محمد بن الصبان، طبعة قديمة.
٢٢. كتاب الوفيات، أبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب، نسخة إلكترونية مكتوبة.
٢٣. الهدایة الکبری، أبو عبد الله الحسین بن حمدان الخصیبی، مؤسسة البلاع للطباعة والنشر والتوزیع، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، سنة الطبع (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م).
٢٤. كتاب (غیر الحكم، ودرر الكلم)، التميمي، عبد الواحد الآمدي، منشورات الأعلمی للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).
٢٥. الارشاد التربوي والنفسي في المؤسسات التعليمية، الحريري، رافدة، وسمير الإمامي، دار المسيرة للنشر والتَّوزيع والطباعة، عُمان، الأردن، الطبعة الأولى، سنة الطباعة (٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ).



المحتويات

٧	كلمات خالدة
٩	الإهداء
١١	مقدمة الكتاب
٢٣	الحلقة الأولى (الإمام أبو جعفر الباقر <small>عليه السلام</small> ، شخصيته، حياته، ومكانته العلمية)
٢٤	رواية الأولى: اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ).
٢٥	رواية الثانية: رواية الطبرى في دلائل الإمامة.
٢٦	رواية الثالثة: قول أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٢ هـ).
٢٨	رواية الرابعة: قول ابن الصبّاغ المالكي (ت ٨٥٥ هـ).
٢٨	والرواية الخامسة: مع ابن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣ هـ).
٣٠	الرواية السادسة: الشيخ حسين العلامة البحري (ت ١٢١٦ هـ).
٣١	تسميتها المشهورة بالباقر
٣١	البَقْرُ بمعناه اللغوي.
٣٣	البقر بمعناه الاصطلاحي.
٣٩	منزلته ومكانته العلمية بين المسلمين
٣٩	أولاًً: البشارة النبوية بولادة الباقر ومستقبل مكانته.
٤٢	ثانياًً: نمو قدراته الذاتية التي حددت مكانته.



٤٣	ثالثاً: تصريحات علماء المسلمين بمكانة الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> .
٤٥	وفاة أبي جعفر الإمام محمد بن علي <small>عليه السلام</small> .
الحلقة الثانية (مقدمات أولى في دراسة الوصية كوثيقة إرشادية)	
٥٣	مدخل الحلقة
٥٥	نص الوصية
٥٩	وصف عام ومجمل للنص وفرصة دراسته
٦١	تاريخ النص
٦٣	الإثارات الذهنية الرئيسية في نص الوصية أو موضوعاتها الأساسية
٦٥	مسوّغات وضع نص الوصية في مدخل الدراسة
٦٦	النظرة العلمية للنص
٦٨	مفهوم الوصية الإرشادية
٧٠	مصادر وصية الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> لجابر الجعفي
٧١	أهداف دراسة وصية الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> .
٧٣	مصادر توجيه الإنسان وضبط حركته في النص
٧٥	مسوّغات دراسة وصية الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> لجابر بن يزيد الجعفي.
٧٦	كيفية دراسة الوصية
٧٨	الدراسات السابقة
٧٩	عوائق الدراسة
الحلقة الثالثة مدخل للعملية الإرشادية في وصية الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> لجابر الجعفي	
٨٥	مقدمة
٨٦	المفهوم اللغوي للإرشاد



- ٩٠ المفهوم الاصطلاحي للإرشاد
- ٩٩ أهداف العملية الإرشادية
- ١٠١ مصادر الاسترشاد وينابيعه الأساسية
- ١٠٤ مهارات الطرفين (المرشد والمسترشد) في العملية الإرشادية
- ١٠٦ مكونات العملية الإرشادية
- ١١٠ المحادثة كأسلوب عام للعملية الإرشادية في نص الوصيّة
- ١١٢ جوانب المنهج الإرشادي (الوقائي والعلاجي والإئمائي).
- ١٢٠ أدوات ومصادر جمع المعلومات عن مشكلات الذات
- الحلقة الرابعة السلوك الإنساني في وصيّة الإمام الباقر ﷺ مفهومه ...
- ١٣١ المكونات الأساسية للشخصية الإنسانية
- ١٣٦ مفاهيم أولية في مدخل البحث.
- ١٣٧ مفهوم عام للسلوك.
- ١٣٨ تحديد معنى (المبادئ) ومفهومه العام.
- ١٤٠ مكونات السلوك وعناصره.
- ١٤١ أولاً: المثير والاستجابة.
- ١٤٥ انموذج تطبيقي لمجموعة من مثيرات السلوك الإرشادي واستجاباته:
- ١٥١ ثانياً: الهدف المراد تحقيقه.
- ١٥٤ ثالثاً: النية الإنسانية:
- ١٦٠ رابعاً: مبادئ تنظيم السلوك:
- ١٦١ أولاً: خصائص مبادئ تنظيم السلوك في نص وصيّة الإمام الباقر.



الحلقة الخامسة الانفعالات النفسية مفهومها، وشروط حدوثها...

- | | |
|--|--|
| ١٧١ | المقدمة |
| ١٧٣ | النصوص الانفعالية في وصيَّة الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> |
| ١٧٧ | تحديد مفهوم الانفعال |
| ١٧٨ | شروط حدوث السلوك الانفعالي |
| ١٨٠ | تأملات علميَّة في نص الوصيَّة |
| ١٨١ | أولاً: ألفاظ انفعالية (مفردات ومصطلحات انفعالية). |
| ١٨٢ | ثانياً: قائمة السلوك الانفعالي وأنواعه. |
| ١٨٣ | ثالثاً: ربط المثيرات والاستجابات الانفعالية في مقاطع لفظية... |
| ١٨٥ | نماذج مختارة |
| ١٩٤ | رابعاً: أساليب التعبير عن الحالات الانفعالية في النص ... |
| ١٩٦ | خامساً: شروط توجيه الانفعالات نحو أهداف عبادية: |
| ٢٠٠ | سادساً: خصائص السلوك الانفعالي. |
| الحلقة السادسة العوامل المؤثرة في ضبط السلوك الانفعالي | |
| ٢٠٧ | مقدمة |
| ٢٠٩ | ١. العوامل الإيجابية: |
| ٢٢٣ | ٢. العوامل السلبية المؤثرة على تحقيق الاتزان الانفعالي: |
| ٢٣٠ | المفهوم اللغوي للضغط. |
| ٢٣٢ | الضغوط والتحديات في نص وصيَّة الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> . |
| ٢٣٥ | تحقيق الاتزان النفسي والانفعالي في نص الوصيَّة الإرشادية: |



الحلقة السابعة الحاجات والقيم الإنسانية في وصيَّة الإمام الباقر

٢٤٥	مقدمة
٢٤٧	أولاً: الحاجات الإنسانية:
٢٥٧	ثانياً: الحاجات النفسية - الاجتماعية:
٢٦٤	أساليب ضبط الإشباع:
٢٦٦	القوى الضابطة للإشباع في مفردات الوصيَّة:

الحلقة الثامنة مبادئ الإرشاد النفسي والأخلاقي في وصيَّة الإمام الباقر

٢٨٣	مقدمة
-----	-------

الحلقة التاسعة المشكلات السلوكية والحالات المرضية في وصيَّة الإمام الباقر

٣٢٧	مقدمة
٣٤٠	خطوات رصد المشكلات وعلاجها:
٣٤١	العوامل المؤثرة في المشكلات السلوكية وحالاتها المرضية (سلباً وإيجاباً):

الحلقة العاشرة الأساليب الإرشادية - العلاجية في وصيَّة الإمام الباقر

٣٥٩	مقدمة
٣٦٠	أولاً: الأساليب العلاجية ذات الطبيعة العقلية والإدراكية والمعرفية.
٣٧٩	ثانياً: أساليب العلاج الإرشادي ذات الطابع الروحي - الأخلاقي:
٣٩٣	مصادر الكتاب ومراجعه

